

# التفسير الموضوعي

## لسورة القرآن العظيم

تأليف

عبدحميد محمود طه

المجلد الثالث:

ويحتوي على تفسير هذه السور

الأعراف - الأنفال - التوبة - يونس

دار القام

دمشق



# التفسير الموضي

لِسُورِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ

أسَّسَهَا:  
مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ  
سنة ١٢٨٧هـ - ١٩٦٧م

دار القلم  
دمشق

الطبعة الثانية  
١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م

حقوق الطبع محفوظة

تطلب جميع كتبنا من:

دار القلم - دمشق

هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٢٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣

[www.alkalam-sy.com](http://www.alkalam-sy.com)

الدار الشامية - بيروت

هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١)

ص.ب: ١١٣/٦٥٠١

توزع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:

دار البشير - جدة

٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٥٧٦٢١ فاكس: ٦٦٠٨٩٠٤

ISBN 978-9933-29-024-5



9 789933 290245

## تفسير سورة الأعراف

أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات في سورة الأعراف



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمَةُ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإن للتاريخ تأثيراً كبيراً على حياة الإنسان ومستقبله، ومع أن أحداثه مضت، إلا أنها تبقي بصماتها وآثارها واضحة على سلوكه وممارساته، وتساهم بشكل غير مباشر في تحريك أحداث الحياة البشرية، ودفع مسيرة الوجود الإنساني على الأرض.

ولقد اهتم القرآن الكريم بأحداث التاريخ، وفسح لها مساحة كبيرة فيه، وتخيّر منها الجانب المؤثر المنسجم مع الموضوعات التي يعالجها.

ولئن كانت دراسة التاريخ، وبيان الأسباب المحركة لحوادثه، من العلوم المتأخرة التي عرفها الناس، فلقد سبق القرآن الكريم إلى هذا العلم، فلم يكتف بعرض الوقائع التاريخية كما حدثت، وكما فعل قدماء المؤرخين وكتاب التاريخ، بل عرض الحدث التاريخي من خلال الأسباب الكامنة وراءه، ومن خلال النواميس الكونية الكبرى التي أبدعها الخالق العظيم لهذا الكون.

وسورة الأعراف هي أكثر طوال السور استشهاداً بأحداث التاريخ، تاريخ

الجماعات والأمم والحضارات، وسبب كثرة استشهادها بأحداث التاريخ؛ يتصل بموضوعها الأساس، الذي أرى أن آيات السورة ركّزت عليه، ودارت في محوره، إنه أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، وهو من أهم الموضوعات التي يجب على الناس أفراداً وجماعات دراستها والعناية بها؛ لصلتها الكبيرة بحاضرهم ومستقبلهم، واستمرار وجودهم الحضاري والمدني.

وقد جاء تفسير هذه السورة - بحمد الله وتوفيقه - في ثمانية فصول متتابعة بحسب تسلسل آياتها:

- الفصل الأول: التكليف الجماعي والمسؤولية الفردية يوم القيامة.
  - الفصل الثاني: قصة الوجود البشري الأول وصراعه المستمر مع الشيطان.
  - الفصل الثالث: النداءات الإلهية الأربعة لبني آدم، وما فيها من تقرير وتحذير.
  - الفصل الرابع: بيان أن الخلق والأمر لله تعالى وحده، واختلاف الاستعداد والقابلية عند الناس.
  - الفصل الخامس: صفحات من التاريخ.
  - الفصل السادس: موسى وفرعون وبنو إسرائيل.
  - الفصل السابع: بنو إسرائيل بعد الخروج من مصر.
  - الفصل الثامن: العودة إلى مسرح الأحداث في مكة المكرمة.
- والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوفّقني للحق والصواب، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه وسلم.





## تمهيد

### موضوع السورة

تعدُّ سورة الأعراف من السور المكية ؛ لأنَّ أكثر آياتها نزلت قبل الهجرة، كما أنها في موضوعها تتفق مع موضوعات العقيدة الإسلامية، التي اهتمَّ القرآن المكي ببيانها.

وقد احتلت القصص التاريخية أكبر مساحة فيها، وتناولت هذه القصص عرض جانب من حركة تاريخ الوجود البشري على الأرض، واهتمت بتاريخ الأمم والمجتمعات والحضارات، واختارت أقوى المجتمعات البشرية من عصور متعددة متوالية، وكأنها أرادت أن ترسم خطأً بيانياً لحركة التاريخ البشري على الأرض، وأبرزت من خلال ذلك السبب الرئيس المحرِّك لأحداث التاريخ البشري، ألا وهو المواجهة بين الخير والشر، الخير المتمثِّل بدعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام من جانب، والشر المتمثِّل بالشیطان وأتباعه من جانب آخر.

كما أبرزت السورة من خلال المقدمات والتعقيبات (وذلك عندما تتوقف عن سرد الأحداث) بعض النواميس الإلهية الكونية التي تحكم بتقدير الله تعالى حركة استمرار الموجودات كلها، وأظهرت أيضاً النواميس التي تضبط بتقدير الله تعالى حركة وتاريخ الوجود البشري على الأرض، والأسباب الرئيسة الكبرى لهلاك الأمم وسقوط الحضارات، وبيَّنت في مقابل هذه الأسباب الصفات المثالية للأمة التي هي جديرة ومؤهلة لبناء الحضارة الإنسانية الحققة، حضارة الإيمان والعدل والسلام.

ومع أنَّ سورة الأعراف من أطول السور القرآنية، فإنَّ وحدتها الموضوعية

تبرز بوضوح لكل من يتدبر معاني آياتها، فأياتها متكاملة فيما بينها، يفسر بعضها بعضاً، ويكمل بعضها بعضاً، وقد تعمّدتُ أن أظهر للقارئ هذا الجانب بكثرة استشهادي في تفسير آيات السورة من السورة نفسها، كما سيرى القارئ هذا واضحاً في أول تفسيرها وآخره إن شاء الله تعالى، مما يدلُّ على شدة الانسجام والاتساق بين آيات السورة حول موضوعها الأساس، وهو بيان الأسباب الرئيسة الكبرى لهلاك الأمم وسقوط الحضارات، التي يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

- ١ - الانحراف عن أصل الفطرة في الاعتقاد، والإعراض عن دين الله تعالى وأحكام شريعته.
- ٢ - الانحراف عن سنن الفطرة والشذوذ في العلاقات الجنسية.
- ٣ - الاغترار بالقوة والتكبر والطغيان والعدوان.
- ٤ - الطمع والجشع، وسلب حقوق الناس.
- ٥ - الاستبداد، وتحكُّم الفئدة الفاسدة في السلطة والحكم، وممالة العامة لهم، والركون إليهم.
- ٦ - تحجُّر المشاعر، وتبلُّد المدارك، بسبب السرف والترف والانهماك بشهوات الحياة الأرضية المادية.
- ٧ - الانسلاخ عن الشعور بالمسؤولية وإنكار يوم الحساب والجزاء.







## الْفُضَيْلُ الْإِقْوَانُ

### التَّكْلِيفُ الْجَمَاعِيُّ

#### وَالْمَسْئُولِيَّةُ الْفَرْدِيَّةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ الْمَصَّ كَيْتُبُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَاسِرٌ مِنْهُ لِئَنْدِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ  
 ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ  
 أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَا بَيْتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا  
 كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْتَكَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعَلْمٍ وَمَا  
 كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ  
 خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَتَّيْبِنُنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي  
 الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعْلِشٌ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قَلْنَا  
 لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ .

● الله أعلم بمراده وأسرار كتابه:

﴿١﴾ الْمَصَّ .

بدأ الله تعالى سورة الأعراف بهذه الآية الكريمة المؤلفة من الحروف الأربعة؛ وهي: ألف، لام، ميم، صاد، وهي ثالث سورة في المصحف بدأت بالحروف، فسورتا البقرة وآل عمران بدأتا بـ ﴿المر﴾ وبدأت الأعراف بها أيضاً

مع زيادة حرف (صاد)، وثمة سورة في المصحف بدئت بحرف (صاد) وسميت به .

ولا تزال معاني هذه الأحرف في أوائل بعض السور القرآنية من أسرار الكتاب العزيز، وللعلماء أقوال كثيرة في معانيها على سبيل الاحتمال، ولا يستطيع أحد أن يجرم ويقطع بأن ما ذهب إليه هو المعنى المراد منها، يبقى القول: (الله أعلم بمراده وأسرار كتابه) أحوط وأسلم، ويتفق مع قوله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

ولا بد أن يكون لهذه الأحرف ارتباط بموضوع السورة ومعاني آياتها، حتى يتم الاتساق والانسجام الذي تتميز به الكلمات القرآنية، والذي يظهر به وجه من وجوه إعجاز الكتاب الكريم، وهذا ما جعل ابن كثير رحمته ينتصر للرأي الذي يقول: إن هذه الحروف ذكرت بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أن ألفاظه من هذه الحروف التي يتخاطبون بها .

قال رحمته في مقدمة تفسير سورة البقرة: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف، فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة، مثل:

- ﴿آلَهُ﴾ [١] ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة].

- ﴿آلَهُ﴾ [١] اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [٢] نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران].

- ﴿الْمَصِّ﴾ [١] كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ في أول سورة الأعراف»<sup>(١)</sup>.

ولم يقتصر حديث السورة عن القرآن الكريم في أولها كما ذكر ابن كثير رحمته، وإنما جاء الحديث عنه أيضاً في ختام السورة كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا أُنزِلَتْ إِلَيْنَا آيَاتُكَ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٧/١.

## • تسكين وتثبيت:

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذَكَرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢)

﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي: هذا كتاب أنزل إليك يا محمد - ﷺ - من الله تعالى .

﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ أي: فلا يكن في صدرك ضيق .

ولعل سببه شعوره ﷺ بعظم الأمانة التي حُمِّلها، وضخامة المسؤولية عنها، وخوفه أن يقصّر في أدائها والقيام بتبعاتها، فأزال الله تعالى خوفه عليه الصلاة والسلام بهذا الخطاب الكريم في أول السورة، فالله جلّ وعلا هو الذي أنزل عليك الكتاب، واختارك لِحَمْلِ رسالته، و﴿ اللهُ ﴾ سبحانه العليم الحكيم ﴿أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والمعونة من الله تعالى تأتي على قدر التكليف والمؤونة، وسيأتي معنا فيما قصّه الله تعالى من أخبار الأنبياء في السورة كيف نصر الله تعالى أنبياءه وأيدهم، ولطف بهم، وأعانهم على القيام بما كلفهم به .

ويلاحظ أن النهي في الآية توجّه إلى الحرج: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ولم يُوجّه إلى النبي ﷺ، مع أنه المراد بهذا النهي، وذلك لأن الشعور بالحرج في مثل هذه الأحوال أمر لا إرادي، يطرأ على الإنسان، ويتسلل إلى مشاعره دون إرادة منه، فالنبي ﷺ لم يستجلبه، ولا إرادة له فيه، ولهذا توجّه النهي إلى الحرج الذي تسلل إلى قلبه عليه الصلاة والسلام بغير إرادته .

وفائدة هذا النهي تطمين النبي ﷺ، وتسكين نفسه، وتخليّة صدره عن أيّ حرج يطرأ عليه، فيقوم ﷺ بحمل الرسالة وأداء الأمانة بقلب ثابت وصدر منشرح . ولهذا قال سبحانه بعد ذلك:

﴿ لِتُنذِرَ بِهِ ﴾ أي: لا يكن في صدرك حرج منه لكي تقدر على الإنذار به،

وهو القرآن الكريم، فإذا كنتَ منشرح الصدر ثابت القلب استطعت القيام بما كُلفتَ به من التبليغ والإنذار على أكمل الوجوه وأتمها.

والإنذار: الإعلامُ المقترنُ بالتهديد والوعيد، وهو عامٌّ لجميع المكلفين، ولهذا حُذف مفعول (تنذر) كما في قوله تعالى: ﴿بِآيَاتِ الْمَدِينَةِ ﴿١١﴾ فَرَّانِدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [المدثر].

وقدم الإنذارَ لارتباطه بدفع الحرج عن قلب النبي ﷺ، فالقيامُ بالإنذارِ أكثرُ مشقةً من القيام بالتذكير، لأنَّ الإنذار فيه المواجهة مع الكافرين والمعاندين، بينما التذكير موجّهٌ للمؤمنين، ولهذا ختم الله تعالى الآية بقوله:

﴿وَذَكَّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وفي الكتاب الذي أنزل إليك ذكرى للمؤمنين.

والذكرى: الموعظة النافعة، ولما كان المؤمنون هم المتعظين بآيات القرآن الكريم، خصَّهم سبحانه بالذكر هنا في أول السورة، وأكَّده في آخر السورة في قوله: ﴿هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ كما سيأتي معنا.

ويلاحظ في الآية أيضاً أن الإنذار أتى أولاً للجميع، ثم أتى بعده دور التذكير للمؤمنين ووعظهم بآيات القرآن الكريم، وهو ما سنراه متبعاً في أكثر آيات السورة.

#### ● التكليف الجماعي:

وقام النبي ﷺ بما كلفه سبحانه به بقلب ثابت، وصدر منشرح، فأدى الأمانة، وبلغ الرسالة على أتم الوجوه وأكملها، وأصبحت المسؤولية منوطةً بالمكلفين الذين وصلتهم الرسالة، فأتجه خطاب الآيات إليهم:

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: تمسكوا بما أنزل الله إليكم من أحكام دينه وشرعه في القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ.

فالسنة هي المصدر الأساس الثاني لدين الله وشرعه، وهي من الله تعالى: ﴿وَمَا يَطِئُ عَنِ الْهُوَيِّ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم].

وقد أمر الله تعالى باتباع السنَّة في القرآن الكريم في آيات كثيرة، منها قوله سبحانه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا﴾ خطاب للأُمم والمجتمعات البشرية، ففيه تكليف لكل الأُمم والمجتمعات البشرية بتطبيق أحكام دين الله وشرعه، ومسؤولية كل مجتمع عن هذا مسؤولية جماعية، وبقاء الجماعة البشرية واستمرار قيام حضارتها مرتبط بمدى تمسُّكها بدين الله تعالى، واتباعها لأحكام شريعته، وهلاك الجماعة البشرية وسقوط حضارتها نتيجة إغراضها عن التمسك بدين الله وشرعه، ولهذا جاء بعد التكليف الجماعي التحذير الجماعي من اتباع غير ما شرع الله تعالى:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله تعالى، فالتمسك بشريعة الله تعالى اتباع له جلَّ وعلا، والإغراض عنها إغراض عنه جلَّ وعلا، واتباع لغيره سبحانه.

﴿أَوْلِيَاءُ﴾ من شياطين الجن والإنس.

وسماهم ﴿أَوْلِيَاءُ﴾ لأن اتباعهم وطاعتهم فيما يشرعون موالاتهم لهم.

فالذين يتبعون الشرائع الوضعية المخالفة لشريعة الله تعالى يعادون الله تعالى ربهم، ويوالون واضعي هذه الشرائع والقوانين، فالأمر كبيرٌ وخطيرٌ، ويجب على المسلمين الذين بهرتهم دنيا الأُمم الكافرة وزخارفها، فهجروا شريعة دينهم، واتبعوا الشرائع الوضعية التي استحدثتها الأُمم الكافرة، يجب عليهم أن يدركوا خطورة ما أقدموا عليه، على عقائدهم وعلى مصير

مجتمعاتهم، فإنَّ ذلك أعظمُّ أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات وتفكك المجتمعات.

﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ما تتعظون إلا قليلاً.

فالآية تدلُّ على قلة المتعظين بآيات الكتاب الكريم بالنسبة للمعرضين عنه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَلْسِيقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩].

#### • الإهلاك الجماعي:

ثم أخبر سبحانه عن كثرة المجتمعات البشرية التي أهلكتها، والحضارات التي دمرها، بسبب إعراضهم عن اتباع ما شرع لهم، وتكذيبهم لرسولهم، فقال:

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَابٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾.

﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: وكم من بلد أو مدينة أهلكتها بمن فيها.

و(كم) للتكثير، والمعنى: ما أكثر المدن التي دمرها الله تعالى، بسبب ظلم أهلها، باتباعهم أولياء دون الله تعالى، شرعوا لهم شرائع تخالف شريعته سبحانه.

وحديث الآية عن الإهلاك الجماعي للمدن يؤكِّد أنَّ المسؤولية في الدنيا عن تطبيق شريعة الله مسؤولية جماعية، وأنَّ التكليف بتطبيق شرع الله في الأمم والمجتمعات تكليف جماعي، ولهذا كان العقاب الدنيوي عن الإعراض عن شريعة الله جماعياً عاماً شاملاً كل من رضي بالعيش مع هذا المجتمع الظالم، قال تعالى: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعْتَلَةٍ وَقَصْرِ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقَرْيَةَ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾

[هود: ١١٧].

﴿فَجَاءَهَا بِأَسْنَابٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي: جاءها عذابُ الله ليلاً، أو نهاراً في

القبيلة والراحة.

فالعذاب يأتيهم على حين غفلة منهم، دون أن تسبقه أمانة تدل على اقترابه، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل].

ونزول الهلاك والعذاب في وقت الدعة والراحة والغفلة على غير توقع، يجعله أكثر ألماً، وأعظم وقعاً وأثراً.

#### • اعتراف متأخر:

ففي الآية تحذير من الاغترار بأسباب الأمن والراحة، فمهما كانت المجتمعات الظالمة قوية و متمكنة، فلا وقاية لها من عذاب الله تعالى وانتقامه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ بَطَرَتْ مَعِيْشَتَهَا فَلَئِكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيْلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِيْنَ﴾ [القصص: ٥٨].

ووصف سبحانه حالهم عند نزول الهلاك بهم فقال:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَانَهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِيْنَ ﴿٥٨﴾﴾

اعترفوا بذنوبهم، وأنهم يستحقون ما أنزل الله تعالى بهم. ولكن اعترافهم هذا جاء متأخراً، فلا ينفعهم، ولا يدفع عنهم العذاب الذي نزل بهم، فهو كإيمان اليائس، لا يتنفع به صاحبه، ولهذا لم ينتفع فرعون بإيمانه بعد أن يئس من الحياة، وأحاطت به أسباب الهلاك: ﴿وَجَوْرَانَا بِنِي إِسْرَائِيْلَ الْبَحْرَ فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيْلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِيْنَ﴾ [يونس] (١).

وقال سبحانه أيضاً: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيْبَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخِرِيْنَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنًا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ

(١) انظر: تفسير سورة يونس في هذا التفسير الكامل للقرآن الكريم، تحت عنوان: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَوْمَلْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ ﴿١٥﴾ [الأنبياء].

فالإقامة الطَّوعِيَّةُ في المجتمعات الكافرة خطرٌ على دين الإنسان المسلم، كما هي خطرٌ على مصيره، يظلم المسلم بها نفسه، فيعرضها للهلاك الذي قدره سبحانه لهذه المجتمعات الفاجرة الظالمة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِبِينَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ [النساء].

وفي الحديث الصحيح: «إذا أراد الله بقوم عذاباً أصاب العذاب مَنْ كان فيهم، ثم بُعِثُوا على أعمالهم» [رواه مسلم (٢٨٧٩)].

#### • المسؤولية الشخصية:

إنَّ التَّكْلِيفَ الجماعي بتطبيق شريعة الله، والتزام منهج دينه، يستتبع المسؤولية الجماعية كما مرَّ معنا، وهي التي يترتب عليها في حال الإعراض عن شريعة الله تعالى الإهلاك الجماعي، وهذا في الدنيا فقط كما في الحديث السابق. أمَّا في الآخرة فالمسؤولية فردية شخصية، فكلُّ إنسانٍ يُسأل عن عمله فقط، ويحاسبُ عما صدر عنه، قال سبحانه يؤكد هذه المسؤولية:

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾

﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ عن الرسالة التي أرسلها الله تعالى إليهم بوساطة الأنبياء والمرسلين، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وإثباتُ السؤالِ هنا لا يتعارض مع قوله سبحانه: ﴿فَيَوْمَذِي لَا يَنْتَعِلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] فمعناه: لا يحاسب غيره عنه، كما في قوله جلَّ



وعلا: ﴿وَلَا تُزْرُ وَازِرَةٌ وَّرَدَّ أُخْرَىٰ﴾ الآية [الإسراء: ١٥]، أو لعلّ هذا في بعض أحوال يوم القيامة، فهو يوم طويل ومواقفه وأحواله كثيرة.

﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ أيضاً عن مدى استجابة أممهم لدعوتهم كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

وسؤال المرسلين لتوبيخ المعرضين عن رسالتهم، لا للاستعلام، فهو سبحانه علام الغيوب، لا تخفى عليه خافية.

﴿فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعَلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾

﴿فَلَنَقْصَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ على الرسل والمرسل إليهم كل ما كان منهم.

﴿بِعَلْمٍ﴾ ثابت ويقين، لا بظن وتخمين.

﴿وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ عنهم وعن أعمالهم.

ويُظهر سبحانه عدله للناس يوم القيامة بوزن أعمالهم بميزان الحق والعدل:

﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

﴿وَالْوِزَنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾ أي: وزن الأعمال والتمييز بينها يوم القيامة حق ثابت، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ أي: رجحت أعماله الصالحة وحسناته.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالعيشة الراضية في الجنة، قال تعالى:

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ﴿٦﴾ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ [القارعة].

﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا يَآيَبُنَا يَظْلُمُونَ ﴿٩﴾﴾ .

﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ لقلة حسناته، أو لعدم الاعتداد بأعمالهم بسبب كفرهم، فلا يَقْبَلُ اللهُ من الكفار أي عمل مهما كان صالحاً، وهو القائل: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

﴿فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع الفطرة السليمة التي فُطروا عليها، كما سيأتي معنا في آخر السورة عند آية الميثاق العام: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ . . .﴾ الآية [١٧٢]، أو خسروا أنفسهم لأنهم غبنوها وحرموها من ثواب الله تعالى ورحمته ورضوانه يوم القيامة.

﴿يَمَّا كَانُوا يَآيَبُنَا يَظْلُمُونَ﴾ فبدل أن يؤمنوا بآيات الله تعالى، كفروا بها، وهذا أقبح أنواع الظلم، وأكثرها شراً وفساداً.

وقوله: ﴿يَظْلُمُونَ﴾ بصيغة الحاضر الدالة على التجدد والاستمرار، يدلُّ على استمرارهم على الظلم وإصرارهم عليه<sup>(١)</sup>.

#### • الإنسان والأرض:

وبعد أن واجهت الآيات الكريمة الإنسان بهذه المواجهة الصريحة بكلِّ ما فيها من إنذار وتهديد، وبيّنت له واجبه مع أبناء مجتمعه عن تطبيق دين الله وشرعه، وما يترتب على ذلك من مسؤولية جماعية وفردية في الدنيا والآخرة، شرعت تتحدّث عن الميزات التي خصَّ الله بها الإنسان لكي يكون أهلاً لحمل هذه المسؤولية:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: جعلنا لكم القوة والسيادة في الأرض،

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢١٤/٢.

وقدرناكم على التصرف بكل ما فيها، فالإنسان سيّد المخلوقات الأرضية، وكل شيء فيها مسخر له، ومذلل لمنفعته .

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا﴾ أي: جعلنا لكم في الأرض كل ما تحتاجون إليه من أسباب الحياة والعيش، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم].

ومع كل هذه النعم:

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على نعمه وفضله.

فالأرض مسخرة للإنسان، فهي له كالمهاد والفراش، وكل ما فيها مهياً له، وليس ثمة صراع بين الإنسان والأرض، أو بينه وبين الطبيعة، كما يتصور أكثر فلاسفة الغرب وأدباؤه، حتى إنهم رأوا أي اكتشاف لبعض ما خلق الله تعالى في الأرض انتصاراً، وأي زيادة للمجالات الفسيحة المحيطة بالأرض أو في داخلها غزواً، غزو البحار، وغزو الصحراء، وغزو الفضاء... إلخ؛ وهذا التصور الخاطيء يزيد في غرور الإنسان وتكبره، وينسيه فضل الله تعالى الذي خلقه، وهداه إلى كل ما توصل إليه.

#### • مفاتيح الرزق:

إن الإنسان في تكوينه المادي ابن الأرض، أنشأه الله منها، ومكّنه فيها، وجعل له فيها كل ما يحتاج إليه من الأرزاق، وأمره أن يستطلع أسرارها، ويستثمر خيراتها: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٤].

إن هذا التصور - كما قال سيد قطب رحمته الله -: «يشجعه ويملاً قلبه ثقة وطمأنينة... لأنه يتحرك في مواجهة كونٍ صديقٍ لا يبخل عنه بأسراره، ولا يمنع

عنه خيراته، وليس في مواجهة كَوْنِ عدو يتربص به، ويعاكس اتجاهاته، ويسحق أحلامه وآماله . . إنه تصور بائس، لا بدّ أن يُنشئ حالة من الانزواء والانكماش، أو حالة من الاستهتار والتمرد والفردية، وكلتا الحالتين لا تكوّن إلا القلق المضني، والبؤس النفسي والعقلي، والشروء والتمرد . . وهي ليست مأساة الوجودية وحدها من مذاهب الفكر الأوربي، إنها مأساة الفكر الأوربي كله»<sup>(١)</sup>.

ويبدو أنّ الحالة الثانية التي توقعها ﷺ هي التي برزت أكثر في حياتهم الاجتماعية، فالأنانية والقلق والتمرد هي السمات البارزة في حياتهم.

التحدي الكبير الذي يواجه الإنسان في حياته على الأرض هو الأسباب التي أقامها جلّ وعلا بحكمته وإرادته، بين الإنسان وبين خيرات الأرض وأرزاقها، لكي يميّز سبحانه بين الكسول الخامل، والمجتهد العامل، فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى حاجاته وضروراته حياته بسهولة ويسر، لا بدّ له أن يأخذ بالأسباب التي قدّرها العليم الحكيم للوصول إلى خيرات الأرض وأرزاقها، فهي مفاتيح خزائن فضله ورحمته، فمن استفتح بعلمه وعمله وجده فتح الله تعالى له: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُولَاءِ وَهَتُولَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وهذا التحدي هو الذي بعث الإنسان إلى عمارة الأرض واستثمارها، مما أدى إلى ظهور المدنيات ونشوء الحضارات.

### • التصوير والتكريم:

ومن الميزات التي جعلت الإنسان أهلاً للمسؤولية والتكليف، بُنيت المادية الجسدية المتميزة التي تمكّنه من استثمار خيرات الأرض، والتي امتنّ الله بها على الإنسان بقوله:

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٢٦٣ بتصرف واختصار.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ .

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾ ببخلق أبيكم آدم، فهو أصل شجرة الوجود البشري، فخلقه خلقاً لجميع البشر.

﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ بإعطاء آدم صورته البشرية المميزة له عن جميع المخلوقات، والتي انتقلت منه إلى جميع البشر.

فتصوير آدم بصورته الإنسانية الكريمة، تصويرٌ لجميع أبنائه وذريته، وهذا التصوير من نعم الله تعالى الكبيرة على الإنسان، كنعمة خلقه وإيجاده، ولهذا قرن سبحانه بينهما، وذكره سبحانه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤].

ومنها قوله أيضاً: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ٤].

وقوله أيضاً: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ [الانفطار].

ويتم التصوير مع التكوين في داخل الأرحام: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦].

وجاء بعد الخلق والتصوير التكريم:

﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ سجود التكريم والاحترام لهذا المخلوق الذي سيستخلفه سبحانه في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، والذي سيشرِّفه الله تعالى بالتكليف والمسؤولية في حياته الأرضية، ويجعل له حرية واختياراً، وبتبليبه بالخير والشر.

وانقاد الملائكة لأمر الله تعالى:

﴿فَسَجَدُوا﴾ للإنسان سجود التكريم بعد أن بيّن لهم ﷻ أهلية الإنسان في

اكتساب العلوم والمعارف بأسلوب علمي، ذكره جلّ وعلا في سورة البقرة فقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَتَقَدَّمُ أُنْبِيئُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنْني أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

فتصوير الإنسان بصورته الخاصة المتميزة، وتسخير المخلوقات له، وتكريمه وتزويده بأهلية اكتساب المعارف والعلوم، كلّ ذلك مقدمة لحياة التكليف والاختبار في الأرض.

﴿إِلَّا إِلَهَ إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ مع أن الأمر الإلهي للملائكة بالسجود شمل إبليس، لأنه كان ملحقاً بهم، يعيش معهم بسبب كثرة عبادته لله تعالى.



## الْفَصْلُ الثَّانِي

قِصَّةُ الْوُجُودِ الْبَشَرِيِّ الْأَوَّلِ  
وَصِرَاعُهُ الْمُسْتَمِرُّ مَعَ الشَّيْطَانِ

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا  
فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَأَخْرَجَ فِيهَا فَأَخْرَجَ إِيَّاكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ  
الْمُنْظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآئِيَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ  
وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْءُومًا مَذْحُورًا لَمْ يَبْعَكَ مِنْهُمْ  
لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَتَادَمُّ أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ  
الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءِئِهِمَا وَقَالَ  
مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةَ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا  
لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَذَلَّهُمَا يَغْوَرُ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ  
وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ  
﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَنَا تَغْفِرٌ لَنَا وَتَرْحَمًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَهْبِطُوا  
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ  
وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾

## • الإنسان والشیطان:

وحتى يتم اختبار الإنسان ابتلي بعداوة الشيطان، فبعد تكريم آدم بسجود  
الملائكة، أظهر إبليسُ عداوته للإنسان فأبى أن يسجد ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ  
السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف: ١١] مع أن الأمر الإلهي للملائكة بالسجود شمل إبليس،

لأنه كان ملحقاً بهم، يعيش معهم بسبب كثرة عبادته لله تعالى .  
وسأله سبحانه عن سبب عصيانه لأمره - وهو سبحانه أعلم - لكي يظهر  
لآدم حقيقة إبليس، ويكشف له عداوته:

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ أي: من آدم.

ثم بين سبب ما يراه لنفسه من فضل وتقدم على آدم، فقال:

﴿خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ ، فإبليس يرى أن الفضل والتقدم يرجع إلى  
الأصل، فهو إذن مصدر النظريات التي استحدثها بعض الناس القائلة بتفوق  
بعض الأعراق البشرية والأجناس على غيرها، والتي تسببت في كثير من  
الحروب والنكبات لأبناء آدم، وآخرها الحربان العالميتان الأولى والثانية في  
النصف الأول للقرن الميلادي العشرين.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي: من ساحة الفضل والرحمة والكرامة، وهي الجنة.

﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي: فما يصح ولا يستقيم أن تتكبر في الجنة،

ولا يليق بك أن تعيش فيها، وهي دار المتقين المتواضعين.

وفي الحديث الصحيح: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبرٍ » [رواه مسلم (١٤٩)].

﴿فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ الأذلاء المهانين، والجزاء من جنس العمل.

﴿قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

أي: أمهلني ولا تمني إلي اليوم الذي يبعث فيه الناس من قبورهم وهو

يوم القيامة.



﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥)﴾ .

أي: إنك من المؤخرين، لكن لا إلى يوم القيامة كما جاء في سؤاله لينجو من الموت، فلا نجاة لنفس منه، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٥].

وقد بين سبحانه في سورة الحجر أنه أنظره إلى يوم الوقت المعلوم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦)﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) وهو الوقت الذي قدره سبحانه لموت إبليس، ويكون قبيل قيام الساعة عند النفخة الأولى التي ينتهي بها الوجود البشري في الأرض بموت جميع الناس.

فما دام الإنسان في الحياة الدنيا فهو مُبتَلًى بعداوة الشيطان له، كما قال تعالى في سورة فاطر: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥)﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُرْهُ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦)﴾ .

• قاطع الطريق:

﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لِأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦)﴾ .

﴿قَالَ﴾ الشيطان.

﴿فِيمَا آغَاوَيْتَنِي﴾ أي: بسبب ابتلائي بالسجود لآدم الذي جعلني من الغاوين الضالين.

﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾ لآدم وذريته.

﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: على صراطك المستقيم، وهو طريق عبادتك وطاعتك الذي يوصل إلى الجنة، لكي أصدهم عنه، وأجعلهم ينحرفون عنه.

فحال إبليس في هذا كحال المجرمين الذين يقطعون الطريق على

المسافرين، وقوله هذا يدلُّ على إصراره على الشر والضلال، وأنَّ الشرَّ فيه أصيل وليس عارضاً ولا وقتياً<sup>(١)</sup>.

فإبليس يسعى جاهداً لكي يجعل الناس ينحرفون عن دين الله ومنهجه وشرعه الذي أرسل رسله ليبينوه للناس، وكثيراً ما حدّرنا سبحانه من الانحراف عن هذا السبيل في آيات كثيرة، منها ما ذكره في أول هذه السورة: ﴿أَتَبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

ومنها قوله سبحانه أيضاً: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

كما علمنا سبحانه أن نسأله الهداية إلى الصراط المستقيم، والثبات عليه في كلِّ صلاة، عندما نقول خاشعين ضارعين: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

وهكذا أعلن الخبيثُ عداوته للإنسان، وألزم نفسه أن يسعى بأقصى جهده وطاقته لإضلاله وإبعاده عن طريق الحق:

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾

﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ أي: من أي جهة أستطيع منها إضلالهم.

قال إمام المفسرين محمد بن جرير الطبري رحمته الله: «معناه: ثم لآتيهم من جميع وجوه الحق والباطل، فأصدهم عن الحق، وأحسن لهم الباطل»<sup>(٢)</sup>.

﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ لفضلك وإحسانك، مطيعين لك ومنقادين لأمرك. وقول إبليس هذا جاء على سبيل الظن والتوقع، فهو لا يعلم الغيب،

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٢٦٦.

(٢) جامع البيان: ٨/١٠٢.

ولكنّه علم نقاط الضعف البشري، التي يمكنه التسلط على الإنسان بواسطتها، فيحسّن له الضلال، ويبعده عن الصراط المستقيم.

وقد جاء في الحديث الشريف: أنه ﷺ قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ ﷻ آدَمَ، تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَدَعَهُ، فَجَعَلَ إبليسَ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِ، فَلَمَّا رَأَى أَجُوفَ عَرَفَ أَنَّهُ خَلَقَ لَا يَتَمَالَكُ» [رواه أحمد (١٥٢/٣) وبنحوه في مسلم (٢٦١١)].

فالإنسان مخلوقٌ من تراب الأرض، وذو جوف يصلصلُ ويصوّتُ إذا ما نقر كالفخار، وعمره في الأرض محدود، فله إذن تعلُّقٌ قوي بشهوات الأرض، ولميوله الأرضية وشهواته الجسدية تأثيرٌ كبير عليه.

استحقَّ الخبيثُ بسبب تكبره وسوء أدبه مع الله تعالى الطردَ من منازل الملائكة في السماء أو من الجنة، كما استحق لعنة الله الملازمة له إلى يوم الدين:

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا وَمِمَّا مَدْحُورًا لَمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْمُومًا﴾ مذموماً، والذام: أشد الذم، ولم تُذكرْ هذه الكلمة في القرآن إلا في هذا الموضع، فهو ذم شديد خاص باللعين<sup>(١)</sup>.  
﴿مَدْحُورًا﴾ مبعداً مطروداً.

﴿لَمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وهو قَسَمٌ من الله تعالى أن يدخل من تبع إبليس من بني آدم جهنم، وأن يملأها بإبليس وذريته وأتباعه.  
وقد أكّد سبحانه هذا في عدة سور، فقال في سورة ص: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٨٥).

وقال أيضاً في سورة الحجر: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٤٣).

(١) انظر: غرائب القرآن و رغائب الفرقان، للنيسابوري: ٧٧/٨.

وقال أيضاً في سورة الإسراء: ﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا﴾ (١٦٣).

والمتمامل لهذه الآيات يجدها كلها ذكرت كلمة (تبع) مما يدل على أن الموالين للشيطان والسائرين وراءه لهم إرادة وكسب واختيار في اتباعهم للشيطان، وإعراضهم عن الصراط المستقيم طريق الرحمن، ولهذا فهم مسؤولون عن اختيارهم وكسبهم. كما يتضح له سرُّ تركيز الآية الكريمة في أول السورة على كلمة (تبع) في قوله جلَّ وعلا: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢٣)، وقوة الاتساق والانسجام بين آيات السورة.

#### • التجربة والدَّرْسُ:

ومن رحمة الله تعالى بالإنسان أنه قدَّر له أن يمرَّ قبل هبوطه إلى الأرض واستقراره فيها بتجربة، يتزوَّد منها بذخيرة كبيرة من العِبَر والدروس، ويظهر له من خلالها بأسلوب عملي واقعي شدة عداوة الشيطان له، وسعيه الحثيث لإضلاله، وتنغيص حياته، وتكدير معيشته.

أمر الله سبحانه آدم أن يسكنَ مع زوجته في الجنة:

﴿وَيَتَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٩).

﴿وَيَتَادَمُ أَسْكُنُ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ وأباح سبحانه لهما أن يتمتعا بكلِّ ما فيها من الأرزاق والنعيم:

﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ من غير جهد وتعب وعناء.

فالحياة في الجنة خالية من التعب والنَّصَب، ورزق الجنة غير محجوب عن أهلها بحجاب الأسباب، كما هو الحال في الأرض.

وحرَّم سبحانه عليهما الأكل من شجرة معيَّنة، بيَّنهما سبحانه لهما بقوله:

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ أي: ولا تَدْنُوا من هذه الشجرة، فمن حام حول

الحمى يوشك أن يقع فيه، وما يؤدّي إلى الحرام فهو حرام، وكان هذا التحريم ابتلاءً منه سبحانه لآدم وزوجه، لإظهار طاعتهما لأمره، أو مخالفتهما له، ويبيّن سبحانه لهما ما يترتب على المخالفة والمعصية فقال:

﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بمعصية ربهم.

وعاش آدم مع زوجه الحياة السعيدة الكريمة الميسرة الخالية عن التعب والنصب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١٧٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه]، وعزّ على الشيطان الحاقد الحاسد أن يرى الإنسان سعيداً في حياته، فنصب له حبال كيدته وأشراك مكره.

#### • ظهور السوءة:

وتمكن الخبيث بوسوسته من إغوائهما، وتزيين المعصية لهما، مع أنه خارج الجنة، مما يدل على قدرته على إلقاء الوسوسة، وإيصالها إلى الإنسان وهو بعيد عنه:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ﴾ أي: ألقى إليهما الوسوسة، وهي الصوت الخفي المتكرر<sup>(١)</sup>.

وهدفه الأول من الوسوسة أن يزيل عنهما حرمة أهل الجنة وكرامتها وسعادتها، فيتلذّخا بوحل المعصية وشؤمها وقبحها.

﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا﴾ أي: ليظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما، فعورة الإنسان سوءته، وإظهارها وكشفها يسيء إليه، وينزله عن مرتبة

(١) روح المعاني: ٩٩/٨.

كرامته التي ميّزه الله تعالى بها عن الحيوانات، والتي رفعه إليها عندما أمر الملائكة بالسجود له سجود التكريم والاحترام كما مرّ معنا.

فاللام في قوله تعالى: ﴿يُنَبِّئُ﴾ لام التعليل، وليست لام العاقبة كما رأى بعض المفسّرين، الذين رأوا أنّ الشيطان لم يقصد بوسوسته ذلك، ولم يخطر له على بال، وإنّما آل الأمر إليه<sup>(١)</sup>.

والأصل أن تكون اللام للتعليل، وما ذكره هؤلاء المفسّرون بصيغة الضعف، هو الأقوى والأظهر، والغرض الأساس للخبيث من وسوسته أن يزيل عن آدم وزوجه الحُرمة والكرامة بإظهار عوراتهما وكشف سوءاتهما، وكان لا يريانهما تكريماً لهما.

وما يفعله كثير من الناس في العصر الحاضر، من تعمّد كشف العورات، وإظهار السوءات، انتكاسٌ عن كرامة الإنسان وحرمة، وارتكاس وانحطاط إلى الحيوانية البهيمية ومزالتها.

#### • نقاط الضعف البشري:

عرف الخبيث - كما ذكرت سابقاً - نقاط الضعف البشري، فتسلل إليهما بوسوسته من خلالها:

﴿وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً﴾ أي: لكي لا تكونا مثل الملائكة في القوة والقدرة، فللملائكة من القوة ما ليس للإنسان.

والنزوع إلى القوة من الغرائز التي جُبل الإنسان عليها، ورُكزت في أصل خلقته وفطرته. وفي قراءة شاذة: (إلا أن تكونا ملكين) بكسر اللام.

وما نراه عند الأطفال من حُبِّ تملك للأشياء، والاستحواذ عليها دون الآخرين، أثر من آثار هذه الغريزة، ولا يزال الناس منذ فجر وجودهم، يجدّون وراء القوة، ويبحثون عن مصادرها، ويتصارعون حتى الموت من أجل

(١) روح المعاني: ٩٩/٨.

الاستحواذ عليها، يستوي في هذا الأفراد والجماعات، ولهذا النزوع إلى القوة والتنافس عليها أثر كبير في ظهور المدنيات ونشوء الحضارات.

لكنَّ الملائكة مجردون من نوازع الشر، ومفطورون على طاعة الله تعالى والانقياد لأمره: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، ولا تسلط للشيطان عليهم، ولا عداوة بينهم وبينه، كما هو الحال عند الإنسان، فهم مخلوقات نورانية لا ترابية ولا نارية. وأما الإنسان فبنيته المادية الترابية تشدّه إلى الأرض، رغم النفخة العلوية الروحية التي فيه، وقد ابتلي بعبادة الشيطان.

تُرى لو أُعطي الإنسان ما أُعطي المَلَكُ من القوة، ماذا يفعل بها؟ ماذا صنع الإنسان المعاصر عندما وضع يده على بعض مصادر القوة المادية بواسطة العلوم التي اكتسبها؟ يعيش الناس في العصر الحاضر تحت مظلة الرعب والخوف، المظلة التي تسمى بالتوازن الاستراتيجي بين وسائل الدمار التي تمتلكها الدول الكبيرة، إنَّ لدى كلِّ منها من وسائل التدمير ما يمكنها من تدمير الحياة البشرية في الأرض عشرات المرّات، فسبحان الله ما أحكمه وما أرحمه! والحمد لله الذي لم يُعْطِ الإنسان القوة التي أعطاها للملائكة، اللهم إنَّا نعوذُ بك من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا.

﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ وهي نقطة ثانية من نقاط الضعف البشري، وهي أيضاً خطيرة وثلمة كبيرة، فالإنسان ينزع إلى طول الحياة، يتوق إلى الخلود والبقاء، يكره الموت، ويتكدر عند ذكره، وقد عرف الشيطان هذه النقطة أو الثلمة عند الإنسان، فأتاه من خلالها: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرٍ الْخُلْدِ وَمَلِكٍ لَا يَبْلَى﴾ [طه: ١٢٠].

وتمكّن الخبيث بهذا من إيقاع الإنسان الأول في شرك خداعه ومكره، وأظهر نفسه بمظهر الناصح الأمين، وأخفى حقيقة العدو اللئيم:

## ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَنِ الْتَصْحِيحِ﴾

أي: أقسم لهما وحلف لهما، وتدل صيغة المفاعلة (قاسمهما) على أنه كرر القسم أكثر من مرة، وأنهما كانا في أول الأمر لا يثقان به، ولا ينصاعان لوسوسته، وأنه حصلت بينهما مراوغات ومحاولات بذل فيها الجهد<sup>(١)</sup>.

## • المعصية وشؤمها:

أخيراً تمكّن الخبيث من إنزالهما من مرتبة الطاعة والكرامة:

﴿فَدَلَّنَهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفَقَا يَحْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

﴿فَدَلَّنَهُمَا﴾ أي: أنزلهما عما كانا من عزّ الطاعة وشرفها ورفعتهما.

ونبه سبحانه بهذا اللفظ على أن الشيطان أهبطهما من درجة عالية إلى رتبة سافلة، فإنّ التدلية والإدلاء إرسال الشيء من الأعلى إلى الأسفل<sup>(٢)</sup>.

﴿بِغُرُورٍ﴾ أي: وهما متلبّسان بخداعه ومكره، فما زال يزيّن لهما المعصية، حتى أثار شهوتهما إلى المحذور، فغلب عليهما، وأنساهما نهي الله تعالى وتحريمه الأكل من الشجرة، فما أقدموا على المعصية تصديقاً للشيطان، وإنما أكلا منها بسبب ضعفهما أمام الشهوة التي أثارها الخبيث فيهما.

قال الألوسي رحمته الله: «وذهب كثير من المحققين إلى أن التصديق لم يوجد منهما لا قطعاً ولا ظناً، وإنما أقدموا على المنهي عنه لغلبة الشهوة، كما نجد من أنفسنا أن نقدم على الفعل إذا زين لنا الغير ما نشتهي، وإن لم نعتقد أن الأمر كما قال<sup>(٣)</sup>. ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ [طه: ١١٥].»

(١) انظر: نظم الدرر: ٣٧٣/٧.

(٢) تفسير البيضاوي: ٥٣٤/٢.

(٣) روح المعاني: ١٠٠/٨.



وما إن أكلا منها شيئاً يسيراً حتى أصابهما شؤم المعصية:

﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾ نُزِعَ عَنْهُمَا لِبَاسُ الْجَنَّةِ، وَسَيِّمَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، وَرَأَى كُلُّهُمَا عَوْرَةَ الْآخَرِ، وَفُوجِئَا بِمَا طَرَأَ عَلَيْهِمَا مِنْ تَغْيِيرٍ وَتَبَدُّلٍ، وَأَدْرَكَمَا فَوْرًا جَنَاتِيَهُمَا وَمَعْصِيَتَهُمَا، وَغَلَبَ عَلَيْهِمَا الْحَيَاءُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى.

وأخذا يبغثان عن شيء يستر سوءاتهما، فلم يجدا غير ورق شجر الجنة:

﴿وَطَوَّفَا بِهَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ أَي: شَرَعَا يَجْمَعَانِ وَرَقَ الْجَنَّةِ، وَرَقَةً فَوْقَ وَرَقَةٍ، لِكَيْ يَسْتِرَا بِهِ عَوْرَتَيْهِمَا. وَأَتَاهُمَا النَّدَاءُ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى مَعَاتِبًا مَوْبِخًا:

﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ فَهُمَا عَتَابَانِ وَتَوْبِيخَانِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، الْأَوَّلُ عَلَى فِعْلِ الْمَعْصِيَةِ، وَالثَّانِي عَلَى الْإِغْتِرَارِ بِوَسْوَسَةِ الشَّيْطَانِ؛ مَعَ أَنَّهُ عَدُوٌّ ظَاهِرُ الْعَدَاوَةِ لِلْإِنْسَانِ، وَقَدْ حَذَّرَهُمَا سَبْحَانَهُ مِنْ مَكْرِهِ وَكَيْدِهِ: ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِجْلِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ [طه: ١١٩].

#### • التوبة والمغفرة:

فأقرباً بالمعصية، وسألاً الله تعالى الرحمة والمغفرة:

﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّنَا تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ بَارْتِكَابِ الْمَعْصِيَةِ، فَشَوْمِ الْمَعْصِيَةِ وَوِبَالِهَا يَعُودُ عَلَى أَنْفُسِنَا.

﴿وَإِن لَّنَا تَغْفِرَ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾ بِفَضْلِكَ وَعَفْوِكَ وَإِحْسَانِكَ.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الْهَالِكِينَ، فَلَا غِنَى لِلْإِنْسَانِ عَنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ وَفَضْلِهِ، وَمِنْ دُونِهَا يَكُونُ مَصِيرُهُ الْخُسْرَانَ وَالْهَلَكَ.

وغفر سبحانه لهما، وعفا عنهما، وهو سبحانه الذي أوحى لآدم بكلمات التوبة والاستغفار: ﴿فَنَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

ومن رحمته سبحانه بالإنسان أنه فتح له باب التوبة منذ فجر وجوده، فإذا

نسي ثم تذكّر، وإذا عثر ثم نهض، وإذا غوى ثم تاب: وجد باب التوبة مفتوحاً له، ولم يجعل خطيئته الأولى لعنة مكتوبة عليه وعلى ذريته من بعده، كما تزعم أسطورة الخطيئة التي جعلتها الكنيسة النصرانية أساساً من أسس عقيدتها، فالخطيئة في زعمهم ظلت تلازم البشرية حتى تمثل الإله في صورة المسيح فُصِّل، واحتمل العذاب للتكفير عن هذه الخطيئة الموروثة، ومن ثمّ يكتب الغفران لكلّ نصراني يتّحد بالمسيح، بواسطة بعض الطقوس التي يجريها في الكنيسة أمام بعض رجال الدين.

إنّ الأمر في التصور الإسلامي أيسر من هذا بكثير - كما قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ - لقد نسي آدم وأخطأ، ولقد تاب واستغفر، ولقد قَبِلَ اللهُ توبته وغفر له، وانتهى أمر تلك الخطيئة الأولى، ولم يبقَ منها إلا رصيد التجربة، الذي يُعين الجنس البشري في صراعه طويل المدى مع الشيطان، أي بساطة، وأي وضوح، وأي يسر في هذه العقيدة<sup>(١)</sup>!.

#### • الهبوط إلى الأرض والصراع:

انتهت بهذه النتيجة التجربة وما فيها من دروس وعبر، وأمر الله تعالى الإنسان أن يهبط إلى الأرض التي خُلِقَ ابتداءً منها ليستخلفه سبحانه فيها:

﴿قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾

﴿قَالَ أَهْبِطُوا﴾ والخطاب لآدم وحواء وإبليس، وكرر أمر الهبوط في حقه ليبين أنه قرين الإنسان، وأنه ابتلي به في جميع أحواله. أو الخطاب لآدم وحواء، وخطوباً بصيغة الجمع لأنهما أصل العنصر البشري كلّه<sup>(٢)</sup>.

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فبين الإنسان والشيطانِ عداوةً وصراعاً منذ فجر وجوده، وبين الناس أيضاً صراع هو السبب الرئيس الأول لحركة تاريخ البشرية

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٣/١٢٧٤.

(٢) تفسير النسفي: ١/١٠٣.

بتقدير الله تعالى، ولولا هذا الصراع لكانت حياة الإنسان في الأرض ساكنة هامة، لا حِسَّ فيها ولا حركة.

إنَّ جميعَ أحداث التاريخ البشري نابعةٌ من هذا الصراع القائم على الأرض بين الخير والشر، فهو محركها وباعث نشاطها.

إنَّ تفسير القرآن الكريم لأحداث تاريخ البشرية، يلتقي مع ما ذكره فلاسفة التاريخ من علماء الغرب، عندما ردُّوا حركة التاريخ البشري إلى الصراع، ولكنه يخالفهم في حقيقة هذا الصراع وأبعاده ومداه، فهو ليس صراعاً بين الطبقات على الموارد المادية ووسائل الإنتاج كما زعم أنجلز وماركس، يؤدِّي في النهاية بزعمهم إلى الحتمية التاريخية، بانتصار طبقة العمال (البروليتارية).

لقد أظهر الواقع أنَّ هذه الحتمية التاريخية وهمٌّ وسرابٌ، وقد انهارت الشيوعية في أكبر معاقلها، وتراجعت عن الكثير من مبادئها، وأعلنت فشلها وإفلاسها.

إنَّ الصراعَ الذي يحرك أحداث التاريخ هو الصراع بين الخير والشر، الخير المتمثل في دين الله تعالى وشرعه المنزل على الناس بواسطة الأنبياء والمرسلين، وبين الشر المتمثل بالشیطان وأوليائه من الجن والإنس كما قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿البقرة﴾.

#### • الاستقرار في الأرض:

﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: موضع استقرار لحياتكم ومعاشكم.  
﴿وَمَتْنٌ﴾ وانتفاع بما فيها من خيرات خلقت من أجلكم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشًا قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

واستقرار الإنسان في الأرض غير دائم، فهو مؤقَّت بوقت محدود، لا يزيد ولا ينقص، قدره الخالق العليم الحكيم، ولهذا قال:

﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى انتهاء الوقت الذي قدره سبحانه لكم .  
 فللأرض اتصال كبير بالإنسان، فمنها خلُق، وفيها يعيش ويموت، وهي  
 مركز صراعاته ونشاطاته الحضارية وسائر ممارساته كما قدره سبحانه:

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ (٢٥)

ذلك هو حكم الله تعالى وقدره، ولا خيار للإنسان فيه ولا حرية،  
 فالأرض هي أمه ووطنه، يستطيع الإنسان أن يرتادَ النجوم، ويطوف بمركباته في  
 الفضاء الواسع الرحيب، ولكنه لن يجدَ مستقراً في غير الأرض، ولن يجد مكاناً  
 فيه جميع أسباب حياته ومعاشه بين ملايين الكواكب والأجرام غير الأرض، كما  
 قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥].  
 وها هو الفضاء أمامكم، قربت بعضه لكم المناظيرُ الضخمة في المراصد  
 العلمية، والمركبات الصاروخية، ابحثوا فيه عن وطن آخر للإنسان، وطوفوا بين  
 أجرامه ومجراته: ﴿قُلْ أَنْظِرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية [يونس: ١٠١]،  
 واحجزوا منه ما تشاؤون، وتقاسموه كما تريدون<sup>(١)</sup>، فلن تستطيعوا الاستقرار  
 في غير الأرض.



(١) بدأت تظهر في بعض دول الغرب مؤسسات للمتاجرة بالأراضي في الكواكب  
 والنجوم!

## الْفَصْلُ الثَّلَاثُ

النِّدَاءَاتُ الْاِلَهِيَّةُ الْاَرْبَعَةُ لِبَنِي آدَمَ  
وَمَا فِيهَا مِنْ تَقْرِيرٍ وَتَحْذِيرٍ

﴿يَبْنِي آدَمَ قَدْ اَنْوَلْنَا عَلَيْكَ لِيَاسًا يُورِي سَوَاعَتِكُمْ وَرَيْشًا وَلِيَّاسَ التَّقْوَى ذَٰلِكَ حَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ  
 اَللّٰهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَبْنِي آدَمَ لَا يَفْنَدَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا اَخْرَجَ اَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا  
 لِيَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاءَ تَهُمَا اِنَّهُ يَرِنَكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ اِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ اَوْلِيَاءَ  
 لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَاِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا اَبَاءَنَا وَاللّٰهُ اَمَرَنَا بِهَا قُلْ اِنَّ اِلَهَآ لَا يَأْمُرُ  
 بِالْفَحِشَاءِ اَنْتَقُولُونَ عَلَى اَللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ اَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَاَقِيمُوا وُجُوْهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ  
 مَسْجِدٍ وَاذْعُوْهُ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُوْدُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيْقًا هَدَىٰ وَفَرِيْقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلٰلَةُ  
 اِنَّهُمْ اَتَّخَذُوا الشَّيْطَانَ اَوْلِيَاءَ مِنْ دُوْنِ اَللّٰهِ وَيَحْسَبُوْنَ اَنْهُمْ مُّهْتَدُوْنَ ﴿٣٠﴾ يَبْنِي آدَمَ خُذُوا  
 زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا اِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اَللّٰهِ  
 الَّتِيْ اَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيٰمَةِ  
 كَذٰلِكَ نَفِصَلُ الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُوْنَ ﴿٣٢﴾ قُلْ اِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوْحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْاِثْمَ  
 وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَاَنْ تُشْرِكُوْا بِاللّٰهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطٰنًا وَاَنْ تَقُولُوْا عَلَى اَللّٰهِ مَا لَا تَعْلَمُوْنَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ  
 اُمَّةٍ اَجَلٌ فَاِذَا جَاءَ اَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُوْنَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُوْنَ ﴿٣٤﴾ يَبْنِي آدَمَ اِنَّمَا يَاْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ  
 يَقُصُّوْنَ عَلَيْكُمْ ءَايٰتِيْ فَمَنْ اَتَقَىٰ وَاَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُوْنَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِءَايٰتِنَا  
 وَاَسْتَكْبَرُوْا عَنْهَا اُولٰٓئِكَ اَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيْهَا خٰلِدُوْنَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ اَظْلَمُ مِمَّنْ اَفْتَرَىٰ عَلَى اَللّٰهِ كِذْبًا اَوْ  
 كَذَّبَ بِءَايٰتِهِ اُولٰٓئِكَ يَنٰلُهُمْ نَصِيْبُهُمْ مِنَ الْكَلْبِ حَتّٰى اِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَقَّوْهُمْ قَالُوْا اَيْنَ مَا  
 كُنْتُمْ تَدْعُوْنَ مِنْ دُوْبِ اَللّٰهِ قَالُوْا ضَلُّوْا عَنَّا وَشَهِدُوْا عَلَيْنَا اَنْفُسِهِمْ اَتَّهَمُ كٰفِرِيْنَ ﴿٣٧﴾ قَالَ اَدْخُلُوْا  
 فِيْ اَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَلْبِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْاِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ اُمَّةٌ لَعْنَتْ اٰخَهَا حَتّٰى اِذَا

أَدَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ لِأَوْلِيهِمْ رَبَّنَا هَلْؤَلَاءِ أَصْلُونَا فَنَاتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ  
 لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلِيَهُمْ لِأَخْرِبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا  
 الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا نُفْتِحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ  
 وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِيجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِّن جَهَنَّمَ  
 مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ؕ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا  
 نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَزَعَمْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ  
 غَيْبٍ نَّجَّيْنَا مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ  
 جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَن تَبْلُغُوا الْجَنَّةَ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ  
 الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ قَآذِنَ مَوَدِّنًا  
 بَيْنَهُمْ أَن لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَسْعَوْنَ فِيهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾  
 وَيَبْنِيانِ حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَهُمْ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمَّا يَدْخُلُوهَا  
 وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَّا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾  
 وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾  
 أَهْتُولَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾  
 وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ  
 حَرَمُهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا  
 فَأَلْيَوْمَ نَسْتَهْمُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُوهُمْ  
 بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ  
 يَقُولُ الَّذِينَ سُئِلُوا مِن قَبْلِ قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ  
 فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

## • يا بني آدم:

وبعد حديث الآيات عن مبدأ الوجود البشري على الأرض وسماته الكبرى؛ جاء دور النداءات والتعقيبات لتسليط الأضواء على دروسه وعبره من خلال أربعة نداءات بصيغة (يا بني آدم).

والحكمة من توجيه الخطاب إلى عامة الناس بهذه الصيغة واضحة، فالعهد قريبٌ بالحديث عن خلق آدم وتصويره وتكريمه، وعن حسد الشيطان له ومكره وإغوائه، مما أدى إلى إنزاله إلى حضيض المعصية، وتجريده من ثياب أهل الجنة، وظهور سوءته، ثم إعلان توبته، وقبولها بفضل الله تعالى ورحمته، وهبوطه إلى الأرض لتكون له مستقراً ومتاعاً إلى حين. فكل هذه الدروس والمواعظ ليست لآدم وحده، وإنما هي لجميع أبنائه، إنها للإنسان في كلِّ زمان ومكان.

## • اللباس والزينة:

﴿يَبۡنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ اَنۡزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا يُورِي سَوۡءَ تِكۡم وَرِيۡشًا وَّلِبَاسَ النُّقۡوٰى ذٰلِكَ خَيۡرٌ ذٰلِكَ مِّنۡ ءَايٰتِ اللّٰهِ لَعَلَّهٗمۡ يَذَّكَّرُوۡنَ ﴿٢٦﴾﴾ .

﴿يَبۡنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ اَنۡزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسًا﴾ أي: خلقنا لكم لباساً بأسباب نازلة من جهة السماء، بعضها نراه كالمطر، وبعضها لا نراه.

وقد توصلت الكشوفات العلمية إلى الإحساس بوجود هذه الأسباب اللامرئية بوساطة الأجهزة الدقيقة الحساسة، والتي عرفوا بوساطتها أنّ الأرض تستقبل في كلِّ لحظة أنواعاً كثيرة من الأشعة حتى قال بعضهم: إنّ التربة التي يزرعها الفلاح في هذه السنة تختلف عن التربة التي كان زرعها في السنوات الماضية.

وقد يكون معنى ﴿اَنۡزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ﴾ أعطيناكم ووهبنا لكم، وكلّ ما أنعم الله به على الإنسان فقد أنزله عليه من غير أن يكون هناك علو وسفل، بل هو جارٍ

مجرى التعظيم، كما تقول: رفعت حاجتي إلى الأمير، وليس هناك نقل من سفل إلى علو<sup>(١)</sup>.

﴿يُؤَارِي سَوْءَ تِكْمٍ﴾ أي: يستر عوراتكم، التي أراد إبليس إظهارها من أبويكم، وقد نجح في تحقيق مراده، كما مر معنا، حتى طفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة.

وقد ذكرت أنه ثمة ارتباط بين ستر العورة وكرامة الإنسان، وأن كشفها تجريد للإنسان عن كرامته، فمن فضل الله على الإنسان الذي حرم من ثياب الجنة، وأهبط إلى الأرض، أن أنعم عليه وهو في الأرض بنعمة اللباس الذي يستر بها عورته، ويحفظ له كرامته ومروءته.

﴿وَرِيثًا﴾ أي: وأنزلنا أيضاً عليكم ريشاً، والريش للطائر معروف، وهو لباسه وزينته، فاستعير للإنسان لأنه لباسه وزينته.

والمعنى: وأنزلنا عليكم لباسين: لباساً يوارى سوءاتكم، ولباساً لزينتكم، لأن التزيين غرض صحيح<sup>(٢)</sup>؛ بشرط أن تكون الزينة تناسب حال المتزين، فلرجال زينة تناسب رجولتهم، وللنساء زينة تناسب أنوثتهن، وبشرط آخر أيضاً: وهو عدم الغلو والإسراف، كما سيأتي معنا.

#### • جمال الظاهر والباطن:

ثم انتقلت الآيات من الحديث عن لباس الأجساد إلى الحديث عن لباس الضمائر والقلوب:

﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ الذي يستر عورات النفس، وخصالها المذمومة.

فالعورات تُستر بلباسين: حسي: وهو الثياب التي تستر سوءات البدن، ومعنوي: وهو التقوى التي تستر سوءات القلوب، وآفات النفوس كالكبيرة

(١) روح المعاني: ١٠٣/٨.

(٢) تفسير الخازن: ٥٣٧/٢.



والعُجْبِ والحقد والحسد والرياء وحب الظهور... إلخ؛ ولا علاج لكل هذه الآفات إلا بتقوى الله تعالى ومراقبته.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: ذلك اللباس الذي هو التقوى خيرٌ من لبس الثياب.

فلو تجمّل الإنسان بأحسن الملابس، وهو لا يتقي الله تعالى، كان كلّهُ سوءاتٍ. ولو كان متقياً وليس له إلا خُرَيْقَةٌ تواري عورته، كان في غاية الجمال والستر والكمال، المهمُّ جمال الباطن، والأفضل أن يجمع الإنسان بين جمالِ الباطن والظاهر، ولعلّ النبي ﷺ نبه إلى أهمية جمال الباطن في قوله الكريم: «ألا وإنّ في الجسدِ مضغَةً إذا صلّحتْ صلّحَ الجسدُ كلّهُ، وإذا فسدتْ فسَدَ الجسدُ كلّهُ، ألا وهى القلبُ» [رواه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩)].

فمن اتقى الله كان به مؤمناً، ومنه خائفاً، وله مراقباً، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخيرية عليه، فحسن سمته وسلوكه، واستقامت أخلاقه، ورُئيت عليه بهجة الإيمان ونوره، «وكلُّ إناءٍ بالذي فيه ينضحُ».

﴿ذَلِكَ﴾ إنزال اللباس.

﴿مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: من الدلائل التي تدلُّ على وجود الله تعالى وجُوده وإحسانه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ ولا يظهرون سوءاتهم، فيعرضون بذلك عن تكريم الله تعالى لهم. ومع الأسف فإن كثيراً من بني آدم في هذا العصر لا يتذكرون نعمة الله عليهم باللباس والزينة.

#### • الكاسيات العاريات:

وبعد بيان أهمية اللباس وستر العورة، وعلاقته بزينة الإنسان وكرامته، جاء النداء الثاني لبني آدم يحذّرهم من مكر الشيطان وكيدهِ وفتنته:

﴿يَنْبِيءَ آدَمَ لَا يَفْنَدَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَبَعَهُمَا إِنَّهُ يَرَئِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

﴿يَنْبِيءَ آدَمَ لَا يَفْنَدَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ﴾ أي: لا يوقعنكم الشيطان بالفتنة، ويبعدكم عن طريق الجنة.

﴿كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ أي: كما تسبب بإخراج أبويكم من الجنة.

﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾ الذي كان يسترهما في الجنة.

وصيغة المضارع (ينزع) تدلُّ على استمرار الشيطان على تعرية الإنسان وإظهار عورته، أو لكون أثر النزاع - وهو الحرمان من لباس الجنة - لا يزال مستمرّاً، فقد خرج آدم وزوجته من الجنة عاريين.

﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَبَعَهُمَا﴾ أي: ليرى كلُّ واحد سوء الآخر.

فهدف الشيطان إظهار سوء الإنسان وعورته لأبناء جنسه، فيكون سبباً لإثارة الشهوات وإشاعة الفواحش والزنى.

وهذا ما تسعى إليه دُور الأزياء ومصممو الملابس، إنهم يستهدفون أول كلِّ شيءٍ إظهار المفاتن، وإبراز العورات، بشكل يثير الغرائز، ويفجر الشهوات، حتى أصبح الناسُ في كثير من الحالات لا يستطيعون التمييز بين الكاسيات والعاريات، تماماً كما جاء في الحديث الشريف: «صنفان من أهل النار لم أرهما: قومٌ معهم سياطٌ كأذنابِ البقرِ يضربون بها الناسَ، ونساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ، مُميلاتٌ مائلاتٌ، رؤوسهنَّ كأسنمةِ البُحْتِ المائلَةِ، لا يَدْخُلْنَ الجنةَ، ولا يَجِدْنَ رِيحَهَا، وإنَّ رِيحَهَا لِيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا» [رواه مسلم (١٦٨٠)]. «البخت»: نوع من الإبل.

وقد أصبح لهذا الدور شأنٌ كبير في المجتمعات الإسلامية، واحتلت مواقع الصدارة في معظم المجلات والصحف، مع أنَّ هدفها الأساس هو إظهار

العورات وإشاعة الفاحشة بين المسلمين، وإبعادهم عن دينهم، واستنزاف أموالهم.

• من صور الجاهلية قديماً وحديثاً:

قال سيد قطب رحمه الله: «إنَّ بيوتَ الأزياء ومصمميها، وأساتذة التجميل ودكاكينها، لهي الأربابُ التي تكمن وراء هذا الخبل الذي لا تفيقُ منه نساء الجاهلية الحاضرة، ولا رجالها كذلك، إنَّ هذه الأرباب تصدُرُ أوامرها، فتطيعها القطعانُ والبهائمُ العاريةُ في أرجاء الأرض طاعةً مزريَّةً، وسواء كان الزي الجديدُ يناسبُ قوامَ المرأةِ أو لا يناسبه، وسواء كانت مراسم التجميل تصلح لها أو لا تصلح، فهي تطيعُ صاغرةً، تطيعُ تلك الأرباب، وإلا عُيِّرَت من بقية البهائم المغلوبة على أمرها»<sup>(١)</sup>.

ومما يزيد في خطورة مكر الشيطان:

﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَقَبِيلُهُ﴾ أي: هو وذريته.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا نُرَوِّهِمْ﴾ فهو يأتاكم من حيث لا تشعرون، لأنه محجوب عن

أبصاركم، فعليكم شدَّة الحذر والوقاية منه، والانتباه لكيده.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فسلطان الشياطين على الكافرين

أقوى، وتسلُّطهم عليهم أشد، بسبب ما بينهم وبين الشياطين من التناسب والميل إلى الشرور والآثام.

وهذا يدلُّ على أنَّ الإيمانَ الصحيحَ حصنٌ للمؤمن من كيد الشيطان

وفتنه، فالكفار يستحسنون الفواحش، ويستحلون الفجور:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ

أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً﴾ أي: فعلاً قبيحاً متناهياً في القبح، ونهوا عنه:

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٢٨٤.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آِبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ فالقومُ أدمنوا على الفواحش وألّفوها، فإذا ما نُهوا عنها احتجّوا لها بأمرين: تقليد الآباء، والافتراء على الله تعالى.

وكان العربُ ما عدا قريشاً لا يطوفون بالبيت الحرام في ثيابهم التي لبسوها، يتأوّلون في ذلك أنّهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريشٌ، وهم الحُمس، يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسيٌّ ثوباً طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديداً ولا أعاره أحمسيٌّ ثوباً طاف عرياناً، وربّما كانت امرأة فتطوفُ عريانةً فتجعل على موضع العفة شيئاً ليستره بعض الستر.

وأكثر ما كان النساء يطفنّ عراةً في الليل، لأن الليل ستر، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه آباءهم، ويعتقدون أنّ فعل آبائهم مستندٌ إلى أمر الله وشرعه، فأنكر الله عليهم: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آِبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾.

فقال تعالى ردّاً عليهم:

﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَاءِ﴾ أي: هذا الذي تصنعونه فاحشة منكّرة، والله لا يأمر بمثل ذلك<sup>(١)</sup>.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهو إنكارٌ وتوبيخٌ، لأنهم نسبوا إلى الله تعالى أقوالاً لا علم لهم بها، ويتنزّه سبحانه عنها.

#### • الوسطية والاعتدال:

فهو سبحانه لا يأمر إلا بما يصلح العباد والبلاد:

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢٩).

﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، وهو الوسط في كلِّ شيء، المتجافي

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٣/٢.

عن طرفي الإفراط والتفريط<sup>(١)</sup>.

فالشريعة الإسلامية قائمة على التوازن والتوسط بين متطلبات الروح والجسد لدى الإنسان، وكل خلل يحدث في هذا التوازن، نتيجة سوء الفهم أو الجهل، يؤدي إلى اضطراب في حياة الإنسان وسلوكه، وفساد في بنية المجتمع، وتآكل في حضارته.

فالصلاة التي هي أهم العبادات في الإسلام لها وقتٌ محددٌ تؤدَّى فيه، فإذا ما حان وقتها فعلى المسلم أن يؤدِّيها على وجهها الصحيح المستقيم في أيِّ مكان كان، سواء كان في المسجد أو خارجه:

﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: توجهوا إلى عبادته سبحانه، مستقيمين على أمره، فهي تؤدَّى في أي مكان، فالأرض في الإسلام كلها مسجدٌ، قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُجِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنَصِرْتُ بِالرَّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةَ» [رواه مسلم (٥٢١)].

يجب أن تكون العبادة لله تعالى وحده:

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾. ومما يساعد الإنسان على ذلك، ويجعله مخلصاً لله وحده في عبادته، أن يتذكر مسؤوليته يوم القيامة أمام ربه جلَّ وعلا:

﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي: كما أنشأكم من العدم يعيدكم يوم القيامة إلى حكمه وأمره سبحانه، ويبعثكم فريقين كما كنتم في الدنيا، فمن مات على الإيمان يبعث مع المؤمنين، ومن مات على الكفر يبعث مع الكافرين.

وفي الحديث الشريف: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ» [رواه مسلم (٢٨٧٨)].

(١) تفسير البيضاوي: ٥٤١/٢.

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (٣٠).

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم أهل الإيمان والطاعة، الذين وفَّقهم سبحانه إلى الإيمان والالتزام بأحكام الإسلام.

﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾ أي: أوجب عليهم الضلالة، والسبب:

﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أعرضوا عن دين الله وشرعه، واتبعوا ما شرعت لهم شياطين الإنس والجن، مخالفين أمره جلّ وعلا الذي جاء في أوائل السورة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي: وهم يظنون أنفسهم على هدايةٍ وحق.

وفيه دليلٌ على أن الكافر الذي يظنُّ أنه في دينه على الحق، والجاحد المعاند في الكفر سواء<sup>(١)</sup>؛ لأن الأول لم يستعمل عقله ومواهبه استعمالاً صحيحاً كاملاً كما سيأتي معنا في آخر السورة عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلَّ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (١٧٩).

#### • تحريم الإسراف:

وتأكيداً للوسطية والاعتدال التي تتميز بها الشريعة الإسلامية، انتقلت الآيات من الحديث عن شأن الإنسان في الصلاة والعبادة، إلى الحديث عن شأنه في المطالب الدنيوية والجسدية، من خلال النداء الثالث الموجه إلى بني آدم:

(١) تفسير الخازن: ٥٤٢/٢.

﴿يَبْنِيْٓ اٰدَمَ حُدُوۡا زِيۡنَتَكُمْ عِنۡدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوۡا وَاشْرَبُوۡا وَلَا تُسْرِفُوۡا اِنَّهٗ لَا يُحِبُّ  
الْمُسْرِفِيۡنَ ﴿٣١﴾ .

﴿يَبْنِيْٓ اٰدَمَ حُدُوۡا زِيۡنَتَكُمْ عِنۡدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: تزيّنوا بما أباح الله لكم من اللباس والرياش، عندما تجتمعون للعبادة، وخصّ التزيين عند العبادة بالذكر لأن العرب كانوا - كما مرّ معنا - يطوفون بالبيت عراة.

ودلّت الآية على أنّ ستر العورة زينة للإنسان، بل هو أعظم زينة له، فمهما استعمل الإنسان من وسائل الزينة، فإنّه يبدو قبيحاً إذا كان مكشوف العورة باذي السوءة.

﴿وَكُلُوۡا وَاشْرَبُوۡا﴾ مما أحلّ الله لكم من الطعام والشراب، فالإسلام دين الحياة، أمر الإنسان أن يستجيب لكلّ مطالب جسده المادية، قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوۡا مِمَّا فِي الْاَرْضِ حَلٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوۡا خُطُوۡتِ الشَّيۡطٰنِ اِنَّهٗ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِيۡنٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

بشرط الاعتدال والتوسط، وعدم الإسراف والتقتير، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَا تُسْرِفُوۡا﴾ في التزيين والأكل والشرب وغير ذلك من المباحات.

والإسراف: مجاوزة حدّ الاعتدال المشروع، والنهي عن الإسراف نهى عن ترك الحدود المشروعة، ولهذا قال كثير من المفسرين: ﴿وَلَا تُسْرِفُوۡا﴾ بتحريم الحلال أو بالتعدي إلى الحرام<sup>(١)</sup>، أولاً تتجاوزوا حدود الاعتدال في الزينة والطعام والشراب، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِيۡنَ اِذَا اَنْفَقُوۡا لَمْ يُسْرِفُوۡا وَلَمْ يَقْتُرُوۡا وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

وقال رسول الله ﷺ: «كلوا واشربوا، والبسوا وتصدّقوا، من غير مَخِيَلَة، ولا سَرْفٍ، فإنّ الله يُحِبُّ أن يرى نعمته على عبده» [رواه البخاري تعليقاً (١٠/٥٢) وأحمد (٢/١٨٢) والنسائي (٥/٧٩) وابن ماجه (٣٦٠٥)].

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٥٤٣/٢؛ وروح المعاني: ١١٠/٨.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ بل يبغضهم ولا يرضى عنهم. وهو تهديد شديد للمسرفين.

#### • الأصل في الأشياء الإباحة:

ودلت الآية على أن جميع المطاعم والمشروبات حلال، إلا ما خصه الشرع بدليل في التحريم، لأن الأصل في جميع الأشياء الإباحة إلا ما حظره الشارع، وثبت تحريمه<sup>(١)</sup>.

ولهذا أنكر سبحانه على الذين يحرمون بعض الأشياء من عند أنفسهم، ولا دليل لهم يدل على تحريمها، فقال:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ﴾ من الثياب والرياش وكل ما يتجمل به.  
 ﴿الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ أي: التي أخرجها سبحانه من الأرض من أجل عباده.  
 ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ والمستلذات التي لا ضرر فيها من المأكول والمشارب؟!.

﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: خلقها الله سبحانه في الدنيا للمؤمنين، لكي يستعينوا بها على عمارة الأرض بعبادته وطاعته، ولهذا يقيم الله الساعة عندما لا يبقى في الأرض أحد يعبده، وهي الحكمة التي خلق الخلق لها: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات].

﴿خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لا يشاركون فيها غيرهم، لأنه سبحانه حرّمها يوم القيامة على الكافرين الذين جحدوا فضل الله عليهم واستعملوا نعمه في الدنيا في غير

(١) تفسير الخازن: ٥٤٣/٢.



طاعته، كما سيأتي معنا في قوله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْنَا الْكُفْرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

فهي خالصة للمؤمنين يوم القيامة، وخالصة أيضاً عن الهم والتعب والكدر كما هو الحال في الدنيا، تأتيهم أرزاقهم في الجنة وكل ما تشتهيهم أنفسهم من غير تعب وعناء، كما ذكرنا سابقاً.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَّاتِ﴾ وما فيها من أحكام تنظم حياة الإنسان الدينية والدنيوية، وتظهر السمة البارزة للشريعة الإسلامية، وهي الوسطية والاعتدال، وتلاؤمها مع حياة الإنسان، وشمولها لجميع جوانبها.

﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ هذه الحقائق ويعملون بها، فلا خير في علم لا عمل به.

وإن سوء فهم كثير من المسلمين لحقيقة الإسلام وجهلهم بأحكام شريعته، من أعظم الأسباب التي أدت إلى ضعف الحضارة الإسلامية وتأكلها وانحسارها.

#### • المحرّمات:

وفي مقابل الإباحة الأصلية، التي قررتها الآيات، انتقلت إلى بيان المحرّمات على وجه الإجمال:

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ (٣٣).

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ أي: سرّها وجهرها.

﴿وَالْإِثْمَ﴾ أي: وحرّم كل ما يوجب الإثم.

وهو تعميمٌ بعد تخصيص، لأنّ الفواحش وإن كانت في اللغة اسماً لكل ما تفاحش من قول أو فعل، لكنه أصبح في العرف مخصوصاً بالزنى واللواط، ولعلّ سببه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:

[٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠] وستأتي معنا .

وقيل: الفواحش: الكبائر؛ والإثم: الصغائر؛ وعلى هذا يكون معنى الآية: إنما حرّم ربي الكبائر والصغائر<sup>(١)</sup>.

﴿وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: وحرّم البغي بغير الحق، وهو الظلم والكبر، والاستطالة على الناس، ومجاورة الحدّ بلا حق.

﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ أي: وحرّم الشرك الذي ما أنزل الله فيه حجة ولا برهاناً، كما هو في الحقيقة والواقع، فلا حجة للشرك ولا برهاناً.

ووصفه سبحانه بذلك تهكماً بالمشركين، وتنبهاً إلى أنّ أصول العقيدة يجب بناؤها على الحجج والبراهين القطعية، ولا يجوز بناؤها على الظنّ والتقليد.

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وحرّم الافتراء عليه سبحانه، وذلك بأن يصفوه بصفات لا تليق بكماله وجلاله ﷻ.

أو: حرّم أن تنسبوا إليه سبحانه تحريم أشياء لا علم لكم بتحريمها .

تلك أهم المحرّمات القطعية في دين الله تعالى، فكيف كذبوا على الله عندما استحلوا الفواحش كما مرّ معنا في قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

#### • سنن إلهية ونواميس عُلوّية:

ظهر لنا من خلال النداءات الإلهية الماضية لبني آدم أسباب كثيرة تؤدي إلى هلاك الأمم وسقوط الحضارات؛ منها: اختلال التوازن في سلوك الأفراد والجماعات بين مطالب الإنسان الجسدية والروحية.

فالإنهماك في اتباع الشهوات، وإرواء الغرائز الجسدية، والإسراف في المطاعم والمشارب والزخارف والزينة، وشيوع الرّزني والعري، وكشف العورات

(١) انظر: تفسير الخازن: ٥٤٥/٢ .

استجابة لوساوس الشيطان، كلُّ ذلك سيؤدي إلى انحلال الأخلاق وانهيار المجتمعات.

كما أنَّ الغلو في العبادات والمتطلبات الروحية، والانصراف الكامل إليها، وإهمال متطلبات الحياة الدنيوية، يؤدي أيضاً إلى تعطيل طاقات الإنسان عن عمارة الأرض واستثمارها وتحقيق معنى استخلافه فيها، بما يفرضه على نفسه من رهبانية وعُزلة، فيتوقف النمو، وتتآكل الحضارة وتضعف، ثم تنهار.

ومع ذلك؛ فإنَّ مسيرة الحياة الإنسانية على الأرض غير خاضعة لوتيرة واحدة، وغير ملتزمة بطريقة معيَّنة، بل نراها في اضطراب دائم، وتذبذب مستمر، والخط البياني للمسيرة البشرية يرتفعُ تارةً وينخفضُ تارةً أخرى، ويسرع ويتباطأ، وذلك بسبب ارتباط حركة التاريخ البشري بالصراع القائم بين الخير والشر، بين الرسائل الإلهية والشرائع السماوية، وبين الشيطان وأتباعه وأنصاره.

ومن خلال هذا الصراع الذي قدره العليم الحكيم يتشكَّل تاريخ الوجود البشري على الأرض، ويمارس الإنسان حرِيته واختياره، يعلو أو يهبط، يعمر أو يخرب، يستقيم أو ينحرف.

ومن وراء كلِّ ذلك نواميس علوية وسنن إلهية لا تتبدل ولا تتغير، لأنها بمشيئته سبحانه وحكمته وعلمه، وقد ذكرها سبحانه في آيات كثيرة؛ منها:

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢].

ومنها: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣].

ومنها ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾

[آل عمران: ١٣٧].

ولهذا قال تعالى هنا بيِّن أن هلاك الأمم وسقوط الحضارات وإن كان مرتبطاً بأسبابٍ تتصلُّ بحرية الإنسان واختياره، فإنَّه لن يخرج عن النواميس الإلهية الثابتة، التي جعلها ﷻ بمثابة الكوابح والضوابط لمسيرة تاريخ البشرية:

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٣٤)

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ قَدَرَهُ سَبْحَانَهُ بِسَابِقِ عِلْمِهِ وَمَشِيئَتِهِ، أَجَلٌ فِي التَّمَكُّنِ وَالظُّهُورِ وَالِارْتِفَاعِ فِي سَلْمِ الْعِمْرَانِ وَالتَّحْضُرِ، وَأَجَلٌ أَيْضاً لِلتَّرَاجُعِ وَالِانْهِيَارِ وَالهَلَاكِ، فَالتَّارِيخُ دَوْلٌ، كَمَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

ودوام الحال من المحال، وكلّ شيء في هذه الدنيا مصيره إلى الزوال والانتهاء: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهٗ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ المُقَدَّرُ لَهُمْ.

﴿لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً﴾ أَي: قِطْعَةً مِنَ الزَّمَانِ قَلِيلَةً.

﴿وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فَالْأَجَالُ الْمُقَدَّرَةُ فِي عِلْمِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ، لَا يَسْتَطِيعُ فَرْدٌ أَوْ أُمَّةٌ أَنْ يَغْيِرَهَا، عَجَزَتْ هَمُّ الرِّجَالِ عَنْ خَرَقِ أَسْوَارِ الْأَقْدَارِ.

#### • المسؤولية والجزاء:

وجاء النداء العلوي الرابع لبني آدم، يبيّن لهم مسؤوليتهم وتشريفهم بالتكليف، وما يترتب على ذلك من حساب وجزاء:

﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَنِي وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٣٥)

﴿يَبْنَیْ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ أَي: إِنْ أَتَاكُمْ رُسُلٌ اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْكُمْ.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي﴾ أَي: يَعْضُونَ عَلَيْكُمْ أَحْكَامِي وَشَرِيعَتِي، وَيَخْبِرُونَكُمْ بِهَا، وَيَبِينُونَهَا لَكُمْ بِالتَّابِعِ، فَالتَّعْبِيرُ بِ(يَقُصُّونَ) يَفِيدُ مَعْنَى التَّابِعِ وَالتَّابِعِ، فَالرُّسُلُ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً دُونَ اخْتِلَافٍ بَيْنَهُمْ فِي أَصُولِ رِسَالَاتِهِمْ وَشَرَائِعِهِمْ.

والإتيان بـ (إن) الشرطية، وضم (ما) إليها، لتأكيد معنى الشرط، دلّ على أن إرسال الرسل أمر جائز عليه سبحانه لا واجب<sup>(١)</sup>، فهو من رحمته سبحانه وفضله.

﴿فَمَنْ أَنْفَى﴾ الكفر والشرك.

﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل في طاعة الله وعبادته.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من عذاب الله تعالى.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما يفوتهم من الدنيا وزينتها عندما يموتون.

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣٦).

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة على المرسلين.

﴿وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا﴾: أي أعرضوا عنها تكبراً وعناداً.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكُذِبِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَبْنَىٰ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (٣٧).

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: لا أحد أظلم ممن كذب على الله

تعالى، فزعم أن هذا حرّمه الله سبحانه، أو ادّعى أنه يوحى إليه، وهو في الحقيقة كذاب دجال.

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ فأعرض عن دعوة رسله.

إنهما أمران متساويان بالكفر والقبح: الافتراء على الله تعالى، وتكذيب

رسله، يجمعهما مصير واحد:

﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكُذِبِ﴾ أي: أولئك الكاذبون والمكذبون يأتيهم

في حياتهم الدنيا ما كتب لهم من أرزاق وأموال، فكفرهم لا يمنع عنهم ما قَدَّرَ الله لهم من أرزاق الدنيا، كما سيأتي معنا عند قوله تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَتُوْلًا وَّهَتُوْلًا مِّنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوْرًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

ولما سأل إبراهيم عليه السلام رَبَّهُ أَنْ يَرْزُقَ الْمُؤْمِنِيْنَ مِنْ أَهْلِ الْبَلَدِ الْحَرَامِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيْمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آَمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ قال له سبحانه: ﴿قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِعْهُ قَلِيْلًا ثُمَّ أَصْطِرْهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَيَسْ أَلْمَسِيْرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

### • الحكم والتنفيذ:

فتمتّعهم برزق الله سبحانه يمتدُّ إلى نهاية أعمارهم، وحينئذ ينقطع رزقهم، وينتهي تمتّعهم:

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا﴾ ملك الموت وأعوانه.

﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ يقبضون أرواحهم.

﴿قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: أين أولياؤكم الذين أطعتموهم، وعصيتم من أجلهم الله تعالى؟! وهو سؤال توبيخ وتقريع لا سؤال استعلام.

﴿قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا﴾ أي: غابوا عنا.

غابوا عنهم وهم في أشدِّ الحاجة إليهم.

﴿وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِيْنَ﴾ وبهذه الشهادة يكونون هم الذين حكموا على أنفسهم باستحقاق العذاب والخلود في النار.

وينفذ الله تعالى الحكم عليهم يوم القيامة:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارَكُوا فِيهَا جَمِيْعًا قَالَتْ أَخْرِضْنَهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَنَاتِيهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِن لَّا نَعْلَمُونَ﴾

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ أي: مع أمم.

﴿فَدَخَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ﴾ أي: مضت وعاشت قبلكم من كفار الجن والإنس.

وهذا يدلُّ على أنَّ الكفار يساقون إلى النار أمماً وجماعات، بعد أن يحشر كلُّ إنسان مع أمثاله في الكفر والفجور، قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزمر: ٧١].

ويساق إلى النار أولاً جماعات الزعماء ورؤوس الكفر والضلال، ثم يليهم أتباعهم على حسب دركاتهم في الكفر والفجور، قال تعالى عن فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود: ٩٨].

وفي النار يستقبلُ بعضهم بعضاً باللعن والشتم بدلاً من التحية والسلام:

﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا﴾ في الكفر والفجور، كما قال إبراهيم ﷺ لقومه: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن تَنْصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

#### ● سقوط الألقعة:

فعلاقات المودة والصحبة التي أساسها الكفر، تنقطع يوم القيامة، وتتحول إلى عداوة وبغضاء، قال تعالى: ﴿الْأَجْلَاءُ يَوْمَئِذٍ يَكْفُرُونَ لِبَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧].

﴿حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا﴾ أي: تداركوا وتلاحقوا يركب بعضهم بعضاً من شدة الزحام، وهو ما يشير إليه الإدغام في (آذركوا)<sup>(١)</sup>؛ فالنار تمتلئ بهم كما أخبر سبحانه فيما سبق: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف: ١٨].

ويضيّقها سبحانه عليهم زيادةً في عذابهم: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

وترتفع حرارة اللقاء فيما بينهم في جهنم:

﴿قَالَتْ أُخْرِبُهُمْ﴾ أي: الجماعات التي تأخر دخولها في النار، وهم العامة

والأتباع.

﴿لَأُولَئِهِمْ﴾ الذين سبقوهم إلى النار، وهم زعماء الكفر ورؤساء الضلال:

﴿رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا﴾ أي: كانوا سبب إضلالنا.

﴿فَعَاتِبَهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾ أي: عذاباً مضاعفاً، لأنهم ضلوا في أنفسهم

وأضلوا غيرهم.

﴿قَالَ﴾ الحق سبحانه:

﴿لِكُلِّ﴾ من الأتباع والمتبوعين.

﴿ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ ما أعد لكل فريق من العذاب.

أما المضاعفة للزعماء والقادة فلضلالهم وإضلالهم، وأما المضاعفة

للأتباع فلضلالهم، وتقليدهم الأعمى، بسبب غلبة أهوائهم وشهواتهم عليهم،

فقد دأب زعماء الكفر والضلال - لكي يثبتوا زعاماتهم - على نشر الفساد

والفواحش في مجتمعاتهم، ولهذا نرى أسواق الفساد رائجة في المجتمعات التي

يحكمها الطغاة والمستبدون: الفواحش، وبيع الذم، والخيانة، والمتاجرة

بالرتب والمراتب، وغيرها من أنواع الفساد، فما سار الأتباع وراء زعمائهم إلا

من أجل مصالحهم وشهواتهم.

ولهذا يردُّ عليهم الزعماء والقادة يذكرونهم بالحقيقة:

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ

تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ .

﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِبُهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ لأنكم سرتهم وراءنا

بإرادتكم واختياركم من أجل شهواتكم ومصالحكم.

﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ بإرادتكم واختياركم لا بسبب اتباعكم لنا.



إنها لمواجهة كبيرة، ومصارحة تامة في جهنم، حيث تسقط جميع أقنعة النفاق والتزوير والتزييف: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص: ٦٤].

أظهر الحكيم العليم من خلالها الداء العضال الذي ينخر في جسم كثير من المجتمعات البشرية، ممتدًا من رأسها إلى قواعدها، حتى يهلكها ويدمرها، إنّه داء المداهنة والنفاق المستشري في المجتمعات التي يحكمها الطغاة والمستبدون، وواجب الشعوب والأمم في مثل هذه المجتمعات ألا يركنوا إلى الظالمين، وألا يكونوا من أعوانهم والملتفتين حول موائدهم، فإن ذلك يزيدهم طغياناً وفساداً، ويعرض أتباعهم للمسؤولية الكبرى يوم القيامة: ﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَمَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ [هود: ١١٣].

ومن الدعاء الذي علّمه سبحانه للأنبياء والصالحين ليدعوه به: ﴿رَبَّنَا لَا جَعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٥٥﴾ وَنَحْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس].

#### • حسرة ويأس:

ومع الحسرة التي تملأ صدورهم، أيّسهم سبحانه من رحمته، وقدّر عليهم الحرمان الكامل من أي سبب من الأسباب التي تخفف عنهم العذاب، فهم محرومون حتى من لحظة أمل، يتصوّرون فيها من مخيلتهم أنهم سيكونون من الناجين:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ﴾ أي: لا يستجاب لهم، ولا تنزل عليهم رحمة أو بركة، فهم محرومون حرماناً كاملاً من أي سبب من أسباب النجاة.

أو: لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء عند موتهم، ويؤيده ما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «وإن العبد الكافر إذا كان

في انقطاع من الدنيا، وإقبالٍ إلى الآخرة، نزلَ إليه من السماء ملائكةٌ سودُ الوجوه، معهم المسوحُ، فيجلسون منه مدَّ البصرِ، ثم يجيءُ ملكُ الموتِ حتى يجلسَ عند رأسِهِ، فيقولُ: أَيُّهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ اأخرجي إلى سُخْطِ من اللهِ وغضبِ، فتفرق في جسده، فينتزعُها كما يُنتزعُ السَّفُودُ<sup>(١)</sup> من الصوفِ المبلولِ، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفةً عينٍ، حتى يجعلوها في تلك المسوحِ، ويخرجُ منها كأنتنِ ريحٍ جيفةٍ وُجِدَتْ على وجهِ الأرضِ، فيصعدونَ بها، فلا يمرُّونَ بها على ملاء من الملائكةِ إلا قالوا: ما هذه الروحُ الخبيثةُ؟ فيقولون: فلانُ ابنُ فلانٍ، بأقبحِ أسمائه التي كان يُسمَّى بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماءِ الدنيا، فيستفتحُ فلا يفتحُ له» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفْنَحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [مسند الإمام أحمد (٤/٢٨٧)].

﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ أي: في ثقب الإبرة، والمعنى: لا يدخلون الجنة أبداً، إذ علَّق دخولهم الجنة على أمرٍ مستحيل الوقوع، والعربُ كانوا يضربون المثلَ في عَظَمِ الخلقِ وضيقِ المسلكِ بالجمالِ وثُقْبِ الإبرة.

﴿وَكَذَلِكَ﴾ وبمثل هذا الجزاء الدائم الذي لا ينقطع ولا أمل في انتهائه.

﴿نَجَزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ الذين عظمت ذنوبهم وجرائمهم.

ولا يخفى التناسب بين ضخامة جرمِ الجمل، وضخامة ذنوب المجرمين.

وكما يأتيهم العذاب من داخل نفوسهم التي أحرقتها الندم وسحقها

اليأس، يطوقهم عذاب النار من كلِّ مكان:

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ<sup>٤</sup> وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾

﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ أي: لهم فراش تحتهم من نار جهنم.

(١) قضيب من الحديد ذو أشواك.

﴿وَمِنْ فَوْقِهِمْ عَوَاشٍ ۗ وَلَهُمْ أُغْطِيَةٌ مِنْ نَارٍ مِنْ فَوْقِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ﴾ [الزمر: ١٦].

فالقوم بين نارين: نارِ الندم والحسرة في صدورهم، ونارِ جهنم التي تشوي جلودهم.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ لأنفسهم بالكفر، ولغيرهم بالطغيان والعدوان.

#### • تقرير وترغيب:

وفي مقابل الحديث عن عذاب الكافرين، توجَّهت الآياتُ للحديث عن مصير المؤمنين الصالحين، الذين يصلحون ولا يفسدون، ويعدلون ولا يظلمون، ويبدلون ما في وسعهم لعمارة الأرض لطاعة الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٤٢)

بهذا الأسلوب المعجز أبرز سبحانه السمة الكبرى التي تميَّزُ بها الشريعة الإسلامية، فهي شريعةٌ سمحةٌ ميسرةٌ، لا حرج فيها ولا عُسر، تتفق مع فطرة الإنسان، وتلائم إمكاناته وقدراته، ففي أثناء الحديث عن ثواب المؤمنين الصالحين، أخبر سبحانه عن سماحة الشريعة الإسلامية وسهولة تكاليفها بجملته معترضة بين المبتدأ وخبره، بصيغة الفعل: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: ما كلف الله تعالى نفساً إلا ما يمكنها القيام به بسهولة ويسر، فطريق الجنة إذن سهل وميسر، وبهذا جمع سبحانه بهذا الأسلوب بين التقرير والترغيب، مع المعنى الأساس الذي سيقَت الآيةُ لبيانها، وهو الحديث عن مصير المؤمنين الصالحين يوم القيامة.

ثم تحدَّثت الآياتُ عن العلاقة بين أهل الجنة، فهي على النقيض تماماً مما هي عليه بين أهل النار، فلا خصامَ بين أهل الجنة، ولا تحاسد،

ولا تباغض، لأنه سبحانه هدَّب نفوسهم وكمَّلها وجمَّلها قبل أن يكرمهم بدخول الجنة:

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَتُودُوا أَنْ تَتَّكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ﴾ أي: من حقد تعلق فيها بمقتضى ما كان بينهم في الدنيا من خلاف وخصام، فلا يبقى فيها إلا المودَّة والمحبة. وفي الحديث الشريف: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُخَلِّصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مِّظَالِمٌ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدِّبُوا وَنُقُوا، أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لِأَحَدِهِمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا» [رواه البخاري (٦٥٣٥)].

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ فمنازلهم عالية مشرفة على أنهار الجنة. ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾ أي: الحمد لله الذي أرشدنا، وبيَّن لنا طريق الهداية، ووقفنا للسير عليه حتى وصلنا إلى هذا النعيم العظيم. ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ فالطرق كثيرة، والمزالق خطيرة، فالفضل لله تعالى أولاً وآخراً. فالقوم في غاية الخضوع والتواضع لله تعالى، لا يرون لأنفسهم أي فضل، ولا لعلمهم أي قيمة بجانب فضله سبحانه وتوفيقه. ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: بالوعد الصادق، وهو دخول الجنة لمن يؤمن بالله تعالى ويدعن لدينه وشرعه.

ولمَّا تواضع القوم لله تعالى، وأقروا بفضله سبحانه عليهم، ولم يروا لأنفسهم وأعمالهم أي فضل، أكرمهم جلَّ وعلا ببناء فيه تنويه بأعمالهم الصالحة:

﴿وَوَدُّوْا۟ اَنْ يَّكُوْمَ الْجَنَّةُ اَوْرَثٰتُهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُوْنَ﴾ أي: بسبب أعمالكم الصالحة شملتكم الرحمة وأدخلتكم الجنة.

وهكذا عاد بنو آدم الذين أطاعوا الرحمن، وعصوا الشيطان: إلى الجنة التي أخرجهم الشيطان منها، وهم في صُلب أبيهم آدم. أسأله سبحانه أن يجعلنا منهم بفضلهم وكرمه.

#### • يوم الأذان:

ويبدو أنَّ الغِلَّ الذي ينزعه الله من صدور أهل الجنة، هو ما كان بينهم فقط، أمَّا غِلُّهم على أهل النار فيبقى، ففي بقائه زيادة سعادة أهل الجنة ونعيمهم، فكلُّما أرادوا التشفي من أعدائهم وهم يُعذَّبون في النار، أمكنهم ذلك، وأقدرهم سبحانه عليه، حتى إنهم ينادونهم ويكلِّمونهم:

﴿وَنَادٰٓى اَصْحٰبُ الْجَنَّةِ اَصْحٰبَ النَّارِ اَنْ قَدْ جَدَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ جَدَّدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوْا نَعَمْ فَاَذَنْ مُّوَدِّنُ بَيْنَهُمْ اَنْ لَّعْنَةُ اللّٰهِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَنَادٰٓى اَصْحٰبُ الْجَنَّةِ﴾ من كانوا يَعرفونهم في الدنيا، نادوا الذين عرفوهم وواجهوهم في ميادين الدعوة والجهاد، وفي ميادين الصبر والمصابرة، نادى الذين ألهبت سيَّاط القهر والظلم أجسادهم، نادوا جلاذيتهم:

﴿اَصْحٰبَ النَّارِ﴾، وقالوا لهم على سبيل التوبيخ والتشفي:

﴿اَنْ قَدْ جَدَدْنَا مَا وَعَدْنَا رَبَّنَا﴾ في كتابه وبلسان رسله.

﴿حَقًّا فَهَلْ جَدَّدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا﴾؟.

وهل يستطيع أهل النار أن يقولوا غير نعم؟!:

﴿قَالُوْا نَعَمْ﴾ أعادهم بعد الموت، وبعثهم من قبورهم، وحشرهم وسألهم، وحرَّمهم من الجنة، وأدخلهم النار، وكانوا في الدنيا ينكرون كلَّ هذه الحقائق المؤيِّدة بالبراهين القاطعة.

وانتهى الحوار بين أهل الجنة وأهل النار بنداء علوي، زاد أهل الجنة فرحاً وسروراً، وأهل النار كمداً وحسرة:

﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ لعنة خالدة باقية متجددة، لا تنتهي، كما أفادته (أن) الدالّة على الابتداء.

يروى: أن طاوساً<sup>(١)</sup> دخل على هشام بن عبد الملك، فقال له: اتق الله واحذر يوم الأذان، فقال: وما يوم الأذان؟ قال: قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ فصعق هشام، فقال طاوس: هذا ذل الصّفة، فكيف ذل المعاينة؟!<sup>(٢)</sup>.

والصدّ عن دين الله تعالى وشرعه أقبح جرائمهم:

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾<sup>(٤٥)</sup>.

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يمنعون أنفسهم وغيرهم عن الدخول في دين الله تعالى والسير على الصراط المستقيم.

﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ ويريدون أن يسيروا على السبيل الأعوج المنحرف، يرفضون الاستقامة والصدق والأمانة والإيمان، ويميلون إلى الغش والمكر والخيانة.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ﴾ أي: وفوق ذلك ما كانوا يصدّقون بالحساب والمسؤولية في يوم القيامة، وهو من أعظم وسائل التهذيب والتربية والاستقامة.

#### • أصحاب الأعراف:

يتميّز يوم القيامة بكثرة النداءات فيه حتى سمّاه سبحانه يوم التناد، على لسان مؤمن آل فرعون عندما قال: ﴿وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾<sup>(٣٢)</sup> [غافر].

(١) من علماء التابعين.

(٢) تفسير القرطبي: ٧/٢١٠.

ومن هذه النداءات نداء أصحاب الأعراف، الذين سُميت السورة باسمهم، قال تعالى:

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ لَمَّا دَخَلُواهَا وَهُمْ يُطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي: بين أهل الجنة وأهل النار حاجزٌ يفصل بينهما.

﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي: وعلى أعالي هذا الحاجز رجال.

فالأعراف: جمع عرف، وهو ما ارتفع من الشيء، لأنه أشرف وأعرف مما ينخفض عنه، ومنه قيل: عُرف الديك، لارتفاعه على ما سواه من الجسد. ويبدو أنهم رجال صالحون من ذوي المعرفة والعلم والفضل، أو أنبياء؛ فكلمة (الأعراف) تدلُّ على علو مكانهم، والمعرفة تدلُّ على علو مكانتهم، وقد وصفهم الله تعالى في قوله:

﴿يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَتِهِمْ﴾ :

وتفسيرُ الكلمة بأصل المعنى اللغوي لها، أولى ممَّا ذهب إليه أكثر المفسرين، بأن أصحاب الأعراف هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم. قال ابن جرير الطبري رحمته الله: «والصواب من القول في أصحاب الأعراف أن يقال كما قال الله جلَّ ثناؤه فيهم: هم رجال يعرفون كلاً من أهل الجنة وأهل النار بسيماهم، ولا خبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يصحُّ سنده»<sup>(١)</sup>.

وقوله سبحانه: ﴿بِسِيمَتِهِمْ﴾ أي: بما يظهر على وجوههم من أثر الإيمان والطاعة، أو من أثر الكفر والفجور، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم في مواضع متعددة أن أهل الجنة يتميَّزون عن أهل النار يوم القيامة ببياض الوجوه ونضارتها وحسنها، منها قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أبيضَّتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران].

(١) جامع البيان في تفسير القرآن: ١٣٩/٨.

ومنها أيضاً قوله جلّ وعلا: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٢٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾﴾ [عبس].

وجاء في أحاديث نبوية كثيرة: أن النبي ﷺ يتعرّف يوم القيامة على أمته بالغرّة والتّحجيل، وهما بياض وجوههم وأطرافهم من أثر الضوء، ولما سُئِلَ رسول الله ﷺ: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ قال: «أرأيت لو أنّ رجلاً له خيلٌ غرٌّ محجّلةٌ بين ظهري خيلٍ دُهمٌ بهم، ألا يعرف خيله؟» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «فإنهم يأتون غرّاً محجّلين من الضوء، وأنا فرطهم على الحوض» [رواه مسلم (٢٤٩)].

وقوله سبحانه: ﴿سَيِّمَنَّهُمْ﴾ يدلُّ أيضاً على أنّ أصحاب الأعراف يميّزون بين أهل الجنة وأهل النار في أرض المحشر قبل دخولهم إلى الجنة والنار، فالمعرفة ﴿سَيِّمَنَّهُمْ﴾ لا بمكانهم، فإذا ما رأوا أصحاب الوجوه المستنيرة النضرة، سلّموا عليهم، وبشروهم بدخول الجنة.

﴿وَنَادَوْا﴾ أي: أصحاب الأعراف.

﴿أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي: نادوهم مسلمين عليهم قبل دخولهم إلى الجنة.

﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ وهم يأملون ويرجون دخولها.

### • نظرة في وجوه أهل النار:

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ لِفَلَاءِ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾

﴿وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَرُهُمْ لِفَلَاءِ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي: وعندما ينظرون إلى أصحاب النار.

وقوله: ﴿صُرِفَتْ﴾ يدلُّ على أنّ أصحاب الأعراف ما كانوا راغبين في النظر إلى وجوه المغضوب عليهم، لكي لا يتأذوا بمنظرهم المرعب، ولكنّ أبصارهم وقعت عليهم من دون قصد منهم، إذ قدر سبحانه ذلك.



﴿قَالُوا﴾ أي: أصحاب الأعراف متعوذين بالله تعالى أن يكونوا منهم بسبب ما رأوا من سواد وجوههم وقبح منظرهم:  
 ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ وقال السُّدِّيُّ<sup>(١)</sup>: «وإذا مروا بهم، بزمرة يُذهب بها إلى النار، قالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾»<sup>(٢)</sup>.  
 وعندما تقع أبصار أصحاب الأعراف على من عرفوا في الدنيا من زعماء الكفر والضلال، نادوهم موبِّخين لهم:

﴿وَادَّيْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾<sup>(٤٨)</sup>.

﴿وَادَّيْ أَصْحَابِ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ﴾ بصفاتهم التي كانت لهم في الدنيا، أو بالصفات التي ظهرت عليهم في الآخرة.  
 ﴿قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ﴾ أي: ما نفعكم جمعكم في الدنيا للأموال والأعوان والخدم والحشم.  
 ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وما نفعكم أيضاً تكبركم وطغيانكم واستبدادكم وظلمكم.  
 وتابعوا لوم رؤوس الضلال وتقريعهم، وهم يشيرون إلى الذين كانوا في الدنيا مظلومين مهورين مستضعفين، بسبب إيمانهم واستقامتهم:

﴿أَهْلُوآءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْكُمُ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾<sup>(٤٩)</sup>.

﴿أَهْلُوآءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ﴾ أي: كنتم في الدنيا تقسمون على أن هؤلاء المؤمنين الضعفاء، لن يرحمهم الله تعالى، ويفضلهم عليكم.

(١) من علماء التفسير، وهو السدي الكبير، معتمد في التفسير عند ابن كثير.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٣/٢.

لقد أعمى الكِبْرُ والغرور أبصاركم وبصائركم، حتى ظننتم أنكم أصحاب المكانة والتقدم في الدنيا وفي الآخرة أيضاً، إن كان هناك آخرة بحسب زعمكم، فقد كنتم تقولون: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَّوْنَا إِلَيْهِ﴾ الآية [الأحقاف: ١٤]، وتقولون أيضاً: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ﴾ [سبأ: ٣٥].

انظروا إلى حُسن منظرهم وحالهم ومصيرهم، ها هم يقال لهم:

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾.

فالشأن في الآخرة يختلف عنه في الدنيا، التقدم في الآخرة بالإيمان والعمل الصالح، لا بالأموال ولا بالأولاد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الْوَعْدِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

#### • نداء التذلل والاستجداء:

وأخيراً ذكرت لنا الآيات نداء أهل النار، فالقارئ الذي قرأ نداء أهل الجنة وأصحاب الأعراف لا بد أن تتشوّف نفسه لسماع نداء أهل النار، يدافعون فيه عن أنفسهم، ويعتذرون عمّا سلف منهم في الدنيا، ولكن نداءهم كان نداءً تذللًا واستجداءً لأهل الجنة:

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ من طعام الجنة، فالقومُ يعدّبون بالعطش والجوع، وليس لهم في جهنم شراب غير الحميم: ﴿وَسُئِلُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ﴾ [محمد: ١٥]؛ وغير الزقوم والضريع: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ ﴿٦١﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنَ الْجُوعِ﴾ [الغاشية].

ولا شك أن رؤيتهم لأهل الجنة - وما هم فيه من نعيم - تزيد في عطشهم وجوعهم، إنهم عبيد البطون، أتعبتهم بطونهم في الدنيا، وعذبتهم في الآخرة.

﴿قَالُوا﴾ أي: أصحاب الجنة:

﴿إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْكُفْرِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ (٥١)

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ﴾ الذي أنزله الله تعالى عليهم.

﴿لَهْوًا وَلَعِبًا﴾ فلم ينظروا إليه نظرة التقدير والاحترام اللائقة به، بل

استهزؤوا بدعائه، وأعرضوا عن رسله.

﴿وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم الدنيا ببهارجها وزخارفها

الزائفة، ومتاعها الزائل عن العمل للأخرة.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ أي: يعاملهم سبحانه معاملة

المنسيين المهملين المبعدين، لا أنه سبحانه ينسى: ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (٥١) [طه].

وقوله تعالى أتى على سبيل المقابلة كقوله: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ أَيْتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ

الْيَوْمَ نُنْسِي﴾ [طه: ١٢٦].

أو أتى بمعنى: نتركهم في النار معذبين فلا يجيبُ الله تعالى دعاءهم،

ولا يرحمهم، ولا يخفف عنهم، كما تركوا الإيمان بالله واليوم الآخر.

﴿وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ أي: وتركهم في العذاب بسبب جحودهم

لآيات الله تعالى وإعراضهم عن دينه وشرعه.

#### • الكتاب المفضل والشريعة الكاملة:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ غَيْرِ هُدًى وَرَحْمَةٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (٥١)

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ﴾ وهو القرآن الكريم.

﴿فَصَلَّنُهُ عَلَىٰ عَلِيٍّ﴾ أي: بيَّنَّا فيه الدلائل والأحكام والمواعظ وغير ذلك، مما علمنا حاجة الناس إلى بيانها وتفصيلها، فشريعتها كاملة.

أو فصلناه على علم بكل ما فيه، لا كيفما اتفق، حتى جاء بريئاً من كل خلل وقدح، معجزاً على مدى الدهر<sup>(١)</sup>: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وجعلناه:

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدِّقون بأنه كلامُ الله تعالى، أنزله على رسوله ﷺ.

فلماذا لم يبادروا إلى الإيمان به؟! وماذا ينتظرون!؟:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا مِنَّا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٥٣).

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ أي: هل ينتظرون إلا أن يقع ما فيه من عذاب وحساب؟ فلا استفهام ينكر عليهم إعراضهم عن رسالة القرآن الكريم.

والتأويل: ما يؤوَّلُ إليه أمره وعاقبته، وكان عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «إنَّ القرآنَ نزلَ حيثُ أنزلَ، ومنه آيٌ قد مضى تأويلهنَّ قبل أن ينزلن، ومنه آيٌ قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ، ومنه آيٌ قد وقع تأويلهنَّ بعد النبي ﷺ بيسير، ومنه آيٌ يقع تأويلهنَّ بعد اليوم، ومنه آيٌ يقع تأويلهنَّ عند الساعة على ما ذكر من الساعة، ومنه آيٌ يقع تأويلهنَّ يوم الحساب على ما ذكر من الحساب والجنة والنار» [رواه البيهقي في (السنن الكبرى)]<sup>(٢)</sup>.

﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي: يقول الذين تركوه في الدنيا

(١) تفسير النيسابوري: ١٠٣/٨.

(٢) انظر: المختصر: ٥٥٧/١، تفسير الآية (١٠٥) من سورة المائدة.

قبل مجيء تأويله عندما يرون تأويله يوم القيامة، ويشاهدون النشرَ والحشرَ والحسابَ والجنة والنار:

﴿قَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ الثابت الصادق الصحيح.

﴿فَهَلْ لَنَا مِنْ شَفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ في هذا اليوم، ويدفعوا عنا ما نحن فيه من

العذاب.

﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ إلى الدنيا.

﴿فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ من الكفر والفجور، ولكن هيهات، هيهات،

فلا تنفعهم شفاعة الشافعين، ولا عودة لهم إلى الدنيا، إنَّها أمانِيٌّ باطلة، وأوهام كاذبة.

﴿قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ بتضييع أعمارهم في الكفر والمعاصي.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وغاب عنهم.

﴿مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ من الآلهة المزعومة التي عبدوها من دون الله تعالى.





## الْفَصْلُ الرَّابِعُ

### الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَإِخْتِلَافُ الْأَسْتَعْدَادِ وَالْقَابِلِيَّةِ عِنْدَ النَّاسِ

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى  
الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُهَا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ  
اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي  
الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ  
الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِكَلِّ مَيِّتٍ  
فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ يُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ  
الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ  
يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ .

#### • التدرُّج في الخلق:

والله ﷻ الذي أنزل الكتاب المفصَّل والشريعة الكاملة، هو وحده الذي  
يجبُ أن يُطاعَ ويُعبَدَ، فالحاكمية والتشريعُ له وحده، لأنَّه هو الخالق  
والمالك والمدبر .

ولقد جاءت الكشوفات العلمية الحديثة تؤكدُ أنَّ الكونَ حادثٌ غير قديم،  
وأنَّه خاضعٌ لنواميس وسنن تدلُّ على أنَّ له خالقاً مدبراً، يضبط حركته،  
ويدبر أمره:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَىٰ  
الَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ  
تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: إِنَّ مالكمم وخالقكم هو  
الذي خلق السماوات والأرض، فخالق الكون والإنسان واحد.

﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الله تعالى التي لا يعلم مداها إلا هو سبحانه،  
لا من أيامنا الأرضية، فالمراد من اليوم معناه اللغوي، وهو مطلق الوقت<sup>(١)</sup>.

وما يذكره العلماء من أرقام لعمر الكون ليست سوى تخميناتٍ وظنونٍ قائمة  
على نظريات تخطئ أو تصيب، المهم أن الآية الكريمة تؤكد حقيقة التدرج في  
الخلق، التي يقول بها العلماء في العصر الحاضر؛ فالله سبحانه ما خلق الخلق  
دفعة واحدة، إنما خلقه على مراحل وأطوار فصل سبحانه بعضها في سورة  
فصلت، فقال: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۖ أَندَادًا ۗ ذَٰلِكَ رَبُّ  
الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَحَدَلَ فِيهَا رُؤُوسَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾  
ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ .

ولا شك أن الله سبحانه حكماً جليلاً وكثيرة في التدرج في الخلق، فهو  
سبحانه قادر على إيجاد المكونات كلها دفعة واحدة، وفي مثل لمح البصر:  
﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، ومن غير أسباب ووسائل: ﴿إِنَّمَا  
أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ولعل من حكم التدرج في الخلق، أن يبين لنا سبحانه بعض أدلة وجوده وقدرته  
وحكمته، وأنه خلق الخلق بمحض إرادته واختياره، وأنه خلقه بمقتضى نوااميس  
كونية أبداعها، مما ينفي وجود المصادفة في الخلق، كما يزعم الملاحدة الماديون.

## • سبيل الهدى:

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ وهو أعظم المخلوقات، ويُطلق في اللغة على أكثر من معنى: فهو سريرُ الملك، وسقفُ الملك، والملك، والسلطان، والعز (١).

لقد أخبر سبحانه في سبعة مواضع من القرآن الكريم أنه جلَّ وعلا استوى على العرش، وقرن ذلك بأنه خلق السماوات والأرض، هذا الموضع أولها.

وثانيها: قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ الآية [يونس: ٣].

وثالثها: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

ورابعها: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ﴾ [الرحمن على العرش استوى] [طه].

وخامسها: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ

الرَّحْمَنُ فَسَأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩].

وسادسها: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى

الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِّنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا نَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤].

وسابعها: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا

يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

مما يدلُّ على أن في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ صفة من صفات

كماله وجلاله، تدلُّ على عظمته وقدرته جَلَّ جَلَالُهُ، نؤمن بها كما أخبر عنها سبحانه

من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

[الشورى: ١١].

روى البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» عن عبد الله بن وهب، قال:

كنا عند مالك بن أنس، فدخل رجلٌ، فقال: يا أبا عبد الرحمن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى



الْعَرْشِ أَسْتَوَى ﴿٥﴾ [طه: ٥] كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك، وأخذته الرُّحَضَاءُ - ٤ عرق كثير - ثم رفع رأسه، فقال: ﴿الرَّحْنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوعٌ، وأنت رجلٌ سوءٍ وصاحبٌ بدعةٍ. أخرجوه.

قال ابن كثير رحمه الله: «الظاهر المتبادرُ إلى أذهان المشبهين منفيٌّ عن الله، فإن الله لا يشبهه شيءٌ من خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل الأمرُ كما قال نعيم بن حماد الخزازي، شيخ البخاري، قال: مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ كَفَرَ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدَ كَفَرَ، وَلَيْسَ فِيهَا وَصْفَ اللَّهِ بِهِ نَفْسَهُ وَلَا رَسُولُهُ ﷺ تَشْبِيهًُ، فَمَنْ أَثْبَتَ اللَّهُ تَعَالَى مَا وَرَدَتْ بِهِ الْآيَاتُ الصَّرِيحَةُ وَالْأَخْبَارُ الصَّحِيحَةُ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَلِيقُ بِجَلَالِ اللَّهِ، وَنَفَى عَنِ اللَّهِ النَّقَائِصَ، فَقَدْ سَلَكَ سَبِيلَ الْهَدْيِ»<sup>(١)</sup>.

#### • إبداع ونظام:

ومن أدلة وجود الله تعالى وقدرته وعظمته، إبداعه لنظام حركة الأفلاك، وتوالي الليل والنهار، وتعاقب الفصول والشهور والأوقات:

﴿يُعْشَىٰ اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يغطي بقدرته الليل بالنهار، ويؤكد هذا المعنى قراءة حميد بن قيس: (يغشى الليل النهار) بفتح الياء، ونصب الليل، ورفع النهار، وتوافق القراءتين أولى من تخالفهما، فالليل قبل النهار، ويُعلم هذا من قوله تعالى أيضاً: ﴿وَأَيَّاهُمْ لَّهُمْ آيَاتٌ نَّسَلَخَ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]؛ لأنَّ المسلوخَ منه يكون قبل المسلوخ<sup>(٢)</sup>، فالأصل ظلام الليل، ونور النهار طارئٌ عليه.

﴿يَطْبُئُهُ حَيْثَا﴾ سريعاً، بلا فاصلٍ بينهما، فهما يتعاقبان بنظام دقيق محكم لا يتغير، يدلُّ على عظمة خالقه ومبدعه، قال ﷻ: ﴿لَا السَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا آيَاتُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٥/٢.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٣٦/٨.

إِنَّ الْكُونَ كُلَّهُ فِي حَرَكَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ مَنْضِبَةٌ بِنَوَامِيسٍ دَقِيقَةٍ، وَإِنَّ الرُّوعَةَ لَا تَكْمُنُ فِي ضَخَامَةِ الْمَكُونَاتِ وَكَثْرَتِهَا فَقَطْ، بَلْ وَفِي حَرَكَتِهَا الدَّقِيقَةِ الْمَوْزُونَةِ: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ أي: خلقهن سبحانه وهن مذلات لأمره، وهو الناموس الكوني الذي أبدعه تعالى لهن، فلا يخرجن عليه. مما يدلُّ على أنَّ هذه الأجرام الكبيرة خاضعة لإرادته سبحانه وحده، فهي مخلوقة محكومة خاضعة لخالقها ﷻ، فلا تستحقُّ أن تُعبد وتُعظَّم، إنَّما المستحق للعبادة هو خالقها ومسيرها جلَّ وعلا.

#### • التشريع لله وحده:

والنتيجة التي يجب استخلاصها من هذا العرض السريع لخلق الكون وما فيه من نواميس تضبط حركته، وتحكم مسيرته، هي في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فالكون بكلِّ ما فيه له وحده ﷻ، لأنه هو خالقه ومبدعه، ويدبِّر أمره من أصغر ذراته إلى أعظم أجرامه، فيلزِمُ من هذا أن يكون الأمر فيه لمالِكِه وحده، لا يشاركه فيه أحدٌ، فهو المالك والحاكم، يحكم ما يريد، ويشرع ما يريد، جلَّ وعلا، لا رادَّ لقضائه، ولا معقَّب لحكمه: ﴿لَا يَسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ الآية [يوسف: ٤٠].

﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: تنزَّه وتقدَّس جلَّ وعلا في ذاته وأسمائه وصفاته عن كلِّ نقص، وكذلك في خلقه وأمره، فهما في غاية الكمال والإحكام. وأصل كلمة (تبارك) إمَّا من البركة، ومعناها الزيادة والنماء، وهو سبحانه ربُّ المخلوقات كلها خلقها، ويمدُّها بعد خلقها بأسباب وجودها وكثرتها ونمائها. أو من البروك، وهو الثبات والدوام، وهو سبحانه الحي القيوم الباقي الدائم المنزَّه في ذاته وصفاته وأسمائه عن كلِّ تغَيُّرٍ ونقص:

﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

## ● الدعاء مَخُّ العبادَة:

وبعد بيان هذه النتيجة اللازمة القطعية، توجّهت الآيات بالخطاب إلى جميع المكلفين بهذا الأمر الملزم الذي يظهر التناسق والاحتباك بين آيات السورة:

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٥٥).

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾ أي: توجّهوا إلى الله تعالى ربكم بالدعاء والعبادة والطاعة. فهو خالقكم، ومالك أمركم، هو الذي خلقكم، وصوّركم، ومكنكم في الأرض، وسخر لكم ما في السماء والأرض، وحذّرکم من مكر الشيطان عدوكم الذي يسعى لكي يصرفكم عن طاعة ربكم وعبادته، فالآية هنا تؤكد ما سبق في صدر السورة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]. وجاء هذا التأكيد بعد بيان فضله سبحانه على الإنسان في خلقه وتصويره وتمكينه، وبعد بيان قصته مع الشيطان، فواجب الإنسان أن يدعو الله ويتوجّه إليه وحده.

ادعوا ربكم، فإنكم مسؤولون يوم القيامة أمامه، ادعوه وأنتم متذللون له جلًّا وعلا، خاضعون لأمره، منقادون لشرعه، فالدعاء مَخُّ العبادَة، ولا يقدم الداعي على الدعاء إلا إذا عرف من نفسه الحاجة إلى ما يدعو به، وأنه عاجز عن تحصيله، وعرف أيضاً أن ربه يسمع الدعاء، ويعلم حاجة الداعي، ويستجيب له، ولا شك أن معرفة العبد نفسه بالعجز والنقص، ومعرفة ربه بالقدرة والكمال، من أعظم العبادات<sup>(١)</sup>؛ ولهذا قال بعد ذلك:

﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: ادعوه وأنتم في حال التضرُّع والتذلل والاستكانة له وحده ﷻ.

﴿وَخُفْيَةً﴾ أي: سرًّا، فإن الإخفاء دليل الإخلاص، وهو سبحانه سميع

عليم، ومن أدب الدعاء الإخفاء.

(١) روح المعاني: ١٣٩/٨.

وفي الحديث الشريف: عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أيها الناس اربعوا على أنفسكم، إنكم ليس تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم» [رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤)].

ومعنى «اربعوا على أنفسكم»: ارفقوا بأنفسكم، واخفضوا أصواتكم.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ المتجاوزين أمره سبحانه والمعرضين عن دينه وشرعه، ومنهم المتجاوزون في الدعاء، الذين يدعون غير ربهم، أو الذين يسألونه في دعائهم ما لا يليق بهم أن يسألوه منه سبحانه، كأن يسألوه شيئاً محرماً أو قطعة رحم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل» قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: «يقول: قد دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك، ويدع الدعاء» [رواه مسلم (٢٧٣٥)].

وقوله: «يستحسر» أي: ينقطع عن الدعاء.

#### • الفساد والتلوث:

إن الإعراض عن دين الله وشرعه يؤدي إلى الفساد في الأرض، وانتشار الظلم بين الناس، كما يؤدي إلى انقسام المجتمعات إلى شيع وأحزاب، وتفككها وضعفها، وتآكل الحضارات وسقوطها، ولهذا قال تعالى محذراً من هذه النتائج السيئة:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: بعد أن جعلها الله تعالى

صالحة، فخلقها على الوجه الملائم للإنسان ومعاشه، كما مر معنا في قوله صلى الله عليه وسلم:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٠].

وأصلحها سبحانه أيضاً بالشرائع السماوية التي أنزلها على أهل الأرض، يبين لهم فيها ما يصلح لهم من المناهج والشرائع التي تُسعدهم، وتُبقي لهم الأرضَ صالحةً لحياتهم، عامرةً بسعيهم وجدهم ونشاطهم.

إنَّ التزامَ دينِ الله وشرعه، والسير على منهج التوسط والاعتدال الذي امتازت به الشريعة الإسلامية، كما مرَّ معنا، من غير سرف ولا ترف، هو الذي يحفظُ جمال الأرض ونقاءها وبيئتها الصالحة للحياة عليها.

وإنَّ خروجَ الناس عن دين الله تعالى، واتباعهم لأهوائهم وشهواتهم من خلال الشرائع الوضعية التي تعكس حبَّ الذات والتملك والجشع والطمع في نفوسهم، هو الذي أدَّى إلى فسادِ الأرضِ وتلويثِ بيئَةِ الحياة فيها.

لقد أدَّى الطمَعُ بالإنسان إلى إفسادِ الأرضِ وتلويثِ البرِّ والبحر والجو، حتى أصبح الوجود البشري على الأرض مهتدداً، وأخذت أنماطُ من الحياة الحيوانية الفطرية بالانقراض.

إنَّ نفايات المفاعلات النووية وما يتسرَّبُ من إشعاعاتها، وعدام المعامل، وأسلحة التدمير الشامل من ذرية وكيميائية وجرثومية، أثر على بيئة الحياة في الأرض وأظهر الخلل فيها، وما الفجوةُ التي حدثت في الغلاف الأوزوني المحيط بالأرض إلا مظهراً من مظاهر الخلل والفساد في بيئة الحياة.

أضف إلى ذلك أنماط الحياة البشرية المصادمة للفطرة والكرامة الإنسانية المستحدثة، والتي أدَّت إلى الانحلال الخُلقي والتمزق الاجتماعي، وتغلَّب نزعة الأنانية والفردية، وعدم الشعور بالانتماء والمسؤولية على كثير من الشباب في العصر الحاضر.

#### ● سبيل النجاة:

لقد مرَّ معنا أن الله تعالى نواميس في خلقه ثابتة لا تتغير، منها ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وسياتي معنا ما يماثله في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].  
 وإنَّ الطغيان والعدوان، والسرف والترف، والجشع والطمع، الذي تتسم حياة الناس في ظل الحضارة المادية وشرائعها الوضعية: أصبح خطراً يهدد بقاءها، وينذر بسقوطها، ولا نجاة للبشرية من هذا المصير المظلم إلا بالعودة إلى دين الله تعالى وشرعه، وهو ما أمر به سبحانه بعد أن حذر من عاقبة الفساد في الأرض، فقال:

﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ ارجعوا إلى دينه وشرعه، وأنتم خائفون من بأسه وانتقامه، وراجون رحمته وفضله.

فلا يأس من رحمة الله ولا قنوط، ومهما ابتعد الشاردون عن طريقه، وأبعدتهم معاصيهم وآثامهم عن بابه، فإنه غفور رحيم، يغفر لهم ويرحمهم إذا عادوا تائبين مستغفرين، ادعوه خوفاً من عدله، وطمعاً في فضله.

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يحسنون العمل في عبادته وطاعته، وقال: ﴿قَرِيبٌ﴾ لكي يبين أن المراد من الرحمة آثارها، فكأنه تعالى قال: إن إحسان الله وفضله قريب من المحسنين.

#### • الرياح المبشرات:

ومن مظاهر فضله وإحسانه على عباده إرساله الرياح الحاملة للخير والخصب والنماء:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقِنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: مبشرة بقرب أثر من آثار رحمته وفضله، وهو السحاب الحامل للمطر، كقوله تعالى في سورة الروم:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ لِيُذِيقَكُمْ مِمَّن رَحِمْتَهُ لِيَتَّخِذَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَلِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٤٦).

فالرياح الرطبة التي تأتي بتقدير الله تعالى من جهة البحار، تحمل السحاب، وتبشّر بقرب نزول المطر، والتنبؤات الجوية القائمة على رصد حركة الرياح واتجاهاتها، وقياس سرعتها وحرارتها، وكثافة بخار الماء فيها، لا تدخل في نطاق التكهن والتنبؤ المحظورين في الإسلام، فهي ليست من الغيب، لأنها تقوم على أمور مشاهدة محسوسة، بواسطة الآلات التي هدى سبحانه إلى صنعها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي: حتى إذا حملت الرياح السحب الكثيفة المشبعة ببخار الماء، فالرياح لا تأتي بالسحاب الممطر بشكل دائم ولازم، فقد تأتي أحياناً بالغبار والتراب إذا ما قَدَّر لها سبحانه أن تأتي من جهة الصحارى والأراضي اليابسة الجرداء.

﴿سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي: سقنا السحاب بوساطة الرياح لبلد مجذب يابس، لا نبات فيه ولا زرع، فإيرادته تعالى وقدرته تتوجّه الرياح، وارتباط سيرها بالأسباب الأرضية التي تتصل بتقلبات الطقس لا يتعارض مع هذه الحقيقة، فهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات، ومشئته سبحانه نافذة في ذرات الموجودات، وقدرته سبحانه من وراء كل الأسباب والمسببات.

﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ﴾ أي: فأنزلنا بمشيئتنا وقدرتنا الماء بهذا البلد المجذب القاحل. فنزول الماء من السحاب بتقدير الله تعالى، وكثيراً ما تظهر السحب الكثيفة في جو السماء، ولا ينزل المطر.

﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ التي قَدَّر سبحانه إخراجها وخلقها.

وهذا دليل على قدرته سبحانه على إخراج الأموات، وبعثهم من قبورهم يوم القيامة:

﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون، وتعرفون أنكم مسؤولون عن أعمالكم، وأنه سبحانه لم يخلقكم سدى.

## • القابلية والاستعداد:

ولا يخرج النبات إلا من الأرض التي جعل الله فيها القابلية والاستعداد للانتفاع بماء المطر والإنبات، فثمة بقاع كثيرة لا تصلح للنبات، وكذلك النفوس البشرية، ترى بينها اختلافاً كبيراً في الاستعداد والقابلية للانتفاع من الشرائع الإلهية المنزلة عليهم، قال تعالى:

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾

﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ﴾ ذو التربة الطيبة المنبثة.

﴿يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ بمشيئته سبحانه، ويكون طيباً نافعاً جميلاً.

﴿وَالَّذِي خَبَتْ﴾ أي: والبلد ذو التربة الخبيثة التي لا تصلح للإنبات، إما

لقسوتها أو لكثرة الأملاح فيها.

﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: لا يخرج النبات إلا خروجاً قليلاً لا خير فيه.

﴿كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْأَيَاتِ﴾ وهكذا يقرّب الله المعاني في ألفاظ وجمل رائعة

معجزة.

﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ يعرفون فضل المنعم عليهم، ويتنفعون بما أنعم به عليهم،

عندما أرسل إليهم الرسل يحملون لهم الشرائع التي تسعدهم في الدنيا والآخرة.

إنهم أصحاب القلوب الطيبة التي تقبلُ شرع الله تعالى وتعمل به، فتبني

ولا تخرب، وتصلح ولا تفسد، وفي الحديث الشريف: عن أبي موسى

الأشعري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مثلُ ما بعثني الله من الهدى والعلم، كمثل

الغيث الكثير أصاب أرضاً، فكانَ منها نقيّةٌ قبلتِ الماءَ، فأُنبتتِ الكلاً والعشبَ

الكثيرَ، وكانَ منها أجادبُ، أمسكتِ الماءَ، فنفعَ الله بها الناسَ، فشرَبوا وسقوا

وزرعوا، وأصابَ منها طائفةٌ أخرى، إنّما هي قيعانٌ لا تمسِكُ ماءً، ولا تنبتُ

كلاً، فذلك مثلُ مَنْ فقهَ في دينِ الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم،



ومثل مَنْ لم يرفعْ بذلك رأساً ، ولم يقبلْ هدى الله الذي أرسلتْ به» [رواه البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢)].

فالنفوسُ البشرية مختلفةٌ في مدى استعدادها وقابليتها للخير، تماماً كاختلاف بقاع الأرض في صلاحيتها للزرع والنبات، ولا عجب في ذلك فالإنسان مخلوق من تراب الأرض.

بهذا المثل الرائع عن قابلية الإنسان واستعداده للخير أو للشر، ختمت الآيات الكريمة في سورة الأعراف حديثها عن الإنسان ومبدأ وجوده، وصراعه مع الشيطان، وصلته بالأرض، ومسؤوليته وحرите واختياره وتكليفه، وعلاقته بالكون والنواميس الدقيقة، التي أبدعها الخالق العظيم.



## الْفَصْلُ الْخَامِسُ

## صَفَحَاتٌ مِنَ التَّارِيخِ

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ أَلَمَلًا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي صَلْبِ مِثْبِينِ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَنْقُورِ لَيْسَ بِي صَلَّةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ وَإِلَىٰ عَادِ آخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَلَمَلًا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظَنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَنْقُورِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَدْرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأِننَّا بِمَا نَعْبُدُونَ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ أَنْتُمْ جِدُلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سَمَيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظَرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ آخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَنْقُورِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَدِيَةٌ نَافَةٌ اللَّهُ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا

فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ  
 ءَامَنَ مِنْهُمْ أَعْلَمُونَ أَلَمْ يَصِلْ مَا أُرْسِلُ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾  
 قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنُمْ بِهِ كَفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ  
 رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحْ آفَاتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ  
 فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٧٨﴾ فَنوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ  
 لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَ ﴿٧٩﴾ وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ النَّجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ  
 أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ الْبَنَاتِ أَلَمْ تَرَ قَوْمَ مُسْرِئُونَ  
 ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْطَهُرُونَ  
 ﴿٨٢﴾ فَأَجَبْنَاهُ وَأَهْلَاهُ إِلَّا أَمْرَاتَهُ كَانَتْ مِنَ الْعَدِيِّينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا  
 كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا  
 لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا  
 تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ  
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ  
 ءَامَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ  
 عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِنْكُمْ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَآئِفَةٌ لَمْ  
 يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ أَمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ  
 قَوْمِهِ لِنُخْرِجَنَّكَ يَشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لِنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَئِكَ كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾  
 قَدْ أَفْرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِنْهَا مَنًى وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ  
 يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ  
 الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ  
 الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَخْلُفُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا  
 شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ  
 فَكَيْفَ ءَأَسَى عَلَى قَوْمٍ كٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِئْسَاءِ

وَالصَّرَاءَ لَعَلَّهُمْ يَضَّرِعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّبَيْتَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا  
 الصَّرَاءَ وَالصَّرَاءَ فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ  
 بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ  
 أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ  
 ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ  
 يَرْتُوتِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّو نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا  
 يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقِضْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا  
 لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا  
 لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴿١٠٢﴾

#### • القرآن الكريم والتاريخ:

شرعت الآيات تعرض لنا صوراً تاريخية متلاحقة لمسيرة الإنسان على الأرض، كشفت لنا من خلالها كيفية تعامل الإنسان مع الرسائل الإلهية من جانب، ومع الشيطان من جانب آخر، صوراً واقعية للحياة البشرية، فيها الاستقامة والانحراف، والعدل والظلم، والعمران والخراب، والخير والشر، وأظهرت لنا من خلالها أيضاً دور المواجهة بين الخير والشر في تحريك أحداث التاريخ، والأسباب الأساسية الكبرى لهلاك الأمم وسقوط الحضارات.

ولقد احتلت هذه الصور التاريخية مساحة كبيرة من السورة، مما يدل على الأهمية الكبيرة للتاريخ، وأن له دوراً هاماً في حاضر الوجود البشري ومستقبله. إنَّ للتاريخ في نظر القرآن الكريم تأثيراً كبيراً على حياة الإنسان ومستقبله، ورغم أن أحداثه مضت وانقضت، إلا أنها تبقى بصماتها واضحة على السلوك البشري وممارساته، كما أنها تساهم بشكل غير مباشر في تحريك الأحداث ودفعها.

فمن طبيعة الإنسان أنه ينفعل مع الحوادث، يتأثر ويؤثر، وقراءة التاريخ

مرآة، يرى الإنسان من خلالها انفعالاته وردوده الانعكاسية على كل ما يواجهه في حياته، إنَّ التاريخَ ذخيرةٌ حيَّةٌ من التجارب الواقعية للحياة البشرية على الأرض، تُمدُّ الإنسان بفيض زاخر من العبر والدروس والعظات.

وروعةُ القرآنِ أنه يتخيَّرُ من الحدث التاريخي الجانبَ المؤثِّرَ في الإنسان، الذي يتفق مع الموضوعات التي يعالجها، ولهذا فإنَّ على الذي يريدُ أن يُلمَّ بالحدث التاريخي من جميع جوانبه، أن يتتبع حلقاته في جميع المواضع التي ذكر فيها، وسيرى في كلِّ موضع شيئاً جديداً، غير موجود في المواضع الأخرى.

اختارت الآياتُ الكريمةُ عدداً من المجتمعات البشرية البائدة الموغلة في القدم، والتي قامت في بلاد العرب، حيث أنزل القرآن الكريم، وفي البلاد المتاخمة لها، ويبدو أنَّ هذه البلاد، هي البلاد التي شهدت بزوغ فجر الحضارات البشرية، وظهور المجتمعات الإنسانية قبل غيرها، فهي البلاد التي تتوسط العالم القديم في قاراته الثلاث المتجاورة: آسية، إفريقية، أوربة؛ كما أنها تتمتع بمناخ معتدل، وفيها سهول كبيرة ذات تربة خصبة، تجري فيها أنهار غزيرة دائمة الجريان، مما يجعلها صالحةً لنمو المجتمعات البشرية أكثر من غيرها؛ فلا عجب أن يركِّز القرآن على تاريخ المجتمعات البشرية التي عاشت في هذه البلاد، إذ هي غنية بالتجارب الإنسانية بسبب كثرة الأمم التي سكنتها أو مرَّت منها، كما أنه سبحانه أرسل فيها كثيراً من الأنبياء والمرسلين، وأنزل فيها أعظم الشرائع.

لقد عرضت الآيات بعض الصور التاريخية لهذه المجتمعات بحسب تسلسلها الزمني، فبدأت بأقدمها ثم بالذي يليه... . وكأنَّ السورة ترسم لنا خطاً بيانياً لحركة تاريخ المسيرة البشرية على الأرض، من مبدأ وجودها وحتى عصر خاتم الأنبياء والمرسلين، عليه وعليهم الصلاة والسلام؛ عندما ظهرت الأمة المسلمة وحضارتها الإسلامية، وبهذا فصّلت الآيات ما سبق أن ذكرته مجملًا

في أول السورة: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَانَيْتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ (٤)، وبيّنت لنا من خلال العرض الميداني الواقعي أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات.

### • قوم نوح:

نوح ﷺ أول رسول أرسل إلى أهل الأرض، والدليل على ذلك ما ورد في حديث الشفاعة، المتفق على صحته، قال فيه رسول الله ﷺ عن نوح: «... فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ».

وبعثته ﷺ إلى أهل الأرض باعتبار الواقع، كما قال ابن حجر رحمه الله، لصدق أنهم قومه، بخلاف عموم بعثة نبينا محمد ﷺ لقومه ولغير قومه (١).

ويبدو أن قوم نوح كانوا هم أهل الأرض في ذلك الزمن الموعول في القدم، وكانوا يقيمون في العراق، بلاد ما بين الرافدين، قبل أن ينتشر الناس في الأرض.

وكان الناس في أول أمرهم منذ أبيهم آدم ﷺ موحدّين، يعبدون الله وحده، ثم طرأت عليهم الوثنية، فعبدوا الأصنام، وقد بين ابن عباس رحمه الله كيفية انتشار عبادة الأصنام بينهم، فقال عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُ إِلَّا الْهَتَكُ وَلَا نَذَرُ وَلَا وَدًّا وَلَا سُورًا وَلَا يَعُوذُ وَيَعُوذُ وَسَرًّا﴾ [نوح: ٢٣]: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلمّا هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً، وسمّوها بأسمائهم. ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسخ العلم، عبّدت. [رواه البخاري (٤٩٢٠)].

ومعنى قوله: (ونسخ العلم) أي: ضاع علمهم بأصل الأنصاب، وفشا بينهم الجهل، ويؤيده - أي: ابن عباس رحمه الله - قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

(١) فتح الباري: ٤٣٤/١١.

وقصة نوح مع قومه قصة طويلة، امتدّت على مدى تسعة قرون ونصف، ولم تعرض لنا الآيات سوى حلقة من حلقات المواجهة الكثيرة بينه وبينهم:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۚ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ .

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ ۚ لَآئِنه لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ غَيْرَ اللَّهِ .

﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ .

فمهمة الأنبياء الأساسية أن يدعوا الناس إلى عبادة الله تعالى وحده، أما الإيمانُ بوجوده سبحانه، فأمرٌ مركوز في فطرة الناس، وكل الدلائل العقلية تدلُّ عليه جلَّ وعلا، ولهذا قال نوح لقومه: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ غَيْرُهُ﴾ وهي الكلمة التي قالها أيضاً جميع المرسلين لأممهم، كما سيأتي معنا.

#### • استكبار وعناد:

وكان ردُّ رؤساء الضلال في قومه غليظاً وخشناً:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ ۖ إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ .

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ الذين يملؤون الأبصار بزيتهم وخدمهم وأعوانهم.

﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: في ذهابٍ وابتعادٍ عن طريق الصواب.

وكلمة (نراك) تدلُّ على استكبارهم واستعلائهم.

ونفى ﴿لَنَرْنَكَ﴾ عن نفسه صفة الضلال على أبلغ وجه:

﴿قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِضَلَالَةٍ ۖ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ .

﴿قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ لَيْسَ بِضَلَالَةٍ﴾ وهي المرّة الواحدة من الضلال.

ثم استدرك مثبتاً لنفسه صفة الرسالة التي أكرمه بها ربُّ العالمين:

﴿وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .  
ومبيِّناً المهمة التي كُلِّفَ بها :

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ .

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾ وهي أحكام دينه وشرعه .  
﴿وَأَنْصَحُ لَكُمْ﴾ وأتحرّى ما فيه صلاحكم وسعادتكم، فلا أريد لكم إلا  
الخير .

﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: وأعلم من صفات كمال الله وجلاله  
ما لا تعلمون، فهو رحيم بعباده، يغفر للتائبين ويرحمهم، وهو شديد العقاب،  
لا يردُّ بأسه عن القوم المجرمين المعرضين عن رسالة ربِّهم .  
وكان قومه قد استبعدوا رسالته، واستنكروا أن يرسله الله إليهم، فردَّ على  
استنكارهم قائلاً:

﴿أَوْعِبَّتُمْ أَنْ جَاءَ كُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رِجْلِ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ .

﴿أَوْعِبَّتُمْ أَنْ جَاءَ كُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فتعجَّبكم لا معنى له، واستنكاركم  
لا داعي له . والذكر: الوحي .

﴿عَلَىٰ رِجْلِ مِّنكُمْ﴾ تعرفونه، وتعرفون نسبه وصدقه وأمانته .

﴿لِيُنذِرَكُمْ﴾ من عذابه سبحانه .

﴿وَلِتَتَّقُوا﴾ الكفرَ والمعاصي بطاعته سبحانه .

﴿وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فالإنذار يدفع إلى التقوى، وهي سبب الرحمة .

وجيء بحرف الترجي (لعل) في الرحمة، للتنبية على عزة الرحمة وعلو  
مطالبها، وأنها منوطة بفضل الله تعالى ومشيتته، فلا اعتماد إلا عليه<sup>(١)</sup> .

(١) انظر: روح المعاني: ٨/١٥٣ .



﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَجْنَبْنَاهُ وَالدِّينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَاعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا

عَمِينَ ﴿٦٤﴾ .

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وأصروا على شركهم وكفرهم .

﴿فَأَجْنَبْنَاهُ﴾ من العذاب الذي نزل بهم، وهو الغرق بالطوفان .

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من المؤمنين، وما آمن به إلا قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا

ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] .

﴿فِي الْفُلْكِ﴾ في السفينة التي صنعها بأمر الله ووحيه، كما ذكر سبحانه في

قوله: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِطُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧] .

﴿وَاعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي: كانوا عمي

القلوب والبصائر عن رؤية دلائل الحق الواضحة، بسبب تكبرهم واتباعهم لشهواتهم وأهوائهم .

وهكذا أهلك الله مجتمعاً بشرياً كان من أقدم المجتمعات البشرية وجوداً،

ودمر حضارته بسبب إصرارهم وعنادهم الذي امتدّ تسعة قرون ونصف، مما يدلُّ

على طول أعمارهم ورسوخ حضارتهم .

#### • عاد قوم هود:

ثم طوت الآيات أحقاباً طويلة من الزمن، حتى انتعش الوجود البشري مرّة

ثانية في الأرض، بعد أن تكاثر أبناء نوح الذين كانوا معه في السفينة، واختارت

الآيات أمة عاد قوم هود عليه السلام، الذين كانوا يسكنون في الأحقاف، في الجنوب

من شبه الجزيرة العربية، ويسمى اليوم بصحراء الربع الخالي، وكان في الماضي

خصباً كثير الخيرات، غنياً بالمياه والنباتات، قال تعالى:

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهِ أفلا ننقون﴾ ﴿٦٥﴾ .

﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ أي: وأرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً .

﴿قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وهي الكلمة التي قالها نوح لقومه .  
﴿أَفَلَا نُنْقِوْنَ﴾ الله تعالى فتعبدوه وتطيعوه وحده .

وبادر الملائ من قومه إلى معارضة دعوته، والصدِّ عن رسالته، كما فعل الملائ من قوم نوح عليه السلام :

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (٦٦)

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرُّكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ أي: في حُمقٍ وجهالةٍ وقلةٍ عقل .

﴿وَإِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

وردَّ هود عليه السلام عليهم نافيةً ما اتهموه به، كما فعل نوح عليه السلام :

﴿قَالَ يَقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٦٧) أُبْلِغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي  
وَإِنَّا لَكُم نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٦٨)

أمين على رسالة ربي، أو أمين في نُصْحكم .

﴿أَوْعِيبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ  
مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصًطَةً فَأَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٦٩)

﴿أَوْعِيبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ ؛ ولا بدَّ أن يلحظ

القارئ كثرة التشابه بين قوم نوح وبين قوم هود، ممَّا يدلُّ على أنَّ طبيعة الإنسان لم تتغير مع مرور الزمن .

• قوة الأبدان والعضلات:

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي: اذكروا فضل الله عليكم إذ

جعلكم تخلفون قوم نوح في عمارة الأرض واستثمار خيراتها، فاحذروا أن ينزل بكم من العذابِ والهلاكِ مثل ما نزل بهم .

ويبدو أن أمة عادٍ كانت في ذلك الوقت أقوى الأمم وأغناها، فكأنَّ الأرضَ كانت لهم وحدهم، كما كانت لقوم نوح عليه السلام، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

فكأنَّ الآياتِ في سورة الأعراف اختارت في عرضها لمسيرة حركة التاريخ البشري، أقوى الأمم في عصرها، وأغنى المجتمعات، وأعظمها حضارة ومدنية، لكي تبين أسباب هلاكها وسقوط حضارتها .

ومما يؤكد أن قوم هود كانوا أقوى الأمم في عصرهم، أنه سبحانه خصَّهم بقوة أبدانهم وعضلاتهم في عصر كانت قوة الأبدان والعضلات أهم أسباب التفوق والتغلب، فلم يكن في عصرهم مثلهم في ضخامة الأجسام وقوتها، ولهذا قال لهم هود، وهو يذكرهم بفضله سبحانه عليهم:

﴿وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ أي: زاد في قوة أجسامكم وحجمها .

﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ﴾ أي: نعم الله تعالى عليكم لتعرفوا فضله وإحسانه، فتشكروه وتعبده وحده، وقد ذكر الله في سورة الشعراء تفصيلاً لبعض آلاء الله تعالى عليهم على لسان هود: ﴿اتَّبِنُونَ كُلَّ رِيعٍ أَيَّةَ تَعْبُوتٍ ﴿١٧٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٧٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٨٠﴾ فَانْقُوا لِلَّهِ وَأَطِيعُوا ﴿١٨١﴾ وَأَنْقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ﴿١٨٣﴾ وَحَنَّتِ وَعُيُونٍ ﴿١٨٤﴾ .

وهذا يدلُّ على أن بلادهم كانت خصبةً، أهلةً بالسكان والعمران، جناتها كثيرة، ومياهاها غزيرة، وخيراتها وفيرة، وكان لهم حضارة قوية ما عرفت المجتمعات البشرية مثلها في عصرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِمْرًا ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخَلِّقْ مِثْلَهَا فِي الْعَالَمِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر].

﴿لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ فشكر المنعم بطاعته والتزام شريعته، هو طريق الفلاح والنجاح، ومرر معنا أن الشيطان قال: ﴿وَلَا تَحِجُّوا أَكْثَرَهُمْ شَكَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].  
وأصرَّ القوم على كفرهم وعنادهم كما فعل قوم نوح:

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ. وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَيْنَا يِمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ (٧٠).

﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ فكانَّ عبادة الله وحده منكر في نظرهم.  
﴿وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان.  
إنَّ التمسك بالتقاليد المتوارثة عن الآباء والأجداد من أكبر المعوقات التي تقوم في وجه دعوة الأنبياء والمرسلين، وتمنع كلَّ إصلاح وتقدم.  
﴿فَأَيْنَا يِمَّا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ إنه العناد والتحدي.

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَدِّلُونَ فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ (٧١).

﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: قد نزل ووجب.  
فجعل المتوقع الذي لا بدَّ من نزوله بمنزلة الواقع<sup>(١)</sup> ممَّا يدلُّ على شدة ثقته ﷺ بربه؛ فهو يعلمُ أنَّ الله تعالى نوايس في خلقه لا تتغير، منها إهلاك المعرضين عن دعوة رسله والمعاندين لدينه وشرعه.  
﴿رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي: عذابٌ وسُخْطٌ.  
وأردف ﷺ بيِّن لهم حقيقة أصنامهم التي يعبدونها فقال:  
﴿أُتُجَدِّلُونَ فِي أَسْمَاءٍ﴾ فهي ليست سوى أسماء، عارية عن المسمَّى، بسبب ضعفها وعجزها، إنَّ هي إلا رموزٌ وأسماءٌ مخترعة.

(١) تفسير النسفي: ٥٧٨/٢.

﴿سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي: من حجة ولا برهان.  
 ﴿فَأَنْتَظِرُوا﴾ نزول العذاب.  
 ﴿إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.  
 وبعد الانتظار:

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٧٢).

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ من العذاب الذي أنزله الله على الأمة كلها، لأنهم آمنوا وخرجوا على ضلال المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه، ولم يسيروا مع تيار الضلال الغالب عليه، ولم يرضوا به.  
 ﴿بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ أوجبها سبحانه على نفسه فضلاً منه وإحساناً، كما قال:  
 ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣].  
 ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي: أهلكتناهم إهلاكاً كلياً، ودمرناهم عن آخرهم، لأنهم كذبوا بآيات الله.  
 ﴿وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ مصدقين بها، ومدعين لها.

حبس الله عنهم المطر حتى أجذبت بلادهم، وبيست زروعهم، وهلكت أنعامهم، ثم أرسل عليه الريح العقيم والأعاصير المدمرة في أيام نحسات حاسمة: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَنِيَةً أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (٧٢) فهل ترى لهم من باقية؟ [الحاقة].

وهكذا أهلك الله أمة كانت أقوى الأمم في زمانها، ودمر حضارة كانت أغنى الحضارات وأنضرها في عصرها، لأنهم أعرضوا عن دعوته، دعوة الرحمن، واتبعوا وساوس الشيطان.

• ثمود قوم صالح:

وانتقلت الآيات إلى موقع حضاري آخر في أرض العرب، وتحولت من

الجنوب إلى الشمال، إلى أمةٍ ورثت كلَّ ما كان لعاد من قوةٍ وغنىٍ وتمكن في الأرض، إلى ثمود التي كانت أيضاً أقوى الأمم في عصرها وأكثرها غنىً وحضارة، قال تعالى:

﴿وإلى ثمود آخاهم صليحاً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بآية من ربكم هذِهِ ناقةُ الله لكم آيةٌ فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عذاب الأليم﴾ (٧٣).

﴿وإلى ثمود آخاهم صليحاً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بآية من ربكم﴾ أي: معجزة واضحة تدلُّ على صدق صالح عليه السلام في نبوته ودعوته.

﴿هذِهِ ناقةُ الله لكم آيةٌ﴾ معجزة في كيفية خلقها، إذ خلقها سبحانه أمامهم من صخرة، وفي شربها، فقد كانت إذا وردت ماء البئر تشربه كله، وفي عطائها، فقد كانت تعطيهم لبناً كثيراً يكفيهم جميعاً، وما أعطوها إلا بعد أن سألوها، كما جاء في قوله تعالى عنهم في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هذِهِ ناقةُ هَٰؤُلَاءِ شَرِبُوا وَلَكُمْ شَرِبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾.

﴿فَذَرُوهَا﴾ اتركوها.

﴿تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ الْإِلِيمِ﴾.

وبعد أن حذَّره من عذاب الله الأليم ذكَّرهم بفضلهم عليهم:

﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَنْجُذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجُونَ الْجِبَالَ بِيُوتًا فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (٧٤).

﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ في القوة والغنى والتمكُّن.

﴿وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: وجعلكم تنزلون وتسكنون في أرض الحجر بين الحجاز والشام.

﴿تَنْخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا﴾ أي: تبنون القصور في سهولها.

وكلمة (القصور) تدلُّ على الغنى وامتداد العمران وكثرة الزخارف فيها.

﴿وَنَحْنُ نُنزِلُ الْجِبَالَ يَوْتُاتًا﴾ أي: وتشقون الجبال، وتبنون فيها البيوت، فالعمران كان يغلب على حضارتهم، وكانوا يعيشون في غنى ورخاء، يقيمون في قصورهم شتاءً، ويصعدون إلى بيوتهم الجبلية صيفاً.

﴿فَاذْكُرُوا آيَاتِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي: لا تنتشروا الفساد في

الأرض، فالإعراض عن عبادة الله تعالى ودينه وشرعه، يؤدي إلى نشر الفساد، فنعمة الله كثيرة، والأرض صالحة للعيش الكريم السعيد، فلا تفسدوها بموالة الشيطان واتباع الأهواء والشهوات.

#### • ضعف وقوة:

استجابت لدعوة النبي صالح ﷺ فئة قليلة من عامة قومه، وأبى أكثرهم، وانضموا إلى الأغنياء والوجهاء، وتعرض المؤمنون للأذى والسخرية، وعرضت لنا الآيات مشهداً من مشاهد المواجهة بين الفئة الضعيفة المؤمنة وبين زعماء الكفر والضلال ومن وقف معهم:

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ  
أَنْ صَلَحًا مَرَّسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾﴾ .

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ﴾

أي: للذين آمنوا وقبلوا دعوة صالح ﷺ .

وجاء التقييد بوصف الإيمان، لكي يبين أن بعض العامة قد استجاب لدعوة

الحق وآمن بها، وأما أكثرهم فظلوا على كفرهم متابعين لزعمائهم ورؤسائهم.

﴿أَتَعْلَمُونَ أَنْ صَلَحًا مَرَّسَلٌ مِّن رَّبِّهِ﴾، قال لهم ذلك على سبيل السخرية

والاستهزاء والتهديد والوعيد، ولهذا عدل المؤمنون عن الجواب بـ (نعم) إلى إعلان إيمانهم بدعوة صالح عليه السلام على سبيل التحدي:

﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِءُ مُؤْمِنُونَ﴾ فصدق صالح واضح معلوم، والواجب المبادرة إلى الإيمان برسالته، وهو ما نواجهكم به، ولو كان يسوءكم ويؤلمكم.

عجباً للإيمان، ما أعظم تأثيره على النفوس والقلوب! جعل الفئة المستضعفة المقهورة فئة قوية تتحدى جبروت الظالمين، وتعلن كلمة الحق في وجوههم مجلجلة مدوية.. لقد سكب الإيمان بالله القوة في قلوبهم، والثقة في نفوسهم، فأصبحوا أقوياء بعد أن كانوا ضعفاء.

وفوجئ الطغاة المتكبرون بشجاعة المؤمنين وثباتهم وقوة إيمانهم، فلم يجدوا رداً عليهم ليحفظوا ماء وجوههم، ويستروا خزيبهم، إلا أن يعلنوا كفرهم:

﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِءُ كٰفِرُونَ﴾ (٧٦).

#### • وقفة على الأطلال:

ثم تهادوا في طغيانهم:

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَنْصَلِحُ آثِنًا يَمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ

الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧٧).

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ﴾ أي: قتلوا الناقة المعجزة.

﴿وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي: استكبروا عن الانقياد لأمر ربهم الذي

أخبرهم به صالح عندما قال لهم: ﴿وَلَا تَمْسُوهَا يَسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ الْعِيءِ﴾

[الأعراف: ٧٣].

﴿وَقَالُوا يَنْصَلِحُ آثِنًا يَمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولا شك أنهم قالوا



ذلك على سبيل التحدي والعدا، كما فعل قوم عاد قبلهم، فمواقف المعاندين المعرضين عن دين الله متشابهة، ولو اختلف الزمان والمكان.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة، أخذتهم كما يؤخذ الشيء اليسير الحقيقير.

وَدَلَّ حرف الفاء في قوله: (فأخذتهم) على التعقيب، فلم يمهلوا كثيراً بعد عقرهم الناقة المعجزة، بل عجل الله تعالى في إهلاكهم والانتقام منهم. وقد بين سبحانه في سورة هود أنه أمهلهم ثلاثة أيام فقط، عانوا في أثنائها أشد أنواع القلق والخوف مع الترقب والانتظار: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدُّ غَيْرٍ مَّكَذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾.

وجاءتهم الصيحة من فوقهم والزلزلة من تحتهم:

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ﴾ هامدين لا حراك بهم، دمرت الزلزلة قصورهم ومساكنهم وسائر عمرانهم.

ونجى الله ﷻ نبيه صالحاً والمؤمنين، فوقف ﷺ على أطلال قومه وخرائب عمرانهم وجثثهم الهامدة:

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَنْقُورٍ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ

النَّاصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾

﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: أشاح بوجهه عنهم لهول منظر الخراب والدمار والموت.

﴿وَقَالَ يَنْقُورٍ لَقَدْ أَتَلَفْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾. وكما خاطب صالح قومه بعد أن أهلكهم الله، خاطب نبينا محمد ﷺ قتلى المشركين بعد غزوة بدر حين ألقوا في القليب، ناداهم بأسمائهم وأسماء

آبائهم: «يا فلان ابن فلان، ويا فلان ابن فلان أيسرُّكم أنكم أتعتم الله ورسوله؟ فإننا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً؛ فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟» فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجسادٍ لا أرواح لها؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «والذي نفسُ محمدٍ بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» [رواه البخاري (٣٩٧٦)] قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً ونقمة وحسرة وندماً.

وهكذا أهلك الله تعالى أمة ثمود، وسقطت حضارتهم، فلم يبقَ منها إلا الأطلال والقصور المنحوتة في صخور الجبال، وعندما مرَّ بهم النبي ﷺ وأصحابه، وهم في الطريق إلى تبوك، قال ﷺ: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين، حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم» ثم زجر فأسرع حتى خلفها. [رواه مسلم (٢٩٨٠)].

#### • قوم لوط:

ومضت الآيات مع حركة التاريخ البشري في الأرض، وتجاوزت أمماً كثيرة وحضارات كبيرة، حتَّى وصلت إلى العصور التاريخية التي تمكَّن الإنسان من رؤية بعض معالمها، ومعرفة شيء عن أحداثها، وصلت إلى عصر إبراهيم ﷺ، حيث انتشرت المجتمعات البشرية وتكاثرت، وبرزت فيه عدَّة حضارات، واختارت الآيات منها مجتمعاً بشرياً كان يقيم في أرض فلسطين في منطقة البحر الميت أو بحيرة لوط، وقفت الآيات عند هذا المجتمع البشري لكي تبين سبباً من أكبر أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، وهو الخروج عن سنن الفطرة التي فطر الناس عليها في شأن تكاثرهم وتناسلهم، وتلبية رغباتهم الجنسية.

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٨٠﴾

﴿وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾ منكراً وموبخاً:

﴿أَتَأْتُونَ الْفَحِشَةَ﴾ الفعلة التي بلغت أقصى غاية في القبح والسوء.

﴿مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فإن مباشرة العمل القبيح قبيح واختراعه أقبح .

ثم بين ﷺ هذه الفاحشة المنكرة والباعث عليها فقال:

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ .

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ أي: أمثالكم من الذكور، كما في قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ .

فالقوم كانوا شاذين جنسياً، يأتي بعضهم بعضاً دون تمييز بين صغير وكبير، وما ذكر الرجال هنا إلا زيادة في النكير عليهم وتوبيخهم .

﴿شَهْوَةً﴾ أي: من أجل الشهوة فقط، لا من أجل غرض آخر، وهو التكاثر والتناسل وبقاء النوع، فالقوم عبيد الشهوة الشاذة .

﴿مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ﴾ أي: متجاوزين النساء، ومعرضين عنهن، وهن محل الاشتاء الفطري للرجال .

#### ● الإسراف والشذوذ:

ثم بين ﷺ سبب الشذوذ، ومجاوزة الفطرة، فقال:

﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي: خارجون عن حدود الاعتدال .

فحياة الترف والسرف، التي سبق أن حذر سبحانه منها في قوله: ﴿يَبْنَئِ عَادَمٌ حُدُودًا زِينَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] هي التي أدت بهم إلى الانحراف والشذوذ .

ولهذا انتشر الشذوذ في كثير من المجتمعات البشرية المعاصرة المترفة، كالمجتمعات الأوروبية والأمريكية، المجتمعات التي أباحت الزنى، وسهّلت الاتصال بالنساء، وشجعت عليه بكلّ وسائل إعلامها، ومن أجله استحدثوا فنون التعري وإظهار السوءات .

فالشذوذ الجنسي ليس سببه منع اختلاط الرجال والنساء، وتحريم الزنى، ومنع المرأة من كشف زينتها، وإظهار مفاتها أمام الرجال، كما يزعم بعضهم، إن شهادة الواقع تكذبهم، وتخرق عيونهم، ففي أوربة وأمريكا لم يبق ضابط واحد للاختلاط الجنسي الكامل بين كل ذكر وكل أنثى - كما في عالم البهائم - ومع ذلك انتشر الشذوذ الجنسي بينهم، ومعدله في ارتفاع دائم، ومن لا تخرق عينيه هذه الشهادة فليقرأ السلوك الجنسي عند الرجال والسلوك الجنسي عند النساء في تقرير كنزي الأمريكي<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ المتدبر للآيات الكريمة أن لوطاً عليه السلام لم يبادر إلى دعوة قومه إلى عبادة الله تعالى وحده، كما فعل سلفه من الأنبياء في الكلمة التي قالها كل واحد منهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، بل بادر عليه السلام إلى تحذير قومه من عواقب الشذوذ المنتشر بينهم، لأنه لاحظ شدة تأثير الشذوذ عليهم، لقد غلب على عقولهم وقلوبهم وسد كل منافذ الخير فيهم، حتى أصبحوا صرعى شهوتهم وشذوذهم، فهم في سكرة الشهوة لا يسمعون أي موعظة تتعلق بغير ما هم فيه، شأنهم شأن من أدمن على المخدرات، وقد وصف الله سبحانه حالته في سورة الحجر فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٧٢).

ولهذا بادر عليه السلام أولاً إلى إيقاظهم من سكرتهم، وإنقاذهم من حماة الشذوذ الذي تمكّن منهم، ومواجهة العلة المستحكمة فيهم، وهذا يدل على أن مهمة الأنبياء عليهم السلام لا تقتصر على إصلاح عقيدة الناس وعبادتهم، بل تمتد مهمتهم إلى إصلاح حياتهم الاجتماعية، وتتصدى لكل المفاسد الأخلاقية المنتشرة بين الناس.

#### ● مطر من حجارة:

وتجاهل القوم نصح لوط، ومواجهته لهم بعثتهم، وتذكيرهم بعواقبها

(١) انظر: في ظلال القرآن: ١٣١٦/٣.

الوخيمة، وبدل أن يردوا عليه، التفت رؤساء الضلال والفساد فيهم إلى العامة، وهم يسخرون من لوط ومن كان من أهله، ويتوعدونهم بطردهم من بلدهم:

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنظَهُرُونَ﴾ (٨٢).

عابوا عليهم تنزههم عن حماة الفواحش التي انغمسوا فيها، مما يدل على شدة تأثير الشذوذ عليهم، حتى أنزلتهم إلى هذا المستوى الهابط، حيث اختلَّت الموازين، وانعكست القيم، فأصبحت الرذيلة فضيلة في نظرهم، وصارت العقبة جريمة يُعاقب صاحبها بسببها، ويُطارَد من أجلها، فلا مكان له بين الملوئين الفاسدين.

ولا خير في مثل هذا المجتمع، ولا علاج له إلا الاستئصال والحسم، بسبب تحكُّم الفساد فيه:

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ﴾ (٨٣).

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ﴾ مَمَّن كانوا معه في بيته، إذ دبَّ الفساد وانتشر في جميع بيوتهم وأسرهم، كما قال سبحانه في سورة الذاريات: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٢٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٦﴾ وهو بيت لوط عليه السلام.

﴿إِلَّا أُمَّرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَافِرِينَ﴾ أي: كانت من الباقيين في العذاب، لأنها كانت تُسر الكفر، وتوالي قومها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ (٨٤).

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ من حجارة لا من ماء، كما ذكر سبحانه في سورة هود: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سِجِّيلٍ مَّنصُودٍ﴾ (٨٧).

وقد أخطأ سيد قطب رحمته الله عندما قال: «وقد أمطروا مطراً مهلكاً مع ما صاحبه من عواصف، ترى هل كان هذا المطر المغرق والماء الدافق لتطهير الأرض من ذلك الدنس الذي كانوا فيه، والوحل الذي عاشوا وماتوا فيه؟!»<sup>(١)</sup>؛ مع أنه رحمته الله قال في موضع آخر: «حجارة ملوثة بالطين»<sup>(٢)</sup>.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنِقَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ فالعاقبة أليمة، لأن الجريمة كبيرة وخطيرة، إن انتشار الشذوذ الجنسي في مجتمع من المجتمعات مؤشر خطير إلى انحلال هذا المجتمع وتآكله وسقوط حضارته.

مضى لوط عليه السلام بعيداً دون أن يتوقف أو يلتفت، كما فعل صالح عليه السلام عندما وقف على أطلال قومه، فالمنظر مُخيف لا يُحتمل، وتابع السير كما أمره ربه في قوله: ﴿فَأَسْرَ بِأَهْلِكَ يَقِطَعُ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبَعَ أَدْبَرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَأَمْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥].

#### • قوم شعيب:

وعندما اقتربت الآيات الكريمة في مسيرتها التاريخية من عصر موسى عليه السلام، وقفت عند مجتمع بشري، عاش في موقع متوسط بين بلاد قوم لوط وبلاد ثمود في الحجر، وهو مجتمع المديانيين، مجتمع التجار ورجال الأعمال الواقع بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب، ولقد استفاد المديانيون من موقع بلادهم على طرق التجارة، فاشتغلوا بها، ودرّت عليهم أرباحاً طائلة وثروات كبيرة.

وقفت الآيات عند هذا المجتمع لتبيّن سبباً كبيراً من أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، وهو الطمع والجشع الذي يؤدي إلى انتشار الغش في المعاملات، والاحتيال في المبادلات التجارية. قال تعالى:

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٣١٦.

(٢) المرجع السابق: ٤/١٩١٥.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَّ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿۸۵﴾ .

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْفَوِرَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَّ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۖ﴾ ؛ بدأ ﷺ كما بدأ سلفه من الأنبياء بدعوة قومه إلى عبادة الله وحده، فهي أساس كل إصلاح، ولا صلاح لأي مجتمع من دونها، ولم يخرج عن هذه القاعدة غير لوط ﷺ بسبب كثرة الشذوذ الغالب على قومه كما مرّ معنا.

﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: جاءتكم معجزة واضحة دالة على صدق نبوتي.

وسكتت الآيات عن هذه المعجزة، وانتقلت في الحديث عن مواجهة شعيب للمفاسد الاجتماعية التي كانت تنخر في جسم المجتمع المدياني، وتهدده بالهلاك والسقوط.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ أي: أتموا الكيل والميزان.  
﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ ولا تنقصوا الناس شيئاً من حقوقهم.

#### • التلاعب بالمقاييس:

إن انتشار الغش والاحتيال والتلاعب بالمكاييل والموازين في الأمة، يؤدي إلى تمزق في بنيتها الاجتماعية، وكساد في اقتصادها، وركود في تجارتها، فلا يثق الناس بعضهم ببعض، ويبقى كل طرف من أطراف المعاملات على حذر من الأطراف الأخرى، فلا يتعامل معهم إلا مضطراً.

ولقد حذر الله سبحانه في عدة آيات من القرآن الكريم من العواقب الوخيمة للتلاعب بالمقاييس الموضوعية لضبط التبادلات التجارية بين الناس، كالمكاييل والموازين، وسمى سورة كاملة بالمطففين الذين يفعلون ذلك، بدأها

مهتداً متوعداً بقوله سبحانه: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَبْظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾﴾ .

فالتلاعب بالمقاييس يؤدي إلى نشر الفساد في الأرض، ولهذا قال شعيب عليه السلام لقومه:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ أي: بعد أن جعلها الله سالحة لحياة الإنسان، وبعد أن أصلحها سبحانه أيضاً بالشرائع التي أنزلها كما مر معنا في قوله: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف].

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

فإن الصدق والأمانة في المعاملات التجارية يؤديان إلى إنعاش الاقتصاد ورواج التجارة وزيادة الأرباح، وقد لمس هذا كبار المنتجين في الدول الصناعية، فعملوا على تحسين إنتاجهم لترويجه بين الناس وكسب ثقتهم، لا حباً بالصدق والأمانة، فإنهم مصدر كبير للتزوير والخيانة.

﴿إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم حقاً مصدقين بدعوتي منقادين لرسالتي، فلا بد للأخلاق الطيبة الحسنة أن تستند إلى قيم ثابتة راسخة في وجدان الإنسان، وإلا تغيرت وتبدلت بحسب تقلب المصالح المادية وتغيرها.

وتابع شعيب عليه السلام مواجهة الآفات الاجتماعية المنتشرة بين قومه فقال:

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ، وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَذَّبْتُمْ وَأَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾

﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: لا تقطعوا الطرق على المسافرين



وأنتم تتوعدونهم، فقد حملهم الطمع والجشع على اعتراض طرق القوافل المارة ببلادهم لكي يأخذوا منها الإتاوات والمكوس<sup>(١)</sup>.

﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: وتمنعون عن دين الله تعالى.

﴿مَنْ آمَنَ بِهِ﴾ فكانوا يضطهدون المؤمنين ويؤذونهم، ويحاولون فتنهم عن دينهم كما كان مشركو قريش يفعلون بالمسلمين من أصحاب رسول الله ﷺ.

﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتطلبون أن تكون شريعة الله موافقةً لأهوائكم وشهواتكم.

ولا يخفى ما في خطابه ﷺ من التوبيخ والتهكم بهم، حيث طلبوا ما هو محال، إذ طريق الحق لا يعوج<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن واجههم ﷺ بمفاسدهم وأمراض مجتمعتهم، ذكرهم بنعم الله تعالى عليهم:

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾ أي: كثر عددكم بعد القلة، وكثر أموالكم بعد الفقر، فاشكروا نعمة الله عليكم وأطيعوه واعبدوه وحده.

﴿وَأَنْظُرُوا﴾ نظر التفكر والاعتبار.

﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ من الأمم السابقة كعاد وثمود وقوم لوط.

#### • الدعوة والحرية:

رأى قادة المجتمع المدياني وأصحاب الثراء والسلطان في دعوة شعيب ﷺ خطراً يهدد مكانتهم وزعامتهم، إنه يواجههم بظلمهم وبغيهم، وينكر عليهم الوسائل التي اتبعوها لزيادة ثروتهم، فدعوته ﷺ لم تقتصر على إصلاح العقيدة والعبادة، بل انتهت إلى إصلاح المجتمع كله وإصلاح أنماط التعامل والكسب فيه، فلا ينبغي أن يكون فيه احتيال وخداع، واعتداء على حقوق الضعفاء والغرباء، وأكل أموالهم بالباطل، فتصدوا له محاولين منعه عنها: ﴿قَالُوا

(١) الضرائب المأخوذة من التجار المسافرين.

(٢) انظر: روح المعاني: ١٧٨/٨.

يَدْعِيْبُ اَصْلُوْتِكَ تَأْمُرُكَ اَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَاؤُنَا اَوْ اَنْ نَفْعَلَ فِىْ اَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُا اِنَّكَ لَآَنْتَ الْاَلْحِيْمُ الرَّشِيْدُ ﴿٨٦﴾ [هود: ٨٦].

ثم هددوه بإخراجه وإبعاده عن بلده لكي يأمنوا من خطر دعوته، وأخذوا يلاحقون الذين استجابوا لدعوته، يؤذونهم، ويضيقون عليهم. وانقسم المجتمع المدياني إلى طائفتين: الطائفة المؤمنة المستضعفة، والطائفة الغنية المستكبرة.

وعزَّ على شعيب ﷺ أن يرى المؤمنين مضطهدين مستذلين، فطالب بالكفِّ عن أذاهم، وإعطائهم حرية العقيدة والعبادة، فقال:

﴿وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِآلِذِيْ اُرْسِلْتُ بِهٖ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوْا فَاصْبِرُوْا حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللهُ بَيْنَنَا وَهٗوَ خَيْرُ الْخٰكِمِيْنَ ﴿٨٧﴾﴾

﴿وَإِنْ كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنْكُمْ ءَامَنُوا بِآلِذِيْ اُرْسِلْتُ بِهٖ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوْا فَاصْبِرُوْا﴾ أي: احبسوا أنفسكم عن اضطهاد المؤمنين والعدوان عليهم، أعطوهم حريتهم. ﴿حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللهُ بَيْنَنَا وَهٗوَ خَيْرُ الْخٰكِمِيْنَ﴾ أي: حتى يقضي الله بيننا فإنه سبحانه سينصر الحق وأهله، ويخذل الباطل وأهله. ﴿وهوَ خَيْرُ الْخٰكِمِيْنَ﴾.

فلا بدَّ للحق أن ينتصر إذا ما أتيحت له الحرية في مواجهة الباطل، وهو ما طلبه شعيب من قومه عندما قال لهم: ﴿فَاصْبِرُوْا حَتَّىٰ يَخْرُجَ اللهُ بَيْنَنَا﴾ أي: ارفعوا أيديكم عن المؤمنين، واتركوا الأفكار تتواجه بحرية، فنحن لا نجبركم على الدخول في ديننا، فدعونا نبليَّ دعوة ربنا دون أن تضيقوا علينا.

وهذا ما كان نبينا محمد ﷺ يبحث عنه عندما أخذ يعرض نفسه على قبائل العرب في المواسم، فكان يوافي في الموسم الحجاج في منازلهم في عكاظ ومجنة وذئ المجاز، يدعوهم إلى أن يحموه حتى يبليَّ رسالة ربِّه ﷻ<sup>(١)</sup>.

(١) سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، للمؤلف، ص ١٩٥.

فعلى الدعاة في العصر الحاضر أن يدركوا أهمية الحرية لدعوتهم، عليهم أن يسعوا إلى إقامة المجتمع الحر، الذي يستطيعون أن يبلغوا فيه دعوة الله بحرية، فهي دعوة قوية مؤيدة بدلائل الحقّ يمكنها أن تكتسح جميع الدعوات المخالفة لها، إذا ما أتيح لها ميدان التفكير الحر الكريم.

#### • مصرع المستبدين:

ورفض القوم دعوة شعيب إلى الحرية، ورأوا فيها خطراً عليهم، فأجهزوا عليها، وفرضوا جوّ القهر والاستبداد على الناس.

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أُولَٰئِكَ كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ فلا حرية لكم، إمّا الطرد والإبعاد عن الوطن، وإما أن تعودوا إلى العيش الذليل في ظلّ النظم الجائرة.

﴿قَالَ أُولَٰئِكَ كَٰرِهِينَ﴾ أي: كيف نعود فيها ونحن كارهون لها؟! فالعقائد لا تُبنى بالإجبار والإكراه.

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ بَخَّسْنَا اللَّهُ مِنهَا﴾ فبعد أن نجانا الله من هذه العقائد الفاسدة، وهدانا إلى الإيمان، وأذاقنا لذّته وحلاوته، نرجع إليها! هذا لن يكون أبداً!

قال شعيب ذلك على سبيل التغليب، إذ عدّ نفسه واحداً من الجماعة المسلمة التي كانت كافرة، ثم هداها الله تعالى، وإلا فهو لم يكن قط كافراً،

شأنه كشأن سائر الأنبياء ﷺ، لا يكون منهم كفر أبداً، محفوظون منه قبل النبوة، ومعصومون منه بعدها.

ثم ردَّ ﷺ الأمر إلى مشيئة الله تعالى وقدره فقال:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا﴾ إنه أدب الأنبياء الرفيع مع الله تعالى، فلا ينبغي للمؤمن أن يغتر بإيمانه، بل عليه أن يفوض الأمر إلى الله، وأن يسأله دائماً أن يثبت عليه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وكما أن مشيئته سبحانه نافذة بكل شيء فعلمه أيضاً محيط بكل شيء:

﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فيجب الاعتماد عليه وحده.

﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ في الثبات على الإيمان، والنجاة من كيد الأشرار.

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ أي: افصل واحكم بيننا وبينهم بالعدل.

﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاضِلِينَ﴾ أي: خير الحاكمين.

ولم يستطع الطغاة المستبدون أن يمنعوا شعبياً من تبليغ دعوة ربه، إذ كان من أشرف قومه، وله فيهم منعة وحماية، كما ذكر سبحانه في سورة هود: ﴿قَالُوا يَنْشَعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِنَاكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾، فالتفتوا إلى المؤمنين الضعفاء يتهددونهم، ويسومونهم أنواع الأذى والاضطهاد:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِذْ كَفَرْنَا إِذَا لَخِيسْرُونَ ﴿٩١﴾﴾.

تخسرون أرزاقكم، وتطردون من أعمالكم ووظائفكم، وتحرمون من أسباب رزقكم ومعاشكم، كما يفعل الظالمون المستبدون في هذا العصر وفي كل عصر، ولكن البغي والظلم لا يدوم، والله سبحانه يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثْمِينَ ﴿٩١﴾﴾ .

﴿فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ﴾ الزلزلة الشديدة ومعها الصيحة، كما ذكر سبحانه في موضع آخر فقال: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾ [هود: ٦٧].

﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَثْمِينَ﴾ هامدين، لا حراك فيهم ولا حياة.

وبهذا المصير الأليم سقط مجتمع الطمع والجشع والاستبداد، ودالت

دولة المتكبرين الظالمين:

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ .

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَفْنَوْا فِيهَا﴾ كأنهم ما كانوا وما أقاموا في بلدهم دهرًا طويلاً، يتمتعون برغد العيش وسعة الرزق.

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ خسروا أموالهم وحياتهم وآخرتهم.

ولا يخفى التوافق بين تعليق الآية على هلاكهم وسقوطهم، وبين قولهم

الذي كانوا يتوعدون به المؤمنين: ﴿لَئِنْ أَتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَيْرُونَ﴾ [الأعراف:

٩٠] فمن الخاسرون: الهالكون أم الناجون؟! .

ووقف شعيب عليه السلام على أطلال قومه ينظر نظرة الأسى والحزن، ثم

أعرض عنهم:

﴿فَنَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ بِكَيْفِ عَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ

كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ .

﴿فَنَوَلَّىٰ عَنْهُمْ﴾ وهو يدفع حزنه وأساه.

﴿وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ . ثم سأل نفسه سؤال

المتعجب من حزنه على هلاكهم، كأنه ينكر على نفسه أن تحزن عليهم:

﴿فَكَيْفَ عَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ فهم كافرون غير مأسوف على هلاكهم.

ولكنَّ قلوبَ الأنبياء لا تحمِلُ حقدًا على أحد، ولا تريدُ للناس إلا الخير والسعادة.

### • أزمات ومنعطفات:

وتوقفت الآيات قليلاً عن مسيرتها مع تاريخ الأمم الهالكة والحضارات الساقطة، وكأنها أرادت من وقفها هذه أن تعطي القارئ فترة تأمل وتفكر في أسباب هلاك هذه الأمم وسقوط حضارتها، كما أرادت أن تبين حقيقة بارزة في تاريخ الوجود البشري على الأرض، فحياة الأمم والشعوب لا تسير على نسق واحد، ولا تتبع خطأ واحداً، ثمّة منعطفات كبيرة تعترض مسيرتها، وأزمات كبيرة تواجهها، قدّرها العليم الحكيم، لكي تنتبه هذه الأمم إلى طريقها، وتتعرّف على أخطائها، وتصحح اتجاهها وخط سيرها، قال تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٩٤).

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ﴾ أي: بالبؤس والفقير، ونقص الأرزاق، وكساد الأسواق، وهو ما يسمّى في عصرنا الحاضر: الأزمات الاقتصادية، أو الكساد الاقتصادي.

﴿وَالضَّرَّاءِ﴾ أي: ضرر على صحتهم وأبدانهم، فتفشو بينهم الأمراض.

أو: ضرر ناتج عن الكوارث الطبيعية؛ كالأعاصير والفيضانات والزلازل. والآية لا تعني أن الأمراض والنكبات والأزمات تأتي مع دعوة الأنبياء ﷺ، وإنما تحدث هذه المصائب بعد إعراض الأمم عن دعوة الأنبياء، وبعد تكذيبها لهم، وهجرها لشريعة الله تعالى المنزلة عليهم. والحكمة منها:

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي: لعل المعاندين المكذّبين تلين نفوسهم وتخضع

قلوبهم، فيقبلون على الله تعالى تائبين مستغفرين، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ (٤٦) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا

ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ ابْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٩٤﴾ نَقَطَعَ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[الأنعام].

فالأمة التي لا تنبها الشدائد والأزمات، وتظل سادرة في ضلالها، مصرّة على أخطائها، لا بدّ أن تصل في النهاية إلى حافة الهاوية والسقوط، والرخاء المادي الذي يأتي بعد الأزمات، هو مقدّمة الهلاك والدمار:

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ والسيئة: كلُّ ما يسوء الإنسان، والحسنة: كلُّ ما يستحسنه الطبع والعقل، والمراد منهما هنا: الشدة والرخاء، والمعنى: أنه تعالى جعل مكان البأساء والضراء، النعمة والسعة والخصب والصحة<sup>(١)</sup>.

#### • مؤشرات الهلاك والسقوط:

﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ أي: حتى كثروا، كثرت أولادهم، ونمت أموالهم، وأبطرتهم النعمة.

وكلمة (عفوا) توحى بحالة نفسية خاصة، حالة قلة المبالاة، حالة الاستخفاف والاستهتار. . وهي حالة مشاهدة في أهل الرخاء واليسار والنعمة، حين يطولُ بهم العهد في اليسار والنعمة والرخاء - أفراداً وأماً - كأن حساسية أنفسهم قد ترهلت، فلم تعد تفعل شيئاً، أو تحسب حساباً لشيء<sup>(٢)</sup>.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ﴾ كما مسنا، وذلك من عادة الدهر وتقلباته، وتعاقب أحواله.

ردُّوا ذلك إلى الدهر، وغفلوا عن النواميس الإلهية في تدبير شؤون الخلق، وأنهم حسب الناموس الإلهي يُستدرجون إلى هاوية الهلاك والسقوط،

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢/٦٠٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٣/١٣٣٧.

فأعمارُ الأمم والشعوب ليست كأعمار الأفراد، وسنن الله تعالى في خلقه لا تتغير كما مرَّ معنا، فلا ينبغي لنا أن نغترَّ بما نرى عند بعض المجتمعات الكافرة من رخاء في العيش، وسعة في المال، فقد يكون مقدمة الهلاك والدمار، وإنَّ من يتأمل في حياتهم، يجدهم في حقيقة الأمر أشقياء لا سعداء، ويرى عوامل السقوط ومقدمة الدمار تنخر في جسم مجتمعاتهم، فالتفكك الأسري والاجتماعي، والانحلال الخُلقي، والشذوذ الجنسي، وانتشار الزنى حتى بين المحارم، وشيوع الأمراض الجنسية، والعقم والإيدز، والآفات الاجتماعية، كالمخدرات والخمور، والأمراض العصبية والنفسية، وعصابات المجرمين، وطرق التلقيح الشاذة، وبنوك النطف البشرية، والمتاجرة بها، وتلوث البيئة . . . إلخ، كلُّ هذا مؤشرات على اقتراب هذه المجتمعات من هاوية الهلاك والسقوط<sup>(١)</sup>.

﴿فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً﴾ فجأة على غير توقع.

﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ وهو أشدُّ أنواع الهلاك، لأنه ينزل فجأة على غير توقع وانتظار، كما مرَّ معنا في أول السورة: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بِأَسْنَابِتًا أَوْهُمْ قَالِيُونَ﴾ [الأعراف: ٤].

وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهمَّ إني أعوذُ بك من زوالِ نعمتِكَ، وتحوُّلِ عافيتِكَ، وفجاءةِ نِقْمَتِكَ، وجميعِ سَخَطِكَ» [رواه مسلم (٢٧٣٩)].

#### • ترغيب وتحذير:

إنَّ بقاء المجتمعات واستمرار الحضارات منوط بمدى التزام الناس بدين الله وشرعه، ولو أنَّ أصحاب الحضارات البائدة والأمم الهالكة استجابوا لدعوة

(١) مسز بوش، زوجة رئيس أغنى وأقوى دولة في العالم (الولايات المتحدة الأمريكية) تحدثت فقالت: مشاكلنا: الإدمان، والأمهات الأطفال (شابات في عمر ١٤ عاماً و ١٥ عاماً أمهات بلا أزواج)، وقضية الأسر المفككة، والبطالة . . . العاصمة فيها أكبر نسبة من الجرائم والتشرد والتسيب. (مجلة الوطن العربي، العدد ١١٩).



أنبيائهم، ما حلَّ بهم الهلاك والدمار، بل زادهم الله تعالى من نعمه، وأمدهم بأسباب العيش الكريم والحياة السعيدة:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بِرِكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ .

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ التي أهلكها الله تعالى بسبب كفرها وظلمها .

﴿ءَامَنُوا﴾ بالله تعالى .

﴿وَاتَّقَوْا﴾ ما حرم سبحانه عليهم .

﴿لَفَنَحْنَا عَلَيْهِم بِرِكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ليسرنا لهم سبل العيش الكريم

السعيد من كلِّ جانب .

﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا﴾ الأنبياء، فلم يؤمنوا، ولم يتقوا .

فالأزمات الاقتصادية، والكوارث والنكبات، وانتشار الأمراض، وقيام

الحروب والفتن؛ لا تكون إلا بسبب ابتعاد الناس عن دين الله وخروجهم على طاعته .

﴿فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بإرادتهم واختيارهم .

فمتى يدرك الناس هذه الحقيقة؟! فالله سبحانه ما خلقهم ليفسدوا في

الأرض، ويطغى بعضهم على بعض، وما استخلفهم إلا ليعمروا الأرض

بطاعته، وينشروا العدل في ظل شريعته، وعليهم أن يعتبروا بمصير الأمم قبلهم،

وأن يكونوا على حذر من عذاب الله تعالى وانتقامه .

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ .

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيِّنًا﴾ ليلاً .

﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾؟! والاستفهام ينكر عليهم ما هم فيه من غفلة وعدم انتباه،

والاعتبار بمصائر الأمم السابقة، وهو موجَّهٌ إلى سكان المدن والحواضر،

لأنَّهم في العادة أكثر انشغالاً بشؤون الحياة، وانهماكاً بملذَّاتها .

﴿أَوَمِنَ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًىٰ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾ .

﴿أَوَمِنَ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًىٰ﴾ نهاراً .

﴿وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ وهم يلهون، ويشغلون بما لا فائدة فيه .

وكأن هذا الإنكار موجّه في العصر الحاضر إلى الملايين من سكان الحواضر، الذين يتكدّسون في الملاعب وصالات اللهو والعبث، يمججون ويهيجون، ويرتفع صراخهم وضجيجهم لحركة لاعب، أو انشَاء راقصة، غافلين عن مصيرهم .

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ .

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ بأسه ونقمته، وقدرته عليهم، وأخذه إياهم، وهم في حال لهوهم وغفلتهم .

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين ضيعوا حياتهم وأعمارهم في لهوهم وغفلتهم .

قال الحسن البصري رحمته الله: المؤمن يعمل بالطاعات؛ وهو مشفق وجلّ، والفاجر يعمل بالمعاصي؛ وهو آمن <sup>(١)</sup> .

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ .

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ﴾ يبين .

﴿لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا﴾ أي: يخلفون من كان يعيش قبلهم في الأرض، ويرثون ديارهم، كما قال سبحانه: ﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٣٨/٢ .

ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَبَيَّنَّ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿إِبْرَاهِيمَ: [٤٥]﴾؛ إنها دعوة للانتباه والاعتبار.

﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أنه سبحانه قادر على إهلاكهم بذنوبهم ومعاصيهم، كما أهلك الذين من قبلهم.

ثم بيّن سبحانه أنهم في قبضته وقدرته، ورهن إرادته ومشيتته، فقال: ﴿وَنَطِيعٌ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: ونحن نختم على قلوبهم، فلا سلطان لهم عليها، وإذا ختم عليها بسبب ذنوبهم، أصبحت محجوبة عن قبول أي موعظة: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ سماع الانتفاع والتدبر والاعتاظ.

#### • تثبيت ومواساة:

والتفتت الآيات إلى النبي ﷺ تواسيه وتثبته في مواجهة عناد قومه وإعراضهم:

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١١١﴾﴾.

﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وهي الحجج والبراهين الدالة على صدقهم وصحة رسالتهم، تماماً كما جئت قومك بالبيّنات. ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾؛ لأنهم اعتادوا على تكذيب الحق، وأدمنوا على الباطل، واستمروا على ذلك بعد بعثة الرسل ومجيئهم بالبيّنات، كأنه لم يرسل إليهم أحد، أو كأنهم لم يروا حجة، ولم يشاهدوا معجزة، فاستمروا على التكذيب والكفر بعد رؤية الحجج ومشاهدة المعجزات، ولم ينتفعوا بها.

فللعادات والتقاليد التي ألفها الإنسان تأثير كبير عليه، ولقد ألف القوم الكفر والضلال، وطال عليهم الأمد فيه، حتى أصبحت قلوبهم قاسية متحجرة،

لا تعرف معروفاً، ولا تنكر منكرًا، إلا ما يتصل بأهوائها وشهواتها، ولهذا ختم الله عليها:

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ وإذا طبع الله على قلوبهم، حُجبت عن سماع دعوة الخير والتأثر بها.

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ (١١٦).

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ﴾ أي: لأكثر الأمم الماضية.

﴿مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي: وفاء بالعهد.

﴿وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الطاعة، ناكثين للعهد.

والمراد بالعهد: إما عهد الفطرة التي فطركم الله سبحانه عليها، والذي

سيأتي الحديث عنه عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ الآية [الأعراف: ١٧٢].

أو عهد الإيمان الذي كلّفوا به بواسطة المرسلين، ونصبت لهم من أجله

الدلائل والحجج، وأنزلت الآيات، وأجريت المعجزات.

وما دام شأن أكثر الناس عدم الوفاء بالعهد، فلا عجب أن تلقى من قومك

ما تلقى من عناد وإعراض، فشأنهم في هذا شأن أكثر الناس من قبلهم.





الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ  
 لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ  
 مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢٧﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ  
 لِيَتَسَحَّرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٨﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ  
 آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا لِمُوسَىٰ أَدْعُ لَنَا  
 رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لِيُنزِلَ عَلَيْنَا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٠﴾  
 فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣١﴾ فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَقْنَاهُمْ فِي  
 الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٢﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ  
 مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا  
 صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٣﴾

### • بنو إسرائيل في مصر:

وعادت الآيات بعد هذه الوقفة التأملية القصيرة، إلى متابعة حركة التاريخ  
 البشري، ففتحت صفحة التاريخ على قصة موسى ﷺ مع فرعون وبني إسرائيل  
 والمجتمع المصري.

كان المصريون في تلك الفترة يضطهدون بني إسرائيل ويظلمونهم، لأنهم  
 غرباء عنهم، إذ رحل أبائهم إلى مصر، وسكنوا فيها، في زمن يوسف ﷺ،  
 عندما كانت مصر تحت حكم ملوك الهكسوس.

ويلاحظ أنّ الآيات توقفت طويلاً عند هذه القصة، حتى أخذت من  
 السورة مساحة كبيرة، إذ تناولت فيها الحديث عن أمتين ومجتمعين، وعن نبين  
 كريمين، أُرسلوا معاً في وقت واحد، هما موسى وهارون ﷺ، كما يلاحظ أنّ  
 القصة لم تنته عند هلاك فرعون وجنوده، كما حدث في القصص السابقة، بل  
 امتدّ حديث الآيات عن الناجين من ظلم فرعون، ماذا فعلوا بعد نجاتهم، وكيف

كان موقفهم من موسى وهارون عليهما السلام، وكيف كان تمسكهم والتزامهم بالشرعة التي كُلفوا بها.

رسمت الآيات في بداية القصة خطأً بيانياً عاماً لأحداثها، بقوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٠٣).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: من بعد الرسل الذين سبق ذكرهم.

﴿مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات التي أيدناه بها.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: كفروا بها.

فالأيات واضحات، ومع ذلك كذب بها فرعون وملؤه بدل أن يصدقوا بها، وهو عين الظلم، لأنه وضع الشيء في غير موضعه.

﴿فَأَنْظَرُ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض.

● مهمة موسى عليه السلام:

ثم شرعت الآيات تفصل حوادث القصة، وبدأت تصف المواجهة الأولى

بين موسى عليه السلام وفرعون:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٠٤).

ناداه باللقب الذي كان يُنادى به ملوك الأسرة المصرية الحاكمة تأليفاً له، ثم عرّفه بصفته المتعلقة بمهمته، ولم يعرفه بنفسه، لأن فرعون كان يعرف موسى، فقد نشأ في قصره، وتربى في كنفه.

وكلمة موسى: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كبيرة، ودعوى عريضة، فوجئ

بها فرعون وهو في مجلس ملكه، يحيط به وزراؤه وقواده وأعوانه، وقد صدرت عن موسى بصيغة التأكيد والقطع، مما يدل على شدة ثقة موسى عليه السلام بنفسه الذي

تابع كلامه مؤكداً صدق رسالته قائلاً:

﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بَيْنَتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (١٠٥).

﴿حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وفي قراءة (حقيق عليّ) أي: واجبٌ عليّ ألا أقول على الله إلا الصدق، لأن الأنبياء والمرسلين هم أعرف الناس بجلال الله تعالى وكماله، وأكثرهم خشية وتعظيماً له، فلا يخبرون عنه إلا ما هو حق وصدق، ومع ذلك:

﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بَيْنَتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بحجة قاطعة تدلُّ على صدق رسالتي.

﴿فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: أطلقهم من أسرك وظلمك، ودعهم لكي يذهبوا معي إلى الأرض المباركة.

فمهمة موسى لم تكن قاصرةً على تبليغ الدعوة، كما فعل سلفه من الأنبياء والمرسلين، فمن مهمته أيضاً أن ينقذ بني إسرائيل من ظلم فرعون، ويخرجهم من مصر إلى الأرض المباركة في فلسطين.

#### • المعجزتان:

وطلب فرعون من موسى أن يظهر المعجزة، ويقدم البيّنة:

﴿قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِثَابِتَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ (١٠٦).

في دعواك أنك رسول من رب العالمين، فبادر موسى ﷺ إلى إظهار المعجزة الأولى دون تردد:

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (١٠٧).

﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ ألقى موسى عصاه، فانقلبت بعد إلقائها بقدرة الله ومشيبته إلى ثعبان حقيقي ظاهر واضح.

وقبل أن يستيقظوا من هول المفاجأة، أظهر ﷺ المعجزة الثانية:



﴿وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ ﴿١٠٨﴾ .

﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾ من جيبه، أو من تحت إبطه .  
 ﴿فَإِذَا هِيَ بِيضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ﴾ بياضاً نورانياً خارجاً عن المألوف والمعتاد .  
 ووجد فرعون وبطانته المعجزتين، واتهما موسى ﷺ بالسحر:

﴿قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٠٩﴾ .

ماهر في السحر . وأضاف فرعون تهمة ثانية فقال:

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿١١٠﴾ .

﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ أرض مصر، إنها عقدة الحاكم الظالم المستبد، فكل معارض لظلمه واستبداده يتهم بأنه طامع في الحكم والسلطان .  
 ﴿فَأَمَّا تَأْمُرُونَ﴾ أي: تشيرون في أمر هذا الذي يزاكمكم على السلطة والحكم .

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ ﴿١١١﴾ .

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي: أخرج أمرهما، وأصل (أرجه) أخرجته .  
 ﴿وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ وأرسل في المدن رجالاً يجمعون السحرة  
 ويأتون بهم:

﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ ﴿١١٢﴾ .

ويبدو أن صناعة السحر والشعوذة كانت رائجة في المجتمع المصري في ذلك العصر .

وطلب السحرة الأجر من فرعون:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾

سألوه الأجر على ما يقدمون من سحر إن تغلبوا على موسى ﷺ، فالسحر صنعتهم، ومورد رزقهم. وفي قراءة (أُتِنَ لَنَا لِأَجْرًا؟) بصيغة الاستفهام المفيد للشرط، فهم لا يهتمون بغير المال والمكافأة، ولا يرون في الموضوع أي صلة بالدين والعقيدة. ووعدهم فرعون ومناهم:

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾

﴿قَالَ نَعَمْ﴾. وأطمعهم بالمكانة والتعظيم:  
﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾.

#### ● المباراة:

واجتمع الناس في ميدان كبير خارج المدينة في ضحى يوم عطلة وراحة وزينة، كما ذكر سبحانه في سورة طه: ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضَحَىٰ ﴿١١٥﴾﴾. ووقف موسى ﷺ في مواجهة السحرة، الذين خيروه قائلين:

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

وتدل كلماتهم هذه على رغبتهم في أن يقدموا عروض سحرهم قبل موسى ﷺ، لكي يصرفوا أعين الناس إليهم، فالساحر لا يستطيع أن يغير حقيقة الشيء، ويقبله عن ماهيته، ولكنه يستطيع أن يجعل الناظر إليه يتخيل ذلك. وأجابهم موسى على سبيل التحدي:

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾﴾

﴿قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما يحملون من حبال وعصي.

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ أي: صرفوا أعين الناس عن الحقيقة، وهي أن

حبالهم وعصيهم لا تزال كما هي جامدة لا تتحرك، وجعلوا الناس يتخيلون أنها تتحرك، كما قال سبحانه: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقَوْنَا إِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه].

واستعان السحرة للوصول إلى مأربهم ببعض الحركات والأصوات المربعة المخيفة، دلَّ على ذلك قوله سبحانه:

﴿وَأَسْرَهُبُهُمْ﴾ أي: استدعوا إدخال الذعر والخوف في نفوس الناس.

﴿وَجَاءَهُمْ سِحْرٌ عَظِيمٌ﴾ عظيم في فن السحر، أو في نظر الناس المشاهدين لهم. وتأثرت الجموع المحتشدة بما شاهدت، وهاجت واضطربت، حتى إن موسى ساوره شيء من الخوف والقلق أن تضيع الحقيقة بين ركام هذا الباطل، ولكن الله سبحانه ثبته وبشّره بالنصر والظفر، فالحقيقة لن تضيع في ركام الباطل لأنها مؤيدة من الله تعالى، قال سبحانه في سورة طه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ﴾ [١٧] ﴿فَلَمَّا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ﴾ [١٨]. ثم أمره أن يلقي عصاه:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ [١٧].

وما إن ألقاها حتى انقلبت بقدره الله تعالى حية عظيمة، ابتلعت كل وسائل الكذب التي ألقاها السحرة في الميدان.

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [١٨].

﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ﴾ فظهر الحق وانجلي وثبت.

﴿وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ من السحر والتمويه والكذب، لمعارضة المعجزة.

﴿فَعُلبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ [١٩].

﴿فَعُلبُوا هُنَالِكَ﴾ أي: عُلب فرعون وملؤه وجنوده هنالك في ميدان التحدي.

﴿وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ﴾ وصاروا ذليلين مهوتين.

## • هزيمة الباطل:

وأما السحرة فكان لهم شأن آخر، عرفوا حقيقة المعجزة، وعظمة خالقها، فخرُّوا على الأرض ساجدين لله ﷻ:

﴿وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِحْرَيْنَ ﴿١٢١﴾﴾ .

كأنما ألقاهم على الأرض مُلقٍ، مما يدلُّ على أن الحقَّ بهرهم، فلم يتمالكوا أنفسهم من عظمة ما شاهدوا، واضطروهم إلى السجود لرب العالمين، وأعلنوا إيمانهم به، وانقيادهم لأمره، واتباعهم لرسوله:

﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ .

ولم يكن إيمان السحرة هزيمة للطغيان والاستبداد فقط، وإنما كان أيضاً كشفاً لزيفه، وإظهاراً لقبحه وخداعه، ولهذا لجأ فرعون لكي يستتر على هزيمته ومساوئته، إلى أسلوب التهديد والوعيد، وتوجيه التُّهم إلى المؤمنين:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَّنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا ﴿١٢٤﴾ فَسَوْفَ تَعْمُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمَّنْتُمْ بِهِ﴾ بالله تعالى .

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي: من غير أن آذن لكم .

فمعنى (قبل) هنا: من غير، كما في قوله تعالى: ﴿لَنفِذَ الْبَحْرَ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩]<sup>(١)</sup> أي: من غير أن تنفذ كلمات ربي، فكلماته سبحانه لا تنفذ. ولو أن السحرة استأذنوا فرعون بالإيمان بالله تعالى وتصديق دعوة موسى وهارون، فلن يأذن لهم، لأنه لن يتخلى عن استبداده وطغيانه.

(١) انظر: تفسير أبي السعود: ٢٦١/٢ .

وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ يدلُّ على شدة تكبُّره وطغيانه، فكأنَّ سلطان القلوب بيده، وتحت أمره ومشيتته، ورحم الله سيد قطب عندما قال: «كأنَّما كان عليهم أن يستأذنه في أن تنتفض قلوبهم للحق، وهم أنفسهم لا سلطان لهم عليها، أو أن يستأذنه في أن ترتعش وجداناتهم، وهم أنفسهم لا يملكون من أمرها شيئاً، أو يستأذنه في أن تشرق أرواحهم، وهم أنفسهم لا يمسكون مداخلها، أو كأنَّما كان عليهم أن يدفعوا اليقين، وهو ينبت من الأعماق، أو أن يطمسوا الإيمان، وهو يترقرق من الأغوار، أو أن يحجبوا النور، وهو ينبعث من شعاب اليقين»<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمْوُ﴾ أي: إن ما صدر عنكم كان مؤامرة تمَّت بينكم وبين موسى سرّاً.

﴿فِي الْمَدِينَةِ لُخْرَجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ أي: لتخرجوا منها الأكابر والرؤساء وأصحاب السلطة والسلطان فيها، وتحلُّوا محلَّهم وتصبح الدولة والسلطة لكم. إنه الأسلوب نفسه الذي يلجأ إليه المستبدُّون في كلِّ عصر ليستروا فسادهم واستبدادهم، ويخنقوا معارضيهم، ويتمكَّنوا من تصفيتهم والقضاء عليهم. ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ عاقبة تأمركم.

ثم فصل ما أجمل من تهديد ووعيد، فقال:

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ﴾ اليد من جانب، والرجل من جانب آخر. ﴿ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ على جذوع النخل، كما جاء في سورة طه: ﴿قَالَ ءَأَمْنَتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ آيُنَا أشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾

إنه التهديد بالعذاب حتى الموت بعد أن اتهمهم بالتأمر مع موسى ﷺ مع

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٣٥٠.

أنه ما كان يعرفهم ولا رآهم ولا اجتمع بهم، وفرعون يعلم ذلك، وما قال ما قال إلا تستراً وتدليساً على رعاك دولته وجهلتهم، كما قال تعالى في سورة الزخرف: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ، فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ (١).

#### • الشهداء البررة:

ولم يتأثر السحرة بتهديد فرعون ووعيده، ولم تتزعزع قلوبهم المؤمنة التي كانت قبل الإيمان متعلقة بالدنيا ومتاعها الزائل، كما مر معنا في قولهم لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣].

إنها الآن تتحدى جبروت الطاغية، ولا تبالي بتهديده ووعيده، وتستعلي على الدنيا بكل ما فيها من شهوات وأموال ورتب ومراتب:

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (١٢٥).

راجعون، وما عنده سبحانه من الثواب والنعيم أعظم وأبقى، وذكر سبحانه في سورة طه أنهم قالوا لفرعون: ﴿فَأَقْصِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٦) ﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (٧٧).

وقالوا له أيضاً في سورة الشعراء: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرٌ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ (٥٠) ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥١).

فهم لا يبالون بتهديده ووعيده، بل واجهوه أيضاً بالحقيقة التي حاول التستر عليها باختراع تهمة التآمر والمؤامرة، فقالوا له:

﴿وَمَا نَنْفِقُ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (١٢٦).

﴿وَمَا نَنْفِقُ مِنَّا إِلَّا أَنْتَ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا﴾ أي: وما تعيب علينا وتريد

(١) وانظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٤٣/٢.

الانتقام منا إلا لأننا آمنَّا بالبراهين والدلائل التي هدانا ربنا إليها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا نَقْمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

فلم يكن إيمانُ السحرة مجردَ عاطفة ثارت في صدورهم عندما رأوا المعجزة، بل كان إيماناً عقلياً بعد التفكير والتدبر في آيات الله سبحانه، ثم توجهوا إلى الله تعالى يستمدون منه الصبر والثبات، ويستعينون به على مواجهة ظلم الطاغية المستبد:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي: صب علينا من الصبر ما يغمرنا ويملاً قلوبنا.

﴿وَتَوْفَقًا مُسْلِمِينَ﴾ ثابتين على الإسلام، غير مفتونين ببغي الظالمين وعدوانهم.

وهكذا تحول السحرة من كفرة فجرة إلى شهداء بررة.

#### ● بطانة السوء:

يبدو أن فرعون كان يتهيَّب من موسى ﷺ في أول الأمر، ويخشى أن يمسه بشيء من الأذى، ولعلَّ السبب أنه كان يتيقن في قرارة نفسه صدق موسى، ولا بدَّ أن تكون المعجزة قد تركت في نفسه الخوف والرهبة من أذاه، فلم يُنزل به ما أنزل بالسحرة من التعذيب والتقتيل، حماه الله سبحانه مع أخيه هارون من بطش الطاغية وظلمه كما وعدهما عندما كلَّفهما بالرسالة: ﴿فَالرَّبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ مِنْ يَفْرَطٍ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْعَنِي ﴿١٤٦﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه].

وعزَّ على بطانة السوء، التي تحيِّط عادةً بأمثال فرعون من الحُكَّام المستبدِّين، أن يروا دعوة موسى مستمرة، فهي خطر على مصالحهم ومناصبهم، فشرعوا يحرضون فرعون على البطش بموسى وقومه:

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكُوا إِلَهُكَ قَالَ سَنَقْبُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: أتترك

موسى وقومه لينشروا الفساد في أرض مصر؟! .

إِنَّهُمْ يرون في الإيمان فساداً ، لأنه يهدد مصالحهم ومراتبهم وامتيازاتهم .  
﴿وَيَذَرُكَ وَاِلٰهَتَكَ﴾ أي : ويتركك ومعبوداتك ؛ وهي الأصنام التي اتخذها ،  
وأمر قومه بعبادتها ، وفي قراءة (وَالِٰهَتِكَ) كعبادتك لفظاً ومعنى ، أي : ويترك  
ويترك عبادتك ، والمراد من العبادة معناها العام ، وهو الطاعة .

ويصعبُ على الطغاة المستبدين أن يروا أحداً يخرجُ على طاعتهم ،  
ويخالف أمرهم ، لأنهم اعتادوا على استعباد الناس ، فكلماتهم تشريعٌ لهم ،  
والويل لمن يخالفها ، يُتهم فوراً بالفساد والخيانة والتآمر والعمالة للأجنبي . .  
ويكون مصيره السجن والتعذيب والإعدام .

وعرف المقربون من فرعون كيف يثيرون غضبه على موسى والمؤمنين ، إذ  
كانوا يعلمون مدى تألُّهه وحرصه على الاستبداد والتسلط والطغيان ، فنجحوا  
بأسلوبهم هذا في إثارة غضبه :

﴿قَالَ سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَاِسْتَحْيِ ۖ نِسَاءَهُمْ﴾ كما كان يفعل من قبل بني إسرائيل ، إذ  
أمر بقتل كل مولود ذكر فيهم وترك الإناث ، كما قال تعالى في سورة القصص :  
﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ مِنْهُم طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ ۖ  
نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦١﴾ ، والسبب أن المنجمين والكهنة أخبروه بزوال  
ملكه على يد مولود من بني إسرائيل قد اقترب زمنه .

﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ أي : غالبون .

وتدلُّ كلمته هذه على شدة تكبره وطغيانه وظلمه ، وكأنه أراد بهذه أن  
يطمئن رجال حاشيته الخائفين على مصالحهم ومراتبهم من دعوة موسى ﷺ .

#### ● المحنة:

وبدأت محنة المؤمنين بعد هذه الكلمات التي صدرت عن فرعون ، وأخذ  
موسى وأخوه هارون بثبوت المؤمنين وتقوية عزائمهم في مواجهة المحنة :



﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ  
وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ .

فالأمر ليس كما زعم فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، فالظلم لا يدوم، والطغيان لا يستمر، وهما من أعظم أسباب هلاك الأمم وسقوط الحضارات، والعاقبة الطيبة للمصلحين المتقين، لا للمفسدين الظالمين.

﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ  
وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ .

﴿قَالُوا﴾ قوم موسى :

﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ بالرسالة والدعوة، وهي المحنة الأولى .

﴿وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ نبياً ورسولاً، تدعو إلى عبادة الله وحده .

ولا يخفى ما في كلامهم من تبرُّم وشعور بالخيبة من دعوة موسى ﷺ، كأنهم أشاروا إلى موسى ﷺ بأن دعوته لم تغيّر شيئاً من أحوالهم السيئة .

وتكشف كلمتهم هذه عن طبيعتهم المادية، فالهمم عندهم أن تتغيّر أوضاع حياتهم ومعيشتهم أكثر من التغيّر الذي حدث في عقيدتهم وعبادتهم .

فما كان من موسى ﷺ إلا أن بشرهم بقرب نصر الله تعالى :

﴿قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ وتصبحوا أصحاب السلطة والسلطان .

﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ فيرى ما تعملون من خير أو

شر، وطاعة أو عصيان، فيجازيكم عليه، فالله سبحانه لا يجازي العباد على حسب علمه، إنما يجازيهم على حسب عملهم .

وفي كلماته ﷺ تعريض بقومه، فكأنه أشار إليهم بأن الظلم والفساد

يمكن أن يقع منكم كما وقع من فرعون وملائته، والله سبحانه يبتلي عباده بالخير

والشر، كما في قوله: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وهو سبحانه يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون.

واستمرت المحنة سنوات كثيرة، ومن لطفه سبحانه ورحمته بعباده المؤمنين الممتحنين، أنه أنزل في أثنائها الكوارث والنكبات بفرعون وقومه، فشدوا بها عن تعذيب المؤمنين واضطهادهم، حتى إنهم طلبوا في آخر الأمر من موسى ﷺ أن يسأل الله تعالى أن يرفعها عنهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ أي: بسنوات القحط والجذب.

﴿وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ وتلف في المحاصيل الزراعية بما يصيبها من الآفات.

﴿لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ لعلهم يتعظون، فالشدائد قد ترقق القلوب، وتلين

النفوس، ولكن قلوبهم لم تلن بسبب شدة قسوتها وتحجرها، وظلوا على كفرهم وعنادهم.

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ﴾ الغيث والخصب والسعة.

مما يندلج على أن سنوات الجذب والقحط ما كانت متوالية، فقد تخللتها

سنوات خير وخصب، فلم يقدر سبحانه استئصالهم بالقحط والجذب.

﴿قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ أي: نحن مستحقون لها، ونحن أصحابها وأهلها، ولم

يردوها إلى الله تعالى، ويشكروه عليها.

﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ تسوءهم كالقحط والجذب وتلف المحاصيل.

﴿يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ أي: يتشاءموا بموسى والمؤمنين، ويقولوا: هذا

القحط والبلاء بسببكم، ولولا وجودكم بيننا لما أصابنا هذا الجذب والقحط.

وهذا شأن الكافرين في كل مكان وزمان، يردُّون الحوادث إلى غير خالقها ومدبرها سبحانه، فالخير لهم، والشر بسبب مخالفيهم، قال سبحانه في سورة يس: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾ .

وكان الكفار يقولون مثل هذا لرسول الله ﷺ كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَإِن تُصِبَّهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِبَّهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النساء: ٧٨] .

وردَّ سبحانه على فرعون وملئه بقوله:

﴿أَلَا إِنَّمَا طَئِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي: ما يصيبهم من خير أو شر فبمشيئة الله تعالى وتقديره .

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن كلَّ شيءٍ بقدر من الله تعالى، وأنه سبحانه خالق كلِّ شيء، وهو على كلِّ شيء وكيل .

#### • الآيات المفصلات:

واستمرَّ موسى ﷺ يدعوهم ويذكرهم، واستمروا على طغيانهم وفسادهم، وأرادوا منه أن يكفَّ عن دعوتهم:

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ .

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ﴾ أي: من معجزة، قالوا له ذلك على سبيل الاستهزاء والسخرية .

﴿لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ وتصرفنا بها عما نحن عليه .

﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ بمصدقين .

وكانت كلمتهم هذه الدالة على شدة إصرارهم على باطلهم، بداية مرحلة جديدة من الابتلاء أشد وأشق من المرحلة الأولى؛ أرسل الله عليهم فيها أنواعاً متعددة متوالية من النكبات والمصائب:

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۗ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا

مُجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ الأمطار والسيول التي طافت بهم، وطغت على

أراضيهم ومدنهم وبيوتهم.

﴿وَالْجَرَادَ﴾ الذي أتى على زروعهم وثمارهم ومحاصيلهم.

﴿وَالْقُمَّلَ﴾ في أشعارهم وأبشارهم يمتص دمائهم.

﴿وَالضَّفَادِعَ﴾ ملأت مياههم وآبئتهم.

﴿وَالدَّمَ﴾ الرعاف الدائم<sup>(١)</sup> الذي كاد أن يهلكهم، ويستنزف دماءهم.

﴿آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ﴾ واضحات، أو أتتهم هذه المعجزات متواليات متميزات

عن بعضها، ومع كل ما تقدّم لم يؤمنوا.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عريقين في الإجمام.

ثم سلّط الله عليهم بلاء أشد من كل ما تقدّم، وهو الطاعون، فمات منهم

به خلق كثير:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ ۖ بِمَا عٰهَدَ عِنْدَكَ لِيُنزِلَ عَلَيْنَا مَائِدًا ﴿١٣٤﴾

الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي: أصيبوا بالطاعون، حتى كان الذي يُصاب

به يُهجر، فلا يقترب منه أحد، ولا يدفن، وقد ابتلي به بنو إسرائيل بعد ذلك

بسبب معاصيهم كما سيأتي معنا.

وفي الحديث الشريف: عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«الطاعون رجزٌ أو عذابٌ أُرسِلَ على بني إسرائيل، أو على مَنْ كان قبلكم، فإذا

(١) انظر: تفسير النسفي: ٢/٦٢٠.

سمعتم به بأرضٍ فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرضٍ وأنتم بها، فلا تخرجوا فراراً منه» [رواه البخاري (٣٤٧٣) ومسلم (٢٢١٨)].

﴿قَالُوا يَمْوَسَىٰ آدَعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ﴾ أي: بما أكرمك من كرامة وإجابة

الدعوة.

﴿لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ أي: لئن دعوت الله وكشف عنا هذا الوباء الذي

ابتلينا به.

﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾؛ وهكذا ألان الطاعون نفوسهم،

وأزال شيئاً من قسوة قلوبهم، فوعدوا موسى بالإيمان برسالته، والسماح لبني إسرائيل أن يخرجوا معه إلى الأرض المباركة.

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ﴾ بدعوة موسى ﷺ .

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِّغُوهُ﴾ أي: كشفه سبحانه عنهم إلى أجل معين قدره العليم

الحكيم لهلاكهم، وما وعدوا به موسى من استجابة لدعوته لم يكن سوى انعكاس لحال الخوف والرعب الذي نزل بهم، فما كانوا صادقين في وعدهم، والله سبحانه يعلم حقيقتهم، وما رفع عنهم الطاعون إلا استدراجاً لهم إلى الأجل الذي قدره سبحانه لهلاكهم واستئصالهم.

﴿إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ﴾ أي: ينقضون عهدهم مع موسى ﷺ، ويرجعون إلى

بغيتهم وطغيانهم.

وهذا حال كثير من الناس؛ يلجؤون إلى الله تعالى وقت الشدة والخطر فقط،

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل].

• هلاك الطاغية وجنوده:

رفع الله عن فرعون وقومه أنواع الابتلاء الذي أنزله بهم، وانتهت مرحلة

البأساء والضراء، وأتت بعدها حالة السعة والرخاء، لتكون مقدّمة لهلاكهم، بحسب سنّته سبحانه في خلقه التي سبق الحديث عنها عند قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبِأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ﴾ (١٣٦) ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴿١٣٧﴾ [الأعراف].

ولما بلغوا الأجل المقدّر لهلاكهم، أهلكهم سبحانه:

﴿فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا وَكَاثُرًا عَلَيْهَا غَفِيلَاتٌ﴾ (١٣٦)

﴿فَانقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ في البحر العميق.

﴿بِآيَاتِنَا﴾ بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى.

﴿وَكَاثُرًا عَلَيْهَا غَفِيلَاتٌ﴾ معرضين ومنشغلين بشهواتهم وأهوائهم.

وما أنزل الله تعالى العذابَ والهلاكَ على المجتمع المصري كلّهُ، كما فعل في المجتمعات البشرية الماضية التي قصّ علينا خبرها، قوم نوح وعاد وthumb وقوم لوط وقوم شعيب، إنّما أنزل سبحانه عذابه بفرعون وأعدائه وجنوده فقط، وأخبر عن ذلك في قوله في سورة القصص: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاظُنُّوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٤١).

ويلاحظ أنّ الآيات في سورة الأعراف فصلّت في قصة موسى وفرعون المراحل والحوادث التي سبقت هلاك فرعون وجنوده، فذكرت وقائع في القصة غير موجودة في غيرها من السور، ولمّا وصلت إلى هلاكهم ذكرته مجملًا، وتركت تفصيله إلى سور أخرى في القرآن الكريم كسورة يونس وطه، ولعلّ سبب ذلك أنّ السورة اهتمّت بالحديث عن الأسباب المؤدّية إلى هلاك الأمم وسقوط الحضارات، ولهذا فصلّت الحوادث التي أدّت إلى الهلاك إبرازاً لأسبابه وانسجاماً مع موضوعها الأساس.

أدّى هلاك فرعون وجنوده إلى انتعاش بني إسرائيل وظهورهم وقوتهم كما أدّى أيضاً إلى انكماش الحضارة المصرية وتآكلها وسقوطها:

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ  
كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ  
وَقَوْمَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ .

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ﴾ وهم المؤمنون من بني إسرائيل الذين كانوا يعانون من ظلم فرعون .

﴿مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا﴾ وهي الأرض المباركة في بلاد الشام .

ولم يتم لهم هذا بعد هلاك فرعون مباشرة، لأنهم - كما سيأتي معنا - ما أطاعوا موسى ﷺ، وما شكروا الله على ما أنعم عليهم، وإنما تم لهم هذا بعد مرحلة التيه في سيناء، وقد وصلوا إلى ذروة التمكين والاعتزاز في عهد داود وسليمان ﷺ، ولم يدم لهم طويلاً بسبب فسادهم وعصيانهم<sup>(١)</sup> .

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي: أهلك سبحانه عدوهم، ونجّاهم من ظلمه بسبب صبرهم مع موسى ﷺ على الشدائد والمحن .

﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَقَوْمَهُ﴾ من العمران والقصور .

﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ في الحدائق والبساتين .

ولم تفصل الآيات كيفية تدمير المنشآت الحضارية الكبيرة التي كانت في مصر، والتي لا يزال بعض أثارها قائماً حتى العصر الحاضر، تدلُّ على ضخامة هذه الصروح العمرانية، وعلى القوة المادية الكبيرة التي بلغتها الحضارة المصرية القديمة، وإنما اكتفت الآيات بالإخبار عن سقوطها، وانتهاء دورها التاريخي، بعد أن فصلت الأسباب التي أدت إلى ذلك .



(١) انظر تفصيل ذلك في: (تفسير سورة الإسراء) في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد سمّيناه:

(المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).

## الْفَصْلُ السَّابِعُ

## بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَانٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ مَثَرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ آلِ فِرْعَوْنَ أَنِ اسْمُوا لَنَا آلِهَةً يُقْبَلُونَ أَنبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ فِي ذَلِكَ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَا بِعَشْرِ فِتْنَةٍ مِيقَتُ رَبِّيَ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرِيكَ إِلَّا أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرِيكَ فَلَمَّا بَلَغَ لِمَّةً لِّلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمَةٍ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْعَذَابِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَأَخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَدٌ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ



بِرَحْمَتِنَا رَبُّنَا وَيَعْفِرُ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضَبَنَ أَسْفًا  
 قَالَ يَا قَوْمِ أَوَلَمْ يَكُن لَكُمْ آيَاتُ الْبُرْجَانِ وَالْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْجِبَالِ وَالْجِبَالِ وَالْجِبَالِ وَالْجِبَالِ وَالْجِبَالِ وَالْجِبَالِ وَالْجِبَالِ  
 ابْنِ أُمَّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْعِمَنَّ بِي الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ  
 الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخْوَتِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنْ  
 الَّذِينَ اتَّخَذُوا أَوْلِيَاءَ سِنَانَهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْسِدِينَ  
 ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا  
 سَكَتَ عَن مُّوسَىٰ الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي سُجَّتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾  
 وَأَخَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن  
 قَبْلِ وَآيَاتِي أَتَيْتُكُمْ بِمَا فَعَلْتُمُ السُّفَهَاءَ مَتَىٰ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ  
 وَابْنُ آدَمَ فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ \* وَأَكْتَبْنَا لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ  
 إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَاكُنْهُمُ لِلَّذِينَ  
 يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَبْعَثُ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ  
 الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ  
 الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ  
 الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ  
 هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّخِذُهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ  
 بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ  
 يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَلَ قَوْمُهُ ۖ آتِ  
 أَضْرِبَ بَعْصَاكُمُ الْحَجَرِ ۖ فَالْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ  
 وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَمَ ۖ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَالسَّلْوَىٰ ۗ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا  
 ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا  
 مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ

سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦٦﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ  
رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٧﴾ وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ  
حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا  
يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٨﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ  
قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِنْ رَبِّكُمْ وَعَلَيْهِمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا  
ذُكِّرُوا بِهِ أَجْمَعًا الَّذِينَ يَهْتَوُونَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا  
يَفْسُقُونَ ﴿١٧٠﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٧١﴾ وَإِذْ تَأَذَّتْ رِيبَكَ  
لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ  
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٢﴾ وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أَصْمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ  
بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٣﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ  
هَذَا الْأَذَى وَيَقُولُونَ سِيعْفُرْ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا  
يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْأَخْرَجَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٧٤﴾ وَالَّذِينَ  
يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٥﴾ وَإِذْ نُنَقِنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ  
كَاتِبَهُ ظُلَّةً وَظَنُّوا أَنَّهُ وَافِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ  
رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن  
تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٧﴾ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً  
مِنْ بَعدِهِمْ أَفَنُنَبِّئُكَ بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٨﴾ وَكَذَلِكَ نَقُصُّ الْأَيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٩﴾ وَأَنْتَ  
عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٨٠﴾ وَلَوْ  
شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فُشِّلْنَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ  
يَلْهَثَ أَوْ تَرَكَهٗ يَلْهَثُ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ  
يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٨١﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٨٢﴾ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ  
فَهُوَ الْمُهْتَدِىٌّ وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٨٣﴾ وَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ

وَالْاِنْسِ طَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ اَعْيُ لَا يَبْصُرُونَ بِهَا وَهُمْ اَذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا اُولٰٓئِكَ كَالْاَنْعَامِ  
بَلْ هُمْ اَضَلُّ اُولٰٓئِكَ هُمُ الْغٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾

### • جهل ونكران:

لم تتوقف الآيات في هذه القصة عند هلاك المكذبين، كما فعلت في القصص السابقة، بل تابعت الحديث عن بني إسرائيل مع موسى وهارون عليهما السلام، وهم في طريقهم بعد خروجهم من مصر إلى الأرض المباركة، إلى فلسطين:

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: يسر الله تعالى لهم اجتياز البحر، ففتح لهم فيه طريقاً، كما قال سبحانه في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾.

وقال أيضاً في سورة الشعراء: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٦﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ ﴿١٣٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٥٠﴾ ثُمَّ اغْرَمْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ﴾ أي: مرَّ موسى وبنو إسرائيل على قوم.  
﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ﴾ يواظبون على عبادة أصنام، فأعجب بنو إسرائيل بهذه العبادة!.

﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾ صنماً نعبده.

﴿كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ كما لهؤلاء القوم أصنام.

إنه طلبٌ عجيبٌ، يطلبونه من نبيِّ الله موسى عليه السلام الذي يدعوهم إلى عبادة الله وحده، والذي أخرجهم من مصر تحت راية التوحيد، وغضب عليه السلام من طلبهم هذا وردَّ عليهم:

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَجَاهِلُونَ﴾ عظمة الله تعالى، وأنه هو وحده المستحق للعبادة.  
 أو: إنكم متصفون بصفة الجهل، وهي السفه والحماقة والطيش؛ فمن  
 قريب رأوا الآيات العظيمة التي تدلُّ على عظمة الخالق سبحانه: انفلاق البحر،  
 وإهلاك فرعون وجنوده، ونجاتهم من ظلمه وطغيانه، فما أجهلهم!  
 وتابع موسى ﷺ يبيِّن لبني إسرائيل ضلال هؤلاء القوم الذين يريدون  
 تقليدهم في ضلالهم:

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٣٩)

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: مدمرٌ وهالك ما هم فيه من الضلال والكفر،  
 فمعبوداتهم هذه يمكن تكسيها وتدميرها، فلا تستحق أن تُعبد.  
 ﴿وَيَطَّلُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وعبادتهم باطلة لا خير فيها.  
 ثم قال لهم موبخاً ومنكراً:

﴿قَالَ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (١٤٠)

﴿قَالَ أَعْيَرَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَكُمْ إِلَهًا﴾ أي: كيف أطلب لكم معبوداً غير الله  
 تعالى؟! .  
 ﴿وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بالنعم الكبيرة والآيات العظيمة التي أعطها  
 لكم، والتي لم يعط مثلها لغيركم، فكيف تقابلون نعم الله تعالى بهذا الجهل  
 والجحود، وتسالون معبوداً غيره سبحانه؟! .  
 وأضاف ﷺ مذكراً لهم ببعض نعم الله تعالى عليهم:

﴿وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ  
 نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (١٤١)

﴿وَإِذْ أُنجَيْنَاكُمْ﴾ وفي قراءة: (نجاكم).

﴿مَنْ آٰلٍ فِرْعَوْنَ يُسْؤِمُنْكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ آبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ والابتلاء كما قلنا سابقاً يكون بالخير والشر، والنعمة والمحنة، وقد نجح القوم بالمحنة لما صبروا، ونجَّاهم الله تعالى منها، وسقطوا في ابتلاء النعمة، فجحدهوا، ولم يشكروا الله تعالى، وطلبوا عبادة غيره ﷻ.

كتب سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ فِي ظلال هذه الآية فقال: «إنَّ موسى ﷺ لا يواجه اليومَ طاغوتَ فرعون وملئه، فقد انتهت المعركةُ مع الطاغوت، ولكنه يواجه معركةَ أخرى، لعلها أشد وأقسى وأطول أمداً... إنها معركة استصلاح نفوس بني إسرائيل، التي أفسدها العيشُ الطويلُ في ظلِّ الاستبداد والظلم والإرهاب، فامتلات بالجبن والذل من جانب، وبالحدق والقسوة من جانب آخر، وهما جانبان متلازمان في النفس البشرية، التي تتعرَّض طويلاً للإرهاب والطمغيان»<sup>(١)</sup>. ولا شك أنَّ الظلم والاستبداد والإرهاب يفسدُ النفوس القابلة للفساد، فثمة شعوب كثيرة حَكَمها حُكَّام مستبدُّون، وعاشت في ظلِّ إرهابهم وظلمهم فترات طويلة، ومع ذلك لم تصل إلى هذا الحد الهابط من الفساد، فالنفوس البشرية أنواع في قابليتها واستعدادها للخير والشر كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٥]، ولدى بني إسرائيل استعداد كبير للفساد، أكدته مواقفهم التي ذكرتها الآيات الآتية.

#### • صعقة موسى:

سأل موسى ﷺ رَبَّهُ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ الَّذِي وَعَدَهُ بِهِ عِنْدَمَا كَانَ فِي مِصْرَ، فَأَمَرَهُ تَعَالَى أَنْ يَهَيِّئَ نَفْسَهُ لِهَذَا الْأَمْرِ، فَيَقْبَلُ عَلَى الْعِبَادَةِ مَعْتَزِلًا النَّاسَ ثَلَاثِينَ يَوْمًا، وَفَعَلَ مُوسَى ذَلِكَ، فَأَمَرَهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَزِيدَ عَلَيْهَا عَشْرَةَ أُخْرَى، قَالَ تَعَالَى:

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣٦٢.

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾

﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ .  
وقبل أن يعتزل موسى ﷺ قومه ويتوجه لميقات ربه بجانب جبل الطور، استخلف عليهم أخاه هارون:

﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ . وأوصاه ﷺ قائلاً:

﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ولا شك أن موسى يعلم حرص أخيه هارون على الإصلاح، وأنه لا يتأثر بأهواء المفسدين، فهو نبي كريم معصوم بعصمة النبوة، ولكن موسى ﷺ أراد التأكيد والتحذير، لكونه يعلم طبيعة قومه، وما عندهم من قابلية واستعداد للفساد، كما يعلم أن في قومه أشخاصاً فاسدين مفسدين، سيستغلون فترة غيابه في نشر فسادهم في المجتمع الإسرائيلي.

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ، قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرِنِّي وَلَكِنْ نُنظِرُ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ نَرِنِّي فَلَمَّا كَلَّمْنَا رَبُّهُ، لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا﴾ في المكان والزمان الذي عينه له الحق سبحانه .  
﴿وَكََلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ من غير واسطة، أكرمه سبحانه بسماع كلامه .  
وهو من الخصائص التي خصَّ الله تعالى بها موسى ﷺ ، طمحت نفس موسى إلى أكثر من ذلك:

﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ أي: أكرمني بكرامة ثانية، وهي كرامة النظر إلى ذاتك المقدَّسة، كما أكرمتني بكلامك .

﴿قَالَ لَنْ نَرِنِّي﴾ أي: لن تستطيع رؤيتي، وأنت في حياتك الأرضية الزائلة

المحدودة.

ف (لن) هذه ليست لنفي الرؤية على وجه التأييد كما رأى بعض أصحاب الفرق، وإنما لنفي قابلية الرؤية في الدنيا، وهي كائنة يوم القيامة للمؤمنين، بعد أن يكملهم الله تعالى ويجمعهم، وتزول عنهم العوائق الدنيوية التي كانت فيهم. وقد ثبتت الرؤية بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة: من الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٦﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٧﴾﴾ [القيامة]. وقوله ﷺ في الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]. وقوله ﷺ أيضاً: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس: ٢٦].

والزيادة هي رؤية المؤمنين لربهم جلّ وعلا.

كما جاء في الحديث الشريف: عن صهيب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ» ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ﴾ [رواه مسلم (٢٩٧)].

ومعنى قوله: «فيكشف الحجاب» أي: تزال مانعية الرؤية عن المؤمنين، فيكملهم الله تعالى حتى يصبحوا أهلاً لرؤيته سبحانه. فالحجاب فينا نحن<sup>(١)</sup>.

وقد مرّ معنا أنه سبحانه يكمل أهل الجنة خلقاً وخلقاً عند قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ فَجَرى مِّنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأعراف: ٤٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها

(١) انظر: (تفسير سورة يونس) في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد أسميناه: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).

سحابٌ؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «إِنَّكُمْ ترونه كذلك» [رواه البخاري (٦٥٣٧) ومسلم (٢٩٩) واللفظ له].

ومعناه: ترونه سبحانه رؤية واضحة لا شك فيها كوضوح رؤية الشمس والقمر، كما يليق بجلاله سبحانه.

ومما يؤكد أن قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ لنفي قابلية الرؤية واستطاعتها في الدنيا، أنه سبحانه قال لموسى بعد ذلك:

﴿وَلَكِنْ أَنْظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنَّ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ، فَسَوْفَ تَرِنِّي﴾ إذا تجليت لك، والجبل أمكن وأثبت وأقل تأثراً، ومع ذلك:

﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾ أي: ظهر له على الوجه اللائق بجلاله.  
﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾ مدكوكاً مُفْتَتاً.

ولم يتحمل موسى ﷺ هول منظر الجبل وهو ينهار ويفتت:  
﴿وَحَزَرَ مُوسَى صَعْقًا﴾ أي: سقط مغشياً عليه.  
﴿فَلَمَّا أَفَاقَ﴾ من صعقته وغشيته.

﴿قَالَ سُبْحٰنَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ﴾ من الإقدام على سؤال الرؤية من غير استئذان.  
﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بعظمتك وجلالك.

وظهر بهذا فضل سيدنا محمد ﷺ، فعندما أكرمه الله تعالى بمعجزة الإسراء والمعراج، وأراه من عجائب مخلوقاته في السماوات ما أراه، لزم ﷺ حدود ما أكرمه الله تعالى برؤيته، ولم يطمح ببصره إلى أكثر منه أدباً مع ربّه ﷻ، فاستحق ثناءه الكبير عليه في قوله سبحانه: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ (٧) لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم].

#### • الشريعة والحضارة:

وبعد أن أفاق موسى ﷺ من صعقته، وأقبل على الله سبحانه تائباً، ذكره سبحانه بما أنعم عليه وما خصّه به:



﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلِمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ ﴿١٤٤﴾

﴿قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي﴾ التي أنزلتها عليك .  
﴿وَبِكَلِمِي﴾ وبتكليمي إياك .

﴿فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فإن من الشكر الرضا بالنعمة والقناعة بها .  
وأنزل عليه سبحانه التوراة مكتوبة في ألواح ، وقال جلَّ وعلا في وصفها :

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ ﴿١٤٥﴾

﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ يحتاجون إليه في أمر دينهم  
وشريعتهم ، أي : كتبنا له فيها الأحكام الشرعية التي يحتاجون إليها في جميع  
شؤون حياتهم .

فالشريعة أمر أساس في بناء حياة الأمة الاجتماعية والحضارية ، وبقاء  
الأمة واستمرار حضارتها مرهون بمدى تمسكها بالشريعة المنزلة عليها .

﴿مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي : كتبنا له كلَّ شيء من المواعظ وتفصيل  
الأحكام .

فالشريعة الصالحة الكاملة هي التي تلبى جميع الحاجات التشريعية للأمة  
في شؤون دينها وديناها ، وهي مقوم أساس من مقومات الحضارة ، والمطلوب  
من بني إسرائيل الذين عاشوا في ظلِّ حضارة الظلم والقهر والاستبداد عندما  
كانوا في مصر ، أن يقيموا في الأرض المباركة حضارة العدل والإيمان والحرية  
والسلام ، وهاهي الشريعة الكاملة قد أنزلها الله عليهم ، وهاهو نبي الله موسى  
ﷺ يقودهم إلى الأرض المباركة ، فهل سيكونون أهلاً لهذه المهمة الجليلة

ويرتفعون إلى مستواها؟ أم ستتقاصر هممهم وعزائمهم عنها، ويختار سبحانه لها غيرهم من الأمم؟ هذا ما ستكشف عنه الآيات في سورة الأعراف.

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجد وحزم وعزم، فالمهمة التي كُلِّفتم بها شاقة وكبيرة، تحتاج إلى جد وعزم وحزم.

﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا حُذُوءًا بِأَحْسَنِهَا﴾ أي: بعزائمها وواجباتها، ولا يتبعوا رخصها فيعملوا بها فقط، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن يكون في شرائعه المنزلة رُخص لبعض الحالات الضرورية، فلا ينبغي العمل بالرخص فقط، وترك الواجبات والعزائم.

والنفتت الآيات تخاطب بني إسرائيل بأسلوب الوعيد والتهديد:

﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: سترون عاقبة من خالف أمري، وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار و التباب.

قال ابن جرير: «وإنما قال: ﴿سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ كما يقول القائل لمن يخاطبه: (سأريك غداً إلى ما يصير إليه حال من خالف أمري) على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره»<sup>(١)</sup>.

#### • المعرضون عن الحق:

وتابعت الآيات بأسلوب التهديد والوعيد، فبيّنت سنّة من سنّنه سبحانه في خلقه، بقوله جلّ وعلا:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ﴾ المبتوثة في الكون، والدالّة على عظمتها سبحانه ووحدانيته، أو آياتي المنزلة على رسلي، فلا ينتفعون بها.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٠/٢.

﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ بالطبع على قلوبهم، فلا يتفكرون بما يشاهدون من الآيات والدلائل، ولا يعتبرون بمصائر الأمم قبلهم، كما مر معنا في قوله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ يَهْدِي اللَّهُ لِلذِينَ يَرْتُوبُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأعراف].

فالكبر من آفات النفس الكبيرة، يجعل صاحبه قليل الفهم ضعيف الإدراك، لا ينتفع بموعظة، ولا يعتبر بمثل.

﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلَاءَ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ كما فعل فرعون وملؤه، لم يؤمنوا بالمعجزات الكثيرة التي رأوها.

﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ بل يتعدون عنه معرضين.

﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ أي: إذا رأوا أيَّ طريق من طرق الضلال والفساد سارعوا إلى السير عليه، مما يدلُّ على الاضطراب والخلل في تفكيرهم وانعكاس القيم في نظرهم.

إننا لنرى في عصرنا الحاضر كثيراً من المسلمين المفتونين بحضارة الغرب المادية تنسحب عليهم هذه الآية تماماً، يعرضون عن الحق الذي في دينهم وشرعهم، ويتمسكون بكلِّ ضلال وباطل يأتيهم من غيرهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ غفلة عناد وإعراض لا غفلة سهو وجهل (١).

وسبب هذه الغفلة أنهم كذبوا بيوم القيامة، وسلخوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، ولا قيمة لحياة الإنسان إذا لم يستشعر في قرارة نفسه بمسؤولية في حياته، إنها جوهر حياته، ومحور وجوده:

(١) تفسير النسفي: ٦٣٥/٢.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٤٧)

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ ضاعت أعمالهم، وذهبت جهودهم سدى، لأنهم جرّدوا أنفسهم عن الشعور بالمسؤولية أمام ربهم، فماذا يبقى من حياتهم؟

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا؟! .

### • العجل الذهبي:

وحدث في أثناء غياب موسى عن بني إسرائيل ما كان موسى يخشى حدوثه، فبينما كان ﷺ بجانب الطور يناجي ربه، ويتلقّى التوراة التي فيها الشريعة الإلهية، لتكون أساس المجتمع والحضارة في الأرض المباركة، كان بنو إسرائيل عاكفين على عبادة عجلٍ مصنوعٍ من الذهب؛ ولهذا العجل قصة:

عندما أغرق الله فرعون وجنوده في البحر، التقط الإسرائيليون بعض حليهم التي كانوا يتزينون بها، ويزينون بها أيضاً سلاحهم ومتاعهم، فلقد كان المصريون القدماء يحرصون على التحلّي بالذهب، ويتخذون منه الأساور، دل على ذلك ما ذكره سبحانه في كتابه عن فرعون أنه قال عن موسى ﷺ: ﴿أَمْرًا أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (٥٢) ﴿فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَأِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ [الزخرف].

وكتّم القوم عن موسى ﷺ أمر هذه الغنائم من ذهب المصريين، فقد كانوا يعلمون أنها لا تحل لهم، فما أحلّ الله الغنائم إلا للمسلمين كما جاء في الحديث الشريف الذي سبق ذكره: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي... وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي...» [رواه مسلم (٥٢١)].

واستيقظ الضمير الديني للقوم في أثناء غياب موسى عنهم، وتساءلوا فيما بينهم: ماذا يصنعون بهذه الحلي؟ فأشار عليهم أحد رؤوس الضلال والفساد

فيهم، ويُدعى السامري، وكان يتظاهر بالورع والصلاح، أن يلقوها في النار، وأوقد الرجل لهم النار، وألقوا الحلي الذهبية فيها، وكان الرجلُ على خبرة بصياغة الذهب، فأخذ هذا الذهب المذاب في النار، وصنع منه تمثال عجل، ثم أخذ قبضة تراب كان يحتفظ بها، قبضها من أثر مَلَكٍ رآه، وهو متشكّل بهيئة البشر أنزله الله تعالى عند انفلاق البحر، فقد انتبه السامري إلى أن الأرض التي يطؤها تخضّرُ بتقدير الله تعالى، كأن حياة سرت فيها، فأخذ منها قبضةً من التراب، احتفظ به لأمر دَبَّره في نفسه، أقرَّ بذلك عندما سأله موسى بعد ذلك: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِي﴾ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿ [طه].

ألقي السامري حفنة التراب هذه في جوف العجل الذهبي، فسرى به نوع من الحياة الجزئية المحدودة بتقدير الله تعالى، وأثرت فيه قبضة التراب هذه كما تتأثر قطع الحديد بالمغناطيس القريب منها، وجعله هذا التأثر يصوت ويخور كما تخور البقر، وقال السامري لبني إسرائيل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسَى﴾ [طه: ٨٨] أي: ذهب موسى إلى مناجاة إلهه ونسي أنه هنا.

فعكفوا على عبادته، وفَتِنُوا به لكونه من ذهب، فالذهب كان ولا يزال معبود بني إسرائيل، كما قال تعالى: ﴿وَأَشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ الآية [البقرة: ٩٣].

وحبُّ اليهود للذهب والمال أمرٌ معروف ومشهور، عبدوا العجل الذهبي، وأعرضوا عن نصح هارون لهم، وقالوا له: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ [طه: ٩١] ففتنتهم بالعجل الذهبي كبيرة. قال تعالى هنا:

﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمَ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ (١٤٨).

﴿وَأَتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ أي: عجلًا متجسدًا، فهو

مجرد تمثال من ذهب .

﴿لَهُ خَوَارِجٌ﴾ له صوت كصوت البقر، فكيف فُتِنُوا به، وعبدوه من دون الله

تعالى؟! .

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾؟! فهو عاجز، لا يقدر على ما يقدر

عليه آحاد البشر من الكلام وإرشاد السبيل .

﴿اتَّخَذُوهُ﴾ معبوداً وإلهاً .

﴿وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ في عبادته، كما قال سبحانه في سورة البقرة:

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٦٧) .

ولما انتبهوا وعرفوا قُبْحَ ما صنعوا ندموا:

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَّ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا

لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٤٩) .

﴿وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ : أي ندموا .

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَّ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا﴾ بقبول توبتنا .

﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ ويستر خطيئتنا .

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الذين ضيعوا ثواب عباداتهم كلها بشركهم

وكفرهم .

• خيبة أمل:

وأخبر علام الغيوب نبيه موسى ﷺ بما أحدث قومه من بعده:

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ أَعِجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ

وَأَلْقَى الْأُلُوحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا

تُشْمِتُ فِي الْأَعْدَاءِ وَلَا تَجْعَلُنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١٥٠) .

﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا﴾ حزيناً .

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُونِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي: بئسما فعلتم في غيابي.

﴿أَعَجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ﴾ أي: أعجلتم سخط ربكم وعذابه بعبادة العجل؟!.

واحتمله الغضب لله تعالى:

﴿وَأَلْفَى الْأَلْوَابِحَ﴾ ألواح التوراة.

﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾ وهو يظن أن هارون قد قصّر في نصحهم

وزجرهم.

﴿قَالَ﴾ هارون.

﴿ابْنَ أُمِّ﴾ أي: يا ابن أُمِّي، ذكّره بأمه ليرقق قلبه عليه، مع أنهما شقيقان.

﴿إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي﴾ عندما وعظتهم وزجرتهم.

﴿فَلَا تُشْمِتُ بِيَ الْأَعْدَاءَ﴾ فلا تفعل بي ما يجعل الأعداء يفرحون بما

يصيبني منك.

﴿وَلَا تَجْعَلَنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بعبادة العجل.

ترك موسى رأس أخيه هارون، واتجه إلى الله تعالى يسأله الرحمة له ولأخيه فقط، لم يسألها لأحد من بني إسرائيل، فقد رأى ﷺ أنهم لا يستحقون رحمة الله تعالى بعد أن لوّثوا أنفسهم بعبادة غيره تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (١٥١).

وهذا يدلُّ على خيبة الأمل المُرَّة التي أصيب بها موسى ﷺ، لقد كان يرجو ويأمل أن يبيني بهم في ظلِّ شريعة التوراة مجتمع الإيمان والعدل والسلام في الأرض المباركة، ولكن مواقفهم هذه بددت آماله ﷺ، حتى سأل الله تعالى - في آخر المطاف معهم - أن يفرق بينه وبينهم، كما حكى الله سبحانه عنه في سورة المائدة عندما رفضوا تنفيذ أمره وقتال أعدائهم الذين كانوا يسكنون في فلسطين: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَإِخِي فَأَفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ

الْفَلْسِقِينَ ﴿[المائدة: ٢٥]﴾<sup>(١)</sup>، تلك هي النتيجة التي انتهى إليها موسى ﷺ بعد المعاناة الطويلة مع قومه بني إسرائيل.

ثم بين سبحانه حكمه في عبّاد العجل فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجَلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وِذْلَةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

وأي فرية وكذبة أعظم من قولهم في العجل: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨]، كما سبق معنا في تفسير الآية (١٤٨).

ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بعباده، يقبل توبتهم، ويغفر لهم، إن تابوا واستغفروا، ورجعوا عن كفرهم وفجورهم:

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَءَامَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد عملها، وهذا دليل على أنهم أقلعوا عن السيئات، وهجرها نادمين على فعلها.

﴿وَأَمَنُوا﴾ أي: جدّدوا إيمانهم بعد ارتدادهم وكفرهم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد التوبة.

﴿لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويرحمهم.

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ وَفِي سُخْرِيَّهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُم لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ﴾ أي: سكن غضب موسى ﷺ.

﴿أَخَذَ الْأَلْوَابِحَ﴾ التي ألقاها في أثناء غضبه.

(١) انظر تفصيل الموضوع في: (تفسير سورة المائدة) وهو جزء من تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد أسميناه (الحلال والحرام في سورة المائدة).



﴿وَفِي نُسُخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي: وُكْتُبَ فيها ما فيه هدى ورحمة، والنسخ: الكتابة. ففيها الأحكام التي ترشد إلى الحق والعدل والرحمة والسعادة.

﴿لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ يخافون الله تعالى ويخشونه، ويلتزمون شريعته.

### • ميقات التوبة:

وتابعت الآيات مسيرة بني إسرائيل التاريخية، وهم في طريقهم إلى الأرض المباركة:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي لَأَتَّبِعُكَ بِمَا فَعَلْتَ السَّفَهَاءُ مِمَّا إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ من قومه.

﴿سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ من خيارهم، وأهل الصلاح والتقوى فيهم.

﴿لِّمِيقَاتِنَا﴾ لكي يخرجوا مع موسى إلى مكان مناجاته ربّه، ليتضرّعوا إلى

الله تعالى، ويستغفروه، ويسألوه أن يتوب على بني إسرائيل بعد عبادة العجل.

﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾ أي: الزلزلة الشديدة، فصعقوا.

وبين الله في سورة البقرة سبب ما أنزله بهم، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن

تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّعِقَةُ وَأَنْتُمْ نُنظَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

فعندما وصلوا مع موسى إلى مكان المناجاة عند جبل الطور، وشرع

موسى ﷺ يناجي ربّه، ويتلقّى وحيه، سألوا موسى أن يروا الله سبحانه جهرة،

وقالوا له: لن نصدق أنك تناجي ربك حتى نرى الله جهرة، فرجف الجبل بهم

فصعقوا وماتوا! أولئك هم خيار بني إسرائيل، اختارهم موسى بنفسه، وهو أخبر

الناس بقومه، وإذا كان خيارهم هكذا، فما بالك بعامتهم؟!.

إنّ الآية تكشف عن طبيعة النفوس المادية الغليظة التي لا تؤمن إلا

بالمحسوسات، فقلوبهم قاسية، وطباعهم مادية غليظة خشنة، فأى خير يرجى

من مثل هؤلاء القوم، ولتذكّر هنا قوله تعالى الذي مرّ معنا في السورة: ﴿وَأَلْبَدُ  
الطَّيْبُ يُخْرَجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ لَا يُخْرَجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقد يقول قائل: لقد سأل موسى الرؤية قبلهم.

فأقول: هناك فرق كبير بين من سأل الرؤية حباً لله تعالى وشوقاً إليه، وبين  
الذين سألوا الرؤية شكاً وريبة.

ووقف موسى على الجبل وحيداً بين أجساد المصروعين، واتجه إلى الله  
تعالى داعياً بضراعة وخشوع:

﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلِ وَإِنِّي﴾ أي: إنك قادرٌ على إهلاكنا من قبل  
عندما كنا بين أمواج البحر، فرحمتنا ونجيتنا من ظلم فرعون ومن البحر، فكما  
رحمتنا في الماضي، أسألك أن ترحمنا في حاضرنا.

هكذا تعرّض ﷺ لرحمة الله تعالى السابقة لاستجلاب رحمته اللاحقة.

﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ من العناد وسوء الأدب وعبادة العجل.

﴿إِن هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أي: ابتلاؤك واختبارك، فكأنه ﷺ يقول: إن الأمر  
إلا أمرك، وإن الحكم إلا لك، فما شئت كان.

﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِلٌّ  
لمن هديت، ولا مُعْطِي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، فالملك كله لك،  
والحكم كله لك، لك الخلق والأمر<sup>(١)</sup>، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ  
الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وبعد هذا الثناء على الله تعالى، فوَضَّ الأمر إليه جلَّ وعلا:

﴿أَنْتَ وَابْنُكِ﴾ أي: متولّي أمورنا كلّها، ثم طلب المغفرة والرحمة.

﴿فَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ العافين، المتجاوزين عن الذنوب

والمعاصي.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٥٤/٢.

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ .

﴿وَأَكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ تحسن فيها أحوالنا .

﴿وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ : أي تبنا إليك ، وأبنا إليك ، من هاد يهود : إذا

رجع .

﴿قَالَ﴾ الله تبارك وتعالى لموسى ﷺ :

﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ فمشيئته سبحانه طليقة ، نافذة في كل شيء ،

يعذب من يشاء ، ويغفر لمن يشاء ، وهو سبحانه العليم الحكيم .

﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فكلُّ المخلوقات من آثار رحمته جلَّ وعلا .

﴿فَسَأَكْتُبُهَا﴾ فسأوجبها على نفسي تفضلاً وإحساناً .

﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ الكفر والمعاصي .

﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ يدفعها غنيهم لفقيرهم ، مما يدلُّ على أنَّ مجتمعهم

مجتمع متكافل متعاون ، لا حقد فيه ولا حسد ، ولا طمع ولا جشع .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي : يصدِّقون بأنها من عند الله ، فيلتزمون

بأحكامها ، ويقومون دعائم حضارتهم على نهجها .

#### ● بناء الحضارة الإنسانية:

قفزت الآيات الكريمة فوق أحقاب كثيرة من الزمان تزيد على ألفين من السنين ، وتجاوزت أمماً كثيرة وحضارات متعددة ، لكي تبين هوية الذين يتصفون بهذه الصفات الكريمة ، فكأنَّ جميع الأمم والشعوب الذين عاشوا في تلك الأحقاب الطويلة ، لا توجد فيهم هذه الصفات ، ولا يصلحون لأن يكونوا بناء الحضارة الإنسانية الحقة ، حضارة الإيمان والحق والسلام .

ترى من هم أولئك الموصوفون بهذه الصفات، الذين كتب الله تعالى على نفسه أن يرحمهم؟ إنهم:

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَإِنجِيلٍ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ﴾ الذي لم يمارس القراءة والكتابة. وهذه الصفة من صفات كماله عليه الصلاة والسلام، لأنها من أدلة صدقه في نبوته، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

والأمِّي أيضاً: المنسوب إلى الأمة الأمية، وهي الأمة العربية، وكانت الأمية فاشية بينهم في الجاهلية قبل الإسلام، وفي الحديث الشريف: أن النبي ﷺ قال: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ» [رواه مسلم (١٠٨٠)].

#### • النبي ﷺ في التوراة والإنجيل:

﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ﴾ باسمه ونعوته. ﴿فِي التَّوْرَةِ وَإِنجِيلٍ﴾. ذكر سبحانه الإنجيل قبل نزوله، كما ذكر النبي ﷺ والقرآن الكريم قبل مجيئهما، وقد أنزل الله التوراة والإنجيل على بني إسرائيل، أنزل التوراة سابقاً على موسى ﷺ، والإنجيل لاحقاً على عيسى ﷺ.

ورغم التغيير والتحريف للذين لحقا بالتوراة والإنجيل، وخاصة ما يتصل بالنبي ﷺ والإسلام، بقيت فيهما بعض الكلمات التي لا تنطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ ورسالة الإسلام التي أرسل بها، منها ما ورد في الإصحاح الثاني من سفر حجي، الجملة ٧ - ٩: «ولسوف أزلزل كل الأمم، وسوف يأتي حمداً

(Himada) لكل الأمم، وسوف أملاً هذا البيت بالمجد، كذلك قال ربُّ الجنود، ولي الفضة، ولي الذهب، هكذا يقول ربُّ الجنود، وفي هذا المكان أعطي السلام، هكذا يقول رب الجنود».

قال الدكتور البروفسور داود بنيامين الكلداني قسيس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، والذي أسلم بعد ذلك وسمّى نفسه (عبد الأحد داود): «لقد قمْتُ بترجمة هذه الفقرة من النسخة الوحيدة من الإنجيل التي كانت بحوزتي، والتي أعارتني إياها سيدة آشورية، كانت ابنة عمِّ لي، والنسخة هذه هي باللغة الوطنية الدارجة آنذاك، ولكن دعنا نرجع إلى الترجمة الإنجليزية للكتاب المقدس والتي نجد أنها ترجمت الأصل العبري لكلمة (حَمْدًا) إلى الأُمنية، وكلمة (شالوم) إلى الإسلام»<sup>(١)</sup>.

ثم بعد أن استعرض معنى كلمة (حَمْدًا) باللغة العبرية، وجد أنَّ لها معنى آخر وهو الحمد، فقال: «وأياً من المعنيين نختار فإنَّ الحقيقة الناصعة بأن كلمة (أحمد) هي الصيغة العربية لكلمة (حَمْدًا) وهذا التفسير هو تفسير قاطع لا ريب فيه ولا مرأء فيه. ولقد جاء في القرآن الكريم في سورة الصف الآية السادسة: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ النُّورِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ﴾، وفي إنجيل يوحنا الذي كتب باليونانية استعمل الاسم (باراكليتوس) وهو صيغة وثنية، لم تكن معروفة في دنيا الأدب الإغريقي، ولكن كلمة (بيركليتوس) والتي توافق وتطابق اسم (أحمد) في معناه ومغزاه، وفي إشرافه وسموه وتمجيده، وفي مقامه المحمود الأعلى، لا بدَّ وأن تكون ترجمتها من اليونانية (حَمْدًا) أو لعلَّها (حميده) بصيغتها الآرامية كما نطق بها يسوع المسيح، ولكن وأسفاه لا يوجد هناك إنجيل باق على الزمن باللغة الأصلية التي تحدَّث بها السيد المسيح»<sup>(٢)</sup>.

(١) محمد في الكتاب المقدس، ص ٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص ٥١.

وفي أثناء فتح الصحابة ﷺ لمصر، ظفر عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ ببعض كتب أهل الكتاب، فقرأها، واشتهر بين الصحابة باطلاعه على كثير من علوم أهل الكتاب وكتبهم، ولمّا سأله عطاء بن يسار عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: «أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأمينين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويُفْتَحُ به أعين عمي، وأذان صم، وقلوب غُفّ» [رواه البخاري (٢١٢٥ و ٤٨٣٨)].

ولقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في عدد من الآيات والسُور، وذكر أيضاً أنّ الصحابة ﷺ قد ذُكرت بعض صفاتهم في التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ كَرِزَجٍ أَخْرَجَ شُطْرَهُ فَتَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

#### • من خصائص الشريعة الإسلامية:

ومن خلال الصفات التي ذكرتها الآيات للنبي ﷺ أظهرت بعض الخصائص والسمات للشريعة الإسلامية:

أولها: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

وثانيها: تحليل الطيبات وتحريم الخبائث:

﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾ وهي كما مر معنا: المستلذات النافعة: ﴿قُلْ مَنْ

حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقد ذكرتُ ثمة أن الأصل في الأشياء الإباحة.

﴿وَيَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَ﴾ المستخبثة الضارة، فكل ما يضر الإنسان في دينه وعقله وعرضه ونفسه فهو حرام في الإسلام، ولهذا حرم الله تعالى المسكرات والدم المسفوح ولحم الميتة والخنزير، وبعد أن ثبت ضررُ الدخانِ وأنه من الخبائث ظهر حكمه في الإسلام وهو المنع والتحرير.

وثالثها: السماح والتيسير:

﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ أي: يخفف النبي ﷺ في شريعته الإسلامية، التكاليف الشرعية الثقيلة التي شرعت في الشرائع السابقة، كما في قوله تعالى: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ الآية [المائدة: ١٥].

وقوله أيضاً: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وفي الحديث الشريف: قال رسول الله ﷺ: «﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: قد فعلت» [رواه مسلم (١٢٥)].

﴿وَالْأَغْلَالِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني ويضع الأثقال والشدائد التي كانت عليهم في الدين والشريعة؛ وذلك مثل: قتل النفس في التوبة بعد الردة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتعيين القصاص في القتل، وتحريم أخذ الدية، وترك العمل في السبت... شُبِّهت بالأغلال مجازاً، لأنَّ التحريم يمنع من الفعل، كما أن الغلَّ يمنع من الفعل<sup>(١)</sup>.

هذه الصفات الثلاثة التي أبرزتها الآية الكريمة للشريعة الإسلامية، تدلُّ على أنها الشريعة الصالحة للإنسان لكي يبني في ظلها حضارة العدل والإيمان والسلام. ثم تحدّثت الآيات عن الأمة التي ستحمل هذه الشريعة، وتبني تلك الحضارة في قوله تعالى:

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ أي: صدقوا برسالة النبي ﷺ.

(١) انظر: تفسير الخازن: ٦٤٨/٢.

﴿وَعَزَّزُوهُ﴾ أي: عرفوا قدره العظيم ﷺ، فعظّموه ووقّروه وفخّموه، ومنعوه مِنْ كل من يريده بسوء، ولا شك أن التمسك بسنته وتعظيمها، من تعظيمه ﷺ وتوقيره.

﴿وَنَصَرُوهُ﴾ على أعدائه، وجاهدوا في سبيل إعزاز دينه، ونشر رسالته وتطبيق شريعته.

﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ وهو القرآن الكريم والسنة المطهرة، أي: التزموا بأحكام دينه، وتمسكوا بمنهجه وشريعته، فجعلوها أساس حياتهم في جميع شؤونهم الدينية والدنيوية.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون في الدنيا والآخرة.

وكل من اتصف بهذه الصفات، فهو من هذه الأمة، مهما كان لونه وجنسه ووطنه، فالأمة المسلمة أمة عالمية إنسانية، أكدت هذه الحقيقة الآيات الكريمة عندما التفتت هذه الالتفاتة الرائعة لتخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

كلماته: المنزلة على جميع رسله.

#### • الماء والغمام والمن والسلوى:

وبعد هذه القفزة الكبيرة ما يزيد على ألفين من السنين، عادت الآيات إلى الحديث عن بني إسرائيل، وهم في مسيرتهم التاريخية من مصر إلى فلسطين، وبدأت حديثها بالثناء على طائفة قليلة منهم، ظلوا متمسكين بالحق:

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ﴾ طائفة وجماعة.



﴿يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يدعون إلى الحق، ويرشدون الناس به.  
 ﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ في الأحكام.

وتدلُّ هذه الشهادة الطيبة على دقة الأخبار القرآنية وصحتها وواقعيتها، فمن هؤلاء من أدرك النبي ﷺ وآمن به كعبد الله بن سلام، وكان من كبار أحبار اليهود بالمدينة المنورة، وميمون بن يامين، وزيد بن سَعْنَةَ، وغيرهم.

﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦﴾﴾

﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا أُمَّمًا﴾ أي: جعلناهم اثنتي عشرة قبيلة.  
 فالسَّبْطُ في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب، وذلك لأنَّ آبَاءَهُمْ هم أولاد يعقوب الاثنا عشر: يوسف ﷺ وإخوته.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ﴾ أي: عندما طلب قومه السُّقْيَا والماء، وهم في صحراء سيناء.

﴿أَنْ أَضْرِبَ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ﴾ فضرب.

﴿فَانْبَجَسَتْ﴾ فانفجرت.

﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ لكل سبط عين يستقون منها.

﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ﴾ فلا يتزاحمون على الماء، ولا يختصمون،

كما قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كُلُّوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾﴾.

ومما أنعم الله به عليهم أيضاً:

﴿وَوَضَعْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَمَ﴾ ليقبهم وهج الشمس وحرها.

﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ﴾ وهو كلُّ ما منَّ الله عليهم من طعام دون تعب ولا عناء، يجدونه كالصمغ معلقاً على أغصان الأشجار والنباتات، أو يأخذونه من الأرض.

قال ابن كثير رحمته الله: «فالمَنَّ المشهور إن أُكل وحده كان طعاماً وحلاوة، وإن مُزج مع الماء صار شراباً طيباً... ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل على ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الكمأة من المَنَّ، وماؤها شفاءً للعين» [رواه البخاري (٤٤٧٨) ومسلم (٢٠٤٩) واللفظ له]»<sup>(١)</sup>.

﴿وَالسَّلَوَىٰ﴾ نوع من الطيور يشبه السَّمَانِي، كانوا يأكلون منه.

وقال لهم سبحانه:

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وهو أمر للإباحة.

#### • ظلمٌ وفسقٌ وفساد:

وحذَّره من المعاصي ونشر الفساد، كما مرَّ معنا في آية سورة البقرة: ﴿كُلُوا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾<sup>(٦٠)</sup>؛ ولكنَّ القوم لم يشكروا الله على نعمه، ولم ينفذوا ما أمرهم به، بل فسقوا عن أمره، وظلموا بذلك أنفسهم، دلَّ على ذلك قوله تعالى في ختام الآية: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

ومن صور فسقهم وظلمهم، ما فعلوه عندما أمرهم الله أن يدخلوا إحدى القرى التي مرُّوا بها في سبيل، وهم في طريقهم إلى فلسطين، ولعلَّ سبب ذلك أنهم تبرَّموا من الطعام الذي أنعم الله به عليهم، كما حكى سبحانه ذلك عنهم في قوله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْفَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ﴾ الآية [البقرة: ٦١].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٦٧/١.

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا  
الْبَابَ سَجْدًا تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾﴾ .

﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ﴾ ، وأباح لهم سبحانه ما فيها من طعام:  
﴿وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾ والقرية التي أمروا أن يسكنوا بها هي إحدى  
قرى صحراء سيناء، وقد جرى لهم هذا الأمر في فترة التيه، وكانت القرية  
محاطةً بأسوار، كما هو شأن جميع القرى والمدن في ذلك الوقت، فأمرهم  
سبحانه عندما يدخلون من بابها، أن يدخلوا خاضعين له تائبين مستغفرين،  
يحنون ظهورهم، ويسألونه سبحانه أن يحط عنهم ذنوبهم وأوزارهم.

﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: اسألوا الله أن يحط عنكم ذنوبكم.  
﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ لله تعالى، تحنون ظهوركم، ووجوهكم إلى  
الأرض، ووعدهم سبحانه على ذلك المغفرة والثواب العظيم.  
﴿تَغْفِرَ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ سَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ فلم يفعلوا ما أمرهم الله تعالى به،  
وفسقوا عن أمره:

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ  
السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾ .

﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ ودخلوا دخول المتكبرين  
المتجبرين المتحجرين، صدورهم ورؤوسهم إلى السماء.  
﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ وهو مرض الطاعون الذي مرَّ معنا  
ذكره.

﴿بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ . وقال في سورة البقرة: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا  
غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ .

• بلد الممسوخين:

واستمرت الآيات تكشف الستار عن جانب من تاريخ بني إسرائيل، لكي

تبيّن أنّهم غيرُ جديرين بالتمكين في الأرض المباركة، وإقامة حضارة الإيمان والعدل والسلام.

اتبعت الآياتُ في عرضها للواقعة التاريخية التالية أسلوبَ التحديّ ليهود المدينة المنورة الذين عاصروا النبيّ ﷺ، بسبب مواقفهم السلبية المخزية منه عليه الصلاة والسلام، خاطبت الآياتُ النبيّ ﷺ تأمره أن يسأل اليهودَ عن بلد الممسخين إلى صور القردة والخنازير.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْفَرَزِكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْفَرَزِكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةً الْبَحْرِ﴾ أي: التي كانت واقعة على ساحل البحر، وهي بلدة أيلة، أو إيلات، الواقعة على خليج العقبة من البحر الأحمر.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ أي: عندما يعتدون في يوم السبت، ويعصون أمر الله تعالى فيه، أمرهم الله تعالى أن يعظّموا يوم السبت، ويجعلوه يومَ عبادةٍ لا عملٍ فيه، فخالفوا أمره، واحتالوا لصيد السمك فيه.

ابتلاهم الله تعالى بظهور السمك في شواطئهم يوم السبت:

﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ ظاهرة على الماء بكثرة.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ وتغيّب بعيداً في أعماق البحر.

﴿كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ﴾ أي: نختبرهم.

﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم وخروجهم على طاعة ربهم.

وتدلّ الآية على أنّ معاصي كثيرة وكبيرة قد انتشرت بينهم، ولهذا ابتلاهم

الله تعالى بظهور السمك يوم السبت.

وكان فيهم جماعةٌ صالحَةٌ، قاموا بوعظهم وتذكيرهم بطاعة ربهم،

وتخويفهم من غضبه وانتقامه مدة طويلة من الزمن، حتى دب اليأس من إصلاحهم في نفوس بعضهم، فترك هؤلاء اليائسون الوعظ والتذكير، وقالوا لإخوانهم المستمرين في الوعظ والتذكير كما ذكر سبحانه:

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِيَّانِي رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ إهلاكاً كلياً.

﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ دون أن يستأصلهم.

﴿قَالُوا﴾ أي: الوعاظ والمذكرون.

﴿مَعذِرَةٌ إِيَّانِي رَبِّكُمْ﴾ أي: نعظهم معذرة إلى الله تعالى، كي نظهر براءتنا من

ذنوبهم، وأنا غير راضين بها.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَنْتَقُونَ﴾ أي: ونحن نرجو أن يُقبلوا في يوم ما على الله تعالى،

ويتوبوا عن معاصيهم، ويتقوا ربهم.

ولا شك أن هؤلاء الواعظين أفضل عند الله تعالى من الساكتين، لقوله

تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِّنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ

الْمُقْبِلُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]،

ولقوله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ،

فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ» [رواه مسلم (٤٩)].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أجميماً الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ﴿١٦٥﴾﴾

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا وأعرضوا عما ذكَّروهم به الصالحون.

﴿أَجْمِيماً الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ من العذاب الذي نزل بهم.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ شديد لا رحمة فيه.

﴿يَمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بسبب فسقهم وإصرارهم على معاصيهم.  
ثم بين سبحانه العذاب الذي أنزله بهم فقال:

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: تكبروا عن ترك ما نهوا عنه من المعاصي.  
﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ صاغرين مبعدين ذليلين، كما قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فِجَعَلْنَهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

ويبدو أن العامة مسخوا إلى صور القردة، وأما رؤساء الضلال فيهم فمسخوا إلى صور الخنازير، لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مُتُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

#### • الذلَّةُ والشَّتاتُ:

أظهر الله تعالى بما كشف من مواقف اليهود المخزية هذه، استحقاقهم لحكمه الذي ألزمهم به في الدنيا، والذي بينه سبحانه بقوله:

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبْكُ﴾ أي: أعلن، أو حكم.  
وفي قوة الكلمة ما يفيد معنى القسم، فجاءت اللام بعدها كأنها جواب القسم:  
﴿لِيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ﴾ على اليهود.  
﴿إِلَى يَوْمِ الْفَيْصَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ أي: الذي ينزل بهم، العذاب الذي يسوءهم كالسجن والقتل والتعذيب.  
﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ للمستحقين له.  
﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأسلم.

والمتمامل في تاريخ اليهود يرى صدق ما ذكر في الآية الكريمة هذه، فلقد بعث الله عليهم في أثناء تاريخهم الطويل من يسومهم سوء العذاب، فكلمًا انتعشوا وانتفشوا، وطغوا في الأرض، سلط الله عليهم من يسومهم مختلف أنواع العذاب.

وسيبقى هذا الحكم ملازمًا لهم إلى يوم القيامة، كما أخبر سبحانه، وما نراه في العصر الحاضر من استغلالهم في أرض فلسطين، وتمكّنهم فيها، ليس سوى فترة عارضة، ومقدمة لعذاب سينزله الله تعالى بهم، بسبب فسادهم، وبغيهم في الأرض المباركة، وأعمار الأمم والشعوب لا تقاس بأعمار الأفراد، ثم إن هذا التمكّن في فلسطين، ليس صادرًا في الحقيقة منهم، إنما هو من الدول الكافرة الكبيرة التي تقف وراءهم، تؤيدهم وتمدّهم. كما أخبر سبحانه في سورة آل عمران بقوله: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءَ وَبَعْضٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

وقد حكم الله تعالى عليهم أيضاً بالتشتت والتفرق في بقاع الأرض:

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا﴾ فأصبحوا مشتتين في بقاع بعيدة، كما هو المعروف من تاريخهم.

﴿مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ﴾ الذين ظلّوا متمسكين بدين الله تعالى حتى بعث سيدنا محمد ﷺ، فأمنوا به، وصدقوا برسالته، كما مرّ معنا عند قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: منحطون عن مرتبة هؤلاء في التمسك بدين الله. ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ﴾ أي: اختبرناهم بالخير تارة وبالشر تارة

أخرى.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إلى الحقِّ ويتوبون عن المعاصي والفجور.

### • غرور واستكبار:

ثم قَدِّمَتِ الآيَاتُ وصفاً موجزاً لموقفهم من شريعتهم المنزلة على موسى في التوراة بعد التفرُّق والشتات:

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدِّهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَى حَيْرٌ لِلَّذِينَ إِنِّي مِنَ الْعُقُلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

﴿فَخَلَفَ مِنْ بَدِّهِمْ خَلْفٌ﴾ أي: أتت بعد الأجيال الأولى أجيالٌ أسوأ حالاً من الأولين.

﴿وَرَثُوا الْكِتَابَ﴾ التوراة.

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ أي: هجروا أحكام التوراة، وانصرفوا إلى أخذ ما يعرض لهم من شهوات الدنيا.

﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي: يفعلون ذلك وهم يطمعون بالمغفرة، وأنه سبحانه لن يؤاخذهم، وسيتجاوز عنهم.

وهو غرورٌ شيطانيٌّ، خدعوا به أنفسهم بسبب تكبرهم، ورؤيتهم لأنفسهم امتيازاً على غيرهم من بني آدم، فلهم بزعمهم مكانة خاصة عند الله تعالى.

﴿وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ﴾ أي: يرجون المغفرة، وهم مصرون على الذنوب، عائدون إلى مثلها، غير تائبين ولا مستغفرين.

وردَّ سبحانه على قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ بتوبيخهم وتذكيرهم بالميثاق الذي أخذه عليهم:

﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ﴾ أي: المذكور في التوراة.

﴿أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ إلا الصدق.



وقد كذبوا عليه سبحانه عندما قالوا: ﴿سَيُعْفُرُ لَنَا﴾ وهم يعلمون أن مثل هذا القول غير موجود في التوراة، لأنهم قرؤوها وعرفوا ما فيها.

﴿وَدَرَسُوا مَا فِيهِ﴾ أي: ما في كتاب التوراة، وما غرّوا نفوسهم وأطمعوها بالمغفرة إلا ليُقْبَلُوا على شهوات الدنيا دون أي عائق يقوم في نفوسهم.

﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَنْقُوتُ﴾ الله تعالى ويخافون عذابه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ هذه الحقيقة؟! كيف يجعل الله سبحانه المتقين الصالحين المصلحين كالمجرمين؟! كما جاء في قوله تعالى في سورة القلم: ﴿أَفَنَجِّعُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾.

ولهذا أثنى الله سبحانه بعد ذلك على المتمسكين بالكتاب المنزل عليهم، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (١٧).

﴿وَالَّذِينَ يَمْسِكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ يحلّون حلاله، ويحرّمون حرامه، ولا يتجاوزون أحكامه.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدّوها مستقيمةً كاملةً كما شرعها الله سبحانه، وتخصيص الصلاة بالذكر مع أن التمسك بالكتاب يدلُّ عليها لأهميتها.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ لأنفسهم ومجتمعهم بتمسكهم بشريعة ربهم سبحانه.

#### • ميثاق تحت الجبل:

وهو ميثاقٌ معروفٌ عند عامة بني إسرائيل، ذكره سبحانه في التوراة، وذكرهم به في القرآن الكريم، أخذه الله على آبائهم في عهد موسى ﷺ، ليتمسكوا بأحكام شريعتهم، فبعد أن سكن غضبُ موسى، وأخذ الألواح، وقرأها عليهم، استثقلوا ما فيها من تكاليف، وأبوا أن يلتزموا القيام بها، فرفع الله الجبل بكتلته الكبيرة الهائلة فوقهم، وهدّدهم بإسقاطه فوقهم إن لم يلتزموا

بالقيام بأحكام التوراة، فخرُّوا على الأرض ساجدين، وجعلوا طرفاً إلى الأرض، والطرف الآخر من وجوههم إلى الجبل خشية أن يسقط عليهم:

﴿وَإِذْ نَفَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ  
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

﴿وَإِذْ نَفَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ﴾ أي: رفعنا الجبل فوقهم حتى أصبح كأنه مظلة فوق رؤوسهم.

﴿وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: وتيقنوا أنه ساقط عليهم، وقيل لهم:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ أي: تمسكوا بأحكام الكتاب المنزل عليكم بعزم وحزم، وجد واجتهاد.

﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: تذكروا كل ما فيه من التكاليف والأحكام، ولا تغفلوا عن شيء منها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعلكم تصلون إلى درجة المتقين.

ومع ذلك نقض القوم عهدهم بعد ذلك، كما أخبر سبحانه في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاَسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ الآية [٦٣].

#### • الميثاق الأول والفضرة:

وانتقلت الآيات بعد تذكيرهم بالميثاق الخاص بهم، إلى تذكيرهم بالميثاق العام، الذي أخذه جلّ وعلا على جميع بني آدم، قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ﴾ الذين ولدتهم نسلًا بعد نسل، سوى من لم يُولد له.

﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: أخذ ربك من ظهور بني آدم، فهو بدل من بني آدم.

﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ أولادهم الذين تفرعوا عنهم .

وفي الحديث الشريف: عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من هذا، وأنت في صلب آدم، أن لا تُشرك، ولا أدخلك النار، فأبيت إلا الشرك» وفي رواية ثانية بلفظ: «قد سئلت ما هو أيسر من ذلك» [رواه مسلم (٢٨٠٥)].

و(الذرية): هي النسل، واشتقاق كلمة الذرية من الذر، يدل على أن النسل يحصل بعناصر صغيرة جداً، تبين في العصر الحاضر أنها الخلايا الجنسية، فالنطفة - كما يقول الأطباء - تُشتق من النطفة قبل زمن العلقة، وقبل تجسّم الإنسان الجديد، فالخلايا الجنسية الابتدائية تُشتق من جدار الحويصل المحي، ثم تهاجر، وتدخل إلى الغدد الجنسية الآخذة بالتكوّن في ظهر المخلوق الجديد، ثم تتكاثر فيها<sup>(١)</sup>.

والإنسان قبل أن يكون مجسماً بأعضائه وصفاته، هو صيغة كروموزومية وموروثية معينة، فهو (٤٦) كروموزوماً، تحتوي على عدد كبير من المورثات (الجينات) تتوزع عليها بصيغة تختلف من إنسان إلى آخر، وهذه الكروموزومات والمورثات وُجِدَتْ كُلُّهَا في آدم صلى الله عليه وسلم . . ثم أخذت تتوزع في ذريته<sup>(٢)</sup>.

وجاء في الحديث الشريف: عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم صلى الله عليه وسلم بنعمان<sup>(٣)</sup> يوم عرفة، فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرهم بين يديه، ثم كلمهم قُبلاً، قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ إلى قوله: ﴿الْمُطَلُونَ﴾» [رواه أحمد (٢٤٥٥)] وقال الشيخ أحمد محمد شاكر مصحح المسند: إسناده صحيح، والحاكم (٥٤٤/٢) وصححه، ووافقه الذهبي].

(١) انظر: القرار المكين، ص ١٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٣) موضع قرب عرفات.

﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: جعل كلَّ واحد منهم شاهداً على نفسه لا على غيره.  
﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ على أنفسنا بهذا الإقرار.

وقد حمل بعض المفسرين الآية على ظاهرها كما فسرها ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه من طرق كثيرة، وبعضهم رأى أن المراد بهذا الإشهاد هو ما فطرهم عليه من التوحيد، وما أقام لهم من الأدلة على ربوبيته ووحدانيته.

وقد فسّر الحسنُ البصري الآية بذلك، ولهذا قال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ﴾ ولم يقل من آدم ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ ولم يقل من ظهره، وقد انتصر ابن كثير لهذا الرأي، وردّ ما روي من الحديث عن ابن عباس بأنه موقوف <sup>(١)</sup>.

لكنني أرى أن الأولى المصير إلى ظاهر الآية والحديث، فمثل ما ورد في الحديث لا يُعرف بالرأي، وعلم المورثات والجينات في عصرنا الحاضر قرّب هذه الحقيقة من الأذهان، وقوله تعالى: ﴿مِن ظُهُورِهِمْ﴾ أي: أخرج بعضهم من ظهر بعض على نحو ما سيتوالدون ويتناسلون، وهو سبحانه قادر على كل شيء، وقد ذكرت أنّ المختصين من العلماء يقولون: إن النطف تُشتق من النطف.

نعم؛ يمكن القول بأن معرفة الخالق وتوحيده التي فطر الله تعالى عليها الخلق، من أثر هذا الميثاق العام الأول، قال تعالى فيها: ﴿فَأَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه كان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، وينصرانه، ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء» ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَطَرَتَ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية. [رواه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨) واللفظ له].

ومعنى «جمعاء»: كاملة الأعضاء، و«الجدعاء»: مقطوعة الأذن.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٦٤/٢.

معرفة الله تعالى مركوزة في نفس كل إنسان، ولا عبرة بمكابرة الملاحدة من الماديين الدهريين، فهم ينكرون الحقيقة في أعماق نفوسهم، بسبب غرورهم واستكبارهم، وتظهر عندما يواجهون الموت ويُعاینون أسبابه، كما فعل فرعون عندما أدركه الغرق.

﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ أي: وأخذ عليكم هذا الميثاق لثلاثا تقولوا.

﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ لم ننبه عليه، لقد فطركم الله عليه، ونصب لكم في الكون المحيط بكم وفي أنفسكم الدلائل الكثيرة التي تذكركم به، كما أرسل إليكم الرسل وأنزل الكتب.

﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ  
الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

﴿أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ سرنا على طريقهم مقلدين لهم.

﴿أَفَهَلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُجْرِمُونَ﴾ من آبائنا، لكن الله سبحانه جعل لكل إنسان مكلف إرادة وكسباً واختياراً، وزوده بالعقل ليميز به، كما أعطاه سمعاً وبصراً، وأرسل إليه مَنْ يدعوه إلى الحق ويبيئه له، فهو مسؤول عن اختياره وكسبه.

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

﴿وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾ التي تذكّرهم وتعظّمهم وتزجرهم.  
﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم وفجورهم، أو عن تقليد آبائهم.

• المنسلخون من الآيات:

إنّ الأدلة السمعية والعقلية، تفرغ أسماعهم، وتحيط بهم، ولكنهم أعرضوا عنها، وسلخوا أنفسهم منها، كما فعل ذلك الرجل الذي آتاه الله الآيات، وقرب إليه البيّنات، فانسلخ منها، فاقراً عليهم يا محمد - ﷺ - خبره:

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ

الْعَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ .

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ ففي هذه الكلمات إشارة إلى أن اليهود كان عندهم علمٌ بخبر هذا الرجل .

ولا يهتُمنا معرفة هويته، ولا حاجة بنا أن نرجع إلى أهل الكتاب لنسألهم عنه، كما فعل كثير من المفسرين، يكفي أن نتعرّف عليه من خلال الصفات التي وصفته بها الآيات القرآنية الكريمة .

فهو رجلٌ آتاه الله تعالى الآيات، ووفّقه إلى معرفتها، وشرح صدره لها، حتى أصبح من أهل الصلاح والتقوى والعلم فترةً من الزمن، ثم فُتِنَ عن دينه بوسوسة الشيطان .

﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ من تلك الآيات، بأن كفر بها، وأعرض عنها .

والسَلَخُ: كَشَطِ الْجِلْدِ، وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيء فارق شيئاً على أتم وجه: انسَلَخَ مِنْهُ<sup>(١)</sup>، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهِمُ اللَّيْلِ نَسَلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ [يس: ٣٧]؛ فالكلمة تدلُّ على أنّ الرجل كان متمسكاً بالآيات ومتصلاً بها اتصالاً قوياً، وأنّه كان على صلاح وتقوى، وكانت هذه الدلائل والبراهين حصوناً مانعةً له من كيد الشيطان ومكره، فلمّا انسَلَخَ مِنْهَا تمكّن الشيطان من إضلاله .

﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ وتمكّن منه، وأخضعه لوسوسته .

﴿فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ﴾ فصار من أتباع الشيطان الضالين .

فمن وفقه الله تعالى إلى تعلّم بعض علوم الكتاب والسنة، فعليه أن يتمسك بها ويعمل بها، ولا يهجرها، وينشغل عنها .

(١) روح المعاني: ١١١/٩ .

## • اللاهثون وراء الشهوات:

ثم بين سبحانه أن هذا الرجل ما ضلَّ إلا باختياره وكسبه، فقال:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: لو أردنا لرفعناه بهذه الآيات إلى المنازل العالية، لكنَّ حكمته سبحانه اقتضت تعليق الجزاء والثواب باختيار الإنسان وكسبه.

﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ ولكنه مال إلى شهوات الأرض.

والإخلاق إلى الشيء: الميل إليه مع الاطمئنان به.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: أصبح تابعاً لهوى نفسه، عبداً لشهوته.

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ فصار مثل الكلب الذي من طبعه:

﴿إِنْ تَحَمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ﴾ فهو يلهث دائماً في التعب والراحة.

وهي حالة تصيب الإنسان المنهمك في إرواء شهواته وغرائزه، والمبالغ

في الترف والسرف الذي حذرت منه الآيات فيما سبق معنا في قوله تعالى:

﴿يَبْنَئِيْ ءَادَمُ حُدُوْدًا زَيْنَتْكَرُّ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوْا وَاشْرَبُوْا وَلَا تُسْرِفُوْا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِيْنَ﴾

[الأعراف: ٣١].

وقد ظهرت أعراض هذه الحالة على كثير من الناس في العصر الحاضر،

بسبب إسرافهم وانهماكهم في الحياة المادية، مع كثرة المتاع المادي المحيط

بهم؛ تراهم في تعبٍ وهمٍ وقلقٍ واضطرابٍ، وهي أمراض العصر، لكثرة

انتشارها فيه، والتي يسمونها بالأمراض النفسية والعصبية.

﴿ذَلِكَ﴾ الإنسان الذي انسلخ من الآيات، هو النموذج المصعَّر لأمّة أرسل

الله إليها رسلاً، وأنزل عليها كتباً، وبعث فيها كثيراً من الأنبياء، وخصّها بنعم

جليلة، ومعجزات كبيرة: أهلك عدوهم، ونجّاهم من البحر، وظلّلهم بالغمام،

وأطعمهم المنّ والسلوى، وأنبع لهم عيون الماء في قلب الصحراء، وأنزل عليهم التوراة مكتوبة في ألواح... ثم بعد كل ذلك أعرضوا وغيروا وبدّلوا.

﴿مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا﴾ المنزلة في التوراة، والتي تأمرهم أن يتبعوا النبيّ الأميّ إن أدركوا زمنه.

﴿فَأَقْصِبْ قَصَصَ الْقَوْمِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ويعتبرون، تلك هي الحكمة الأساسية الكبرى للقصص في القرآن.

فما أسوأ هذا المثل لهؤلاء القوم! :

﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ (١٧٧)

ثم بين جلّ وعلا تمام إرادته ونفاذ مشيئته، فقال :

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٧٨)

﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ﴾ فمن وفقه الله للهداية، فهو المهتدي الحقيقي الذي لا يضل، فلا تغترّ أيها الإنسان بعلمك ومواهبك وقوتك، الجأ إلى الله تعالى دائماً، استعن به، وتوكل عليه، واسأله التوفيق والثبات.

﴿وَمَنْ يُضِلِّ﴾ بحرمانه من التوفيق والثبوت.

﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ وجاء بصيغة الإفراد في الهداية لأنّ طريقها واحد، وبصيغة الجمع في الضلال لكثرة طرقه: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّوْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وسبب حرمانهم من توفيق الهداية، نابع من داخل نفوسهم، فقد أعرضوا عن أدلّة الهدى، وأغلقوا أبصارهم وأسماعهم وعقولهم عنها، كما قال تعالى :



﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ أي: خلقنا كثيراً من الجن والإنس، علمنا أن مصيرهم إلى جهنم.

فالله سبحانه ما خلقهم ليعذبهم، وهو القائل: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَعَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ولكنه خلقهم ليشرفهم بالخلافة في الأرض، لكي يعمرها بطاعته وعبادته، فجعل لهم إرادة، ومنحهم حرية الاختيار، وزودهم بوسائل تمكنهم من التمييز لكي يحسنوا الاختيار، فعطلوها:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لأنها معطلة عن الفهم.

﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ شواهد الحق ودلائله.

﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ الحق.

﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ﴾ في عدم التمييز بين الحق والباطل.

﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ من الأنعام، لأنها تميّز على حسب الإمكانيات التي أعطيت لها.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ عمّا فيه صلاحهم وسعادتهم، بسبب انشغالهم في

شهواتهم وأهوائهم.



## الفصل الثامن

### العودة إلى مسرح الأحداث في مكة المكرمة

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْرَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٦﴾  
 وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهُودًا بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨٧﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا  
 يَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٩﴾ أَوْلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ حِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ  
 مُّبِينٌ ﴿١٩٠﴾ أَوْلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ  
 اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩١﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ  
 يَعْمَهُونَ ﴿١٩٢﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَافِيٌ عَنِهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ  
 النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٩٣﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ  
 لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩٤﴾ هُوَ الَّذِي  
 خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلًا خَفِيًّا  
 فَهَمَزَ فِيهِ فَلَمَّا أَثَقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكُونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٩٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا  
 صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٦﴾ أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ  
 يُخْلَقُونَ ﴿١٩٧﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ نَحْمًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يُضْرَبُونَ ﴿١٩٨﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا  
 يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاكُمْ عَلَيْهِمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ  
 أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠٠﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ  
 أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ  
 كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ ﴿٢٠١﴾ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ أَلَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿٢٠٢﴾ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ

دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصْرِفُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا  
وَتَرَاهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِيَّةِ ﴿١٩٩﴾  
وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا  
مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا  
يُبْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا  
بَصَائِرٌ مِّنْ رَبِّيكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا  
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ  
وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ  
يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

### • أمة الحق والعدل:

وعندما وصلت الآيات إلى تقرير هذه النتيجة، توقفت عن متابعة حركة التاريخ البشري، وعادت إلى مكة المكرمة لتخاطب رواد الأمة المسلمة، الأمة التي قفزت الآيات قفزتها الكبرى فوق آحاد طويلة من الزمان لكي تتحدث عن رسولها ﷺ، وخصائص شريعته، وصفات أفرادها، كما مر معنا، تنوياً بدورها الكبير في بناء حضارة الإيمان والعدل والسلام. فعلى المؤمنين حتى لا يكونوا من الغافلين أن يلجؤوا إلى الله تعالى، يسألونه التوفيق والثبات، ويدعونه بأسمائه الحسنى:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ الدالة على أحسن المعاني وأشرفها، وأعلى الصفات وأكملها، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرَنَّ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافَتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي: اسألوه بها واذكروه بها.

﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ أي: اتركوا الذين يميلون وينحرفون في

أسمائه سبحانه عن الحق إلى الباطل.

فمن إلحادهم في أسمائه ﷺ: أنهم اشتقوا لبعض أصنامهم أسماء من

أسماء الله الحسنى، اشتقوا اللات، من الله، والعزى، من العزيز.

﴿سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فأسماءه سبحانه توقيفية، لا تعرف إلا من كتابه وسنة نبيه ﷺ، ولا يجوز

تغييرها، كما لا يجوز تسميته سبحانه بغير ما سمى به نفسه في الكتاب والسنة.

وبعد هذا التوجيه الكريم لأبناء هذه الأمة، أثنت الآيات عليهم بقوله

تعالى:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ﴾ أي: يدعون إلى الحق، ويعملون على نشره

بين الناس.

﴿وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ وبالحق يحكمون ويعملون، إنهم يقيمون دعائم الحق

والعدل في مجتمعهم، وينهضون بحضارتهم على أساسه، كما يسعون إلى نشره

بين جميع الأمم والشعوب.

قال ابن كثير ﷺ: «جاء في الآثار أن المراد في الآية هذه الأمة

المحمدية، قال قتادة: بلغني أن النبي ﷺ كان يقول إذا قرأ هذه الآية: «هذه

لكم، وقد أعطي القوم بين أيديكم مثلها» ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ

يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

وفي «الصحيحين»: عن معاوية بن أبي سفيان، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، على الحق، لا يضرهم من خذلهم، أو

خالفهم حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ» [رواه البخاري (٣٦٤٠) ومسلم (١٠٣٧)]<sup>(١)</sup>.

ورواه البخاري بلفظ: «لا تزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم مَنْ خذلهم، ولا مَنْ خالفهم، حتى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ، وهم على ذلك» [رواه البخاري (٣٦٤١)].

### • الأسلوب الأمثل في التربية والدعوة:

ثم توعدت الآيات بأسلوب الخبر، المعرضين عن دعوة النبي ﷺ:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾ إلى الهلاك والسقوط درجةً درجةً.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾. وللاستدراج ناموسٌ إلهي، مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الصَّرَاءُ وَالصَّرَاءُ فَأَخَذْنَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأعراف].

﴿وَأَمْلِي لَهُمْ إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿وَأَمْلِي لَهُمْ﴾ أي: وسأملي لهم، فلا أعجلُ هلاكهم، ليزدادوا طغياناً، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ وَعَدَابُ مُهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

﴿إِنْ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ أي: إنَّ أخذي وبطشي قوي شديد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٧٠/٢.

ومن أساليب القرآن الكريم في التربية: أنه لا يقتصر على أسلوب الترهيب والوعيد، وإثارة المشاعر، واستجاشة العواطف، إنما يضيف إليه الترغيب، ويدعو إلى النظر والتفكير، فلا يخاطب القلب فقط، بل يخاطب القلب والعقل معاً، وهاهو يدعوهم بعد التهديد والوعيد إلى التفكير والنظر بقوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ﴾ الذي صحبوه وعرفوه مدة طويلة، وهو رسول الله ﷺ، الذي ولد فيهم، ونشأ بينهم على أحسن الخصال وأكمل الخلال.

﴿مِّنْ جِنَّةٍ﴾ أي: من جنون، فحاشاه ﷺ من ذلك.

وهذا من افتراءاتهم الباطلة على النبي ﷺ ردها الله تعالى في عدد من الآيات، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبِكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢]، وقوله أيضاً: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم].

فهو رسول الله ﷺ حقاً وصدقاً:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهر، يعرف ذلك كل من له أدنى تفكير ونظر.

والجدير بالذكر أن الدعوة إلى التفكير في حقيقة جوهره ﷺ تكررت في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَجْدِي أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْنَٰى وَفِرَادَىٰ تُرْتَفَكُرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىٰ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

كما تكررت الدعوة إلى التفكير في الدلائل الكونية لمعرفة قدرة الله تعالى وعظمته، منها قوله تعالى هنا:

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَيَأْتِي حَدِيثٌ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: عليهم أن

ينظروا نظر التفكر في ملك الله وسلطانه في السماوات والأرض، وفي كل شيء خلقه الله تعالى فيهما، ليتدبرا ويعتبرا.

وعليهم أن يسارعوا إلى هذا التفكير والنظر قبل أن تحين آجالهم، ويأتيهم الموت:

﴿وَأَنَّ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ﴾ فلعل الموت أصبح قريباً منهم.

﴿فِي آيِ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ أي: بعد القرآن الكريم.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ فإذا لم يؤمنوا بالقرآن الكريم، وهو الغاية والنهاية في الفصاحة والبيان، فماذا ينتظرون، وقد اقتربت آجالهم؟!.

ولمّا أصرّ القوم على كفرهم، واستمرّوا على عنادهم، طبع الله على قلوبهم، وحرّمهم من أسباب الهداية، كما هي سنّته في خلقه:

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَ هَادِيَ لَهٗ وَيَذُرُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَ هَادِيَ لَهٗ﴾ من دون الله تعالى.

﴿وَيَذُرُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يتحيرون ويتردّدون في ظلمات كفرهم وفجورهم.

#### • متى الساعة؟:

الإيمان بيوم القيامة من أكبر الموضوعات التي اشتدّ حولها الخلاف بين النبي ﷺ وبين مشركي العرب، فقد كانوا يستبعدون الحياة الثانية بعد الموت، وينكرون الحساب والجزاء، وكثيراً ما سألوا النبي ﷺ عن وقت القيامة على سبيل الإنكار والتحدّي، والاستهزاء والسخرية، وما كان رسول الله ﷺ يعلم وقتها، فهو من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ  
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا﴾ أي: متى إثباتها وتقريرها؟ فهم لن يؤمنوا بها حتى يروها ثابتة واقعة فعلاً.

وكلمة (مرساها) لا تستعمل إلا في الشيء الثقيل، كما في قوله سبحانه: ﴿وَالْجِبَالُ أَرْسُنَهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، ومنه: مرسة السفن، فأمر الساعة كبير وثقيل.

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي﴾ استأثر سبحانه بعلمها.

﴿لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ لا يظهرها في وقتها إلا هو سبحانه، فجعل المخلوقات بوقتها مستمر إلى حين قيامها.

ثم بين سبحانه حكمته في إخفائها فقال:

﴿نُقِلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: شأنها ثقيل شديد على أهل السماوات والأرض، لما فيها من الأهوال والشدائد، فمجئها ثقيل على أهل السماوات والأرض، إذ تتغير حينئذ النظم الكونية، والنواميس السماوية والأرضية كلها، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ بَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

فمن الحكمة إخفاؤها حتى لا تتعطل الحياة، وتتوقف مسيرتها، ولهذا قدر الحكيم الرحيم ألا تأتي إلا فجأة:

﴿لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْضَةً﴾ على غير توقع وانتظار، وعجلة الحياة دائرة مستمرة.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه، ولتقومن الساعة وهو يُليط (يُصلح) حوضه فلا يسقي فيه،



ولتقومن الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه (فمه) فلا يطعمها» [رواه البخاري (٧١٢١)].

فلو علم هؤلاء الناس أنّ الساعة ستقوم عليهم، هل كانوا يهتمون بشؤون حياتهم هذا الاهتمام؟! .

﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا﴾ أي: عالم بها، كثير السؤال عنها.

فالحفيّ: «العالم بالشيء، أو المستقصي في السؤال»<sup>(١)</sup>.

وشأن المؤمن أن يخاف من المسؤولية أمام الله يوم القيامة، فهو خائف وجلّ منها، كما قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [الشورى: ١٨].

#### • النبي ﷺ وعلم الغيب:

وعادت الآيات لتؤكد أنه سبحانه استأثر بعلم الساعة:

﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ فلا يعلمها غيره.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه سبحانه استأثر بعلمها، ولم يُطلع عليها

أحداً من خلقه، ولما أتى جبريل إلى النبي ﷺ وسأله: متى الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)].

قال ابن كثير ﷺ: «فهذا النبي الأمي سيد الرسل وخاتمهم، محمد ﷺ،

نبي الرحمة، ونبي التوبة، ونبي الملحمة، والعاقب والمقفي، والحاشر الذي يُحشر الناس على قدميه، مع قوله فيما ثبت عنه في [صحيح البخاري (٥٣٠١)]: «بعثت والساعة كهاتين» وقرن بين إصبعيه السبابة والتي تليها، ومع ذلك أمره الله أن يردّ علم وقت الساعة إليه إذا سُئل عنها»<sup>(٢)</sup>.

وأمره أيضاً أن يعلن ضعفه وعبوديته لله، وبرأته من ادّعاء علم الغيب:

(١) انظر: تفسير القرطبي: ٣٣٦/٧.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٧٢/٢.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنْ  
الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي: أنا عبد ضعيف، لا أستطيع أن أجلب  
لنفسي نفعاً، ولا أدفع عنها ضرراً، فكيف أملك علم الساعة؟! .

﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن يطلعني عليه، وقد أعلمه تعالى بأمر مغيب كثيرة، أخبر  
عنها رسول الله ﷺ، فكانت من دلائل نبوته، قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ  
عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ رَصَدًا﴾  
[الجن].

﴿وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ أي: ولو كنت  
أعلم الغيب من نفسي، لما كانت حالي على ما هي عليه الآن، كنت أستكثر من  
المنافع، وأجتنب المضار، فلا يمسني ما يسوءني.  
﴿إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي: ما أنا إلا عبد أرسلت بشيراً ونذيراً.  
﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون برسالتي.

إنه رسول الله حقاً وصدقاً، الرسول الذي قطع الطريق على الدجالين  
مدعي علم الغيب، الذين يستغلون ميل النفس البشرية إلى استكشاف حجب  
المستقبل، لكي يحققوا لأنفسهم المكاسب المادية، والعجيب أن صناعة الدجل  
هذه قد انتشرت في العصر الحاضر، عصر العلم المادي، ومرد ذلك إلى ضعف  
الإيمان، وشدة القلق والخوف من المستقبل، حتى خصصت أكثر الصحف  
والمجلات صفحات فيها لنشر تنبؤات الدجالين، وأطلقت عليهم لقب  
الروحانيين، ونشر بعضها استطلاعات صحفية كبيرة عنهم، ولهم في عاصمة  
فرنسا معرض دولي يجتمعون فيه ليعرضوا أكاذيبهم.

ذكرت إحدى المجلات عنهم ما يلي: «شقت الأبراج والنجوم وقراءة  
الكف طريقها إلى حياة الغربيين، والجميع يتذكر كيف أن بريجنيف - الرئيس  
السابق في الاتحاد السوفيتي - وضع مصيره في كف امرأة منجمة لتعالجه

بأسلوبها الخاص، حتى رونالد ريغن حكم أكبر دولة في العالم من خلال المنجمين، فكانت زوجته نانسي تتصل بالمنجمين، وتنظم حسب نصائحهم برنامج زوجها اليومي، وبدأ عدد من المؤسسات الصناعية الكبرى تعتمد في اختيار كبار موظفيها على قراءة الكف... وتزايد الطلب على المنجمين، وكثرت عيادات الغيب، ففي فرنسا أكثر من خمسين ألفاً من باعة الأحلام والأوهام<sup>(١)</sup>؛ فالعلم والمال والقوة لا تغني الإنسان عن الدين والإيمان.

#### • الانحراف عن الفطرة:

ثم بيّنت الآيات صورة من صور انحراف الإنسان عن التوحيد الذي فطر عليه إلى الشرك بقوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِن آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنُكَونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ آدم ﷺ .

﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وخلق من آدم زوجته حواء.

﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ليألفها، وتكون سَكناً وطمانينة لنفسه وقلبه، كما قال

تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾ أي: وطئها، وتم الاتصال الجنسي بينهما.

فما أجمل الكلمات القرآنية! فيها البلاغة والفصاحة، والصراحة

والوضوح، مع العفة والأدب، والتنزّه عن سقط الكلام.

﴿حَمَلَتْ حَمَلًا خَفِيًّا﴾ وذلك عندما يكون الجنين في أول أطواره، لا ثقل فيه.

(١) مجلة الوطن العربي، عدد (١٠٨)، ١٩٨٩/٤/٧، ص ٤٨.

﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت بالحمل كما كانت قبله من حيث قيامها وعودها وسائر أعمالها، فلم يَعْفُهَا حملها عن شيء مما كانت تفعله.  
 ﴿فَلَمَّا أَثْقَلَتْ﴾ أي: أثقلها الحمل بسبب زيادة وزنه وحجمه في بطنها.  
 ﴿دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ أي: توجه والدا الجنين إلى الله تعالى يدعوانه.  
 ﴿لَيْنَ آتَيْنَا صَلِحًا﴾ أي: ولداً سوياً مكتملاً في خلقه وتكوينه.  
 ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ لك على إحسانك وفضلك.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَفَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٩٠).

﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَلِحًا﴾ أي: أعطاهما ربهما ما سألاه، وهو الولد الصالح السويُّ المكتمل في تكوينه.

﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا﴾ أي: جعل هذان الوالدان لله تعالى شركاء في ما أنعم عليهما، فسميًّا الولد بعبد العزى، وعبد الدار، وعبد شمس، أو نسباً ذلك إلى آلهتهما، أو جعلوا الولد ينحرف عن أصل فطرته إلى الشرك، كما مرَّ معنا في الحديث الشريف: «ما مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ، وَيَنْصُرَانِهِ، وَيِمَجَّسَانِهِ...» [رواه البخاري (١٣٥٨) ومسلم (٢٦٥٨)].

﴿فَفَعَلَى اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزهه سبحانه وتقدس عن كلِّ شركٍ.

وفي قراءة: (تشركون) فكأنها تخاطب المشركين في مكة المكرمة.

ودلَّتْ صيغة الجمع في ختام الآية أنَّ المراد منها العموم، وليست الآية في زوجين مخصوصين، كما رأى كثير من المفسرين، فقد ذهبوا إلى أنَّ الآية في آدم وحواء، وأن شركهما كان شركاً في التسمية والصفة، لا في العقيدة والعبادة.

واستندوا إلى حديث [رواه أحمد (١١/٥) والترمذي (٣٠٧٧) والحاكم] عن

الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «لَمَّا وَلِدْتُ حَوَاءَ طَافَ بِهَا إِبْلِيسُ، وَكَانَ لَا يَعِيشُ لَهَا وَلِداً، فَقَالَ: سَمِّيهِ عَبْدَ الْحَارِثِ فَإِنَّهُ يَعِيشُ، فَسَمَّتهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَعَاشَ، وَكَانَ ذَلِكَ مِنْ وَحْيِ الشَّيْطَانِ وَأَمْرِهِ».

قال ابن كثير بعد أن ذكر هذا الحديث: «وعن قتادة قال: كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونصّروا... وهو أحسن التفاسير، وأولى ما حُمِلت عليه الآية، ولو كان هذا الحديث عنده محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره»<sup>(١)</sup>.

قال القرطبي: «ونحو هذا مذكور من ضعيف الحديث [في الترمذي (٣٠٧٧) وغيره]، وفي الإسرائيليات كثير ليس لها ثبات، فلا يعوّل عليها من له قلب، فإن آدم وحواء ﷺ، وإن غرّهما بالله الغرور، فلا يلدغ المؤمن من جُحر مرتين، قال عكرمة: لم يُخصّ بها آدم، ولكن جعلها عامة لجميع الخلق بعد آدم»<sup>(٢)</sup>.  
وسياق الآيات يؤكد أنها عامة في جميع المشركين.

قال تعالى بعدها:

﴿أَيْشِرْكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١٩١).

﴿أَيْشِرْكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾ أي: ما لا يقدر على أن يخلق شيئاً، وهو دليل العجز والضعف الذي يتنافى مع الألوهية، كما قال تعالى: ﴿بَتَّأْيُهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاَسْتَعْمَعُوا لَهُ إِنَّكَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ٧٣].  
﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ أي: وهم مخلوقون فكيف تجعلونهم آلهة؟!.

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (١٩٢).

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لا يستطيعون نصر عبّادهم.  
﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾ فلا يجلبون نفعاً، ولا يدفعون ضرراً، كما قال

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٧٢/٢.

(٢) تفسير القرطبي: ٣٣٨/٧.

تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُخَضَّرُونَ﴾ [يس].

• حملة على الأصنام:

﴿وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاهُ عَلَيْكُمْ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ ﴿١٩٣﴾﴾

﴿وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ لأنهم لا يسمعون.

﴿سِوَاهُ عَلَيْكُمْ أَدْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِيمُونَ﴾ لا تتكلمون.

وتابعت الآيات هذه الحملة الشديدة على الأصنام بقوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ إن هذه الأصنام عبید مثل

عابديها، فهي مخلوقة مملوكة مثلكم، وحتى يظهر لكم ضعفها وعجزها:

﴿فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنهم ينفعونكم أو يضرونكم.

ألا ترون عجزهم وضعفهم، وتجردهم حتى عن الجوارح التي خلقها الله

تعالى لكم؟!:

﴿الَّهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبِطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ

يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ ﴿١٩٥﴾﴾

﴿الَّهُمَّ ارْجُلُ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبِطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ

آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾.

وترتفع حرارة المواجهة مع المشركين بعد هذه الحملة الشديدة على

أصنامهم، وتصل إلى درجة التحدي:

﴿قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ﴾ أي: افعلوا بي ما تقدرتون عليه من الكيد والمكر.

﴿فَلَا تُظِرُّونَ﴾ وعجلوا به، ولا تؤخروه، فإنني لا أبالي بكم ولا بأصنامكم، لأنني متوكل على الله سبحانه، ومفوض إليه أمري.

﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۗ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾.

﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ القرآن الكريم.

﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ بالنصرة والتأييد، فكيف لا ينصرني ويمنعني من كيدكم ومكركم؟! .

وقد مر معنا في قصص السورة كيف نصر سبحانه أنبياءه، وحمى أوليائه، وأهلك أعداءه.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ﴾ إشارة إلى كيفية موالاته جلَّ وعلا، فموالاته باتباع كتابه، والتزام شرعه ومنهجه، كما ذكرت السورة في أول آياتها: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾، وبهذا يظهر الاتساق والانسجام بين آيات السورة من أولها إلى آخرها.

فاتباع الشرع الإلهي والمنهج الرباني هو الضمان للمجتمعات البشرية وحضارتها من الهلاك والسقوط.

وفي أثناء حرارة المواجهة تجددت الآيات مرة ثانية حملتها على الأصنام وهي تخاطب عابديها من المشركين:

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصُرُونَ﴾.

﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: وهذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله تعالى.  
﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ نَصَرَكُمْ وَلَا أَنفُسَهُمْ يَصُرُونَ﴾ فعجزهم ظاهر واضح.

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۗ وَتَرُدُّهُمْ يُنظَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

فلا سمع لهم ولا بصر، إنك أيها الواقف أمامهم تراهم ينظرون إليك

بأعينهم المصنوعة لهم من الجواهر المضيئة المتلألئة، والحقيقة أنهم لا يبصرون.

### • مجمع مكارم الأخلاق:

وبعد هذه الحملة الشديدة على الأصنام، أمرت الآية الكريمة النبي ﷺ أن يحسن معاملة المشركين تأليفاً لهم على الإسلام، بقوله تعالى الذي جمع مكارم الأخلاق:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩)

﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ أي: اقبل من الناس ما عفا وسهل وتيسر من أخلاقهم.

وكلمة (العفو) يدور معناها على السهولة واليسر.

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنه: أمر الله نبيه ﷺ أن يأخذ العفو من أخلاق الناس. وفي رواية عنه: ما أنزل الله - الآية - إلا في أخلاق الناس. [رواه البخاري (٤٦٤٣)].

ولما أنزل الله ﷻ على نبيه هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: «ما هذا يا جبريل؟» قال: «إن الله أمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك» [رواه الطبري (٦٤٤/١٠) مرسلاً، وابن مردويه موصولاً من حديث جابر<sup>(١)</sup>].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيت رسول الله ﷺ، فابتدأته فأخذت بيده، فقلت: يا رسول الله أخبرني بفواضل الأعمال، فقال: «يا عقبة، صل من قطعك، وأعط من حرمك، وأعرض عمن ظلمك» [رواه أحمد (١٤٨/٤) و(١٥٨)].

﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ أي: بالمعروف المستحسن من الأفعال، فإن الناس يقبلونه

من غير تكبير.

(١) انظر: فتح الباري: ٣٠٦/٨.



﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ أي: أعرض عن مقابلة السفهاء بمثل سفههم، واحلم عليهم، فالمراد احتمال سفههم وطيشهم، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عُيَيْنَةَ بن حصن.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم عُيَيْنَةُ بنُ حصن بن حذيفة، فنزلَ على ابن أخيه الحُر بن قيس، وكان من النَّفَر الذين يُدينهم عمر، وكان القراء أصحابَ مجالس عمر ومشاورته، كهولاً أو شبَّاناً، فقال عُيَيْنَةُ لابن أخيه: يا ابن أخي لك وَجْهٌ عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، فاستأذن له، فأذن له عمر، فلمَّا دخل عليه، قال: هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تُعطينا الجَزَلَ، ولا تحكُمُ بيننا بالعدلِ. فغضبَ عُمَرُ حتى همَّ به، فقال له الحُرُّ: يا أمير المؤمنين إنَّ الله تعالى قال لنبِيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإنَّ هذا من الجاهلين. والله ما جاوزها عمرُ حين تلاها عليه، وكان وقافاً عند كتاب الله. [رواه البخاري (٤٦٤٢)].

قال القرطبي: «هذه الآية من ثلاثِ كلماتٍ، تضمَّنت قواعدَ الشريعة في المأموراتِ والمنهياتِ:

فقوله: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ دخل فيه: صلة القاطعين، والعفو عن المذنبين، والرفق بالمؤمنين، وغير ذلك من أخلاق المطيعين.  
ودخل في قوله: ﴿وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ صلة الأرحام، وتقوى الله في الحلال والحرام، وغض الأبصار، والاستعداد لدار القرار.  
ودخل في قوله: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ الحُضُّ على التعلق بالعلم، والإعراض عن أهل الظلم، والتنزُّه عن منازعة السفهاء، ومساواة الجهلة الأغبياء، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة، والأفعال الرشيدة»<sup>(١)</sup>.

#### • حِصْنٌ وَوَقَايَةٌ:

الإحسان يكفُّ عنكَ أذى الإنسان كما قال سبحانه: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

(١) تفسير القرطبي: ٣٤٤/٧.

وأما الشيطانُ فلا يكفُّه عنك إلا الالتجاء إلى الله تعالى ليعيدك من شرِّه  
وكيده، ولهذا قال تعالى بعد آية مجامع مكارم الأخلاق:

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾

﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾ أي: إذا أصابك من الشيطان وسوسة،  
وأنت في حال الغضب، ليصدِّك عن الإعراض عن الجاهل، ويحملك على  
الانتقام منه.

﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع استعاذتك، ويعلم أحوالك، فذكرُ الله  
حصنٌ ووقايةٌ.

فالشيطان عدو الإنسان، يأتي الإنسان وهو في حال الغضب، لكي يورطه  
في أعمال خطيرة، قد تسبب شقاءه وتعاسته. ولهذا حثَّ النبي ﷺ على كظم  
الغيظ ودفع الغضب في عدد من الأحاديث، منها: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا، وَهُوَ قَادِرٌ  
عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يَخْيِرَهُ مِنَ الْحَوْرِ  
الْعَيْنِ مَا شَاءَ» [رواه أبو داود (٤٧٧٧) والترمذي (٢٠٢١) وحسنه].

وجاءت الآية تخاطبُ النبي ﷺ بالجملة الشرطية، لأن الشيطان لا سبيل  
له ولا تسلط له على النبي ﷺ، والمعنى: إن حصل في قلبك نزغٌ من الشيطان  
فاستعذ بالله، وإن لم يحصل ذلك البتة، فهو كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ لِيَجْطَنَّ  
عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وهو ﷺ معصوم من الشرك فالخطاب له  
والمراد غيره من عامة المؤمنين. ويؤكد ذلك قوله تعالى في سياق الآية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَآئِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ﴾ أي: ألمَّ بهم شيء من  
وسوسة الشيطان.

﴿تَذَكَّرُوا﴾ أمره سبحانه ونهيه.

﴿فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ مواقع الخطأ والزلل، فابتعدوا عنها.  
أو إذا زلُّوا وعصوا بادروا إلى التوبة ولم يصبروا، بينما يظل أتباع الشيطان  
وأولياؤه في ضلالهم وغيهم سادرين مصريين.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ﴿٢٠٢﴾.

﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ أي: وأما إخوان الشياطين من الإنس، فإنَّ  
الشياطين يمدُّونهم بالضلال، ويزيّنون لهم الفجور والآثام.  
﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم، بل يستمرون، لأنهم  
يجدونهم منقادين ومستجيبين لوسوستهم.

فالشيطان - كما مرَّ معنا في قصة الإنسان والشيطان - عدو الإنسان،  
وأصل كل شر وفساد، والقلوبُ الخبيثةُ هي التي لديها القابلية والاستعداد لقبول  
وسوسته كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الْأَطْيَبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَتْ  
لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا﴾ [الأعراف: ٥٨]، وأما القلوب الطيبة المؤمنة فلا سلطان  
للشيطان عليها إلا في حال غفلتها عن ربها جلَّ وعلا.

#### • القرآن كتاب البصائر:

ومن صور عناد أصحاب النفوس الخبيثة وإصرارهم على ضلالهم:  
إعراضهم عن القرآن الكريم، ومطالبتهم النبي ﷺ بالمعجزات، مع أن القرآن  
الكريم أعظم المعجزات، وأكثرها وضوحاً ودلالة على صدقه عليه الصلاة  
والسلام، قال تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ  
رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٢٠٣﴾.

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا﴾ أي: لولا أحدثتها، وأنشأتها من نفسك.  
﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾ أي: إنما ألتمم ما أنزله عليَّ ربي، وأكتفي

به، فلا أتقدّم إليه تعالى بشيء بعد القرآن الكريم، ففيه الأدلة الكافية الواضحة القاطعة.

﴿هَذَا بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: هذا القرآن فيه البصائر، وهي جمع بصيرة، وهي للقلب كالبصر للعين، لأنها تجعل القلب يبصر الحقيقة، فهي تجلو الحقائق وتظهرها كما يجلو النور المحسوسات للعين ويظهرها، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَمَن أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَن عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤] (١).

﴿وَهُدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: وفيه أيضاً الهداية والرحمة للمؤمنين. ولهذا أمر الله تعالى بالإنصات عند تلاوته، إعظماً له واحتراماً، فمجالس تلاوة القرآن الكريم مجالس ذكر ورحمة:

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٠٤).

وهو أمر مطلوب في الصلاة وخارجها. وكان المشركون يتواصون بالتشويش على النبي ﷺ عندما يتلو القرآن الكريم، حكى الله عنهم ذلك بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

فعلى المسلمين ألا يتشبهوا بالمشركين، وأن يُقبلوا على سماع القرآن خاشعين متدبرين، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

والإنصات والاستماع والتدبر مقدمة الاتباع الذي أمر الله تعالى به في أول السورة: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣].

#### • سجود التلاوة:

وعادت الآيات في خاتمة السورة إلى الحصن والوقاية، فجعلته مسك

(١) انظر: تفسير سورة الأنعام (بصائر الحق في سورة الأنعام) في تفسيرنا الموضوعي هذا.

خاتمته، فمعركة الإنسان مع الشيطان لا تتوقف، والصراع قائم لا ينتهي ما دام الوجود البشري مستمراً في الأرض، والشيطان لا يزال على الطريق يراقب الإنسان، ويرصد تحركاته كما مر معنا في قوله: ﴿قَالَ فِيمَا آغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (١٦) ثُمَّ لَأَنْبِتَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿[الأعراف]؛ فإن أحسَّ من الإنسان غفلةً عن ربه ألقى إليه وساوسه، ورمى عليه شباكه وأشراكه، ولا سبيل للنجاة من شره والسلامة من مكره إلا بذكر الله تعالى القائل:

﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٠٥)

﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ لأن ذكر النفس أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء، مع استحضار عظمة المذكور في القلب.  
 ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: وأنت في حال الضراعة والاستكانة والخضوع لجلاله وعظمته.  
 ﴿وَخِيفَةً﴾ أي: وأنت في حال الخوف منه ﷻ.  
 هذا إذا ذكرته في قلبك، وأما إذا ذكرته بلسانك، فالأفضل أن يكون سرًّا لا جهراً:

﴿وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ قال ابن كثير: «يستحب أن يكون الذكر خفياً، لا يكون نداءً وجهراً بليغاً»<sup>(١)</sup>.

وهو أيضاً مستحب في الدعاء، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَإِتْقَانًا، لَئِيْلَاجِبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [الأعراف: ٥٥].

وجاء بعد الأمر بالذكر التحذير من الغفلة:

﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ الذين يسلمون أنفسهم وقلوبهم إلى الشيطان، فيقودهم إلى الهلاك والسقوط.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٨٠/٣.

وحتى تشتدَّ عزيمة المؤمنين على الذكر، وتنشط له هممهم، أخبرهم سبحانه أنهم ليسوا وحدهم في ساحة الذكر والخضوع والخشوع لجلاله، فثمة مخلوقات كثيرة وكبيرة معهم في الساحة:

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ ﴿٢٠٦﴾

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ وهذا يدلُّ على علو منزلتهم ورفع مكانتهم، فهم الملائكة المقربون.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ ﴿٢٠٦﴾

﴿وَيُسَبِّحُونَهُ﴾ أي: وينزهونه عن كلِّ ما لا يليق بجلاله وكماله و غناه.

﴿وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ لا لغيره سبحانه.

فعليك أيها المؤمن أن تقتدي بهم، في خضوعهم وانقيادهم لأمره وشرعه، وفي تسيبهم وسجودهم.

وهذه أول آيات سجود التلاوة في المصحف، وهي من عزائم السجود؛ يسُّنُّ السجود عند تلاوتها أو سماعها اقتداءً بالملائكة المقربين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قرأ ابنُ آدمَ السجدة، فسجد، اعتزل الشيطان يبكي، ويقول: يا ويله، أمر ابنُ آدمَ بالسجود فسجد، فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» [رواه مسلم (٨١)].

اللهم اجعلنا ممن يتبعون كتابك وسنة نبيك ﷺ.



## تفسير سورة الأنفال

### أسباب النصر في سورة الأنفال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَاتِلِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد: فقد سجّل تاريخ المسلمين في العصور المتأخرة هزائم كثيرة متتابعة في مختلف ميادين الحياة، وقد بثت الصحوّة الإسلاميّة في كثير من المسلمين روحاً جديداً، جعلتهم يتطلّعون إلى إحياء مجد سلفهم الصالح، ورفع الرايات من جديد، وتحقيق الانتصارات.

ولا سبيلَ لهم إلى ذلك إلا إذا أحسنوا العودة إلى كتاب ربهم وسنة نبيهم عليه الصلاة والسلام.

ويتناول هذا الباب من التفسير: أسباب النصر من خلال سورة الأنفال التي أنزلها الله تعالى بمناسبة أول وأعظم نصر تحقق في تاريخ المسلمين في عهد رسول الله ﷺ، في غزوة بدر الكبرى، التي مهّدت لكل الانتصارات التي تحققت للأمة المسلمة بعد ذلك.

إنّه يرسم طريق النصر للأجيال المسلمة، التي تتطلّع إلى النصر، ويبين

نظرة الإسلام إلى الحرب والسلام من خلال المعاناة الصادقة الكريمة للنبي ﷺ وأصحابه البدرين، الذين قدر الله تعالى لهم بمشيئته وحكمته أن يكونوا رواد الجهاد في الإسلام.

كما أنّ هذا الباب أصدقُ سجلٌ لأحداث غزوة بدر من خلال أوثق المصادر التاريخية وأصدقها؛ آيات القرآن الكريم وسُنّة النبي ﷺ<sup>(١)</sup>.

كما جاء صورةً صادقةً للهدف الأساس لهذا التفسير المبارك، وهو إظهار الاتساق والانسجام بين آيات السورة، مع تفسيرها تفسيراً علمياً عصرياً واضحاً من خلال موضوع السورة الكريمة.

وقد قسّمت تفسير هذه السورة إلى ثلاثة فصول:

• الفصل الأول: بيان الأسباب المباشرة للنصر، من خلال عرض ما حدث قبل المعركة وفي أثنائها.

• الفصل الثاني: بيان الأسباب غير المباشرة للنصر، التي ينبغي للأمة أن تسعى دائماً لتحصيلها لتضمن الحياة الكريمة العزيزة لها.

• الفصل الثالث: التحذير من أسباب الهزيمة، التي تنعكس آثارها السلبية على حياة الأمة في السلم والحرب.

وإني لأسأل الله تعالى أن يجعل هذا التفسير فاتحة خير ونصر للمسلمين، وأن يتقبّله مني.

وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



(١) انظر كتابنا: سيرة النبي ﷺ من القرآن الكريم والسنة الصحيحة، ص ٣٣٣ - ٣٥٠، ط: دار القلم بدمشق.



## الْفَضِيلَةُ الْأُولَى

## الْأَسْبَابُ الْمُبَاشِرَةُ لِلنَّصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَع دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيَطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُم رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلَتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّا لَمُتَحَرِّفُونَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ كَمَا فَعَدَوْهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَلا تُؤَلُّوهُمْ إِلَّا أَدْبَارًا ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُؤَلِّمْ يَوْمئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقَالٍ أَوْ مُتَحَدِّثًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَفَدَّ بَاءَهُ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَسَّرُ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا

رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِئَلَّيْ لَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسْبًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنٌ كَيْدَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنَّ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهِيَ حَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعْدُ وَلَنْ نُعِيَّ عَمَّكُمْ فَعَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ .

### • البداية من النهاية:

نزلت سورة الأنفال، كما روى البخاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [٤٦٤٥] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بسبب غزوة بدر، وبدأت أول آياتها تعرض آخر ما حدث فيها، كأن ما حدث في آخرها أهم أحداثها، فماذا حدث في نهاية غزوة بدر؟.

حاز الصحابة البديون رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الغنائم التي غنموها من المشركين، وقيدوا الأسرى، قال عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فينا أصحاب بدر نزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فانترعه الله من أيدينا، وجعله إلى رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقسمه رسول الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين المسلمين عن بواء» [رواه أحمد (٣٢٤/٥)] وقوله: (بواء) أي: سواء.

وأصل النفل: الزيادة، وسميت الغنيمة نفلًا لأنها عطية من الله تعالى وفضل، تفضل الله تعالى به على الأمة المسلمة دون غيرها من الأمم.

ففي الحديث الشريف: قال عليه الصلاة والسلام: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لِمَ يَعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي، كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَيَّ قَوْمَهُ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأَحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيْبَةً طَهْرًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكْتَهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيَّ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأُعْطِيْتُ الشَّفَاعَةَ» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

ولأن الغنيمة زيادة على ما يحصل للمجاهد من ثواب الجهاد، وبهذا المعنى يُطْلَقُ اسْمُ النَّافِلَةِ عَلَى الصَّلَاةِ الزَّائِدَةِ عَلَى الْوَاجِبِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]

كما يسمّى ولد الولد نافلةً، لأنه زيادة على الولد، كما في قوله تعالى أيضاً: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۗ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٢].

والاختلاف أمر خطير، وله تأثير سلبي كبير، ولو أنّه حدث قبل المعركة لأدّى إلى نتائج خطيرة بتقدير الله تعالى، ولكنّه سبحانه سلّم، فحدث الاختلاف بعد أن تحقق النصر، وهزم الله تعالى المشركين شرّ هزيمة، وأنزل بهم بطشته الكبرى، التي سبق وتوعدهم بها في قوله الكريم: ﴿يَوْمَ نَبِّئُشَ الْأَبْطَسَةَ الْأَكْبَرَىٰ إِنَّآ مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].

ونزع الله تعالى سبب الاختلاف من أيديهم، وجعل أمر تقسيم الغنائم بيد رسول الله ﷺ، يقسمها بحسب ما يأمره تعالى، ويشرع له، فقال جلّ وعلا:

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ أي: حكم الأنفال مختصّ بالله تعالى وبالرسول ﷺ، يقسمه حسب ما يأمره الله تعالى.

وقد بيّن تعالى كيفية قسمة الغنائم بعد ذلك في قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمُسُهُ﴾ [الأنفال: ٤١]، كما سيأتي معنا، وقد أّخر تعالى بيانه ليأتي متناسباً في موقعه من أحداث غزوة بدر.

ولم يؤدّ الاختلاف الذي حدث بين الصحابة إلى خصام، فما تعدّى أن يكون اختلافاً في وجهات النظر، انتهى برفعه إلى رسول الله ﷺ وسؤاله عنه، دلّ على ذلك قوله: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾؛ فقد حسموا خلافهم عندما توجهوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه.

واهتمام السورة به لكونه بداية الشقاق والخصام المؤدّي إلى التفرّق والتحرّز والضعف والخذلان، فمبادرة السورة إلى ذكره يدلّ على وجوب المبادرة إلى معالجة مثل هذه الأمور التي تطرأ على المجتمع المسلم، قبل أن

تستفحل وتشتدّ وتمتدّ جذورها في جسم الأمة، وعندئذٍ تصبح المعالجة شاقة وبالغة الصعوبة، فمعالجة الداء قبل أن يستفحل أهون وأيسر، والأفضل من كلّ ذلك الوقاية من أسباب الخلاف والنزاع، والعمل على تجنب الأمة كل ما يمكن أن يؤدي إلى الخصام والشقاق، وهو ما نلاحظه في تشريعات الإسلام، فقد حرّم تعالى كل ما يمكن أن يكون سبب اختلاف وخصام بين المسلمين، كأكل الأموال بالباطل والغيبة والنميمة والسخرية والتكبر والتفاخر بالأحساب والأنساب... إلخ.

#### • إصلاح ذات البين:

وبعد أن جعلت الآية أمر الأنفال إلى الله تعالى وإلى رسوله عليه الصلاة والسلام أمرتهم بثلاثة أمور هامة:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾:

أولها: تقوى الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترك الاختلاف والنزاع، فخشيتُه تعالى ومراقبته تزيل من النفس أسباب الاختلاف والنزاع.

وثانيها: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أصلحوا ما بينكم من الأحوال حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق<sup>(١)</sup>، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

وقال أيضاً: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

وقال رسول الله ﷺ: «لَا تَقَاطِعُوا، وَلَا تَدَابِرُوا، وَلَا تَبَاغِضُوا، وَلَا تَحَاسِدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا» [رواه البخاري (٦٠٧٦) ومسلم (٢٥٦٣)].

وقد حثّ رسول الله ﷺ على إصلاح ذات البين، وبينّ خطورة الاختلاف على الدين، فقال: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»

(١) تفسير النسفي: ٤/٣.

قالوا: بلى، قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة» [رواه أبو داود (٤٩١٩) والترمذي (٢٥٠٩) وقال: حديث صحيح].

وثالثها: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ﷺ في كل ما يأمران به، وينهيان عنه، ويدخل فيه أمر الأنفال، ولا تتحقق طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ إلا بالتزام الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة.

ووقوع الأمر بإصلاح ذات البين بين الأمر بالتقوى والأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ يدل على أهمية الإصلاح وخطورته، فلا تتم التقوى ولا تكتمل الطاعة إلا به.

وأساس التقوى في ضمير الإنسان ووجدانه، في خوفه من الله تعالى وتعظيمه ومراقبته، وكل ذلك في القلب، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «التقوى هاهنا، التقوى هاهنا، التقوى هاهنا» ويشير إلى صدره. [رواه مسلم (٢٥٦٤)].

فإذا ما وُجد في القلب شيء من أسباب الخلاف والنزاع كالبغضاء والشحناء والحقد والحسد، دل ذلك على ضعف التقوى، وكان سبباً لحرمان المسلم من نفحات رحمة الله تعالى في الأوقات المباركة.

وقد بين رسول الله ﷺ هذا المعنى في عدد من الأحاديث النبوية الشريفة، منها: «تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ فِي كُلِّ خَمِيسٍ وَإِثْنَيْنِ، فَيَغْفِرُ اللَّهُ ﷻ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ لِكُلِّ امْرِيٍّ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً، إِلَّا امراً كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءٌ، فَيَقُولُ: ارْكُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا، ارْكُوا هَذِينَ حَتَّى يَصْطَلِحَا» [رواه مسلم (٢٥٦٥)].

واركوا: اُخْرُوا.

كما دل على أهمية هذه الأوامر الثلاثة قوله تعالى في ختام الآية: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم مؤمنين حق الإيمان، فالتزموا بهذه الأوامر الثلاثة.

فالمراد الحث على التقوى والطاعة، وإصلاح ذات البين، والمساورة

إليها، فإنَّ كمال الإيمان يدور على هذه الخصال الثلاث، وهي أيضاً أول أسباب النصر وأهمها، فالأمة التي تريد النصر يجب عليها أولاً أن تضمَّ صفوفها، وتصلح ذات بينها.

### • بين الخوف والرجاء:

ثم بيَّنت الآيات على وجه الاستئناف والحصر الظاهر الدالة على كمال الإيمان وقوته:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي: فزعت وخافت تعظيماً لشأنه جَلَّالاً، وخشية منه لمجرد ذكره سبحانه.

ومن المعلوم أنَّ المؤمن كلما ازداد معرفةً بالله تعالى وإيماناً به، ازداد تعظيماً له تعالى وخشية منه، ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «ما بال أقوام يتنزّهون عن الشيء أصنعه، فو الله إنني لأعلمهم بالله، وأشدّهم له خشيةً» [رواه البخاري (٦١٠١) ومسلم (١١١٠)].

وكان عليه الصلاة والسلام كثير البكاء، ويقول لأصحابه: «لو تعلمون ما أعلم - من جلال الله تعالى وعظمته - لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً» قال ذلك في خطبة له قال عنها أنس بن مالك رضي الله عنه: ما سمعتُ مثلها قط، فغطّى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم ولهم خنينٌ. [رواه البخاري (٤٦٢١) ومسلم (٢٣٥٩)].

فالخوف من الله تعالى؛ والبكاء من خشيته؛ من علامات الصالحين المحبّتين، الذين قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

وقد عدَّ عليه الصلاة والسلام من الأصناف السبعة الذين يظلمهم الله في

ظَلَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه» [رواه البخاري (١٤٢٣) ومسلم (١٠٣١)].

ولا منافاة بين قوله تعالى هنا: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وبين قوله في سورة الرعد: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (٢٨) لأنهما مقامان يجتمعان في قلب المؤمن، مقام تعظيمه وخشيته والخوف منه، ومقام رجاء رحمته وفضله وإحسانه، وقد جمع تعالى بينهما في آية واحدة فقال: ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِنْبًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ﴾ [الزمر: ٢٣] (١).

وقد يكون الاطمئنان بذكر الله تعالى في ذهاب الهموم والأحزان عن قلب المؤمن عندما يذكر الله تعالى، وذلك بسبب ما يفيض عليه سبحانه من فيوضات كرمه وإحسانه عند ذكره: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي: إذا قرئت عليهم آيات القرآن الكريم زادتهم تصديقاً بالله تعالى وبرسالة النبي ﷺ، فكل آية من آيات القرآن الكريم تزيد إيمانهم وتقويه بسبب زيادة الدلائل والبراهين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤].

فالقرآن الكريم يثبت الإيمان في قلب المؤمن ويقويه، فهو نور على نور، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءً﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: يعتمدون عليه، ويفوضون أمورهم إليه وحده، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، وهم يعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده لا شريك له، ولهذا قال سعيد بن جبیر: التوكل على الله جماع الإيمان.

ومن أهم صفات المؤمنين العملية:

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ (٣)

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي: يؤدونها بشكل صحيح مستقيم كما شرعت، يحافظون على أوقاتها، ويحرصون على تحصيل شروطها، وإقامة أركانها وسننها وآدابها، مع الخشوع فيها لجلال الله تعالى وحده.  
﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ الزكاة وسائر الحقوق الواجبة والمستحبة.

• المؤمنون حقاً:

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٤)

﴿أُولَئِكَ﴾ المتصفون بهذه الصفات الخمس، وهي: الخوف من الله تعالى، والإخلاص له وحده، والتوكل عليه، وإقامة الصلاة، والإنفاق من أموالهم في الوجوه الواجبة والمستحبة.  
﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي: هم المؤمنون حق الإيمان، الذين بلغوا مرتبة رفيعة في الإيمان والصلاح.

ولا يعني هذا أنهم وحدهم هم المؤمنون، فالقرآن الكريم نزل بلسان العرب وهم يقولون: فلانٌ سيد حقاً، وفي القوم سادة، وفلان تاجر حقاً، وفي القوم تجار، وفلان شاعر حقاً، وفي القوم شعراء<sup>(١)</sup>.

ويؤكد هذا المعنى قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أي: لهم مقامات ومنازل رفيعة في الجنة على قدر صدقهم وصلاحهم، ففي الجنة درجات، كما أن في جهنم دركات، قال تعالى:  
﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره عن عمرو بن عمرو، المختصر: ٨٥/٢.



وقال عليه الصلاة والسلام: «في الجنة مئة درجة، ما بين كل درجتين مئة عام» [رواه الترمذي (٢٥٣٢) وحسنه].

وقال أيضاً: «إنَّ أهل الجنة ليتراءون أهل الغرفِ من فوقهم، كما يتراءون الكوكبَ الدرِّيَّ الغابرَ في الأفقِ من المشرقِ والمغربِ، لتفاضلِ ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازلُ الأنبياءِ لا يبلغُها غيرُهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده، رجالٌ آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين» [رواه البخاري (٣٢٥٦) ومسلم (٢٨٣١)]. «الغابر»: الذاهب.

﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ أي: ولهم أيضاً سترٌ لذنوبهم، وتجاوزٌ عنها، فضلاً منه سبحانه. وهذا يدلُّ على أنَّ الإنسان مهما ترقَّى في درجات الإيمان والصلاح لا يخلو عن بعض الذنوب، ويبقى محتاجاً إلى مغفرة الله تعالى وعفوه، فلا ينبغي لأحدٍ أن يُعجَبَ بعمله، ويغترَّ بنفسه.

﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ خالٍ عن الكدرِ والمنغصات، لأنَّه من رزقِ الجنةِ ونعيمها.

#### • الإخراج من المدينة:

وبعد أن وصفت الآيات الأولى في السورة ما حدثَ حول الغنائم من اختلافٍ في نهاية غزوة بدر، عادت لتحكي أحداث الموقعة العظيمة من بدايتها، وهي تخاطبُ النبي ﷺ بقوله تعالى:

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾

﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ فخرجُ النبي ﷺ من بيته في المدينة المنورة، ليعترض قافلة لقريش مقبلة من بلاد الشام؛ كان بأمر الله تعالى ومشيتته، فهو خروجٌ مشروعٌ ملتبس بالحق، دلَّ على أنَّ اعتراض القافلة للاستيلاء على ما تحمِلُ من أموال المشركين أمرٌ مشروع، لأنهم كانوا أعداء للنبي ﷺ، آذوه، وعذبوا أصحابه، حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى الحبشة أولاً، ثم إلى المدينة المنورة آخرًا، واستولوا على بيوتهم وأموالهم، فمن حقُّ

المسلمين أن ينتصروا لأنفسهم، وأن يستردوا بما يأخذون من القافلة بعض أموالهم. ومن حقهم أيضاً أن يعملوا على إضعاف عدوهم، وكسر شوكتهم، بالاستيلاء على أمواله، التي هي مصدر كبير من مصادر قوته وجبروته.

فالله سبحانه هو الذي أخرج النبي ﷺ بما أوحى إليه، وندب ﷺ أصحابه ليخرجوا معه، قال ابن إسحاق:

«لما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم، وقال: «هذه غير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها».

فانتدب الناس، فحففت بعضهم، وثقل بعضهم، ذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله ﷺ يلقى حرباً.

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار، ويسأل من لقي من الركبان، تخوفاً على أمر الناس، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان أن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك، فحذر عند ذلك، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة<sup>(١)</sup>.

وكان في خروج النبي ﷺ خيراً كبيراً له ولأصحابه، فما اختاره الله تعالى خيراً مما يختاره الإنسان لنفسه.

#### • المجادلة في الحق:

لقد كره فريق من المؤمنين التوجه إلى بدر لقتال جيش قريش الذي خرج من مكة لحماية القافلة، وأرادوا اعتراض القافلة، ولكن الله تعالى اختار لهم لقاء جيش المشركين، وظهر بعد ذلك أن ما أَرَادَهُ تَعَالَى واختاره خيراً مما اختاروه لأنفسهم.

(١) سيرة ابن هشام: ١٨٢/٢.

وظهر هذا المعنى أيضاً في شأن الغنائم عندما نزعها الله من أيديهم، وجعل أمر تقسيمها في يد النبي ﷺ، يقسمها كما يأمره ربه جلّ وعلا، ولو بقي أمر الغنائم في أيديهم لوقع الخصام والشقاق بينهم بعد أن ظهرت بوادره في اختلافهم.

والتشبيه الذي دلّ عليه حرف الكاف في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ سيق لإبراز هذا المعنى، قال ابن كثير: «شبه به في الصلاح للمؤمنين، والمعنى أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم، وتشاحتم فيها، فانتزعها الله منكم، كان هذا هو المصلحة التامة لكم، كذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء، وهم النفيير الذين خرجوا لإحراز غيرهم، فكانت عاقبة كراهتكم للقتال بأن قدره لكم على غير ميعاد رشداً وهدى ونصراً وفتحاً، كما قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]»<sup>(١)</sup>.

فإخراج الله تعالى النبي ﷺ إلى قتال المشركين في بدر كان فيه خير كبير للإسلام والمسلمين، وكذلك ما شرعه سبحانه واختاره في أمر الغنائم كان فيه أيضاً الخير والصلاح للمؤمنين، فالله سبحانه يعلم وأنتم لا تعلمون، والخير فيما يختاره جلّ وعلا.

﴿وَإِنْ فَرِبْنَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ لَكُرْهُونَ﴾ القتال بسبب الميل الفطري إلى السلامة، كما مرّ معنا في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

أو: بسبب قلة عددهم، وعدم استعدادهم لقتال عدوهم، وذلك أنهم خرجوا لاعتراض القافلة كما مرّ معنا، فكان عددهم لا يزيد على ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً، وليس معهم سوى سبعين بعيراً، يعتقبون عليها، ومعهم أيضاً فرسان فقط للزبير بن العوام والمقداد بن الأسود ﷺ.

ومرّ معنا أن أبا سفيان علم بخروج النبي ﷺ، وأنه أرسل إلى قريش

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٨٦/٢، وذكر أنه أول الأقوال التي ذكرها الطبري في تفسيره لهذه الآية.

يستنفروهم إلى الخروج لحماية أموالهم، وإلى جانب ذلك غيّر الطريق التي كان يسلكها، فسلك طريقاً آخر قريباً من ساحل البحر، وتمكّن بذلك من النجاة، وأرسل إلى قريش الذين خرجوا مع أبي جهل يخبرهم بنجاة أموالهم، ويطلب منهم أن يرجعوا إلى مكة بعد أن سلمت أموالهم، ولكنّ أبا جهل أصرّ على المضي إلى بدر، وقال: والله لا نرجع حتّى نردّ بدرأً، فنقيم عليها ثلاثاً، فننحر الجُزُرَ، ونطعم الطعامَ، ونُسقى الخمرَ، وتعزّف علينا القيانُ، وتسمع بنا العربُ وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها<sup>(١)</sup>. (الجزر): صغار الإبل، و(القيان): المغنيات.

وعلم النبي ﷺ بعد أن خرج من المدينة بما حدث، فأخبر أصحابه بأنّ الله سبحانه وعده إحدى الطائفتين، إمّا الاستيلاء على القافلة وهي العيرُ، أو الانتصار على النفير، وهو جيش المشركين.

ولكنّ فريقاً منهم كرهوا لقاء النفير، وتمنّوا الاستيلاء على العير، وجادلوا النبي ﷺ في ذلك، وهم الذين قال تعالى فيهم:

﴿يَجِدُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ ﴿٦﴾ .

﴿يَجِدُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ الذي أراد الله تعالى إظهاره بقتال المشركين، والانتصار عليهم، وكسر شوكتهم.

﴿بَعْدَمَا بَيَّنَّ﴾ بعد أن أعلمهم الرسول ﷺ أنّ الله وعده إحدى الطائفتين: العير أو النفير، وقد فاتتهم العير، فلا بد إذاً أن يظفروا بالنفير وهم يعلمون صدق رسول الله ﷺ.

﴿كَأَنَّمَا يُسَافُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ أسباب الموت، بسبب قلّة عددهم، وعدم تأهبهم، مع كثرة عدوهم وتأهبه واستعداده.

(١) سيرة ابن هشام: ١٩١/٢.

## • العير أو النفير:

ثم واجهتهم الآياتُ الكريمةُ بما أضمره في قلوبهم، واختاروه لأنفسهم، بينما أراد الله تعالى لهم أمراً آخر أجلاً وأعظم مما اختاروه:

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ الظفر بالقافلة، أو النصر على جيش المشركين.

﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ فرغبتهم متوجهة إلى العير، وودادتهم منصبّة عليها، لأنها لا خطر فيها. ﴿الشَّوْكَةُ﴾ السلاح أو حدته، وبهذا التعبير بين سبحانه سبب رغبتهم بالعير، وكراحتهم للنفير.

والحرص على الكسب من دون عناء ومشقة أمر فطري مركز في جبلّة الإنسان، يدل على ضعفه ومحدوديته، والصحابة رضي الله عنهم بشر، شأنهم في هذا الأمر كشأن غيرهم من البشر.

وتدلّ الآية على كمال علم الله تعالى، وأنه يعلم السرّ وأخفى، يعلم سبحانه كلّ ما يهجس في النفس البشرية من خواطر ورغبات وأماني: ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٩].

﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ ويريد الله سبحانه أن يثبت الإسلام ويعزه، ويعلي أمره، بما أوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنزل عليه من الآيات الكريمة التي شرع فيها الجهاد، وأمره به.

﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: يستأصلهم، ولا يبقّي منهم أحداً.

فالجهد ماضٍ ما دام للكفر شوكة وقوة في الأرض، تمنع انتشار الإسلام، وتحول بينه وبين الناس.

### ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨)

﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ أي: شرع سبحانه ما شرع من الجهاد والقتال، وجمع بين المسلمين والمشركين في بدر على غير ميعاد، لكي يثبت الحق، ويعززه دينه ويظهره، ويدحض الباطل ويقمعه ويدخره.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: ولو كره ذلك المشركون الكافرون.

فإرادته تعالى هي الغالبة، ومشئته سبحانه التامة النافذة، والتسليم لأمره تعالى والانقياد لمشيئته دون أدنى اعتراض من أهم أسباب النصر. وهذا يكشف لنا جانباً من جوانب عظمة غزوة بدر، فقد كانت هذه الغزوة البداية لعزة الإسلام وظهوره وارتفاع راياته في جنات الأرض.

وكان البديريون من الصحابة رضي الله عنهم طليعة المجاهدين، ورواد الجهاد الأول، الذين شقوا الطريق لكل من سار عليه بعدهم، واقتفى آثارهم إلى يوم الدين، فلا عجب أن يكون لهم رضي الله عنهم امتياز على غيرهم، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين فضلهم ومكانتهم عند ربهم: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم» [رواه البخاري (٣٩٨٣)].

وعن رفاعه بن رافع رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «ما تعدون أهل بدر فيكم؟» فقال: «من أفضل المسلمين» قال: «وكذلك من شهد بدرًا من الملائكة رضي الله عنهم» [رواه البخاري (٣٩٩٢)].

• الدعاء عند اللقاء:

وتابعت الآيات تصف ما حدث قبل المعركة:

### ﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبِّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ (٩)

﴿إِذْ تَسْتَعِينُونَ رَبِّكُمْ﴾ أي: تسألون الله تعالى وتطلبون منه الغوث والنصر. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: حدّثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم

بدرٍ، نظرَ رسولُ الله ﷺ إلى المشركين وهم ألفٌ، وأصحابه ثلاثمئة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبلَ نبيُّ الله ﷺ القبلة، ثم مَدَّ يديه، فجعلَ يهتفُ بربه: «اللهم أنجز لي ما وَعَدْتَنِي، اللهم آتني ما وَعَدْتَنِي، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبدُ في الأرض» فما زال يهتفُ بربه ماداً يديه مستقبلاً القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه وقال: يا نبيَّ الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴿٦١﴾ فَأَمَدَهُ اللهُ تَعَالَى بِالْمَلَائِكَةِ. [رواه مسلم (١٧٦٣)].

فعلى الأمة التي تريد النصر أن تتوجه إلى الله تعالى بخشوع وخضوع، تدعوه وتساله النصر، بعد أن تستكمل الأسباب المادية في الإعداد والاستعداد التي أمر تعالى بها كما سيأتي معنا.

وعلى المجاهدين بشكل خاص أن يتوجهوا إلى الله تعالى بالدعاء عند اللقاء في ميدان المعركة، فالدعاء أقرب إلى الإجابة في هذا الموطن كما فعل النبي ﷺ في بدر، وفعله أصحابه أيضاً.

واستجابَ ﷻ لهم، وقال:

﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ﴾ متتابعين، فالاستجابة أعقبت الدعاء.

وقد روي: أن النبي ﷺ لما ناشدَ ربه خفقَ ﷻ خفقةً، وهو في العريش الذي بنوه له ليتخذَه مقراً لقيادته، ثم رفع رأسه فقال: «يا أبا بكرٍ أتاك نصرُ الله، هذا جبريلُ أخذُ بعنانِ فرسٍ، يقوده على ثنياه النقع»<sup>(١)</sup>. «النقع»: الغبار.

وفي [صحيح البخاري (٣٩٩٢ - ٢٩٩٥)]: عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ قال يوم بدرٍ: «هذا جبريلُ أخذُ برأسِ فرسه عليه أداة الحرب».

ثم خرج عليه الصلاة والسلام من العريش وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ

(١) سيرة ابن هشام: ١٩٦/٢.

الدُّبُرِ ﴿[القمر: ٤٥]، ثم نزل إلى أرض المعركة، فأشارَ إلى مصارع مَنْ سيقْتَلُ من رؤوس المشركين قائلاً: «هذا مصرعُ فلانٍ - ويضعُ يدهُ على الأرض - ها هنا وها هنا» قال أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه راوي الحديث: فوالله ما ماطَ أحدٌ منهم عن موضع يدِ رسولِ الله ﷺ. [رواه مسلم (١٧٧٩)]. (ما ماط): ما مال ولا عدل.

### • البشارة بالنصر:

ولكي تبقى قلوبهم متجهةً إليه وحده ﷺ، فلا يعتمدوا في النصر على غيره قال:

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىًٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىًٰ﴾ أي: وما جعل الإمدادَ بالملائكة إلا بشارةً لكم بالنصر، فإنَّ ذلك يشدُّ من عزيمة المقاتل، ويرفع معنوياته، ويزداد ثباتاً وإقداماً. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ أي: ولتسكنَ بهذا الإمداد قلوبكم، فيزولَ ما كان بها من خوفٍ وقلقٍ بسبب قلة عددهم وكثرة عدوهم.

وهذا ما تستهدفه برامجُ التوجيه المعنوي للجنود في العصر الحاضر، فإنَّ قادة الجيوش يحرصون أشدَّ الحرص على رفع معنويات جنودهم بشتى وسائل التوجيه، كما يحرصون على إزالة الخوف والقلق عن نفوسهم وقلوبهم، فالجنديُّ إذا استبدَّ به الخوف، وسيطر عليه القلق لا يثبتُ في أرض المعركة، ولا يصبر على أهوالها، ويُعدُّ نجاح القائد في رفع معنويات جنوده سبباً هاماً من أسباب النصر.

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فلا تحسبوا أنَّ النصر من الملائكة، إنَّما النصر من الله تعالى، منوطٌ بمشيئته وحده وقدرته، ومشيئته سبحانه طليقة نافذة، وقدرته كاملة، فلا يحتاجُ إلى وسائل وأسباب: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].



وما شرع الله الجهادَ، وكلفَ المؤمنين بأعباء القتال إلا ابتلاء لهم واختباراً، قال سبحانه: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

كما أن قتلَ المؤمنين للكافرين في ميدان المعركة أشدَّ إهانةً للكافرين، وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قَتَلْتَهُمْ يَعدُّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] فقتل صناديد قريش كأبي جهل بأيدي المؤمنين أنكى للمشركين من موتهم بقارعة أو صاعقة، وأشفى لصدور المؤمنين<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُغَلَبُ.

﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وشرعه.

#### • النوم في الميدان:

ومما يدلُّ على حكمته سبحانه وكمال قدرته أنه جعل الصحابة البدرين ينامون مطمئنين ليلة المعركة، كأنهم في بيوتهم وعلى فرشهم لا في ميدان القتال قرب عدوهم، ومن المعلوم أنَّ الخائفَ القلق لا يستطيعُ النوم، فلا يغمض له جفن، ولا يهدأ له قلبٌ، ولكنَّ الصحابة رضي الله عنهم ناموا في ميدان القتال متوسِّدين رمال بدر، مطمئنين آمنين، فكان نومهم من نعم الله تعالى عليهم، ذكَّرتهم به في قوله الكريم:

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَيَلْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ ﴿١١﴾.

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾ أي: اذكروا فضل الله سبحانه عليكم عندما جعل النعاس يغلبُ عليكم، فنتمم آمنين مطمئنين بأمان الله تعالى وحفظه

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ٩٠/٢.

ورعايته، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما كان فينا فارسٌ يوم بدرٍ غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائمٌ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرةٍ ويبكي حتى أصبح. [رواه أبو يعلى (٢٨٠) وابن خزيمة (٨٢٩) وابن حبان (٢٢٥٧)].

وأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْمَطَرَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ:

﴿وَيُنزِلُ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ﴾ من الحدث الذي أصابهم في نومهم.

﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ ويبعد عنكم وساوس الشيطان ونزغاته.

وكانت الأرض التي نزلوا بها أرضاً رملية غير متماسكة تغوص فيها الأقدام، وقد استغل الشيطان ذلك، وألقى في نفوسهم الوسواس، خوَّفهم بها من عواقب النزول في هذه الأرض، فردَّ الله كيده بالمطر الذي أنزله عليهم، وثبَّت به رمال الأرض فتلبدت، كما ثبتَّ الله تعالى به قلوبهم فقوَّأها.

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ وهي شجاعة الباطن.

﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وهي شجاعة الظاهر.

وقد أشارت الآية إلى أمرين هامين لهما تأثير كبير على سير المعركة:

أولهما: ينبغي لأمر الجند أن يحرص على تأمين راحة جنوده النفسية والبدنية قبل المعركة.

ثانيهما: وعليه أيضاً أن يحسن اختيار الأرض المناسبة للقتال، بحيث يتمكن

الجنود من سهولة الحركة وسرعة المناورة، كما تساعد على حمايتهم من عدوهم.

وقد فعل النبي صلى الله عليه وسلم هذا قبل المعركة، فعندما وصل عليه الصلاة والسلام

إلى بدرٍ نزل على أول ماء فيه، فقال له الحُباب بن المنذر رضي الله عنه: يا رسول الله

أرأيت هذا المنزل، أمناً أنزلكهُ اللهُ ليس لنا أن نتقدَّم ولا نتأخَّر عنه، أم هو

الرأي والحربُ والمكيدهُ؟ قال: «بل هو الرأي والحربُ والمكيدهُ» فقال: يا

رسول الله فإنَّ هذا ليس بمنزلٍ، فانهض بالناسِ حتى تأتي أَدنى ماءٍ من القوم

فننزلهُ، ثم نغور ما وراءه من القُلبِ، ثم نبني عليه حوضاً فتملأه ماءً، ثم نقاتل

القومَ، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد أشرتُ بالرأي» فنهض

رسولُ الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار حتَّى إذا أتى أدنى ماءٍ من القوم فنزل عليه، ثم أمرَ بالقلْبِ فَعُوْرَتْ<sup>(١)</sup>.

وهكذا تمكَّنوا من الماء، وسيطروا عليه، كما ثبتَّ اللهُ تعالى الأرض، فأصبح سيرهم عليها سهلاً ميسوراً.

### • مهمة الملائكة في بدر:

ثم بيَّنت الآيات مهمة الملائكة الذين أمدَّ اللهُ بهم المؤمنين في بدر:

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَيُّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾.

﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ﴾ في تأييد المسلمين وتثبيتهم ونصرهم.

﴿فَتَيُّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بما تلقونه في قلوبهم من التبشير بالنصر والتشجيع.

وللملك قوة على إلقاء معاني الخير في نفس الإنسان، كما أنَّ للشيطان قوة على الوسوسة في قلب الإنسان، ويسمَّى ما يلقي الملك لَمَّةً وإلهاماً، وما يلقيه الشيطان وسوسة<sup>(٢)</sup>.

ويؤيد ذلك الحديث النبوي الشريف: «إنَّ للشيطان لَمَّةً بَابنِ آدَمَ، وللملك لَمَّةً، فأما لَمَّةُ الشيطان، فإيعادُ بالشرِّ، وتكذيبُ بالحقِّ، وأما لَمَّةُ الملك، فإيعادُ بالخير، وتصديقُ بالحقِّ، فَمَنْ وجدَ ذلك فليعلم أنَّه من الله تعالى، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله مِنَ الشيطان الرجيم» [رواه الترمذي (٢٩٨٨) والنسائي (١٠٩٨٥) وابن حبان (٩٩٧)].

﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ وهو جندي من جنود الله، أيَّد به

نبيِّه ﷺ في معارك كثيرة، منها:

(١) سيرة ابن هشام: ١٩٢/٢. والقلْب: الآبار. ومعنى عُوْرَتْ: طمست ودفنت.

(٢) انظر: تفسير الخازن: ١٨/٣.

معركة بدر، ومراً معنا قوله ﷺ: «وَنَصَرْتُ بِالرَّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ»  
[رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

وفي غزوة بني قريظة ألقى الله الرعب في قلوبهم فنزلوا من حصونهم المنيعة  
مستسلمين، وأخبر سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ  
صِيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

وفي غزوة تبوك ألقى الله الرعب في الجموع المحتشدة من جيوش الروم  
عندما سمعوا بخروج النبي ﷺ لقتالهم من المدينة المنورة، وكان بينهم وبينه  
مسيرة شهر، وعندما وصل عليه الصلاة والسلام إلى تبوك، لم يجد جيشاً، ولم  
يلق حرباً.

﴿فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ أي: فاضربوا أيها المؤمنون فوق رقاب الكفرة لكي  
تقطعوا رؤوسهم، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا لَفِئَتُهُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرِّقَابِ﴾ الآية  
[محمد: ٤].

ورأى بعض المفسرين أن الأمر بالضرب موجه إلى الملائكة، وأنهم  
شاركوا فعلاً في القتال، واستندوا إلى بعض الروايات الدالة على مشاركة  
الملائكة في القتال، لكن قوله تعالى السابق: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ  
قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ٩] يدل على أن مهمة الملائكة كانت تثبيت المؤمنين  
وتبشيرهم، ورفع معنوياتهم، ومن المعلوم أن للملك قوة لا تعادلها أي قوة  
للإنسان، فملك واحد يكفي لإهلاك جيش المشركين بأجمعه، ولا يحتاج الأمر  
إلى ألف من الملائكة مردفين.

﴿وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ وهي أطراف أصابع اليدين، جمع بنانة.

والمعنى: إذا لم تتمكنوا من الضرب فوق أعناقهم، فاضربوهم في أي  
مكان، ولو كان رؤوس أصابعهم، فإن ذلك يؤدي إلى إثنانهم بالجراح،  
وإضعافهم وهزيمتهم.

ولا شك أن قطع رؤوس أصابع المقاتل يعوقه عن القتال، ويمنعه من

استعمال سلاحه، فعلى هذا يمكن أن يكون تكرير لفظ ﴿وَأَصْرِيئًا﴾ أريد به توجيه المؤمنين إلى موطنٍ من مواطن الضعف عند أعدائهم، وهو مكشوفٌ للمجاهدين يسهل عليهم الوصول إليه.

فالآية الكريمة توجّه المجاهدين إلى ضرب العدو في مقاتله، وتلفت أنظارهم إلى مواطن الضعف عند عدوهم ليضربوه من خلالها، وهو أمرٌ يحرص عليه كبار القادة العسكريين قبل المعركة، يبحثون بواسطة أجهزة استخباراتهم عن نقاط الضعف عند عدوهم لكي يضربوه من خلالها، دون أن تلحق بقواتهم خسائر كبيرة.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾ أي: هذا الأمر بضربهم على رقابهم ورؤوس أصابعهم .  
﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لأنهم خالفوا أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ، فساروا في شق وطريقٍ يخالف الطريق الذي شرعه الله تعالى وسار عليه الرسول ﷺ .

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وما أنزله بهم في بدرٍ شيءٌ قليل من عقابه تعالى وعذابه الذي أعده لهم يوم القيامة .  
ثم توجهت الآيات بالخطاب إلى المشركين تبكيئاً لهم وتقريعاً:

﴿ذَلِكَ لَكُمْ فَذُوْهُ وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿ذَلِكَ لَكُمْ﴾ العقاب والعذاب .

﴿فَذُوْهُ﴾ اعرفوا طعمه، فهو مقدمة لعذابٍ أكبر ينتظركم .

﴿وَأَنْتَ لِلْكَافِرِينَ عَذَابُ النَّارِ﴾ .

ولعلّ هذا ما أراه رسول الله ﷺ عندما وقف على الحفرة التي أُلقيت فيها جثثُ قتلى المشركين في بدر؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ ترك

قتلى بدرٍ ثلاثاً، ثم أتاهم، فقام عليهم، فناداهم فقال: «يا أبا جهل بن هشام، يا أمية بن خلف، يا عتبة بن ربيعة، يا شيبه بن ربيعة، أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً» فقال عمر: يا رسول الله كيف يسمعون؟! وأنى يجيبوا وقد جيئوا؟! قال: «والذي نفسي بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرُونَ أن يجيبوا» [رواه مسلم (٢٨٧٤)]<sup>(١)</sup>.

وهذا يدلُّ على أن عذاب القبر حق، وقد ذكر هذا الحديث في صحيح مسلم لإثبات عذاب القبر.

### • الثبات عند الضربة الأولى:

وبعد أن تحدّث الآيات الكريمة عما حدث قبل بدء القتال في بدر، التفتت إلى المؤمنين تخاطبهم، وتأمّرههم بالثبات عند لقاء العدو والشروع بالقتال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ﴾ ﴿١٥﴾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا﴾ مجتمعين متزاحفين بعضكم إلى بعض، والتزاحف: التداني في القتال<sup>(٢)</sup>.

﴿فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ﴾ فلا تولوهم ظهوركم منهزمين منهم، ولو كانوا أكثر عدداً وعدة منكم.

فكلمة ﴿زَحَفًا﴾ تدلُّ على كثرتهم، بحيث يرى الجيش لكثرتهم كأنه يزحف. والثبات في وجه العدو عند أول اللقاء أهم عنصر في المعركة يحقق النصر، قال رسول الله ﷺ: «الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى» [رواه مسلم (٩٢٦)].

وقال أيضاً: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلّال السيوف» [رواه مسلم (١٧٤٢)].

(١) قوله: (كيف يسمعون؟ وأنى يجيبوا؟) هكذا هو في عامة النسخ المعتمدة من غير نون، وهي لغة صحيحة، وإن كانت قليلة الاستعمال، كما في هامش صحيح مسلم: ٢٢٠٣/٤.

(٢) تفسير الخازن: ٢٠/٣.

ولهذا يعمد القادة المحنكون إلى توجيه أقصى قوتهم إلى عدوهم في الضربة الأولى لكي يُشيعوا الذعر والخوف في قلوب جنود العدو، ويُحدثوا الخلل والاضطراب في صفوفه، فالثبات في وجه الضربة الأولى يقرر غالباً نتيجة المعركة بتقدير الله تعالى، فهو أمر خطير وحاسم في المعارك.

ولهذا توعدت الآيات الكريمة الذين لا يثبتون في وجه العدو بأشد أنواع الوعيد:

﴿وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَوْلٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَنَهُ جَهَنَّمُ وَيَسِيرٌ الْمَصِيرُ﴾.

﴿وَمَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقَوْلٍ﴾ أي: إلا إذا كان يريد الكرّ بعد الفرّ، وتظاهر بالفرار أمام العدو ليخدعه، ويستدرجه ليتمكن منه.

فمخادعة العدو في الحرب أمرٌ جائزٌ ومشروعٌ، قال عليه الصلاة والسلام: «الْحَرْبُ خَدَعَةٌ» [رواه البخاري (٣٠٣٠)].

﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾ أو ترك القتال لينحاز وينضمّ إلى جماعة مسلمة من جنود المسلمين محتاجين إلى معونته ومساعدته، كما فعل خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما ترك قتال الفرس في العراق، وانحاز مع بعض جنوده إلى جند المسلمين في بلاد الشام، تنفيذاً لأمر الخليفة أبي بكر رضي الله عنه.

ويمكن أن يقال في معنى الآية: إنه اضطر إلى الانسحاب من وجه العدو فانسحب انسحاباً منظماً، وانضمّ إلى ولي أمر المسلمين، ليعيد تنظيم صفوفه، ويعود إلى القتال مرةً ثانية، ولهذا قال بعض المفسرين: المتحيز: الفارُّ إلى النبي ﷺ وأصحابه، كذلك من فرَّ اليوم إلى أميره وأصحابه<sup>(١)</sup>.

وقد فعل الصحابة رضي الله عنهم في معركة مؤتة مثل هذا الانسحاب أو التحيز، فقد فوجئوا بجموع كثيرة من جيوش الروم تزيد على مئة ألف، بينما كان عدوُّ

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٩٢/٢.

الصحابة ثلاثة آلاف، ومع ذلك قاتلوهم، وثبتوا في وجوههم، حتى استشهد أمراؤهم الثلاثة: زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنهم، ولما استلم خالد بن الوليد الإمرة، تمكن من الانسحاب والرجوع بالجيش إلى المدينة المنورة، وجعل الناس عندما وصلوا يحثون عليهم التراب، ويقولون: يا فرار فررتم من سبيل الله! فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله»<sup>(١)</sup>.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت في سرية من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحاص الناس حيصة، فكنت في من حاص، فقلنا: كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب؟ ثم قلنا: لو دخلنا المدينة، ثم بتنا، ثم قلنا: لو عرضنا أنفسنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن كانت لنا توبة وإلا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة، فخرج فقال: «من القوم؟» فقلنا: نحن الفرارون، فقال: «لا، بل أنتم العكارون، أنا فتتكم وأنا فئة المسلمين» فأتيناه حتى قبلنا يده، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ﴾. [رواه أحمد (٧٠/٢) وأبو داود (٢٦٤٧) والترمذي (١٧١٦)]. و«العكارون»: الكرارون.

فالانسحاب من أرض المعركة جائز في مثل هاتين الحالتين المذكورتين في الآية الكريمة، ويجب أن يكون انسحاباً منظماً لإعادة الكرّة واستئناف القتال، أما إذا كان انسحاباً كيفياً، بحيث ينسحب كل جندي كما يحب ويشتهي من دون هدف ولا نظام، فهو الهزيمة المحرمة في الإسلام، والتي ينطبق على من يفعله قوله تعالى:

﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: رجع وهو متلبس بغضب الله تعالى وأثار سخطه.

﴿وَمَا وَنُهُ جَهَنَّمَ وَيَلْسُ الْمَصِيرُ﴾ قال ابن كثير رحمته الله: إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب، فإنه حرام، وكبيرة من الكبائر، لما رواه البخاري

(١) سيرة ابن هشام: ١٧/٤؛ وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم، للمؤلف، ص ٤٣٢.



[٢٧٦٦] ومسلم [٨٩]: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف الغافلات المحصنات المؤمنات»<sup>(١)</sup>.

#### • المعركة:

وفي صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة حدثت المعركة، وبدأ القتال بالمبارزة، وخرج من صفوف المشركين الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وقصد إلى حوض المسلمين ليشرب منه ويهدمه، فتصدى له حمزة رضي الله عنه فقتله داخل الحوض.

ثم خرج من المشركين عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبه وابنه الوليد، فدعوا إلى المبارزة، فخرج لهم ثلاثة من الأنصار، فأنفوا من مبارزتهم، ونادى مناديتهم: يا محمد أخرج لنا أكفأنا من قومنا. فأخرج لهم رسول الله ﷺ ثلاثة من بني هاشم: عبيدة بن الحارث وحمزة وعلياً رضي الله عنهم، فقتل المشركون الثلاثة، وجرح عبيدة، وحمل إلى رسول الله ﷺ ومات رضي الله عنه بعد ذلك بجوار النبي ﷺ.

وبدأ القتال بهجوم سنه المشركون، وأمر النبي ﷺ أصحابه أن يثبتوا لهجوم المشركين، وأن يردوهم بالنبال وقال: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم بالنبل»<sup>(٢)</sup>.

ثم خرج عليه الصلاة والسلام إلى الميدان بنفسه، فأخذ حفنة من تراب الأرض، ورماها في وجوه المشركين وقال: «شاهت الوجوه» [رواه الطبراني في

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٩٢/٢.

(٢) سيرة ابن هشام: ١٩٥/٢.

الكبير (٣١٢٧ و ٣١٢٨) وفي الأوسط كما في مجمع البحرين (٢٣٧) بإسناد حسن كما في مجمع الزوائد (٦/٨٤) [١].

فما بقي أحدٌ من المشركين إلا دخل في عينه ترابٌ من تراب هذه الرمية .  
وأمر النبي ﷺ أصحابه أن يشدوا على المشركين، ويهجموا عليهم، وقال محرضاً لهم: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يقاتلهم اليومَ رجلٌ فيقتلُ صابراً مُحتسباً، مُقبلاً غيرَ مدبرٍ، إلا أدخله اللهُ الجنةَ» فقال عمير بن الحمام من فتيان الأنصار، وفي يده تمراتٌ يأكلهنَّ: بخِ بخِ أفما بيني وبين أن أدخل الجنةَ إلا أن يقتلني هؤلاء؟! ثم كذفَ التمراتِ من يده، وأخذَ سيفَه فقاتل القومَ حتى قُتل (٢).  
ونجح هجومُ الفئة القليلة المسلمة الصابرة، وفرَّ المشركون، وقد ملأ الرعبُ قلوبهم، بعد أن خلفوا وراءهم سبعين قتيلاً، فيهم رأسُ الشرك أبو جهل عمرو بن هشام، وسبعين أسيراً.

#### • تأديب المنتصرين:

وكي لا يصيبَ المؤمنين زهواً المنتصرين وفخرهم وإعجابهم بجهادهم وأنفسهم، أنزل الله تعالى عليهم مؤدباً لهم، ومذكراً لهم، بأنه هو الذي نصرهم، وهو الذي قتل من قُتل من أعدائهم:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ أي: لم تقتلوهم بقوتكم، ولكن الله قتلهم بمشيئته وقدرته، وبمعونته وتأيدته لكم.

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ أي: وما كنت الرامي على الحقيقة

(١) وفعل رسول الله ﷺ ذلك أيضاً في غزوة حنين كما في صحيح مسلم (١٧٧٧).

(٢) سيرة ابن هشام: ١٩٦/٢.

عندما رميت التراب في وجوههم، ولكن الله هو الذي رمى، لأنه سبحانه هو الذي أوصل التراب والرمال إلى أعينهم.

وتدلُّ الآية على أن الله تعالى خالق للعبد ولأفعاله، وأن أفعال العبد وإن كانت كسباً له فهي من خلق الله سبحانه وبمشيئته وقدرته.

والله تعالى يبتلي عباده بالمحنة والنعمة، وقد ابتلى الله تعالى المؤمنين بالنصر في بدر:

﴿وَلِيَلِّيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا﴾ وكانت نتيجته حسنة طيبة، إذ كانوا ﷺ أهلاً للنصر الذي أنعم الله تعالى به عليهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالهم.

﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

ثم بشرهم الله سبحانه بأن كيد الكافرين ومكرهم صائر إلى الضعف والاضمحلال:

﴿ذَلِكَ وَمَأْتِيَهُمْ اللَّهُ مُبَاهِلًا﴾

لأنه تعالى مع عباده المؤمنين المتقين ينصرهم ويؤيدهم.

وتأكيداً لهذه الحقيقة التفتت الآيات إلى الكافرين المنهزمين تفرعهم

وتتهكم بهم:

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْهَوْا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُدُّوا نَعْدًا وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتِكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾

﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ وذلك أن أبا جهل دعا مستفتحاً في

أول القتال فقال: اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا يُعرف فأحنه الغداة<sup>(١)</sup>. أي:

اجعله مدحوراً مهزوماً.

(١) سيرة ابن هشام: ١٩٦/٢.

﴿وَإِنْ تَنْهَوُاْ عَنِ الْكُفْرِ وَمَعَادَاةِ الرَّسُولِ ﷺ﴾ .

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، فلقد جاءهم الإسلام بعز الدنيا

وسعادة الآخرة .

﴿وَإِنْ تَعُوذُواْ﴾ لمحاربته عليه الصلاة والسلام .

﴿نَعُدُّ﴾ لنصره وتأييده .

﴿وَلَنْ نُغْنِيَ عَنْكُمْ فِتْنَتَكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ أي: مهما كانت الجموع التي

تحشدونها كبيرة فلن تنفعكم شيئاً، لأنه تعالى مع المؤمنين .

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يؤيدهم وينصرهم .





## الْفُضْلِ الثَّانِي

## الأسباب غير المباشرة للنصر

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا  
 كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ  
 لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَأْتِيهَا  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ بِحَوْلِ بَيْنِ  
 الْمَرَّةِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً  
 وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَذَكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ  
 يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا  
 الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَخَوُّوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَعَلِمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ  
 وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ  
 فُرْقَانًا وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ  
 كَفَرُوا لِيُبْتِلُواكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُجْرِبُواكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِيهِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا نَتَلَىٰ  
 عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾  
 وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنْ عِنْدِكَ فَامْطُرْ عَلَيْنَا مِثْلَ الْمَسْكَةِ مِنَ الْمَسْكَةِ أَوْ  
 أَتَيْنَا بِعَذَابٍ آخِرٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَتْ لِلَّهِ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ  
 يَسْتَعْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ آلًا يَعَذِّبُهُمْ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا  
 أَوْلِيَاءَ لَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ  
 الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا  
 يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَلِيلُهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونُ فِتْنَةٌ وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ فَإِنَّهُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَكُمْ نَعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنَعَمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾ ﴿٤١﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسُهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ أَجْمَعِينَ ﴿٤٢﴾ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٣﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدِّينِيَّةِ وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَفْتُمْ فِي الْمِعْعَدِ وَلَكِنْ لَيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٤﴾ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَادَكُمُ كَثِيرًا لَفَشَسْتُمْ وَلَسَدَرْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٥﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَفَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لَيَقْضَىٰ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٦﴾ .

### • طاعة الله ورسوله ﷺ:

وبعد أن بيّنت الآيات الكريمة الماضية أسباب النصر المباشرة في المعركة، والتي يجب تحصيلها قبل القتال وفي أثناءه، شرعت الآيات تبيين الأسباب غير المباشرة للنصر، والتي تبقى بها الأمة المسلمة قوية عزيزة منيعة:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿١٦﴾﴾ .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فهو كقوله تعالى في صدر السورة: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿[الأنفال: ١]﴾، وقد أمرت تلك الآية بطاعة الله ورسوله ﷺ في شأن الأنفال، وأمّا هذه الآية فقد أمرت بالطاعة العامة الشاملة

في جميع شؤون الحياة، ولهذا حذّر سبحانه بعدها من الإعراض عن طاعة الله تعالى وطاعة الرسول ﷺ بقوله:

﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ﴾ أي: لا تعرضوا عن الرسول ﷺ، فطاعته ﷺ طاعة الله تعالى كما في قوله: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

فهو ﷺ المبلّغ عن الله تعالى، فطاعته ﷺ لازمة كطاعة الله تعالى.

﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أنّ طاعته واجبة عليكم بعد أن علمتم ما دعاكم إليه، وبعد أن بلغكم رسالة الله تعالى، فكل من بلغته رسالة الإسلام، أو سمع شيئاً من القرآن الكريم، وفهم معانيه، قامت عليه الحجة، ولزمته الإجابة، وعليه طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام.

يجب على الأمة المسلمة التي تسمع كلام الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار أن تلتزم بطاعة الله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام؛ باتباع أحكام الكتاب الكريم، والتمسك بسنته عليه الصلاة والسلام، كما يجب عليها أن تُعرض عن كل الشرائع الوضعية المخالفة للشريعة الإسلامية، فسماع القرآن الكريم يلزم السامع بطاعته سبحانه وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا﴾ بأذاننا.

﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ بقلوبهم وجوارحهم وسلوكهم، ويُعرضون عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ.

وهذا كان حال المنافقين، الذين كانوا يتظاهرون بالسمع والطاعة، بينما هم يضمرون العصيان والمخالفة، قال تعالى فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ

عِنْدَكَ بَيِّنَاتٌ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ ط فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾ [النساء: ٨١].

وكذلك كان اليهود أيضاً في المدينة المنورة إذا سمعوا النبي ﷺ قالوا: سمعنا وعصينا، كما جاء في قوله تعالى عنهم: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مَسْمُوعٍ وَرَاعِنَا لِيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ [النساء: ٤٦].

وهذا مع الأسف حال كثير من المسلمين في العصر الحاضر، يسمعون كلام الله تعالى، ويتظاهرون بالتأثر بمواعظه وزواجه، وفي الوقت نفسه يظلون مُصِرِّين على معاصيهم وآثامهم.

قال القرطبي رحمته الله: «دَلَّتِ الآيَةُ عَلَى أَنَّ قَوْلَ الْمُؤْمِنِ: سَمِعْتُ وَأَطَعْتُ؛ لَا فَائِدَةَ فِيهِ مَا لَمْ يَظْهَرَ أَثَرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ بِامْتِثَالِ فِعْلِهِ، فَإِذَا قَصَرَ فِي الْأَمْرِ فَلَمْ يَأْتِهَا، وَاعْتَمَدَ النَّوَاهِي وَاقْتَحَمَهَا؛ فَأَيُّ سَمْعٍ عِنْدَهُ وَأَيُّ طَاعَةٍ؟!»<sup>(١)</sup>.  
ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء شرُّ الخلق والخليقة، فقال:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ﴾ عن سماع الحق سماع إجابة وخضوع وانقياد.

﴿الْبُكْمُ﴾ عن الإقرار بالحق وإعلان الانقياد له والرضا به.

﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لا يستعملون عقولهم فيما خُلِقَتْ من أجله، وهو

التمييز بين الحق والباطل، فهؤلاء شرُّ الدواب، لأنَّ كلَّ دابة مما سواهم مطيعة لله تعالى فيما خلقها له، وهؤلاء خُلِقوا لطاعته تعالى وعبادته فكفروا، ولهذا شُبِّهوا بالأنعام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ



لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ [الأعراف: ١٧٩].

ثم بين تعالى أنه لا خير في هؤلاء، وأن نفوسهم قد غلب عليها الخبث والشر فقال:

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿١٨٣﴾﴾.

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ سماع الإجابة والخضوع والانقياد، وسماع الفهم والانتفاع.

﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ سماع الانتفاع بعد أن علم أنه لا خير فيهم.

﴿لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لأعرضوا عن الحق، ولم ينقادوا له رغم معرفتهم أنه حق.

وهو حال المعرضين عن الحق عناداً واستكباراً كفرعون وملئه، فقد رأوا المعجزات التي أيد الله بها موسى ﷺ، واستيقنوا بدلائنها على صدق موسى، ومع ذلك جحدوها: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤].

#### • الحياة والجهاد:

ثم كرر تعالى النداء للمؤمنين فقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ بطاعتهما، والانقياد لأمرهما.

﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول ﷺ، فهو المبلغ عن الله تعالى.

﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ الحياة الإنسانية الكريمة الطيبة، الحياة العزيزة المنيعة.

وفي الآية الكريمة دعوة إلى الاستجابة المطلقة لله تعالى ولرسوله عليه

الصلاة والسلام، ولكن مجيئها في سياق آيات الجهاد وفي سورة الأنفال التي نزلت بمناسبة غزوة بدر يجعلُ الدعوة في الآية دعوةً مخصوصةً إلى الجهاد، فالأمةُ المجاهدةُ هي التي تحيا الحياة الحقيقية، الحياة الكريمة اللائقة بالإنسان الذي كرمه ربه وسخر له كثيراً من مخلوقاته.

وقد يقول قائل: كيف يكون الجهاد حياةً وفيه القتلُ والموتُ؟! .

فأقول: القتل بالنسبة للمجاهد في سبيل الله تعالى حياةٌ أعلى وأشرف من الحياة الدنيا، حياة برزخية خاصة، يُكْرِمُ الله تعالى فيها الشهداء بنعيم الجنة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وأما بالنسبة للأمة المسلمة المجاهدة، فالجهاد يعطيها الحياة الكريمة العزيزة المنيعة، وبهذا يكونُ الجهاد حياةً للمجاهدين الشهداء، وحياة للمجاهدين الأحياء، ويؤكد هذا أنه عندما أراد بعض الأنصار ترك الجهاد والانصراف إلى الاهتمام بمصالحهم الدنيوية بعد أن أعزَّ الله الإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، أنزل الله تعالى فيهم قوله الكريم: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] [انظر الحديث الذي رواه أبو داود (٢٥١٢) والترمذي (٢٩٧٢)].

فالإعراضُ عن الجهاد والإمساك عن الإنفاق في سبيل الله هو الهلاك، لأنه يؤدي بالأمة إلى الذلَّة والاستكانة وتمكَّن عدوها منها.

وينبغي أن تكون الاستجابةُ لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام عن

طواعيةٍ واختيارٍ، ورغبةٍ ومحبةٍ، لا عن قهر وإكراه وإجبار، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فالقلوب بيده سبحانه، ولا سلطان

للإنسان على قلبه، ولا يستطيعُ أن يتحكم بعواطفه ومشاعره، فمن علم الله فيهم خيراً وفَقَّهم إلى الاستجابة لدعوة رسوله عليه الصلاة والسلام، وشرح صدورهم لذلك، ومن علم أن نفوسهم ودخائلهم يغلبُ عليها الخبث والشر حال بينهم وبين الاستجابة لدعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، كما جاء في قوله تعالى:

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦].

وقد سبق أيضاً مثل هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣].

فآية تحثُ المؤمنين على المبادرة فوراً إلى الاستجابة لدعوة رسول الله ﷺ، وتحذّرهم من عواقب الثاقل عنها وتأخيرها، وكأنها تقول لهم: ما دامت قلوبكم مقبلةً على الإيمان، فبادروا إلى تلبية دعوة الرسول ﷺ، فإن القلوب بيد الله تعالى يقبلها كيف يشاء، ولهذا علّمنا سبحانه أن ندعوه قائلين: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

وكان النبي ﷺ يكثر أن يقول تعليماً لنا: «يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك» [رواه أحمد (١١٢/٣)، ٢٥٧، والترمذي (٢١٤٠) وابن ماجه (١٩٩)].

﴿وَأَنذَرَهُ إِلَىٰ يُحْشَرُونَ﴾ أي: واعلموا أيضاً أنكم إلى الله تعالى يوم القيامة تجمعون، فيجازيكم أو يُثيبكم على حسب استجابتكم لدعوة رسوله عليه الصلاة والسلام.

#### • التحذير من الفتن:

ويترتب على مخالفة الرسول ﷺ وعدم الاستجابة لدعوته، التعرض للفتن والمصائب والنوازل، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فما من فتنة أصابت المسلمين بعده عليه الصلاة والسلام، إلا بسبب مخالفتهم لأمره، أو تركهم لسنته، ولهذا جاء التحذير من الوقوع في الفتن بعد الأمر بالاستجابة لدعوته عليه الصلاة والسلام مباشرة، قال تعالى:

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ أي: اجعلوا بينكم وبين

البلاء العام وقاية، بإصلاح ذات بينكم، واجتماع كلمتكم على أمر الله، وردّ من خالف إلى أمر الله<sup>(١)</sup>.

فطاعةُ الله ورسوله وقايةٌ من الفتن، بينما المعاصي والآثام أسبابُ البلاء والفتن، وشرّها يصيب العصاة وغيرهم من أبناء المجتمع، لأنهم سكتوا على المعاصي، وتركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال رسول الله ﷺ: «مثلُ القائم على حدودِ الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصابَ بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقَوْا الماء مروا على مَنْ فوقهم، فقالوا: لو أنّا خرقنا في نصيبنا خرقاً، ولم نُؤذِ مَنْ فوقنا. فإن تركوهم وما أرادوا، هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجَّوا، ونجَّوا جميعاً» [رواه البخاري (٢٤٩٣) والترمذي (٢١٧٣)].  
وقوله: «استهموا» أي: اقتسموها بالقرعة.

فالله سبحانه يعذبُ العامة بذنوب الخاصة إذا انتشرت المنكرات والفواحش بينهم:

ففي الحديث الشريف: عن أم المؤمنين السيدة زينب رضي الله عنها، قالت: استيقظ رسولُ الله ﷺ محمراً وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا الله، ويلٌ للعربِ مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدْمٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِثْلُ هَذِهِ» وحلَّقَ بإصبعه الإبهام والتي تليها، قلتُ: يا رسولَ الله، أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: «نعم إذا كُتِرَ الْخَبْثُ» [رواه البخاري (٧٠٥٩) ومسلم (٢٨٨٠)]<sup>(٢)</sup>.

وشؤم المعاصي والمنكرات يعمُّ جميعَ أبناء المجتمع في الدنيا فقط:  
فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أنزلَ اللهُ بقوم عذاباً، أصابَ العذابُ مَنْ كانَ فيهم، ثم بُعِثُوا على أعمالهم» [رواه البخاري (٧١٠٨)].  
فالفتنةُ إذا عُمِلَتْ هلكوا جميعاً، وذلك عند ظهور المعاصي وانتشار

(١) نظم الدرر: ٢٥٧/٨.

(٢) انظر: (العواصم من الفتن في سورة الكهف)، وهو باب من تفسيرنا الموضوعي هذا.

المنكر وعدم التغيير، وإذا لم تُغَيَّرْ وجبَ على المؤمنين المنكرين لها بقلوبهم هجرانُ تلك البلدة والهربُ منها<sup>(١)</sup>.

ثم ختم سبحانه الآية مؤكِّداً التحذير من مخالفة أمره، ببيان شدة عقابه:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

والجدير بالذكر هنا أنَّ انتشار المعاصي وشيوع المنكرات في المجتمع من أكبر أسباب الهزيمة والتخلف، لأنه يؤدي إلى الانحلال والفوضى والاختلاف.

#### • مأوى المجاهدين:

ولمَّا كان الصحابة رضي الله عنهم نواة الأمة المسلمة، وأول مَنْ حمل رسالتها، وحفظ أمانتها، وقام على نشرها، وتبليغها بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وجَّه سبحانه إليهم الخطاب في سياق هذه الآيات، وذكَّره في فضلته تعالى عليهم، لكي يعرفوا مدى مسؤوليتهم، وثقل التبعة الملقاة عليهم:

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَأَآوِنَكُمْ  
وَأَيَّدَكُمْ بِبَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ أرض مكة.

﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَأَآوِنَكُمْ﴾ في المدينة المنورة، وجعلها لكم

مأوى تتحصنون به من أعدائكم، كما جعلها قاعدة انطلاق وارتكاز لكم في جهادكم، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿وَأَيَّدَكُمْ بِبَصْرِهِ﴾ في بدر، وفي غيرها من الغزوات والمعارك.

وتدلُّ الآية على أهمية الأرض التي تكون للمجاهدين بمثابة قاعدة انطلاق

لهم في جهادهم، كما تكون حصناً لهم يتحصنون به ويأوون إليه.

ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضُ نفسه على قبائل العرب في مواسم الحج

عندما كان في مكة قبل الهجرة إلى المدينة، يبحث عن مأوى يتخذه مع أصحابه قاعدة انطلاق لتبليغ رسالة الإسلام، ونشره بين الناس، وما أنزل الله تعالى آيات الجهاد وكلف المسلمين به حتى وجد النبي ﷺ القاعدة والمأوى في المدينة المنورة، فالمأوى وقاعدة الانطلاق ونقطة الارتكاز: ضرورة من ضرورات الجهاد، ينبغي للمجاهدين أن يُحَصِّلُوهَا قبل الشروع في الجهاد.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ بالغنائم التي أحلها لكم، كما مر معنا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله تعالى على فضله بطاعته سبحانه، وطاعة رسوله

عليه الصلاة والسلام.

#### • التحذير من الخيانة:

للخيانة دور كبير في الفشل والهزيمة، وهي لا تعني فقط موالة العدو خفية، وإفشاء أسرار المجاهدين، وإيصالها إلى العدو، وتمكينه من معرفة نقاط الضعف في المجتمع الإسلامي عامة، وفي صفوف المجاهدين خاصة. الخيانة في نظر الإسلام أشمل من هذا، إنَّ أي خلل ونقص يحدثه المسلم في عمله الذي كُلف به في شؤون دينه ودنياه، يعدُّ خيانة للأمانة التي يحملها، والمسلم يحمل أمانات كثيرة.

ولهذا توجَّهت الآيات بالخطاب إلى المسلمين تذكُّرهم بمسؤوليتهم عن الأمانات التي يحملونها، وتحذُّرهم من خيانة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام وخيانة الأمانات التي كُلفوا بحملها والمحافظة عليها:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾

وأنتم تعلمون تبعة الخيانة، أو تعلمون أنكم تخونون، فالخيانة صدرت منكم عن قصد وعمد لا عن سهو وخطأ<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: تفسير النسفي: ٣١/٣.

ولمّا كان الباعث على الخيانة الحرص على المصالح المادية في الأموال والأولاد غالباً، قال سبحانه:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: اختبار وامتحان من الله تعالى لكم، هل تطيعونه تعالى في أموالكم وأولادكم، أم تعصونه وتخونون أماناتكم من أجل أموالكم وأولادكم؟.

وذكر بعضهم أنها نزلت في أبي لبابة عندما أشار إلى يهود بني قريظة وهم محاصرون بأنّ الحكم فيهم القتل<sup>(١)</sup>.

وقد حذّر سبحانه من الافتتان بالأموال والأولاد في عدد من الآيات؛ منها: قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا نُلْهِكُمُ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

وقوله أيضاً: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِتِمْثَالِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِدْوًا لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَّوْا وَتَصَفَّحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٤) إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [التغابن].

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ فتوابعه سبحانه وجناته خير لكم من الأموال والأولاد، الذين لا يُغنون عنكم شيئاً يوم القيامة.

ثم يأتي النداء الرابع من الله تعالى للمؤمنين جامعاً لكلّ ما تقدّم بأسلوب الترغيب، لا بأسلوب الوعيد والتحذير:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي: يجعل لكم نوراً

(١) انظر تفصيل القصة في: السيرة النبوية، لابن هشام: ١٤٣/٣؛ وتفسير الطبري: ٢٢١/٩.

وهداية في قلوبكم، تفرقون بها بين الحق والباطل، فترون الحق بجماله وضيائه، وترون الباطل بْبُحْه وظلمته، فَإِنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ تَعَالَى بِفِعْلِ أَوْامِرِهِ وَتَرَكَ نَوَاهِيَهُ، وَفَقَّ لِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ مِنَ الْبَاطِلِ، فَكَانَ ذَلِكَ سَبَبَ نَصْرِهِ وَنَجَاحِهِ، وَمَخْرَجِهِ فِي الدُّنْيَا، وَسَعَادَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ<sup>(١)</sup>، قَالَ تَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

الفارقان: مصدر زيدت فيه الألف والنون، وأريد به الوصف الفارق بين الحق والباطل<sup>(٢)</sup>.

فالتقوى تورث صاحبها النظر السديد، والرأي الثاقب، والقدرة على التمييز بين الخير والشر.

﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بسترها.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم بالعمو والتجاوز عنها، فضلاً منه سبحانه:

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

#### • المؤامرة:

ثم شرعت الآيات تبيِّن بعض جرائم المشركين، وإعراضهم عن الحق، وعنادهم وضلالهم، وكأنه تعالى بهذه الآيات أراد أن يبيِّن لنا ضرورة مجاهدة الكفار وقتالهم وكسر شوكتهم، ووضع حدٍّ لفسادهم وإفسادهم، فتشريع الجهاد أمرٌ ضروري، وفيه حكَمٌ كثيرة وكبيرة، ولا بد لأمثال هؤلاء المجرمين المعاندين من قوة تدفعهم وتقمعهم، وتمنع عن الناس شرهم وضلالهم.

وقدّمت الآيات الحديث عن مكرهم بالنبي ﷺ، ومحاولتهم التخلص منه بأي وسيلة ولو كانت القتل، وقد اجتمعوا لهذا الأمر في دار الندوة.

قال ابن إسحاق: فحدّثني من لا أتّهم من أصحابنا عن عبد الله بن عباس

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٩٩/٢.

(٢) أضواء البيان: ٣٤٩/٢.



ﷺ قال: لَمَّا أَجْمَعُوا لِلذَّكَ، وَأَتَّعَدُوا أَنْ يَدْخُلُوا فِي دَارِ النَّدْوَةِ، لِيَتَشَاوَرُوا فِيهَا فِي أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَدَوْا فِي الْيَوْمِ الَّذِي اتَّعَدُوا لَهُ، فَاعْتَرَضَهُمْ إِبْلِيسُ فِي هَيْئَةِ شَيْخِ جَلِيلٍ، قَالَ: شَيْخٌ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ سَمِعَ بِالَّذِي اتَّعَدْتُمْ لَهُ فَحَضَرَ مَعَكُمْ لِيَسْمَعَ مَا تَقُولُونَ، وَعَسَى أَلَّا يَعْذِبَكُم مِّنْهُ رَأْيًا وَنُصْحًا.

فدخل معهم، فتشاوروا، وقال قائلٌ منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله. فقال الشيخ النجدي: لا والله ما هذا لكم برأي، لئن حبستموه ليخرجنَّ أمره من وراء الباب إلى أصحابه، فلا وشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعه من أيديكم، فانظروا في غيره.

وقال قائلٌ منهم: نخرجه من بين أظهرنا فننفيه من بلادنا. فقال الشيخ النجدي: ما هذا لكم برأي، ألم تروا حُسنَ حديثه، وحلاوةَ منطقه، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتُم أن يحلَّ على حيٍّ من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه، ثم يسيرُ بهم إليكم حتى يطأكم في بلادكم، دبّروا فيه رأياً غير هذا.

قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كلِّ قبيلةٍ فتىً شاباً جليداً نسيباً، ثم نعطي كلَّ فتىٍ منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، ويتفرَّق دمه في القبائل جميعاً. فقال النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأيَ غيره. فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له<sup>(١)</sup>.

وأنزل الله تعالى بعد ذلك قوله:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي: ليحبسوك ويوثقوك.

(١) سيرة ابن هشام: ٩١/٢ باختصار.

﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بردّ مكرهم عليهم وجعلهم

خائبين خاسرين .

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾ لأنه يجازي الماكرين بمثل فعلهم، فهو يعذبهم على

مكرهم من حيث لا يشعرون، فيكون ذلك أشدّ ضرراً عليهم، وأعظم بلاءً من مكرهم<sup>(١)</sup>.

أو لأنه سبحانه لا يمكر إلا بالحق والصواب، ومكرهم باطل وظلم، فمكر الخلق من الحيلة والعجز، ومكر الخالق من الحكمة والقدرة<sup>(٢)</sup>.

#### • عناد واستكبار:

ثم تحدّثت الآيات عن موقفهم عندما يسمعون القرآن الكريم، وعن شدّة إعراضهم عنه، ومعاندتهم لآياته الساطعة وحججه البالغة:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ .

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا﴾ بأذاننا فقط، كما مرّ معنا في قوله

تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢١].

﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ وهذا منهم قولٌ بلا فعل، وإلا فقد تحدّثهم أكثر

من مرّة أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، وقالوا معاندين:

﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: ما هذا القرآن إلا ما سطره الأولون

من الحكايات والأخبار. فما أشدّ عنادهم وما أعظم وقاحتهم!

وأبلغ منه قولهم:

(١) فتح القدير: ٣٠٣/٢.

(٢) تنوير الأذهان: ٢٠/٢.

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ  
أَوْ أَتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ .

﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ أي: إن كان القرآن  
الكريم هو الحق الثابت المنزل من عندك .

﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ تهلكنا بها .

﴿أَوْ أَتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾! وبهذا القول بلغوا الغاية في الجحود والفساد،  
والوقاحة والصلف والاستكبار، فبدل أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق  
من عندك فاهدنا إليه، قالوا ذلك معاندين مستكبرين، وهذا يدلُّ على شدة  
حسدهم للنبي ﷺ وبُغضهم له، فكأنَّ الهلاك والعذاب أهون عليهم من متابعتة  
عليه الصلاة والسلام والإيمان برسالته، فنارُ الحسد المتأججة في صدورهم  
جعلتهم يسألون لأنفسهم الهلاك بالحجارة أو العذاب الأليم .

ولله دُرُّ ابن المعتزِّ القائل:

اصبرْ على كَيْدِ الحسو      دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهُ  
كالنارِ تَأْكُلُ بعضُها      إِنَّ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهُ  
والقائلُ أيضاً:

لِللَّهِ دُرُّ الحَسَدِ مَا أَعْدَلَهُ      بدأ بِصَاحِبِهِ فَقَتَلَهُ

• الأمانان:

وردَّ سبحانه عليهم فبيِّن أنه قادر على إهلاكهم، ولكنه ﷻ أحرَّ العذاب  
عنهم إكراماً للنبيِّ ﷺ المقيم بينهم:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ﴾ يا أكرم الخلق .

﴿فِيهِمْ﴾ «فإنه ليعين تجازى ألف عينٍ وتكرُم»<sup>(١)</sup>.

وعدلت الآية عن توجيه الخطاب إليهم فوجهته إلى النبي ﷺ زيادة في بيان شرفه عليه الصلاة والسلام، وفضله ومكانته عند ربه ﷻ، وإقامته عليه الصلاة والسلام بينهم بركة عليهم، ورحمة من الله تعالى بهم.

وكان عليه الصلاة والسلام يقيم في أقدس البلاد، في البلد الحرام، الذي حرّمه الله تعالى يوم خلق السماوات والأرض، ومع ذلك فإن حلوله ﷺ في البلد الحرام زاده شرفاً وبركةً وحرمةً وتعظيماً، قال تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ [البلد]؛ فهو عليه الصلاة والسلام الرحمة المهداة من الله ﷻ إلى العالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وبعد أن بين سبحانه بركة وجوده عليه الصلاة والسلام على البلاد والعباد أتبعه بيان ما يخلفه ﷺ بعد موته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى فقال:

﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: لو استغفروا لم يعذبوا، فكأن المطلوب من ذكر هذا الكلام استدعاء الاستغفار منهم<sup>(٢)</sup>.

قال عليه الصلاة والسلام: «أنزل الله عليّ أمانين لأمتي: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ و﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة» [رواه الترمذي (٣٠٨٢)].

#### • ولاية المسجد الحرام:

وعندما أصرّ المشركون في مكة المكرمة على الكفر، وخرج النبي ﷺ من بينهم، وهاجر إلى المدينة المنورة، عذبهم الله تعالى بتسليط النبي ﷺ وأصحابه عليهم في بدر، فقتل من قتل منهم، وأسّر من أسّر، وقال جلّ وعلا يبيّن سبب تعذيبه إياهم:

(١) نظم الدرر: ٢٧٢/٨.

(٢) تفسير الرازي: ١٦٣/١٥.

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٤).

﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ أي: كيف لا يعذبهم الله.

﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي: يمنعون المؤمنين الموحدين عن عبادة الله وحده في المسجد الحرام، ويقولون: نحن ولاة البيت الحرام؛ نصدُّ من نشاء، وندخل من نشاء، فردَّ عليهم سبحانه بقوله:

﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾ فهم بسبب شركهم وكفرهم لا يصلحون لولاية المسجد الحرام الذي بُني لعبادة الله وحده، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

﴿إِنْ أَوْلِيَائِهِمْ إِلَّا الْمُنَافِقُونَ﴾ من المسلمين الموحدين.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه لا ولاية لهم على المسجد الحرام.

ودلَّت الآية على أن بعضهم يعلمون هذه الحقيقة، ويجحدونها عناداً واستكباراً، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (١٧) ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة].

ثم بيَّن تعالى حقيقة عبادتهم التي كانوا يؤدونها عند المسجد الحرام فقال:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (٣٥).

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً﴾ أي: صغيراً وتصفيقاً.

والمكاء والتصدية ليستا بصلاة، ولكن الله سبحانه أخبر أنهم جعلوا مكان الصلاة التي أمروا بها المكاء والتصدية<sup>(١)</sup>، ولهذا قال سبحانه لهم:

﴿فَذَوْقُوا الْعَذَابَ﴾ الذي نزل بكم يوم بدر.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

#### • التمييز بين الخبيث والطيب:

ومن جرائمهم أيضاً أنهم كانوا ينفقون الأموال الكثيرة للصدء عن سبيل

الله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ (٣٦).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ قال ابن إسحاق: لما أصيبت قريش يوم بدر، ورجع فلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بالعين، مشى عبد الله بن أبي ربيعة وعكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية في رجال من قريش أصيب أبائهم وأبناؤهم وإخوانهم ببدر، فكلّموا أبا سفيان بن حرب ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة، فقالوا: يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أصيب منا. ففعلوا، ففيهم أنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في المُطعمين يوم بدر، وكانوا اثني عشر رجلاً؛ منهم: أبو جهل بن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، ونبية ومنبه ابنا الحجاج، فكان يطعم كل واحد منهم الجيش في كل يوم عشراً من الإبل. وعلى كل تقدير فهي عامة، وإن كان سبب نزولها خاصاً<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير الخازن: ٣٨/٣.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١٠٣/٢.

وقد أخبر تعالى أنهم سينفقون أموالهم للصدّ عن سبيل الله، وأن ذلك لن ينفعهم:

﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ ندماً وغمّاً، لأن أموالهم تذهب من

غير حصول المقصود.

﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾ في آخر الأمر.

وفي الآية بشارة للنبي ﷺ وللمسلمين بالنصر على المشركين، والتمكين للإسلام في الأرض.

ثم بين سبحانه عاقبة المصّرّين على الكفر يوم القيامة فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُخْرَجُونَ﴾ أي: يساقون إليها لا إلى غيرها.

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

فبالجهد يميّز الله تعالى المؤمنين عن الكافرين:

﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ والفساد من الصالح، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَابُونَا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

وفي يوم القيامة يظهر عدل الله سبحانه وفضله عندما يجعل أهل الإيمان والصلاح في الجنة بفضله:

﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا﴾ أي: فيجمعهم، ويضمّ بعضهم إلى بعض حتى يتراكموا ويتزاحموا، ثم يطرحهم في جهنم.

﴿فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ بعدله سبحانه.

﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الذين خسروا أموالهم وأنفسهم.

ولا يخفى ما في الآية من تحقير للكافرين واستهانة بهم، فرغم كثرتهم

وكثرة أموالهم، فإنَّ شأنهم شأن الأشياء القذرة الحقيرة التي يجمع بعضها إلى بعض لتُرمى دفعة واحدة في جهنم.

### • الإسلام يُجِبُّ ما قبله:

والدعوة الإسلامية مستمرة لا تتوقف، فهي في الحرب والسلم، وقبل القتال وبعده وفي أثنائه، وما شرع الجهاد إلا لحماية الدعوة إلى الله تعالى، وإزالة طواغيت الكفر، الذين يقفون في طريق الدعوة، ويمنعون انتشارها بين الشعوب والأمم، وهاهي الآيات في سورة الأنفال تأمر النبي ﷺ أن يدعو المشركين بعد انتهاء القتال في بدر إلى الإسلام:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُوَدُّوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأُولَى﴾ (٣٨)

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن الكفر بالدخول في الإسلام.

﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: يغفر الله لهم كل ما مضى من كفرهم وفجورهم وعدوانهم.

ففي «صحيح مسلم» [١٢١]: أنه لما أتى عمرو بن العاص إلى النبي ﷺ مسلماً، بسط النبي عليه الصلاة والسلام يده لبياعه، فقبض عمرو يده، فقال: «ما لك يا عمرو؟» قال: أردت أن أشرط، قال: «تشرط بماذا؟» قال: أن يُغفر لي، قال ﷺ: «أما علمت يا عمرو أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحجَّ يهدم ما كان قبله».

وقال ﷺ: «الإسلام يُجِبُّ ما قبله» [رواه ابن سعد في الطبقات (٦/١٣١)].

فبابُ الدخول في الإسلام مفتوح دائماً، والدعوة الإسلامية مستمرة لا تتوقف، ودلَّ الحديث على أن الله تعالى يغفر كلَّ الذنوب للكافر المحارب للمسلمين إذا جاء مسلماً مستسلماً.



وبعد أن رَغَّبهم الله تعالى بالتوبة والتجاوز عن كل جرائمهم ومعاصيهم، هددهم سبحانه وتوعَّدهم إذا عادوا إلى العناد والفساد، فقال:

﴿وَأِنْ يُّودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ في إهلاك أعدائه سبحانه ونصر أوليائه.

#### • الاستمرار في الجهاد:

ثم التفتت الآيات إلى المؤمنين تحضُّهم على الثبات في الجهاد، والاستمرار فيه، فالطريق طويل، والمعوقات كثيرة، والعقبات كبيرة، والجهاد ماضٍ ما دام للكفر في الأرض شوكة ومنعة:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنَّ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (٣٩).

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي: قاتلوا الكفار حتى لا تبقى لهم قوة يستطيعون بها أن يفتنوا المسلمين عن دينهم.

وهذا ما فهمه الصحابيُّ الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما من الآية الكريمة، فمن المعلوم أنه اعتزل الخلاف الذي حدث بعد مقتل الخليفة الراشد الشهيد عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولما جاءه رجل وقال له: إنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قال رضي الله عنه: قد فعلنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ كان الإسلام قليلاً، وكان الرجل يُفتن في دينه، إما أن يقتلوه، وإما يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة. [رواه البخاري (٤٦٥٠ و٤٦٥١)].

فهذا هو المراد من الفتنة، فأمر الله تعالى بقتالهم حتى تزول هذه الفتنة<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ أي: ويكون الخضوع والاستسلام لأحكام

(١) تفسير الرازي: ١٦٩/١٥.

الله تعالى، إما بالدخول في الإسلام، أو بالرضا بحكم الإسلام والعيش بين المسلمين في ظلّ سماحة الإسلام وعدله.

فالله سبحانه لم يشرع الجهادَ ويأمر بالقتال لإكراه الناس على الدخول في الإسلام، وهو سبحانه القائل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولا تقوم العقيدة بالإكراه، فالعقيدة لا تقوم إلا بالاقتناع والفهم، وإنما شرع الجهادُ لحماية الإسلام والمسلمين، ولتأمين نشره بين الناس، وإزالة العوائق التي تمنع انتشار الإسلام، وتحوّل دون تبليغه للناس.

﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ عن قتالكم، والصدّ عن سبيل الله، فكفّوا عن قتالهم، فهو كقوله سبحانه الآتي: ﴿وَإِن جَاحُوا لِلسَّلَامِ فَاْجَحَّ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿فَإِنِ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازي كل إنسان بعمله.

﴿وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانِكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٤٠).

﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن الإسلام وعن الخضوع لأحكامه.

﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانِكُمْ﴾ يتولّى أموركم، ويؤيّدكم وينصركم إن أطعتموه

وتمسّكتم بسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، وهو سبحانه:

﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾.

ففي الآية حُضٌّ على الاستمرار في الجهاد، والثبات عليه مع الثقة بنصر

الله تعالى وتأييده.

#### • الغنيمة والضيء:

وعليكم أن تعلموا أيضاً كيفية قسمة الغنائم التي أحلّها سبحانه لكم، كيلا

يقع بينكم اختلاف حولها:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ حُمْسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَفَىٰ الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾﴾ .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ من الغنائم، وهي ما انتزعه المسلمون من الكفار بالقوة والغلبة، بين الله تعالى في هذه الآية كيفية قسمتها .

وأما الفبيء، وهو ما يسر الله تعالى للمسلمين من أموال الكافرين من غير قتال وقهر، كأموال بني النضير التي نزلوا عنها بسبب الخوف والرعب الذي ألقاه الله تعالى في قلوبهم، فقد بينه سبحانه في قوله: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ كَنْ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا ءَاتِكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿الحشر﴾ .

فالغنيمة تخمس، توزع أربعة أخماسٍ منها على المجاهدين الغانمين، ويوزع الخمس الباقي منها على المصارف الخمسة المذكورة في آية الحشر السابق ذكرها، وفي قوله تعالى هنا:

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ حُمْسَهُ، وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ﴾ وذكر الله تعالى في أول المصارف الخمسة للتعظيم، فسهم للرسول ﷺ في حياته، ويصرف بعده في مصالح المسلمين، أو يرد على المصارف الأربعة الأخرى، لقوله عليه الصلاة والسلام: «لا نورث ما تركناه صدقة» [رواه مسلم (١٧٥٧)].

وسهم لذي القربى، وهم قرابته ﷺ من بني هاشم وبني المطلب بسبب نصرتهم للنبي ﷺ، والأسهم الثلاثة الباقية تُعطى لليتامى والمساكين وأبناء السبيل المنقطعين في الطريق، أي: تعطى للضعفاء في المجتمع إقامةً للتكافل والتعاون بين أبناء المجتمع المسلم، وقد يكون النصر الذي تحقق ببركة دعائهم، قال رسول الله ﷺ: «ابغوني الضعفاء، فإنما تُرَزَقُونَ وتُنصَرُونَ

بضعفائكم» [رواه أحمد (٢١٦٢٨) وأبو داود (٢٥٩٤) والترمذي (١٧٠٢) والنسائي (٣١٧٩)].

وفي رواية: «هل تُنصَرُونَ وترزقونَ إِلَّا بضعفائكم؟!» [روا البخاري (٢٨٩٦)].

### • يوم الفرقان:

﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ أي: اعملوا بهذه القسمة وارضوا بها، إن كنتم آمنتم بالله تعالى.

﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ من الآيات والمبشّرات والملائكة والنصر، وما أنزل الله تعالى كل ذلك في يوم بدر إلا تكريماً للنبي ﷺ، فهو المقصود بكل ما أنزله الله تعالى في هذا اليوم، ولهذا أفردته تعالى بالذكر، ونسبه إلى ذاته المقدّسة بصفة العبودية تشريفاً له ﷺ وتكريماً.

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ يوم معركة بدر الذي فرق الله تعالى فيه بين الحق والباطل.

﴿يَوْمَ الْفُتَى الْجَمْعَانِ﴾ بإرادته سبحانه وتقديره دون موعد سابق بينهما.

﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

ثمّ بيّن سبحانه كيف جمع بقدرته ومشيتته بين الفريقين لكي يقع الفرقان

فقال:

﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٤٢).

﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ نازلون.

﴿بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ بشاطئ الوادي القريب من المدينة المنورة.

﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾ والمشركون نازلون بشاطئ الوادي الآخر البعيد عن المدينة المنورة.

﴿وَالرَّكْبُ أَهْلٌ مِّنْكُمْ﴾ والقافلة على الطريق السفلي القريب من ساحل البحر على بعد ثلاثة أميال منكم.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ﴾ أنتم والمشركون على اللقاء في بدر.

﴿لَا تَخْتَلَفْتُمْ فِي الْبَيْعِ﴾ بسبب بُعد المكان عن مكة المكرمة وقربه من المدينة المنورة، وأيضاً بسبب قلة المسلمين وكثرة المشركين.

﴿وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ ولكنه سبحانه بقدرته ومشيتته قدر ذلك وقضاه، حتى وصل الجمعان إلى بدر في يوم واحد، ومن غير ميعاد سابق، ليقع ما أراد الله وقوعه في يوم الفرقان، فهو سبحانه الفعّال لما يريد، وقضاؤه كائن لا محالة، وقد قضى جلّ وعلا بإعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله.

وبذلك قامت الحجّة على المعاندين وظهرت:

﴿لِيَهْلِكَ مَن هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ أي ليستمرّ في الكفر من استمرّ في الكفر على بصيرة من أمره أنه مبطل لقيام الحجّة عليه.

﴿وَيَجِيءُ مَن حَىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ ويؤمن من آمن عن حجّة وبصيرة، فالإيمان حياة القلوب كما مرّ في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أُسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وإلى هذا المعنى ذهب السيدة عائشة رضي الله عنها في قولها في حديث الإفك: فهلك في من هلك. [رواه البخاري (٢٦٦١) و(٤٧٥٠)].

وقد مرّ معنا أن يوم بدر كان حقاً فرقاناً بين الحق والباطل.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوالكم ودعائكم.

﴿عَلَيْكُمْ﴾ بأحوالكم وأحوالهم .

ثم كشفت الآيات الكريمة عن بعض التدبيرات الإلهية الخفية التي مهدت للقتال وما أعقبه من النصر:

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَدْنَاكُمْ كَثِيراً لَفَسَلْتُمْ وَلَنَنْزَعُنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلَيْكُمْ بَدَاتِ الْأُصْدُورِ ﴿٤٣﴾﴾ .

﴿إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلاً﴾ فقد رأى النبي ﷺ المشركين جمعاً قليلاً ، بمشيئته تعالى وقدرته ، وأخبر عليه الصلاة والسلام أصحابه بذلك ، ممّا جرّأهم على القتال وشجعهم عليه .

﴿وَلَوْ أَرَدْنَاكُمْ كَثِيراً لَفَسَلْتُمْ وَلَنَنْزَعُنَّ فِي الْأَمْرِ﴾ أي : لضعفتم وهبتم المشركين ، وحدث بينكم اختلاف في أمر قتالهم ، وهذا يدلُّ على أنّ إظهار القوة للعدو له تأثير على معنويات العدو وإحراز النصر .

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي : ولكنه سبحانه بلطفه ورحمته سلّمكم من ذلك .

﴿إِنَّهُ عَلَيْكُمْ بَدَاتِ الْأُصْدُورِ﴾ عليهم بكل ما يخفى في الصدور من شجاعة وجبن وجرأة وخوف .

وعندما وقف الجمعان أمام بعضهما في ساحة القتال ، هياً الله تعالى أيضاً الأسباب المعنوية التي تشجّعهما على الاقتتال والالتحام ، فهو ﷻ خالقٌ للأسباب والمسببات :

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾ .

﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيْتُمْ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلاً﴾ لتتجرّؤوا على قتالهم ، وتطمعوا في النصر عليهم ، حتى قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : لقد قللوا في أعيننا يوم

بدر حتى قلت لرجل إلى جنبي: تراهم سبعين؟ قال: بل هم مئة، حتى أخذنا رجلاً منهم فسألناه؛ فقال: كنا ألفاً. لرواه ابن أبي حاتم، وابن جرير في تفسيرهما<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَقْلِلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾ حتى قال أبو جهل: إن أصحاب محمد أكلة جزور، أي: لا يتجاوزون المئة، وهكذا أغرى الله تعالى كلاً من الجمعين بالآخر.

﴿لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: كان مقدرًا في الأزل، فلا بد من وقوعه كما تعلق به إرادته جلّ وعلا.

وكرّره في الآيتين إبرازاً لأهميته، فالتقدير بمشيئته سبحانه أزلاً وأبداً، لا بمشيئة غيره، وكما بدأت الأمور بمشيئته تعالى تنتهي أيضاً بمشيئته سبحانه:

﴿وَالِإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ فالبداية والنهاية منه وإليه جلّ وعلا.

وتقليل المسلمين في أعين المشركين كان قبل القتال، ثم بعد أن بدأ القتال والتحم الجمعان قلّل الله المشركين في أعين المؤمنين تثبيتاً لهم، ورفعاً لمعنوياتهم، وكثر المؤمنين في أعين المشركين، جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنَةِ الْقُرْآنِ فَتَقَاتُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرِي كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْأَعْيُنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصَرَهُ مَنْ يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣].

فلا تعارض بين الآيات، فكل آية تصف حالة من حالات يوم بدر وطوراً من أطواره.



(١) ذكره ابن كثير في تفسيره: ١١٠/٢.

## الْفَصْلُ الثَّلَاثُ

## التَّحذِيرُ مِنْ أَسْبَابِ الْهَزِيمَةِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾  
 وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزِعُوا عُقْبَتَكُمْ فَتَمَنَّقُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّا اللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا  
 تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا  
 يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ  
 وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَيَانِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا  
 لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ  
 مَّرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ وَدِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ  
 يَتَوَقَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ  
 بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
 كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ  
 مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَذَّابٌ ءَالِ  
 فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلَّ  
 كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدتْ  
 مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَمَا تَتَّقِنَهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ  
 مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبَيْدُ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّا اللَّهُ لَا  
 يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِتْمَهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا  
 اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا  
 تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾



وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ  
 فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَنْتَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي  
 الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْتَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣﴾ يَأْتِيهَا  
 النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَرِصَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ  
 يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنْ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٥﴾ أَفَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ  
 يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفِينَ يَا ذَنْنَا اللَّهُ مَعَ  
 الصَّادِقِينَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ لَهٗ أُسْرَىٰ حَتَّىٰ يُنْخَضَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا  
 وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ  
 عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا عِنْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩﴾ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبٌ لَمَّا  
 فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأُسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ  
 وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ  
 ﴿٢١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا  
 أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَّعِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا وَإِنْ  
 اسْتَضَرُّوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ  
 ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾  
 وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ  
 مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ  
 بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

### • التنازع والاختلاف:

بعد أن بيّنت الآيات أسباب النصر المباشرة وغير المباشرة، اتجهت  
 اتجاهاً جديداً يغلب عليه أسلوب التحذير من أسباب الهزيمة، واستهلّت حديثها  
 بتذكير المسلمين بواجبهم الأساس الأول عند لقاء العدو في ميدان القتال:

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ لقتالهم، ولا تفرّوا، فالفرار كبيرة من كبائر الذنوب، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُولِهِمْ يُؤَمِّدِ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال].

ثم أمرتهم بالإكثار من ذكر الله تعالى في أثناء القتال:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ولا تغفلوا عنه سبحانه ولو في أشدّ الأحوال وأخطرها، فإنّ ذكر الله تعالى في مثل هذه الأحوال استمداد لمعونته وتأييده، واستنزال لنصره، ففي الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه حيث يذكرني» [رواه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥)].

ويؤيده قول الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢].

ويدلّ ذكره سبحانه في مثل هذه الأحوال العصبية على شدة محبته تعالى. ومرّ معنا عند قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآثار الطيبة للذكر، وذكره سبحانه يستدعي طاعته:

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنزِعُوا عَنْهُ فَنفَشُوا فَنفَشُوا وَتَذَهَبَ رِيحُكُمْ وَأَصِيرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٦﴾

﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالتزام ما شرعه سبحانه في الجهاد، وهذا الالتزام أهم أسباب النصر كما مرّ معنا في قوله: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

ثم حذرت الآية الكريمة المسلمين من أكبر أسباب الفشل والهزيمة بقوله

تعالى:

﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا﴾ فَإِنَّ الاختلاف يؤدي إلى الفشل والضعف .  
 ﴿وَنَذَهَبَ رِيحَكُ﴾ أي: تتلاشى قوتكم، وتضيع جهودكم، فعاقبة الاختلاف  
 والتنازع مرّةً ووخيمةً .  
 ﴿وَأَصْبِرُوا﴾ على مكاره القتال وشدائده ومخاطره .  
 ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ يؤيدهم ويقويهم وينصرهم .

#### • التحذير من التكبر والظفیان:

ثم حذرتهم الآيات أيضاً من التشبه بأعدائهم في تكبرهم وطفغانهم  
 وفخرهم وإعجابهم بأنفسهم، واغترارهم بقوتهم، فإن ذلك من أسباب الفشل  
 والهزيمة:

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ  
 بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ .

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ وهم النفير جيش المشركين، وعلى  
 رأسهم أبو جهل عمرو بن هشام، الذين خرجوا من مكة لحماية القافلة، كما مرّ  
 معنا، ولما علموا بنجاة القافلة أصروا على الذهاب إلى بدر .  
 ﴿بَطَرًا﴾ أي: طفغاناً وتكبراً وفخراً، فبدل أن يشكروا الله تعالى على نجاة  
 أموالهم، ويعودوا إلى مكة، توجّهوا إلى بدر، وقال قائلهم - وهو أبو جهل -:  
 والله لا نرجع حتى نردّ بدرأ، فنقيم عليها ثلاثاً، فننحر الجُرز، وننعم الطعام،  
 ونُسقي الخمر... كما مرّ معنا .

﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾ أي: ومن أجل أن يراهم الناس، فالقوم يريدون الافتخار  
 بقوتهم وأموالهم أمام الناس، كأنهم يرون لأنفسهم فضلاً على الناس بما لديهم  
 من قوة وأموال .

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وليمنعوا الناس من الدخول في دين الله تعالى،  
 ويعوقوا انتشاره بينهم .

﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وفيه وعيد شديد لهم ولكل من يتشبه بهم، فهو سبحانه عليم بجميع أحوالهم وأعمالهم ونياتهم، وهم في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته، ولهذا سقاهم في بدر كؤوس المنيا بدل الخمر، وأقام عليهم النوائج بدل القيان.

### • التحذير من وساوس الشيطان ومكره:

ثم كشفت الآيات للمؤمنين على سبيل التحذير لهم دَوْرَ الشيطان في توريط المشركين، وتزيينه لهم القدوم إلى بدر، ثم كيف تخلى عنهم وخذلهم، عندما جَدَّ الجد وبدأ القتال والصدام بين الفريقين:

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفُتَاتِ نَكَصَ عَلَى عَقْبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: حَبَّبَ إلى المشركين أعمالهم الفاسدة، كالتكبر والطغيان، وحبُّ الرياء والسمعة، والصدُّ عن سبيل الله تعالى. ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي: ألقى في صدورهم، وخيَّل لهم أنهم لا يُغلبون، بسبب قوتهم وكثرة عددهم وعُددهم، وأوهمهم أنه مجير لهم، فالقولُ مجازٌ عن الوسوسة<sup>(١)</sup>.

ويمكن أن يكون الشيطان قد قال ذلك لهم حقيقةً، كما فعل عندما تأمروا على قتل النبي ﷺ قبل الهجرة، وقد مرَّ معنا ذلك عند قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآية [الأنفال: ٣٠].

ويؤيد هذا المعنى قولُ ابن عباس رضي الله عنهما: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ سَارَ إِبْلِيسُ بِرَأْيَتِهِ

(١) انظر: روح المعاني: ٤/١٥.

وجنوده مع المشركين، وألقى في قلوب المشركين أن أحداً لن يغلبكم، وإني جارٌ لكم<sup>(١)</sup>.

﴿فَلَمَّا تَرَأَتْهُ الْفِئْتَانِ﴾ فلما التقوا، ونظر الشيطان إلى إمداد الملائكة.  
﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقَبَيْهِ﴾ رجع مدبراً.

﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ وتلك عادةٌ عدوُّ الله لمن أطاعه وانقاد له، حتى إذا التقى الحق والباطل، أسلمهم شرّاً مسلّم، وتبرأ منهم عند ذلك<sup>(٢)</sup>؛ قال تعالى: ﴿كَتَلَى الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

﴿إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾ أي: إني أرى الملائكة الذين لا ترونهم.

وفي الحديث الشريف: أن رسول الله ﷺ قال: «ما رُئيَ الشيطانُ في يومٍ أقلَّ ولا أحقرَ ولا أصغرَ منه في يومِ عرفة؛ لِمَا يَرى من نزولِ الرحمةِ إلا ما رأى يوم بدرٍ» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «رأى الملائكة يزُرعها جبريلُ» [رواه مالك في الموطأ (١/٤٢٢)].

﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ وكذب عدو الله، والله ما به مخافة، ولكن عَلِمَ ألا قوة له ولا منعة.

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

#### • التحذير من المنافقين وإشاعاتهم الكاذبة:

وللإشاعات الكاذبة دور كبير في بثِّ روح التخاذل والهزيمة في نفوس المقاتلين، وما أكثرَ ما أدَّت إلى تحويل الانتصارات إلى هزائم! ولهذا تحرصُ الدول قديماً وحديثاً على إذاعة الإشاعات الكاذبة في المجتمعات المعادية، وتسخرُ لِبَثِّهَا مختلف وسائل الإعلام، وتحشد لأجل ذلك كل ما لديها من

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١١١/٢.

(٢) انظر: المرجع السابق نفسه.

إمكانات، وترسم من أجلها الخطط والبرامج، حتى أطلقوا عليها في العصور المتأخرة: الحرب الباردة، أو حرب الدعايات، أو الحرب النفسية.

وأكثر الإشاعات خطورةً تلك التي تصدر من داخل المجتمع، من أولئك الذين يُخفون في نفوسهم ولاءهم للعدو، وهم الذين يُسَمَّون في العصر الحاضر: (الطابور الخامس)، وقد سماهم الله تعالى: المنافقين، وحذّر من مكربهم وكيدهم وافتراءاتهم في آيات كثيرة؛ منها قوله تعالى هنا:

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَزِيْرٌ حَكِيْمٌ﴾ [٤٩].

﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ وهو ما يخفون في قلوبهم من الكفر وموالاته أعداء المسلمين؛ قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

﴿غَرَّ هَوَاهُ دِينُهُمْ﴾ أي: غرّ المؤمنين الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى بدر دينهم، فهم نفر قليلون، يقاتلون أضعافهم، فقد خدعهم دينهم، لأنه حملهم على تعريض أنفسهم لخطرٍ لا قبلَ لهم به.

بمثل هذه الإشاعات عمل المنافقون على توهين عزائم المؤمنين، وإضعاف معنوياتهم، وتخويفهم من قوة عدوهم.

وقد تكرر منهم مثل هذه الأقوال في أكثر المعارك والغزوات، ففي غزوة الأحزاب حكى الله تعالى عنهم قولهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢].

ويبين سبحانه كيف نواجه إشاعات المنافقين وافتراءاتهم، وذلك بكتمانها، وعدم إشاعتها بين الناس أولاً، ثم بتبليغها إلى أولياء الأمور في المجتمع لبيّنوا حقيقتها، ويكشفوا زيفها وخداعها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ

الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ [النساء: ٨٣].

وإن ثقة المؤمنين بنصر الله تعالى وتوكلهم عليه يحميهم من التأثير بإشاعات المنافقين والمرجفين، ولهذا ختم الله سبحانه الآية الكريمة بقوله:

﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

لقد استأجر أبو سفيان - عندما كان زعيماً للمشركين - بعض الرجال لكي يندسوا بين صفوف المسلمين في المدينة المنورة، وينشروا فيهم الإشاعات الكاذبة، ففشلوا، ولم يتأثر الصحابة رضي الله عنهم بافتراءاتهم بسبب قوة إيمانهم، وتوكلهم على ربهم، وأنزل الله تعالى يثني عليهم، ويشهد لهم بصدق الإيمان وحسن التوكل قوله الكريم: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٦﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران] (١).

#### • في غمرات الموت:

وأخذت الآيات بعد ذلك تتوعّد المنافقين والكافرين بسوء العاقبة والمصير عند الموت وبعده، وقد اتبعت أسلوب التهديد غير المباشر، فوجهت الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أو لكل من يصلح لتوجيه الخطاب إليه، فجاء هذا الأسلوب متناسباً ومنسجماً مع الأساليب الملتوية التي يسير عليها المنافقون:

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾ أي: لو رأيت الملائكة وهم يقبضون أرواح الكفار عند موتهم، لرأيت أمراً عظيماً مخيفاً مرعباً.

(١) انظر: تفسير سورة آل عمران في تفسيرنا الموضوعي هذا، الذي جاء تحت عنوان: (التوراة والإنجيل والقرآن في سورة آل عمران).

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ والملائكة يضربون الكفار على وجوههم وظهرهم، ويقولون لهم:

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فما تلقونه الآن قليل من كثير، ومقدمة لعذاب أشد ألماً وأعظم حسرة، وهو الاحتراق في نار جهنم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْرَزُونَ عَذَابَ آلِهُونَ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٥١).

﴿ذَلِكَ﴾ العذاب والهون.

﴿بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ أي: بسبب كفركم وفجوركم ومعاصيكم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فلا يكون منه سبحانه ظلم، ولا يُنسب إليه ظلم البتة، ولفظة ﴿يُظَلَّمُ﴾ ليست للمبالغة، إنما هي كبرآز وعطار وجزار<sup>(١)</sup>.

وتدل الآية على أن للإنسان كسباً واختياراً فيما يصدر عنه من أقوال وأفعال، وهذا الكسب والاختيار مناط مسؤوليته أمام الله تعالى القائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]<sup>(٢)</sup>.

#### • من تاريخ الطغاة والمكذابين:

ثم ضرب الله تعالى مثلاً من تاريخ الطغاة والمكذابين تأكيداً لعدله وحكمته جلّ وعلا، فقال:

(١) انظر: تنوير الأذهان: ٣٠/٢.

(٢) انظر لتوضيح هذا المعنى: تفسير سورة يونس، الذي جاء في تفسيرنا الموضوعي هذا تحت عنوان: (الإنسان بين التقدير والتكليف في سورة يونس).



﴿ كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

﴿ كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ ۖ ﴾ أي: عادة هؤلاء المعاندين من كفار قريش في مكة المكرمة، ومن المنافقين في المدينة المنورة، كعادة آل فرعون، وفرعون كان ولا يزال أقبح مثالٍ للظلم والطغيان والتجبر.

﴿ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم الكافرة والمكذبة.

﴿ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ ﴾ كما فعل المشركون والمنافقون.

﴿ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أي: فأهلكهم الله وعذبهم بسبب ذنوبهم، فلم يظلمهم سبحانه.

﴿ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ لا يُغلب، ولا يُدْفَعُ عقابُه عن من أراد معاقبته.

#### • أسباب زوال النعم:

ثم بين سبحانه سنة من سننه في خلقه جلّ وعلا، وتدلّ على تمام عدله وكمال حكمته، فقال:

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ فلا يزيلُ اللهُ تعالى نعمة أنعم بها على قوم من الأقوام حتى ينتقلوا من الحال التي كانوا عليها عند النعمة إلى حال أسوأ وأقبح مما كانوا عليه، كما في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۗ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ ءَالٍ ﴾ [الرعد: ١١].

فأسباب زوال النعم ونزول العذاب والنقم نابعة من سلوك الناس وأعمالهم، والله سبحانه ما خلقهم ليعذبهم، وإنما خلقهم ليرحمهم، ويمنّ

عليهم برحمته وإحسانه، ويسعدهم بطاعته وعبادته، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ومن كماله جلّ وعلا اتصافه بالرحمة والإحسان، وبالغضب والانتقام، ولكن رحمته سبحانه سبقت غضبه.

وفي الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ: إِنْ رَحِمْتِي تَغَلَّبُ غَضْبِي» وفي رواية: «سبقت رحمتي غضبي» [رواه البخاري (٧٤٠٤) ومسلم (٢٧٥١)].

ومعنى سبق الرحمة وغلبتها: أنها أقدم تعلقاً بالخلق، وأكثر وصولاً إليهم<sup>(١)</sup>. ولهذا كانت قريش قبل الإسلام تنعم بالأمن والرخاء، ولما بعث الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإسلام، كذبوه وعاندوا دعوته، فغيّر الله تعالى حالهم، ونزع عنهم نعمة الأمن والرخاء، وسلط عليهم النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فبارت تجارتهم، وفقدوا كثيراً من أموالهم وأنفسهم، حتى فتح الله تعالى مكة المكرمة للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ يسمع ويعلم جميع أقوالهم وأعمالهم.

تلك هي سنّته تعالى الجارية في خلقه، فالذي لا يعرف قدر النعمة ولا يشكر المنعم، تُسلب النعمة منه وتنزِعُ عنه، وشأن مشركي مكة فيما نزل بهم كشأن فرعون وقومه والأمم المكذبة قبلهم:

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ<sup>٦</sup> وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ<sup>٥</sup> وَكُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ<sup>٦</sup> وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أيّد الله تعالى بها الرسل الذين أرسلوا إليهم.

(١) تفسير أبي السعود: ١١٥/٢. وانظر: تفسير سورة الأنعام في تفسيرنا الموضوعي هذا الذي جاء تحت عنوان: (بصائر الحق في سورة الأنعام).

﴿فَأَهْلَكْتَهُمْ بَدُوْبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنوبهم.

ويبين سبحانه كيفية إهلاك فرعون وقومه على وجه الخصوص، لكثرة ما كانوا فيه من النعم، وشدة معاندتهم وتكبرهم:

﴿وَأَعْرَفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ كُلُّهُمْ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي: وكل من المكذبين السابقين كفرعون وقومه، ومن المكذبين اللاحقين كمشركي قريش، كانوا ظالمين لأنفسهم، بسبب إعراضهم وعنادهم وتكذيبهم.

ولا يخفى أن تكرار ذكر فرعون وقومه جاء لمعنى آخر لم يكن في المعنى الأول، إذ الأول: لبيان أنه تعالى أهلكهم لما كفروا، والثاني: لبيان أنه تعالى لم ينزع نعمته عنهم ويغيّر حالهم حتى غيروا ما بأنفسهم، وكذبوا أنبياءهم.

#### • التحذير من الغدر ونقض العهد:

الإسلام دين السلم والسلام، أنزله الله تعالى لرعاية مصالح الناس وسعادتهم في الدنيا والآخرة، والجهاد في الإسلام ليس غاية في حد ذاته، إنما هو وسيلة لعزة المسلمين وأمنهم، وتأمين انتشار دعوتهم، ولهذا شرع الله تعالى إلى جانب شريعة الجهاد والقتال قيام العهود والمواثيق بين المجتمع الإسلامي وبين المجتمعات البشرية الأخرى، وأعطى وليّ أمر المسلمين الحق الشرعي في عقد المعاهدات والمواثيق الدولية إذا ما رأى فيها مصلحة للمسلمين، وأمر سبحانه برعاية هذه المعاهدات والوفاء بها، ما دامت الأطراف الثانية ترعاها وتحفظها، كما حذر سبحانه في الوقت نفسه المسلمين من الغفلة عن عدوهم، والاعتماد على عهودهم ومواثيقهم معه.

فالكفر لا يأتي بخير أبداً، والكفار أكثر الخلق شراً وضراً، قرر سبحانه هذا المعنى محذراً من غدرهم وشرهم فقال:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٥٥).

فما داموا مصرين على الكفر، بعيدين عن الإيمان، فهم شرّ من يدب على الأرض، فالكفر أصل كل شرّ، والإيمان أصل كل خير.

﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ (٥٦).

أي: الذين كلما عاهدوا عهداً نقضوه، لأنهم لا يتقون الله تعالى ولا يخشونه، فهم كما وصفهم سبحانه بقوله: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وِلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

ثم بين سبحانه كيفية التعامل معهم في حال نقضهم العهد، فقال:

﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (٥٧).

﴿فَإِمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾ أي: فإذا ما ظفرت بهم في ميدان القتال وتمكنت منهم. ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ﴾ فاغلظ عليهم في القتال، وشدد عليهم، واضربهم ضربة تؤدب بها غيرهم ممن يريدون نقض العهد والغدر. ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لعل ذلك يكون موعظة لهم يتعظون بها، وينزجرون عن نقض العهد والغدر.

#### • الخدعة في الحرب لا في العهد:

هكذا ينبغي أن يُعامل الناقضون للعهد، وأما الذين يريدون الغدر ونقض العهد، فالأمر معهم يختلف:

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ (٥٨).

﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ أي: غدرًا ونقضاً للعهد، بعلامات وأمارات تلوح منهم.

وهذا يدلُّ على وجوب الحذر منهم، ومراقبة تحركاتهم، وعلى ولي أمر المسلمين أن يرصد المجتمعات الكافرة، وأن يطلع على كل أحوالهم، ولو كان مرتبطاً معهم بعهود ومواثيق، لكي لا يُفاجأ بغدرهم ومكرهم.

﴿فَإِنبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ أي: أعلمهم أنك نقضت العهد الذي بينك وبينهم.

فالإسلام يحرمُّ الغدر، لأنه دين الصدق والوفاء، والمسلمون مكلّفون بتعاليم الإسلام وأخلاقه ومثله في السلم والحرب، ومع الصديق والعدو، وهذه الحقيقة هي التي تجذبُ الناس إلى الدخول في الإسلام وترغبهم فيه .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُنَافِقِينَ﴾ الناقضين للعهد والغازين مهما كانوا ولو كانوا من المسلمين .

ذكر ابن كثير في تفسيره: أنّ معاوية رضي الله عنه كان يسيرُ في أرض الروم، وكان بينه وبينهم أمد، فأراد أن يدنو منهم، فإذا انقضى الأمد غزاهم، فإذا شيخٌ على دابة يقول: الله أكبر، الله أكبر، وفاءٌ ولا غدرٌ، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ، فَلَا يَحُلِّنْ عَقْدَهُ وَلَا يَشْدَهَا، حَتَّى يَنْقُضِيَ أَمْدَهَا، أَوْ يَنْبَذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سِوَاءٍ» فبلغ ذلك معاوية، فرجع، فإذا بالشيخ عمرو بن عَبَسَةَ رضي الله عنه. [رواه أحمد (١١١/٤) وأبو داود (٢٧٥٩) والترمذي (١٥٨٠) وقال: حديث حسن صحيح].

وقد يقول قائل: ألم يقل النبي صلى الله عليه وآله: «الْحَرْبُ خُدْعَةٌ» [رواه البخاري (٣٠٣٠)] والانتصار على العدو يقتضي الاحتيال عليه؟

فأقول: مخادعةُ العدوِّ والاحتيالُ عليه تتعارض مع معاهدته ومهادنته، والخدعةُ في الحرب، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله، لا في العهد، فما دام العهد قائماً فالواجبُ الوفاءُ به .

إنَّ الإسلام يعاهدُ ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره، نبذ العهد القائم جهرةً وعلانيةً، ولم يخن ولم يغدر، ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأنه نفضَ يده من عهدهم، فليس بينه وبينهم أمان، وبذلك يرتفعُ الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة، إنَّه لا يبيِّتُ الآخرين بالهجوم الغادر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، ولا يروِّعُ الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم، فأما بعدَ نبذ العهد فالحرب خُدْعَةٌ، وكل وسائل الخدعة حينئذٍ مباحةٌ لأنها ليست غادرة .

إنَّ الإسلامَ يريدُ للبشرية أن ترتفعَ، ويريدُ للبشرية أن تعفَّ، فلا يبيحُ الغدرَ في سبيل الغلب، وهو يكافحُ لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمحُ للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة<sup>(١)</sup>.

ولا يعني إعلامُ العدو بنقض العهد ونبذَه عدم الحرص على مفاجأته بالهجوم؛ فهذا أمرٌ وذاك أمرٌ آخر، فمفاجأة العدو بالهجوم، وإنزال الضربة الأولى به أمرٌ مشروعٌ في الإسلام، سنَّه رسول الله ﷺ، وكان حريصاً على تحقيقه في أكثر غزواته، فكان إذا أراد غزوة أخفى الجهة التي يقصدها، وإذا ما سُئل عنها ورىَ غيرها - أي: أوهم أنه يريد غيرها -، لكي يفاجئ العدو، ويغزوهم وهم غارون غافلون.

فقد ذكر الإمام النووي في تبويبه لصحيح مسلم في أول كتاب الجهاد فقال: باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدُّم الإعلام بالإغارة.

ثم ذكر مسلم [١٧٣٠] حديث ابن عون قال: كتبتُ إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال؟ قال: فكتبَ إليَّ: إنَّما كان ذلك في أول الإسلام. قد أغارَ رسولُ الله ﷺ على بني المُصْطَلِقِ وهم غارون... إلى أن قال: وحدثني هذا الحديثُ عبدُ الله بن عمر، وكان في ذلك الجيش.

وقد سنَّع أحدُ الكُتَّاب المعاصرين على نافع وخطَّاه، لأنه رأى نافعاً قَصَرَ أمر الدعوة قبل القتال على أول الإسلام، مع أنَّ نافعاً ما قصدَ إلى هذا المعنى، ما قصدَ إلا بيانَ جوازِ الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة.

وعن كعب بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورىَ غيرها. [رواه البخاري (٢٧٥٧) ومسلم (٢٧٦٩)].

وإن الله تعالى لبالمرصاد لكلِّ من يحاولون استغلال هذا المبدأ الإسلامي الرفيع، ويحاولون المكر والخديعة، ولهذا قال تعالى يتوعَّدهم ويتهدَّدهم:

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٥٤٢.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ ﴿٥٩﴾

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا﴾ أي: فاتونا ونجوا منّا، فلا نقدر عليهم.

﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ إنهم تحت قهر قدرتنا، وفي قبضة مشيئتنا، فلا يعجزوننا، فمهما حاولوا الإفلات بالهرب والفرار فهم في قبضة قدرته سبحانه، وهو قادر على أن ينزل بهم عذابه في أي مكان وزمان، فهو كقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْفُتُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤].

#### ● إعداد قوة الرمي والهجوم:

التفتت الآيات بعد ذلك إلى المؤمنين تأمرهم بإعداد كل ما يستطيعون إعداده من أسباب القوة، القوة التي تجعل عدوهم يهابهم، ويخشى جانبهم، ويحافظ على عهوده ومواريثه معهم، قال تعالى:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ  
وَأَٰخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ  
وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ ﴿٦٠﴾

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وبين رسول الله ﷺ أن القوة التي تأمر الآية بإعدادها، هي القوة العسكرية التي يمكن أن يوجه بها أقصى الضربات للعدو، والتي تنزل به أفدح الخسائر.

ففي الحديث الشريف: عن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ، أَلَا إِنَّ الْقُوَّةَ الرَّمِيَّ» [رواه مسلم (١٩١٧) وأبو داود (٢٥١٤)].

فقوة الجيش المادية في قوة رماياته التي يرمي بها العدو، وفي قوة نباله ونيرانه وقذائفه وصواريخه، وفي قوة الطاقة المدمرة التي يستطيع توجيهها إلى العدو.

وتدلُّ الآية على أنه يجب على المسلمين أن يحصلوا كلَّ أسباب القوة خاصةً قوة الرمي في أثناء القتال.

وقوة الرمي وحدها لا تكفي لإحراز النصر، فلا بدَّ بعدَ رمي العدو وتدميره من استثمار ذلك، بالمبادرة إلى احتلال مواقعه، واستئصال ما تبقى من قوته، والقضاء على مقاومته، وذلك بشنِّ الهجوم عليه.

وهذا يتطلب إعدادَ القوة المهاجمة، قوة الهجوم والانتفاض على العدو لاحتلال مواقعه وأرضه، ولَمَّا كانت الخيلُ أسرع وسائل الهجوم والكرِّ والفرِّ في ميادين القتال، خصها سبحانه بالذكر في آية إعداد القوة، فقال:

﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ أي: وأعدوا ما تستطيعون من الخيل المربوطة المجهزة للهجوم والانتفاض على العدو بعد إثنائه وتدميره بقوة الرمي.

فكأنَّ الآية الكريمة ترسم مبدأ عسكرياً هاماً مقررراً عند كبار القادة العسكريين؛ وهو إضعاف العدو بقوة الرمي أولاً، ثم الهجوم عليه ثانياً للقضاء عليه. وقد حثَّ النبي ﷺ على إعداد الخيل والفروسية للجهاد عليها في سبيل الله في أحاديث كثيرة، منها:

عن عروة بن الجعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيْلُ معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة» [رواه البخاري (٢٨٥٠)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الخيْلُ ثلاثةٌ، فهي لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سترٌ، ولرجلٍ وزرٌ: فأما التي هي أجرٌ، فالرجلُ يتخذها في سبيلِ الله، ويعدُّها له، فلا تُغيَّبُ شيئاً في بطونها إلا كتبَ الله له أجرًا، ولو رعاها في مرجٍ، ما أكلتُ من شيءٍ إلا كتبَ الله له أجرًا، ولو سقاها من نهرٍ، كان له بكلِّ قطرةٍ تغيبها في بطونها أجرٌ - حتى ذكرَ الأجر في أبقالها وأروائها -، ولو استنتت شرفاً أو شرفين كُتِبَ له بكلِّ خطوةٍ تخطوها أجرٌ. وأما الذي هي له سترٌ، فالرجلُ يتخذها تكراً وتجملاً، ولا ينسى حقَّ ظهورها وبقوتها في عُسرِها ويُسرِها، وأما الذي عليه وزرٌ، فالذي يتخذها أشراً وبطراً وبذخاً ورياء الناس فذاك الذي عليه وزرٌ» [رواه البخاري (١٤٠٢) ومسلم (٩٨٧)].



وقوله: «شرفاً أو شرفين»: أي قطعت مرتفعاً أو مرتفعين من الأرض.  
 كما كان النبي ﷺ يحث أصحابه على إتقان الرماية والفروسية والتدرب  
 عليهما، ويشاركهم في ذلك، فعن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرج  
 رسولُ الله ﷺ على نفرٍ من أسلم يتضلون بالسوق، فقال: «ارموا بني إسماعيل،  
 فإنَّ أباكم كان رامياً، ارموا وأنا مع بني فلان» فأمسك أحدُ الفريقين بأيديهم،  
 فقال: «ما لكم لا ترمون؟!» فقالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ فقال: «ارموا وأنا  
 معكم كلُّكم» [رواه البخاري (٢٨٩)].

وقوله: (يتضلون) أي: يتدربون على إصابة الهدف.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أجرى رسولُ الله ﷺ ما ضُمِّرَ من الخيل من  
 الحفياءِ إلى ثنيةِ الوداع، وما لم يُضْمَرَ من الثنيةِ إلى مَسْجِدِ بني زُرَيْق. [رواه  
 البخاري (٤٢٠) ومسلم (١٨٧٠)].

وقد عوَدنا سبحانه في كتابه أن يخاطب الناس بما يعقلون في عصر  
 التنزيل، ولهذا لم يذكر سبحانه وسائل القتال والهجوم الحديثة التي اهتدى  
 الإنسان إليها كالدبابات والطائرات والمدمرات وغيرها، فقد جاء ذِكْرُ الخيل  
 مثلاً لإعداد ما يمكن أن يكون سبباً للقوة ووسيلة للنصر، ولقد أصبحت  
 الناقلات الحديثة للجنود في الجو والبحر والبر من أهم أسباب النصر في العصر  
 الحاضر، ويجب على المسلمين أن يعدُّوها بأيديهم، وألا يكونوا عالةً بها على  
 غيرهم، فإن قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا﴾ يدل على ذلك، وقد أثبتت شواهد العصر  
 الحاضر أنَّ الأمة التي تصنع سلاحها بأيديها هي الأمة القوية العزيزة.

ويتطلَّب إعداد القوة علماً وعملاً ودرايةً وخبرةً، ويجب على المسلمين أن  
 يكونوا سباقين في كلِّ هذه الميادين، وإلا كانوا جميعاً آثمين لتقصيرهم  
 فيما أوجب سبحانه عليهم في هذه الآية.

#### ● القوة الاقتصادية:

ثم بيَّن تعالى ما يترتب على إعداد القوة من عزة ومنعةٍ، ورهبة العدو  
 وخوفه واحترامه للعهود والمواثيق، فقال:

﴿تَرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ ولا شكَّ أنَّ عدو الله هو عدو المسلمين، وكذلك عدو المسلمين هو عدو الله تعالى.

فالمسلمون يوالون أولياء الله تعالى، ويعادون أعداءه، وكرَّرَ صفة العداوة لله والمسلمين تقبيحاً لحال الكفار، وبياناً لشدة عنادهم وإعراضهم، وهم المشركون في مكة ومن وقف بجانبهم من قبائل العرب.

﴿وَأَخْرَيْنَ مِنْ دُونِهِمْ لَا نَعْلَمُونَهُمْ﴾ أي: وترهبون أعداء آخرين لا تعلمونهم، إمَّا لكونهم يخفون عداوتهم لكم كالمنافقين، أو لكونهم بعيدين عنكم، وبهذا المعنى تنسحب الآية على جميع الكفار في شتى بقاع الأرض.

وقوله سبحانه: ﴿لَا نَعْلَمُونَهُمْ﴾ بسبب كثرتهم وبعدهم يؤكد المعنى الثاني.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ويعلم بغضهم للإسلام والمسلمين وكيدهم بهم.

ويتطلَّب إعداد القوة العسكرية في العصر الحاضر قوة اقتصادية يمكنها أن تتحمل النفقات الباهظة لإعداد الأسلحة الكثيرة المعقدة، وتدريب الجنود على استعمالها، وهذا واجب آخر يقتضيه الإعداد، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وهو ما دلَّ عليه أيضاً قوله تعالى في آية الإعداد:

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي: تثابون عليه ثواباً كاملاً.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تظَلُمُونَ﴾ أي: لا تنقصون من ثواب أعمالكم شيئاً.

#### • الإسلام والسلام:

وإعداد القوة لا يعني بالضرورة مباشرة القتال والحرب، فالإسلام دين السلام، والجهاد في الإسلام وسيلة لعزة الإسلام والمسلمين وتأمين نشر الدعوة بين الناس، ولهذا شرع الله تعالى جواز مهادنة الكفار ومسالمتهم بعد أن أمر بإعداد القوة، فقال:

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَحِ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾

﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ﴾ أي: مالوا للمصالحة والمسالمة.

﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾ فمِلْ إِلَيْهَا، أَي: إِلَى الْمَهَادَنَةِ وَالْمَسَالْمَةِ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ وَلَا تَخَفْ مِنْ مَكْرِهِمْ وَكَيْدِهِمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَافِيكَ كَيْدِهِمْ، وَعَاصِمُكَ مِنْ مَكْرِهِمْ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ هَذَا حَالِ الْمُسْلِمِينَ فِي كُلِّ الشُّؤْنِ، يَعُدُّونَ وَيَسْتَعِدُّونَ، وَيَهَيِّئُونَ كُلَّ الْأَسْبَابِ الْمَادِيَةِ، وَفِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ يَعْتَمِدُونَ عَلَى اللَّهِ، وَتَبْقَى قُلُوبُهُمْ وَأَرْوَاحُهُمْ مَوْصُولَةٌ بِهِ.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وَدَلَّ تَوْجِيهِ الْخُطَابِ لِلنَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَنَّهُ يَجُوزُ لَوْلِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَصَالِحَ الْأَعْدَاءَ وَيَسَالِمَهُمْ إِذَا رَأَى فِي ذَلِكَ مَصْلَحَةً لِلْمُسْلِمِينَ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَإِنْ كَانَ لِلْمُسْلِمِينَ مَصْلَحَةٌ فِي الصَّلْحِ لِنَفْعِ يَجْتَلِبُونَهُ، أَوْ ضَرَرٌ يَدْفَعُونَهُ، فَلَا بَأْسَ أَنْ يَبْتَدِئَ الْمُسْلِمُونَ بِهِ إِذَا احْتَا جَاؤا إِلَيْهِ»<sup>(١)</sup>.

وَقَدْ صَالَحَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَرِيشاً صِلْحَ الْحَدِيدِيَّةِ، وَكَانَ فِيهِ مَصْلَحَةٌ كَبِيرَةٌ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، حَتَّى سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى فَتْحاً بِقَوْلِهِ الْكَرِيمِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١].

فَأَمْرُ الصَّلْحِ وَالْحَرْبِ مَنْوُظٌ بِرَأْيِ وَلِيِّ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، وَلَيْسَ بِحَتْمٍ أَنْ يِقَاتِلَ الْكُفَّارَ أَبَدًا، أَوْ يُجَابُوا إِلَى الْهَدَنَةِ أَبَدًا<sup>(٢)</sup>.

#### • الْوَحْدَةُ بَعْدَ الْفَرْقَةِ:

وَتَثُورُ عِنْدَ الْمَصَالِحَاتِ وَتَوْقِيعِ الْمَعَاهِدَاتِ الْهَوَاجِسَ وَالظُّنُونِ وَمَشَاعِرِ الْقَلْقِ وَالْحَيْرَةِ وَالتَّرَدُّدِ، وَلَا سَبِيلَ إِلَى الْخِلَاصِ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ إِلَّا بِالثِّقَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَلِهَذَا تَوَجَّهَتْ الْآيَاتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ تَقْوِي ثِقَتَهُ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَتَشَدُّ مِنْ عَزِيمَتِهِ بِقَوْلِهِ جَلَّ وَعَلَا:

(١) تفسير القرطبي: ٤٠/٨.

(٢) انظر: روح المعاني: ٢٧/٤.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٢﴾ .

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ أي: إن كانوا يريدون بالصلح خديعة ومكراً فإن الله تعالى كافيك مكرهم وكيدهم، وكما أيدك ونصرك عليهم في الحرب فإنه سبحانه يعصمك من كيدهم ومكرهم في السلم .  
﴿هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِنَصْرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ من المهاجرين والأنصار .

﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ ﴿٦٣﴾ .

﴿وَأَلْفَ بَيْتٍ قُلُوبِهِمْ﴾ مع ما كان فيها من عصبيات وضغائن وأحقاد، حتى أصبحوا كنفس واحدة وجسد واحد، كما قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ، مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحَمَى» [رواه مسلم (٢٥٨٦)].

فوحدة الأمة وألفتها تدفع عنها مكر أعدائها وكيدهم، وتجعلها في مأمن من جميع مؤامراتهم ودسائسهم، وما نجح أعداء الإسلام في تأمرهم على المسلمين وكيدهم بهم، إلا بسبب تفرق المسلمين وتخاذلهم وتدابريهم، وما أكثر الشواهد المؤيدة لهذه الحقائق في تاريخ المسلمين وحاضرهم .

وإن من أجل النعم التي أنعم الله بها على الصحابة رضي الله تعالى عنهم، تألفهم وتضامنهم بسبب إخلاصهم، وببركة محبتهم وطاعتهم لله تعالى ولرسوله ﷺ، فما كان أحد يتصور أن يجتمعوا حول رسول الله ﷺ هذا الاجتماع القوي الوثيق بعد طول التشتت وكثرة التمزق والتشردم، حتى قال سبحانه بين نعمته الجليلة عليهم في تألفهم وجمعهم:

﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ وهذه شهادة من الله تعالى أن ألفتهم ووحدتهم لم تقم على المنافع المادية، فالصحابة ﷺ الذين

كُونُوا نَوَاةَ الْأُمَّةِ الْمُسْلِمَةِ لَمْ يَجْتَمِعُوا عَلَى الْمَنَافِعِ الْمَادِيَةِ، وَأَنْ أَمْوَالِ الْأَرْضِ كُلِّهَا لَتَعْجَزَ عَنْ جَمْعِهِمْ وَالتَّأْلِيفِ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ.

ولقد حرصَ النَّبِيُّ ﷺ منذ البداية على تنزيه دعوته عن أي غرض مادي دنيوي، لأنَّ الأغراضَ الدنيوية من أموالٍ ومناصبَ تفرِّقُ ولا تجمعُ، وتمزِّقُ ولا توحدُ، ولمَّا بايع الأنصار النَّبِيَّ ﷺ بيعة العقبة التي كانت اللبنة الأولى في بناء المجتمع الإسلامي قالوا: فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟ قال: «الجنة»<sup>(١)</sup>.

فلم يعدهم عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ بأيِّ منفعةٍ دنيويةٍ في مقابل دخولهم في الإسلام وجهادهم في سبيله.

فالإيمانُ بالله تعالى والاعتصامُ بدينه وشرعه هو الذي يوحدُ ويؤلفُ:

﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ﴾ بقدرته ومشيتته سبحانه، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فالقلوبُ التي يؤلفُ بينها ربها لا يفرِّقها شيء.

﴿إِنَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلبُ، ولا يُخَيَّبُ رجاءَ مَنْ توكلَ عليه. ﴿حَكِيمٌ﴾.

#### ● القوة بعد الضعف:

لقد جعلتهم هذه الألفة في ظلِّ شريعة الله تعالى أمةً قويةً تتحدى أعتى الأمم وأقواها، وتتغلَّبُ على أشدِّ الصعاب، وتقتحمُ أكبر الأخطار، مع ما كانوا عليه من قلةٍ في العدد والعُدُد، حتى قال الله تعالى فيهم:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٤﴾

أي: يكفيك الله، وكيفيك من أتبعك من المؤمنين.

ولاشك أنه سبحانه هو وحده الكافي، كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

فالفضل لله تعالى وحده، والكفاية من الله تعالى وحده أيضاً، ولكنه سبحانه أراد أن ينوّه بفضل الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار، وأن يبين أنهم أصبحوا بعد أن أَلَّفَ بين قلوبهم أمةً قويةً يُعْتَمَدُ عليها بعد الله تعالى، أمةٌ جديرة أن تحمِلَ أمانةَ الله ورسالته إلى جميع أمم الأرض وشعوبها، وتحمّل في سبيل هذا الهدف كل المخاطر والصعاب.

ويمكن أن يكون معنى الآية: الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين بتبئيتهم وتقويتهم، ولهذا أمر الله تعالى النبي عليه الصلاة والسلام أن يشجّعهم على الجهاد ومواجهة الأخطار مهما كانت:

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَدِرُوا يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ أي: شجّعهم وحثّهم على القتال.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرضهم على القتال عند صفّهم ومواجهة العدو، كما فعل يوم بدر؛ حيث قال لأصحابه: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض» قال عُميرُ بنُ الحُمَامِ الأنصاريُّ: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بخِ بخِ. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ما يحملك على قولك: بخِ بخِ؟» قال: لا والله يا رسول الله إلا رجاءة أن أكون من أهلها. قال صلى الله عليه وسلم: «فإنك من أهلها» فأخرج تمراتٍ من قرنه، فجعل يأكلُ منهنَّ، ثم قال: لئن أنا حييتُ حتّى أكلَ تمراتي هذه إنها لحياةٌ طويلةٌ. فرمى بما كان معه من التمرِ، ثم قاتلهم حتى قتل. [رواه مسلم (١٩٠١)].

وقوله: (بخِ بخِ): كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير. وقوله:

(قرنه) أي: جعبته.

ثم بيّن سبحانه قوة المؤمنين بعد أن أُلّف بين قلوبهم فقال:

﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أنهم لا يعلمون حقيقة الحياة الدنيا، وأن وراءها حياة ثانية خالدة، فحرصهم على الحياة الدنيا يحملهم على الفرار من أرض المعركة.

والآية وإن جاءت بصيغة الإخبار إلا أن المراد منها الأمر والتكليف، فكأنه سبحانه يقول: إن يكن منكم عشرون فليصبروا وليجتهدوا في القتال حتى يغلبوا مئتين (١).

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا مكلفين بالثبات في وجه عدوهم ولو كانت قوته تبلغ عشرة أضعاف قوتهم.

ولمّا كانت شريعة الإسلام شريعة رحمة ويسر، لا حرج فيها ولا مشقة، خفف الله تعالى عنهم بقوله الكريم:

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ في العدد والعدد.

ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم في المعارك التي خاضوها جميعاً أقلّ عدداً وعدداً من عدوهم، مع ذلك نصرهم الله سبحانه، وأيدهم، ومكّن لهم في مشارق الأرض ومغاربها.

﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ فالصبر سبب النصر سواء أكانت قوة العدو أضعافاً كثيرة من قوة المسلمين أو كانت ضعفاً واحداً فقط، ولهذا ذكره تعالى قبل التخفيف وبعده.

﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته وقدرته، فالنصر من

الله تعالى في جميع الأحوال، كما مرَّ في قوله: ﴿وَمَا أَلْتَصِرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٠].

﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِرِينَ﴾ يؤيدهم ويثبتهم وينصرهم.

والتخفيف في الحكم لم يمنع الصحابة رضي الله عنهم من الثبات في وجه عدوهم في واقع الأمر، ولو كانت قوته تزيد على عشرة أضعاف قوتهم، كما في غزوة مؤتة ومعركة اليرموك ومعركة القادسية وغيرها من معارك الفتح المظفرة.

#### • التحذير من الانشغال بالأسرى:

ثم حذرت الآيات الكريمة المؤمنين من الانشغال بأسر جنود العدو في أثناء القتال، فإن ذلك يؤدي إلى صرف جزء من قوة المسلمين لجمع الأسرى وحراستهم في وقتٍ يحتاجون فيه إلى توجيه كل قوتهم لضرب العدو وإضعافه، وإنزال أكبر الخسائر في صفوفه.

وقد حدث يوم بدر أن الصحابة رضي الله عنهم بادروا إلى أسر المشركين قبل انتهاء القتال، وكان عليه الصلاة والسلام في العريش، وسعد بن معاذ رضي الله عنه قائم على بابه في نفر من الأنصار يحرسون الرسول صلى الله عليه وسلم، وكره سعدُ الأسر، وظهرت آثار الكراهة على وجهه، فقال له صلى الله عليه وسلم: «لَكَأَنَّكَ يَا سَعْدُ تَكْرَهُ مَا يَصْنَعُ الْقَوْمُ» قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أولَ وقعةٍ أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال<sup>(١)</sup>.

واستشار صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أصحابه في الأسرى فقال: «ما ترون في هؤلاء الأسرى؟».

فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ الله هم بنو العمِّ والعشيرة، أرى أن نأخذ منهم فديةً، فتكون لنا قوةً على الكفار، فعسى الله أن يهديهم للإسلام.

فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «ما ترى يا ابنَ الخطابِ؟».

قلتُ: لا والله يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكنني أرى أن

(١) سيرة ابن هشام: ١٩٧/٢.



تمكّنا فنضرب أعناقهم، فتمكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكّني من فلان - نسيباً لعمر - فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها.

فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت، فلمّا كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدين يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما.

فقال رسول الله ﷺ: «أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض عليّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة» وأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ﴾. [رواه مسلم (١٧٦٣)].

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١٧)

﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يُشْخَبَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: حتى يبالغ في قتل جنود العدو، فيؤدي ذلك إلى ضعف قوة الكفر، ورجحان قوة الإسلام في الأرض. ولهذا لما قوي المسلمون، واشتد سلطانهم، أنزل الله عليهم قوله الكريم: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا ائْتَمَتُوهُمْ فَمَشُودُوا لَوَتَّاقِ فَإِمَّا مَأْبُودٌ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ [محمد: ٤].

وهذا مبدأ عسكري هام شرعه الله تعالى، وهو لا يمنع من المبادرة إلى أسر عدد قليل من جنود العدو إذا احتاج المسلمون إليهم ليعرفوا منهم قوة عدوهم، ونقاط الضعف في صفوفه، فللضرورة في الشريعة أحكامها، وتقدر بقدرها.

واستجواب الأسير للاستعلام منه عن أحوال العدو أمرٌ جائزٌ ومشروع، فعله الصحابة يوم بدرٍ قبل بدء القتال، فعندما نزل الصحابة بدرًا، ووردت عليهم روايا قريش - أي: الإبل التي يستقون عليها الماء - وفيهم غلام أسود لبني

الحجاج، فأخذه، فكان أصحابُ رسول الله ﷺ يسألونه عن أبي سفيان وأصحابه، فيقول: ما لي علمٌ بأبي سفيان، ولكن هذا أبو جهل وعُتبة وشيبة وأمّية بن خلف. فإذا قال ذلك ضربه، فقال: نعم أنا أخبركم، هذا أبو سفيان.. ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فلمّا رأى ذلك انصرف - أي: سلّم من صلاته -، قال: «والذي نفسي بيده لتضربوه إذا صدقكم، وتركوه إذا كذبكم» [رواه مسلم (١٧٧٩)].

وقوله: «لتضربوه... وتركوه» هكذا وقع في النسخ بغير نون، وهي لغة سبق بيانها مرّات.

وتابعت الآية مخاطبة الصحابة ﷺ:

﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ أي: تريدون حطام الدنيا العارض الزائل بأخذكم الفدية من الأسرى، والله سبحانه يريد لكم ثواب الآخرة. ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ يشرع لكل حال ما يناسبها ويصلح لها.

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٦٨)

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ لولا حكمٌ من الله سبق إثباته في اللوح المحفوظ، وهو ألا يعاقب المخطئ في اجتهاده، أو ألا يعذب أهل بدر. ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي: لنالكم وأصابكم بسبب ما أخذتم من الفدية عذاب عظيم.

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٦٩)

﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾ من الفدية فإنها من جملة الغنيمة. ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ لاعتاب فيه ولا عقاب، لأنّه حلالٌ لكم بشرع الله تعالى. قال رسول الله ﷺ: «لم تحلّ الغنائم لأحدٍ سود الرؤوس قبلكم» قال رسول الله ﷺ ذلك تواضعاً، فإنّ إحلال الغنائم لهذه الأمة تكرمه للنبي ﷺ،

فهو من الخصائص التي خصَّه جلَّ وعلا بها كما مرَّ معنا في قوله: «أعطيت خمساً...» [رواه البخاري (٣٣٥) ومسلم (٥٢١)].

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وتتضمَّن هذه الآيات معاتبَةً للصحابَةِ ﷺ، ولهذا وجهت الخطاب إليهم، ولم توجهه إلى النبي ﷺ، لأنه لم يأمر بأخذ الأسرى، وما أراد عليه الصلاة والسلام قط عرض الدنيا.

#### • فداء ووفاء:

وبأسلوب رفيع يُظهرُ سموَّ الدعوة الإسلامية وأخلاقها الكريمة وإنسانيتها الرفيعة، توجَّهت الآيات بالخطاب إلى النبي ﷺ تأمره أن يدعو الأسرى إلى الإيمان بالله تعالى، والدخول في الإسلام؛ فالدعوة إلى الله تعالى لا ينبغي أن تتوقف في جميع الأحوال كما مر معنا:

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَعْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي: نية طيبة صالحة وعزماً على الإيمان والسلام.

﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من المال الذي فدوا به أنفسهم.

فبعد أن استشار النبي ﷺ أصحابه في شأن الأسرى كما مرَّ، قال لهم: «أنتم عالة، فلا ينفلتنَّ منهم أحدٌ إلا بفداءٍ أو ضريبةٍ عُقِنِ» [رواه أحمد (٣٨٣/١) والترمذي (٣٠٨٤) والحاكم (٢١/٣)].

وأصرَّ عليه الصلاة والسلام أن يأخذَ الفديةَ من جميع الأسرى، حتى من عمِّه العباس وزوج ابنته السيدة زينب أبي العاص بن الربيع ﷺ جميعاً.

فعن أنس بن مالك ﷺ: «أن رجلاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ائذن لنا فلنترك لابن أختنا عباس فداءه، فقال: «لا تدعون منه ذرهما»

[رواه البخاري (٢٥٣٧)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما بعث أهل مكة في فداء أسراهم بعثت زينب في فداء زوجها أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت عند خديجة رضي الله عنها، أدخلتها بها على أبي العاص، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقّة شديدة، ثم قال: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها الذي لها» فقالوا: نعم. وكان صلى الله عليه وسلم أخذ عليه أو وعده أن يخلي سبيل زينب إليه. [رواه أبو داود (٢٦٩٢)].

وأقامت زينب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد أن فرّق الإسلام بينها وبين زوجها، وقبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام بأموال لرجال من قريش، فلما أقبل قافلاً لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابوا ما معه، وأعجزهم هارباً حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستجار بها فأجارتها، وصرخت من صفة النساء: أيها الناس إني قد أجزت أبا العاص بن الربيع، فلما سلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة، قال: «أيها الناس هل سمعتم ما سمعت، والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعت، إنّه يجير على المسلمين أديانهم».

ثم دخل صلى الله عليه وسلم على ابنته فقال: «أي بُنية، أكرمي مثواه، ولا يخلصنّ إليك، فإنك لا تحلين له».

وأرسل صلى الله عليه وسلم إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم: «إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، أصبتم له مالاً، فإن تحسبنوا وتردوا عليه الذي له فإننا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو في الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به».

فردوه عليه، فاحتمله إلى مكة فأداه إلى أصحابه، ثم قال: يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً. قال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله. ثم خرج إلى المدينة مهاجراً، فردّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب على النكاح الأول<sup>(١)</sup>.

(١) سيرة ابن هشام: ٢/٢١٩ باختصار.

﴿وَيَعْفِرْ لَكُمْ﴾ ما سلف من أعمالكم ومعاصيكم، فالإسلام يُجِبُّ ما قبله، كما مر معنا .

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

وبعد أن أطمعتهم الآيات بالإيمان ورغبتهم بالإسلام، حذرتهم من الخداع والخيانة بقوله تعالى :

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : من قبل بدر بالكفر والصدِّ عن سبيل الله .

﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ بأسرهم يوم بدر .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

#### • التحذير من موالة الكافرين:

وجاءت الآيات الأخيرة في سورة الأنفال تحذّر المسلمين من موالة الكافرين، وتبيّن ما يترتب على ذلك من شرٍّ مستطير، وفسادٍ كبير .

ولمّا كانت الهجرة إلى المدينة المنورة قبل فتح مكة المكرمة واجبةً على المسلمين، قسّمت الآيات الكريمة المسلمين إلى ثلاثة أقسام: المهاجرين، والأنصار، والمسلمين الذين لم يهاجروا، وبينت على ضوء ذلك حكم الموالة والنصرة بينهم بقوله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَدَّعِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم المهاجرون .

﴿وَالَّذِينَ آوَأُوا وَنَصَرُوا﴾ وهم الأنصار، آووا إخوانهم المهاجرين، ونصروا الله ورسوله ﷺ فجاهدوا بأنفسهم وأموالهم.

﴿أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ بينهم موالاةٌ كاملةٌ ونصرةٌ تامةٌ وتكافلٌ وتضامنٌ، حتى كانوا في أول الأمر يتوارثون فيما بينهم دون أقاربهم وذوي أرحامهم، بسبب الأخوة التي عقدها النبي ﷺ بينهم بعد الهجرة، فقد آخى عليه الصلاة والسلام بين المهاجرين والأنصار قائلاً: «تآخؤا في الله أخوين أخوين»<sup>(١)</sup>.

ثم بينت الآيات حكم موالاة المسلمين الذين لم يهاجروا إلى المدينة المنورة بقوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَكَيْتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ وهذا لا يعني ترك نصرتهم ومساعدتهم، بل يجب على المسلمين أن يقوموا بنصرتهم ومساعدتهم عندما يطلبون ذلك.

﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ أي: إن طلبوا نصرتكم ومساعدتكم في أمرٍ من أمور الدين فيجب عليكم أن تنصروهم.

﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ أي: إلا إذا استنصروكم على قومٍ من الكفار بينكم وبينهم عهد وميثاق، فلا تخفروا ذمتكم، ولا تنقضوا عهدكم، فالإسلام دينُ الوفاء، والالتزام بالوفاء بالعهد يقدّم على الالتزام بنصرة المسلمين الذين لم يهاجروا إلى المدينة المنورة.

هذا إذا كان هؤلاء المسلمون يستطيعون الهجرة، أما إذا كانوا لا يستطيعون الهجرة بسبب ضعفهم وعدم تمكّنهم منها، فالواجب نصرتهم واستنقاذهم في جميع الأحوال.

قال القرطبي رحمته الله: «إلا أن يكونوا مستضعفين، فإنّ الولاية معهم قائمة، والنصرة لهم واجبة، حتى لا تبقى منا عين تطرف، حتى نخرج إلى استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك، أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى

(١) سيرة ابن هشام: ١٠٩/٢.

لأحد درهم، كذلك قال مالك وجميع العلماء، فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما حلّ بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو، وبأيديهم خزائن الأموال وفضول الأحوال، والقدرة والعدد، والقوة والجلد»<sup>(١)</sup>.

وقد بيّن الله تعالى وجوب نصره المستضعفين من المسلمين في قوله الكريم: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَوْلَاهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥]. ثم ختم الله الآية بما يفيد تهديد ووعد المتقاعسين عن نصره إخوانهم فقال: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

#### ● فتنة وفساد:

ثم ذكّر سبحانه المؤمنين بما يوجد بين الكفار من تعاضد وتناصر وخاصة عندما يواجهون المسلمين فقال:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٦).

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي: ينصر بعضهم بعضاً عليكم، رغم تعدد نحلهم الباطلة وعقائدهم الفاسدة، فالكفرُ ملّةٌ واحدة باطلة في مواجهة الإيمان، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وما أكثر الشواهد الدالة على ذلك في الماضي والحاضر.

﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾ أي: إذا لم تقيموا هذه الموالاة والمناصرة فيما بينكم. ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ تحدث فتنة في الأرض بسبب رجحان كفة الكفر بتعاونهم وتناصرهم، وبسبب تحاذلكم وتفرقكم، مما يؤدي إلى أن يفتن كثير من المسلمين عن دينهم.

﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي: ويقع في الأرض فساد كبير بسبب ابتعاد الناس عن

(١) تفسير القرطبي: ٥٧/٨.

دين الله وشريعته، فاعرفوا أيها المسلمون حقيقة رسالتكم، وجوهر مهمتكم التي كُلفتُم بها، وسيسألُكم الله عنها، إنَّ صلاح العالم في جنبات الأرض منوطٌ بكم، ومتوقفٌ على تعاونكم وتعاضدكم في حمل رسالة دينكم وشريعة ربكم وسُنَّة نبيكم ﷺ.

#### • فضيلة السابقين:

ثم تَوَجَّحَ اللهُ تعالى خاتمة السورة بهذا الثناء الطيب العطر على الصفة الكريمة من المهاجرين والأنصار، الذين سبقوا إلى الإيمان والجهاد، وكوَّنوا نواة الأمة المسلمة:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ (٧٤).

إنها شهادة ربانية رفيعة تظهر فضل السابقين الأولين من أصحاب رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وإنَّ المتأمل للآيات الأولى في سورة الأنفال وللآيات الأخيرة فيها يقف على مدى الانسجام والاتساق بين هذه الآيات:

ففي أول السورة قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ.

وفي ختام السورة بعد أن أثنى الله تعالى على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار قال: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾.

ويلاحظ أنه في أول السورة قال في معرض الحث على الاتصاف بصفات المؤمنين: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤]؛ وذلك لأن الآيات جاءت تحثُ



على الاتصاف بصفات المؤمنين، وتشجع على الازدياد من هذه الأعمال الصالحة، وكلما ازداد الإنسان عملاً بها رفع الله منزلته ودرجته في الجنة.

وأما في خاتمة السورة فلم تُذكر الدرجات، لأنَّ الآياتِ جاءت في سياق الثناء على السابقين من المهاجرين والأنصار، فكأنهم ﷺ بلغوا الغاية في علوِّ الدرجات، وتسَنَّموا أرفع المنازل، فلا حاجة إلى أن يقول فيهم: ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ [الأنفال: ٤].

وبعد أن أثنى سبحانه على السابقين الأولين بهذا الثناء الكريم، ألحق بهم في الولاية والنصرة مَنْ سار على طريقهم بعدهم، فأمن وهاجر وجاهد في سبيل الله:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٥)

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ﴾ لهم ما لكم، وعليهم ما عليكم، وإن تأخرت رتبتهم عنكم، فالإيمانُ والجهادُ والهجرةُ هي العناصر الأساسية الجوهرية في الولاية والنصرة.

والهجرةُ المخصوصةُ التي كلفَ الله بها المؤمنين قبل الفتح توقفت وانتهى حكمها بفتح مكة، لكنَّ الهجرةَ من بلاد الكفر والشرك حيث لا يستطيع الإنسان المسلم أن يعبد الله تعالى العبادة الصحيحة إلى بلاد المسلمين، لا زالَ حكمُها قائماً، فعلى المسلم الذي يقيم بين الكفار أن يهاجرَ إلى بلدٍ مسلمٍ إن كان يستطيع ذلك.

قال عليه الصلاة والسلام: «أنا بريءٌ من كلِّ مسلمٍ يقيمُ بين أظهرِ المشركين» قالوا: يا رسول الله لِمَ؟ قال: «لاتراءى نارهما» [رواه أبو داود (٢٦٤٥)].

والمعنى: يلزمُ المسلمُ ويجبُ عليه إن استطاعَ أن يباعِدَ منزله عن منزل المشرك بحيث إذا أُوقِدَت في أحد المنزلين نارٌ لا يراها أهلُ المنزل الآخر.

ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ كَمَا تَوَفَّيْتُمُ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا فِيكُمْ كُبْرًا قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةً فَنُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ [النساء].

ويستثنى من ذلك أيضاً من يذهب إليهم ويقيم بينهم ليلبغهم دعوة الله تعالى وينشر الإسلام بينهم.

وتزداد الولاية والنصرة بين المسلمين إذا انضمَّ إلى رحم الإيمان رحم القرابة والنسب، فقد اهتَمَّ الإسلام بتقوية أواصر الصلة بين الأقارب والأرحام من المسلمين، ولهذا قال تعالى:

﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارث إذا كانوا مسلمين.  
﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي: كما هو مبين في آيات الموارث التي أنزلها الله في كتابه الكريم.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلِيمٌ﴾.  
أسأل الله تعالى أن يعيدَ للمسلمين ألفتهم وتناصرهم وتعاونهم، وأن يردَّهم إلى دينهم ردًّا جميلاً.  
وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.



## تفسير سورة التوبة

### البلاغ الأخير في سورة التوبة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَاتِلَةِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.

أما بعد: فإن القرآن الكريم أصدق سجلٌ للحوادث التاريخية الكبيرة التي حدثت في أثناء نزوله على النبي ﷺ.

وإن المسلم في أشد الحاجة إلى الوقوف على دروس هذه الحوادث وعبرها وخاصة ما يتصل منها بالدعوة والجهاد، لكي يتبين له الأسلوب الأمثل الذي يجب عليه أن يسلكه في هذين المجالين في العصر الحاضر؛ العصر الذي أصبحت الدعوة أول وأهم واجبات المجتمعات الإسلامية؛ نظراً لشدة التقارب، وسهولة الاتصالات بينها وبين المجتمعات البشرية.

لقد نزلت سورة التوبة على الرسول ﷺ في آخر مراحل حياته، في وقت كان المجتمع الإسلامي يستعد للخروج برسالة الإسلام إلى شعوب العالم المختلفة في أطراف الأرض، فجاءت آيات السورة منسجمة مع حاجات المجتمع في هذه المرحلة، وهي تُعدُّ للمهمة الكبيرة التي تنتظره.

وما أحوج المسلمين إلى الوقوف على ما في هذه السورة من عبر ودروس

وهم يواجهون شعوب الأرض، بسبب كثرة وسائل الاتصال، التي قرّبت بين المجتمعات البشرية، وجعلتها تقريباً مفتوحة على بعضها، حتى أصبحت الدعوة إلى الله أكبر التحديات، وأعظم المهمات الملقاة على كاهل المسلمين في العصر الحاضر.

هذا وإن تفسير سورة التوبة يتناول الحديث عن موضوعها الأساس، وقد جاء هذا الموضوع في أربعة فصول:

- الفصل الأول: البراءة من الكفار والمشركين: وبيان معناها ومداها.
  - الفصل الثاني: أهل الكتاب: عقائدهم، وفضائح أحبارهم ورهبانهم.
  - الفصل الثالث: المنافقون: كيفية تطهير المجتمع من مكرهم وكيدهم.
  - الفصل الرابع: مع المؤمنين بعد تبوك: إرشادات وتحذيرات في مجالي الدعوة والجهاد على ضوء ما تقدم.
- فإن أصبَتْ فمن الله تعالى وتوفيقه، وإن أخطأتُ فمن ضعفي وتقصيري وأستغفر الله العظيم.



## تَهْيِيد

## موضوع السورة

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمّ التسليم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

أمّا بعدُ: فإنّ سورة التوبة سجّلٌ صادقٌ للأحداث الكبيرة التي شهدتها الدعوة الإسلامية في الستين الثامنة والتاسعة من هجرة النبي ﷺ؛ وهي: فتح مكة المكرمة، غزوة حنين، غزوة تبوك، إعلان البراءة من المشركين، ونبذ عهودهم في موسم حج العام التاسع.

ولم تأتِ الآيات في السورة مرتّبة مع زمان هذه الحوادث، وإنما أتت مرتّبة ومنسجمة مع موضوع وأسلوب السورة التي دارت آياتها في فلكه، وهو: الكلمة الأخيرة القطعية النهائية بأسلوب البلاغ الأخير الموجّه إلى المشركين والكافرين عموماً بإعلان البراءة منهم.

ثم إلى أهل الكتاب ودعوتهم إلى الإسلام أو الاستسلام لأحكام الإسلام، وبيان فسادٍ وضلال عقائدهم وفضائح أخبارهم ورهبانهم.

ثم إلى المنافقين بجميع شرائحهم، وكشفهم وفضحهم، وتبعهم في الحواضر والبوادي لكي يتطهّر المجتمع من شرهم، ويسلم من مكرهم.

ولقد طال نفسُ السورة مع المنافقين بسبب خطورتهم على بُنية المجتمع وسلامته من الداخل وتماسكه ووحدته، ولقد كان المجتمع الإسلاميّ يتهيأ في ذلك الوقت للخروج برسالة الإسلام إلى شعوب الأرض في جميع أقطارها، فلا بدّ أن يكون مجتمعاً قوياً متماسكاً معافى من بُور النفاق، حتى يستطيع النهوض بالمهمة الثقيلة الكبيرة الملقاة على عاتقه.

ثم تحدّثت الآيات إلى المسلمين، وكان حديثها معهم مزيجاً من الإرشادات والتوجيهات مع بعض التحذيرات، رسمت الآيات من خلال حديثها هذا كيفية تعامل المسلمين مع الناس، ونشر دعوة الله تعالى بينهم.

وبقيت السورة من خلال البلاغ الأخير حريصةً على إبقاء باب التوبة مفتوحاً لجميع الناس على أوسع مدى له، فطبيعة الإسلام تأبى أن تجعل أحداً من الناس يئس من رحمة الله تعالى، ومع أنّ البسملة وما فيها من معاني الرحمة والإحسان لم تأت في أول السورة، فقد حُتمت السورة بذكر رحمة الله العظمى ومثته الكبرى ببعثة النبي ﷺ، أكرم بها من رحمة، وأعظم بها من نعمة ومِنَّة!.

فكانت السورة بحق سورة البراءة والتوبة معاً، في وقت واحد، وكانت أيضاً سورة البلاغ الأخير.

ولا بدّ أن يلاحظ القارئ عدّة نقاط هامة:

أولها: أنّ آيات السورة أتت منسجمة ومتسقة اتساقاً كاملاً فيما بينها، وحول موضوعها الأساس.

ثانيها: اتفاق آيات السورة مع الأحداث الكبيرة والوقائع الضخمة التي حدثت في السنتين الثامنة والتاسعة من الهجرة.

ثالثها: انسجام معاني آيات السورة مع كثير من المبادئ القتالية التي دُكرت في سورة الأنفال قبلها، إذ جاء كثير من آيات سورة التوبة كتطبيق عملي لآيات سورة الأنفال، فلا عجب أن نستشهد كثيراً بآيات سورة الأنفال في أثناء الحديث عن معاني الآيات في سورة التوبة.



## الْقَصْدُ الْأَوَّلُ

## بِرَاءةٌ وَجِهَادٌ

﴿١﴾ بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ  
وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخَذِرُ الْكَافِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ  
الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُنْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ  
فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ  
الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهَرُوا عَلَيْكُمْ أَمْذًا فَأْتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ  
يُبْغِثُ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ  
وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ  
عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَةَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ  
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا  
الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِثُ الْمُتَّقِينَ  
﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ  
قُلُوبُهُمْ وَأَكْثُرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَوْا بِعَابِتِ اللَّهِ نَمًّا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَن سَبِيلِهِمْ إِنَّهُمْ سَاءَ  
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِنْ تَابُوا  
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفُصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ  
تَكُونُوا آيَمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ  
لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَّذَلْنَاهُمْ قَوْمًا نَكَتُمْ أَيْمَتَهُمْ وَهَكُمُوا بِإِحْرَاجِ الرَّسُولِ  
وَهُمْ بَدَعُوكُمْ أُولَٰئِكَ مَرَّةٌ كَانُوا فِيهَا يَخْشَوْنَ اللَّهَ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَاتِلُوهُمْ  
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ بِبَصَرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِئُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيَذْهَبُ

عَظُّ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمَّ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ ۗ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ أَجَعَلْتُمْ سَفَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۗ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾ بَيَّنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَتَّخِذُوا ءَآبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ ۗ إِنَّ اسْتَحْبَبُوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَبْتُمُوهَا وَيُحَارُونَ تَحْشُونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۗ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ بَيَّنَّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۗ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ إِنْ شَاءَ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴿٢٨﴾

## • البراءة:

بُدِئَتْ سُورَةُ التَّوْبَةِ بِإِعْلَانِ بَرَاءَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، وَمَا بُدِئَتْ بِالسَّمَةِ كَسَائِرِ السُّورِ الْقُرْآنِيَةِ الْآخَرَى، وَالسَّبَبُ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ مَا أَنْزَلَ الْبِسْمَةَ فِي أَوَّلِهَا.



قال القرطبي رحمته الله: «والصحيح أنَّ التسمية لم تكتب لأنَّ جبريل عليه السلام ما نزل بها في هذه السورة»<sup>(١)</sup>.

﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

أي: هذه براءة من الله ورسوله واصلة إلى الذين عاهدتم من المشركين .  
وأصل معنى البراءة في اللغة: انقطاع العصمة، يقال: برئت من فلانٍ أبرأُ براءةً، أي: انقطعت بيننا العصمة، ولم يبقَ بيننا علة<sup>(٢)</sup>.

والعصمة: الرباط والعلاقة، ولهذا يقال عن رباط الزوجية: عصمة النكاح، والبراءة بهذا المعنى ضد الولاية، التي هي تواصل وتناصر وتعاون.  
وتأتي البراءة أيضاً في اللغة بمعنى الإعذار والإنذار<sup>(٣)</sup>، ولعلَّ هذا المعنى هو المراد في الآية، فهي إنذارٌ وإعذارٌ من الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم بانقطاع أي عصمة وصلة مع المشركين.

وشأن هذه البراءة خطيرٌ وكبيرٌ، فهي من الله تعالى، ومن رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن نتائجها أن يرتفع الأمان عن المشركين، ولعلَّ ذلك سرُّ عدم افتتاح السورة بالبسملة، لأنها أمان، وبراءة نزلت بآية السيف، ليس فيها أمان<sup>(٤)</sup>.

ونسبت الآية البراءة إلى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، لبيان وقوعها وتحتمها من غير توقُّفٍ على رأي أحد، فهي منوطةٌ بالله سبحانه وبمشيئته وحكمته جلَّ وعلا، فضلاً عن تفخيم أمرها وتهويل شأنها، وجاء التعيير عنها بالجملة الاسمية للدلالة على دوامها واستمرارها<sup>(٥)</sup>.

(١) تفسير القرطبي: ٦٣/٨.

(٢) تفسير الخازن: ٧٨/٣.

(٣) انظر: المعجم الوسيط: ٤٦/١.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٦٢/٨.

(٥) انظر: تفسير أبي السعود: ٤٠/٤.

ونسبت الآية العهد إلى المسلمين ﴿عَهَدْتُمْ﴾ لأنهم هم الذين باشروا عقده مع المشركين .

• السياحة:

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخِزُّ الْكَافِرِينَ﴾ (٢)

﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي: سيروا فيها حيث شئتم مدة أربعة أشهر، والخطاب للمشركين، والمراد من الأمر الإباحة والإعلام بحصول الأمان مدة أربعة أشهر.

والسياحة: التنقل في الأرض، والتوسع فيها حيث يشاء الإنسان.

ففي كلمة ﴿فَسِيحُوا﴾ من التوسعة والترفيه ما ليس في كلمة (سيروا)<sup>(١)</sup>، وهذا يدل على قوة المسلمين وعزتهم، وتمكن الإسلام في أرض العرب عند نزول هذه الآيات، فقد أصبح المشرك مطلوباً بعد أن كان طالباً، وصار ذليلاً بعد أن كان قوياً منيعاً.

ويدل أيضاً على سمو الشريعة الإسلامية ورفعتها، فهي شريعة نبيلة سامية، لا تغدر ولا تخون، ولا تأخذ الناس على غرة وغفلة، بل تمنحهم الفرصة ليتأملوا في واقع الأمور، ويفكروا قبل أن يختاروا، فكأن ما في الآيات هنا تطبيق عملي للمبدأ الأخلاقي الكريم الذي شرعه سبحانه في قوله: ﴿وَأَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِبِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

قال المفسرون: لما خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، أخذ المنافقون ينشرون الإشاعات والأراجيف، وجعل المشركون ينقضون عهوداً كانت بينهم وبين رسول الله ﷺ، فلما رجع عليه الصلاة والسلام من تبوك أنزل الله عليه هذه الآيات.

(١) روح المعاني: ٤٣/١٠.

ومهما قيل في سبب نزولها، فهي تدلُّ على مدى القوة والعزَّة والتمكين في الأرض التي كانت للإسلام والمسلمين في هذه المرحلة.

#### • الشهور الأربعة:

اختلف المفسرون في المراد من قوله تعالى: ﴿أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، فقيل: هي شَوَّال، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، لأن الآية نزلت في شَوَّال من السنة التاسعة.

وقيل: إنَّها وإن نزلت فيه، إلا أنَّ قراءتها على الكفار، وتبليغها إليهم، كان يوم الحجِّ الأكبر، فابتداء المدة من عاشر ذي الحجة، إلى انقضاء عشر من شهر ربيع الآخر<sup>(١)</sup>. وهو الأظهر، لأنَّ الأجل لا يلزم إلا من يوم يُسْمَعُ.

وقد ثبت أنَّ النبي ﷺ أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج في العام التاسع، وأرسل معه صدر (براءة) ليقراها على الناس، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ (براءة) مع أبي بكر، ثم دعا علياً فأعطاه إياه وقال: «لا ينبغي لأحدٍ أن يبلغ هذا إلا رجلاً من أهلي» [رواه أحمد (٢٨/٣) والترمذي (٣٠٩٠) وحسنه].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى، أن لا يحجَّ بعد العام مشركاً، ولا يطوف بالبيت عريان. [رواه البخاري (٤١٥٥ و ٣٤٧٧) ومسلم (٦٦)].

ثم قال تعالى:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ﴾ وهو تهديد ووعد للمشركين، فهم في قبضة قدرته سبحانه، وتحت قهر مشيئته في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ [الأنفال: ٥٩].

فإمها لكم أربعة أشهرٍ ليس لعجزٍ عنكم، ولكن لمصلحةٍ لكم، ولطفٍ بكم.

(١) انظر: روح المعاني: ٤٣/١٠.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ والخزْيُ: الذلَّة مع الفضيحة والعار، فهو حكمٌ من الله تعالى بخزي الكافرين، إمَّا في الدنيا بالأسر والقتل، وإمَّا في الآخرة بالعذاب في جهنم، وقد يجمع الله تعالى لهم الذلَّة والفضيحة والعار في الدنيا والآخرة.

### • الأذان يوم الحج الأكبر:

ثم أمر سبحانه بإذاعة البراءة وإعلام الناس بها في أعظم المحافل وأكبرها، فقال:

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ بُتِمُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزِي اللَّهِ وَدَشِيرَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَعَذَابُ أَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾ .

﴿وَأَذِّنْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ أي: وإعلامٌ صادر من الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام إلى جميع الناس في يوم الحج الأكبر، وهو يوم عرفة التاسع من ذي الحجة، أو يوم النحر العاشر من ذي الحجة، وهو الأظهر لأن أكثر مناسك الحج تؤدَّى فيه، ويؤيده ما مرَّ معنا في حديث أبي هريرة السابق.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر؟ فقال: «يوم النحر» [رواه الترمذي (٩٥٧)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حجَّ فيها، فقال: «أيُّ يومٍ هذا؟» قالوا: يوم النحر. فقال: «هذا يومُ الحجِّ الأكبر» [رواه أبو داود (١٩٤٥)].

ورأى بعضهم أنه اليوم الذي حجَّ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع، فهو مخصوصٌ بتلك السنة.

وأما تسمية الحجِّ الموافق يوم عرفة فيه ليوم الجمعة، فلم يذكرها، وإن

كان زيادة ذلك الحج زيادة على غيره<sup>(١)</sup>؛ أي: في الثواب لاجتماع فضل يوم عرفة مع فضل يوم الجمعة.

﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ أي: ورسوله ﷺ أيضاً بريء منهم، وكررت البراءة لأهميتها وخطورتها، أو لكون الآية الأولى أخبرت بثبوتها، بينما الآية الثانية أعلمت الناس بها.

ولا شك أن في إعلان البراءة تهديداً شديداً وترهيباً كبيراً، فناسب أن يكون معها ترغيبٌ لهم بالتوبة عن الكفر والشرك، والدخول في الإسلام، ولهذا قال تعالى:

﴿فَإِنْ بُئْتُمْ عَنْ الكُفْرِ والغَدْرِ.

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة، فالإسلام جاء للناس عموماً بسعادة الدنيا والآخرة، وجاء للعرب خصوصاً بالعز والشرف والسؤدد والمجد.

﴿وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم عن التوبة، وأصررتم على الكفر.

﴿فَاعْلَمُوا أَنكُمُ عَيْرٌ مُّعْجِزِي اللَّهِ﴾ لأنكم في قبضة قدرته، وتحت قهر مشيئته،

كما مر معنا.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: أخبرهم بعذاب أليم ينتظرهم في

الآخرة، وجاء الإخبار بلفظ التبشير على سبيل التهكم والاستهزاء بهم.

ولما كانت البراءة تقتضي نَبْذَ وَنَقْضَ جميع عهود المشركين، استثنى

سبحانه عهود الذين لم يعزموا على الخيانة والغدر ونقض العهد، فقال:

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوا شَيْئًا﴾ من عهودهم.

﴿وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا﴾ أي: لم يعاونوا عليكم أحداً من عدوكم.  
 ﴿فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ أي: إلى تمام مدة العهد، ولو كانت بعد  
 انقضاء الأشهر الأربعة، فالإسلام دينُ الوفاء والعدل، ولا يعامل أهل الوفاء  
 كما يعامل أهل الغدر والخيانة.  
 ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ فإنَّ الوفاء بالعهد وإتمامه من التقوى.

### • آية السيف:

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا  
 لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
 رَّحِيمٌ﴾

﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ﴾ أي: إذا انقضت ومضت أشهر الإمهال التي سبق  
 ذكرها، والتي حرّم الله تعالى فيها قتال المشركين.  
 ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين للعهد.  
 ﴿حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ في أي مكان.  
 ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ بالأسر.  
 ﴿وَأَحْضُرُوهُمْ﴾ بالتضييق عليهم، ومنعهم من التردد والتثقل بين البلاد بحرية.  
 ﴿وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي: على كل طريق يمكنهم أن يسلكوه،  
 والمراد مراقبتهم ورصد تحركاتهم.  
 ﴿فَإِن تَابُوا﴾ عن الكفر، ودخلوا في الإسلام.  
 ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ تصديقاً لتوبتهم وإيمانهم.  
 ﴿فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ أي: كفوا عن التعرّض لهم، ودعوهم وشأنهم.  
 ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يغفر لهم ما سلف من كفرهم وفجورهم، ويشيهم  
 على إيمانهم وعبادتهم.

وتسمى هذه الآية آية السيف عند بعض المفسرين، وهي في رأيهم قد

نَسَخَتْ<sup>(١)</sup> الآيات التي تحثُّ على الصبر واحتمال أذى الكفار والعفو والصفح عنهم، وتحثُّ أيضاً على مسالمتهم ومهادنتهم.

ولا أرى معارضةً بين هذه الآية وبين الآيات التي تأمر بالصبر والعفو والمسالمة، فكل آية تعالج حالةً مخصوصةً، وتبيِّن الحكم الذي ينبغي اتباعه فيها، فلا معارضة ولا نسخ.

والآيةُ هذه في المشركين الناكثين للعهود والمواثيق، كما يدلُّ عليه سباقها وسياقها، تبيِّن كيف يكون التعامل معهم، وأنه لا يُقبل منهم بعد نقضهم للعهد إلا الإسلام والاستسلام الكامل لأحكامه.

وجعلها بعضُ العلماء في العرب الوثنيين خاصة، فالعربي الوثني كالمرتد لا يُقبل منهما إلا الإسلام، وإن لم يُسلما قَتِلاً بالسيف، لأنَّ المعجزة في حق العربي أظهر، فالقرآن نزل بلغة العرب، فكان كفرهم - والحالة هذه - أغلظ من كفر العجم<sup>(٢)</sup>.

ويجري مجرى الآية الكريمة الحديث الشريف الذي قال فيه النبي ﷺ: «أَمِرْتُ أَنْ أَقَاتَلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيَقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحَسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ» [رواه البخاري (٢٥) ومسلم (٢١)].

#### • تبليغ الدعوة:

وهذه الحملةُ الكبيرةُ للآيات الأولى في سورة التوبة على المشركين، والمتمثلة بإعلان البراءة منهم، ونبذ عهودهم، والتضييق عليهم، وحصارهم ورصد تحرُّكاتهم، لا تعني اليأسَ من هدايتهم، والتوقف عن دعوتهم وتبليغهم،

(١) قلت: النسخ عند السلف أعم من معناه عند الأصوليين، فهو يشمل أيضاً تخصيص العام، وتقييد المطلق، فحمل عبارتهم على ما تواضع عليه الأصوليون يفسد المعنى (ن).

(٢) انظر: رد المحتار على الدر المختار (حاشية ابن عابدين): ٢٦٨/٣.

فالإسلام حريصٌ على هداية الناس مهما كانوا إلباً عليه وعدوًّا له، وتبليغ الدعوة هو السبيل للهداية، ولهذا قال تعالى بعد ذلك:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ الذين أمر الله تعالى بقتالهم بعد انقضاء الأشهر الأربعة.

﴿اسْتَجَارَكَ﴾ استأمنك وطلب الدخول في جوارك، وأن تعامله معاملة الجار.

﴿فَأَجِرْهُ﴾ فأمنه.

﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ أي: لكي يسمع كلام الله تعالى سماع فهم وتدبر، ويطلع على حقيقة الإسلام ودعوته، أو إلى أن يسمع كلام الله. ﴿ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ ثم بعد ذلك إذا لم يُسلم أبلغه إلى الموضع الذي يأمن فيه، وهو دار قومه، أو أي بلد يأمن فيه على نفسه.

وهذا يدلنا على شدة حرص الإسلام على الهداية وتبليغ الدعوة، كما يدل على الأخلاق الإسلامية الكريمة.

قال سيد قطب رحمته الله: «ولقد كانت قمة عالية تلك الإجارة والأمان لهم في دار الإسلام، ولكن قمم الإسلام الصاعدة ما تزال تتراءى قمة وراء قمة، وهذه منها، هذه الحراسة للمشرك، عدو الإسلام والمسلمين، ممن أذى المسلمين وفتنهم وعاداهم هذه السنين، هذه الحراسة له حتى يبلغ مأمنه خارج حدود دار الإسلام»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير رحمته الله: «ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي الأمان لمن جاءه مسترشداً، كما جاءه يوم الحديبية جماعة من الرسل من قريش، فأروا من إعظام

(١) في ظلال القرآن: ١٦٠٢/٣.



المسلمين لرسول الله ﷺ ما بهرهم، وما لم يشاهدوه عند ملك ولا قيصر، فرجعوا إلى قومهم فأخبروهم بذلك، وكان ذلك وأمثاله من أكبر أسباب هداية أكثرهم<sup>(١)</sup>.

والخطاب في الآية، وإن كان موجَّهاً للنبي ﷺ، فحكمها عام ينسحب على جميع المسلمين حكماً كانوا أو محكومين، لقوله ﷺ: «المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم» [رواه أبو داود (٢٧٥١) والنسائي (٢٠/٨) وابن ماجه (٢٦٨٣)].  
إلا أن لولي أمر المسلمين أن ينقض أمان أي فردٍ من المسلمين، إذا كان فيه ضرر بهم، ويُعلم المستأمنين بنقضه<sup>(٢)</sup>.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: شرع الله ذلك الحكم لأن المشركين لا يعلمون حقيقة الإسلام، فتعريف الناس بحقيقة الإسلام أمر ضروري، يجب على المسلمين القيام به، وخاصة في عصرنا الحاضر، إذ أصبحت نفوسٌ كثيرة من الناس مستعدة لقبول الإسلام بعد أن فشلت العقائد والنظم في إسعادهم وحل مشكلاتهم.

وبعد تقرير هذه الأحكام القطعية النهائية، بين سبحانه ضرورتها والحكمة منها بقوله:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾<sup>(٧)</sup>.

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الناكثين للعهد، لأن البراءة إنما هي في شأنهم<sup>(٣)</sup>.

﴿عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾ أي: أمانٌ عند الله تعالى، وهم كافرون به

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٢٧/٢.

(٢) انظر: حاشية ابن عابدين: ٢٢٨/٣.

(٣) تفسير أبي السعود: ٤٤/٤.

سبحانه، وعند رسوله عليه الصلاة والسلام، وهم معرضون عن دعوته، معاندون لرسالته، فلا عهدَ للمشركين عند الله تعالى، ولا عند رسوله عليه الصلاة والسلام بسبب كفرهم وغدرهم.

﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ في الحديبية، عند أول أرض الحرم سنة ست من الهجرة، وفيها عقد النبي ﷺ مع مشركي قريش صلح الحديبية، ودخل مع قريش قبائلُ من بني بكر، وهم بنو خزيمة وبنو مدلج وبنو ضمرة وبنو الديل.

ولمَّا نقضت قريشُ العهدَ مع بني الديل من بني بكر، أمر الله تعالى بإتمام العهد لمن لم ينقض<sup>(١)</sup> فقال:

﴿فَمَا اسْتَقْتُمُوا لَكُمْ﴾ في الوفاء بعهدهم.

﴿فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ على الوفاء.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يوفون بالعهد فلا يخونون، ولا يغدرون.

وسبق مثله في قوله تعالى: ﴿فَاتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾

[التوبة: ٤].

#### • مصالح ومبادئ:

وتابعت الآياتُ تحذير المسلمين من مكر الكافرين وغدرهم، وهي تكشف لهم خبيثة نفوسهم، وما انطوت عليه صدورهم من حقدٍ ولؤمٍ بقوله تعالى:

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾

﴿كَيْفَ﴾ تتقون بهم وتركون إليهم؟.

﴿وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ وحالهم أنهم إن ظفروا بكم وتمكَّنوا منكم.

﴿لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ أي: لا يراعوا فيكم قرابة ولا عهداً، ولا حقاً ولا ميثاقاً، فلا يلتزمون بمبدأ ولا بخلق ولا قيمة، مبدؤهم الوحيد مصالحهم وشهواتهم وأهواؤهم.

وكأن هذه الآيات الكريمة نزلت في هذا العصر، لشدة انطباقها على كثير من الناس، وخاصة على دهاقنة السياسة، المتاجرين بمصالح الأمم والشعوب الضعيفة المغلوبة على أمرها.

﴿يَرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يرضونكم بكلامهم المعسول المزوق الذي يتفوهون به، من خلال وسائل إعلامهم المقروءة والمرئية.

﴿وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ﴾ الإقرار بما ينطقون بألسنتهم، فقلوبهم تخالف ألسنتهم، وسرائرهم تغاير علانيتهم.

﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِئُونَ﴾ خارجون على جميع المبادئ والقيم والأخلاق، فلا عقيدة تزعمهم، ولا مروءة تردعهم.

وتخصيص الأكثر بوصف الفسق، بسبب ما يوجد عند بعضهم من تمسك جزئي بالقيم، ومراعاة لبعض الأخلاق، فكلمات القرآن الكريم في غاية الموضوعية والصدق.

ثم كشف سبحانه الباعث الذي يجعلهم يخرجون على المبادئ والقيم والأخلاق فقال:

﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

﴿أَشْتَرُوا بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي: استبدلوا بالمبادئ القرآنية الكريمة، عوضاً دنيوياً قليلاً.

ومهما كان هذا العوض فهو في حقيقته عرض دنيوي زائل حقير قليل، وهو ما يسمّى بلغة العصر الحاضر المصالح المادية، فإذا ما تعارضت مصالحهم المادية مع أي قيمة خلقية، ضربوا بها عرض الحائط، وجعلوها حبيسة الأوراق

التي كتبوها عليها، وضحّوا بكلِّ قِيَمِهِمُ الأخلاقية ومثلهم الإنسانية من أجل مصلحة من مصالحهم، وشهوة من شهواتهم.

﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ وأعرضوا عن دينه سبحانه وشرعه ومنهجه، لأنه يتعارض مع مصالحهم وشهواتهم.

﴿إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بسّ ما كانوا يعملون من أعمال، لا تصدر إلا عن أهوائهم وشهواتهم.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾.

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ﴾ على وجه الخصوص، لشدة حقدهم على المؤمنين وبُغضهم لهم، فهم لا يراعون حقوق أحد على الإطلاق من أجل مصالحهم. وكرّره سبحانه إظهاراً لشدة حقدهم على المؤمنين، وما أكثر الشواهد على ذلك! .

إنَّ في المذابح الكبيرة، والنكبات الكثيرة، التي حدثت في المجتمعات الإسلامية، على مدى تاريخهم الطويل، من عهد التتار والمغول والصلبيين إلى عهود الاستعمار الحديث، وما يحدث كلَّ يوم من عمليات الإبادة الجماعية والتصفيات الجسدية في فلسطين والبوسنة وأفغانستان والعراق وغيرها، إنَّ في كلِّ ذلك ما يبيِّن عمق الدلالة في قوله تعالى:

﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً﴾ قرابة ولا عهداً، ولا حقاً ولا ميثاقاً.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ المتجاوزون لحدود كل القيم والمبادئ

والأخلاق.

#### • الباب المفتوح:

ومع ذلك فبابُ التوبة مفتوحٌ لهم، فلا ينبغي التوقُّف عن دعوتهم، واليأس من هدايتهم وإيمانهم، فلعلَّ رحمةَ الله تعالى تدركهم:

﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ .

﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر والفجور واتباع الأهواء والشهوات .

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾ كدليل على صدقهم وإخلاصهم وصحة

إيمانهم .

﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ لهم ما لكم من الحقوق، وعليهم ما عليكم من

الواجبات، فالإسلام يجب ما قبله .

وكلمة الإيمان تزيل أمثال الجبال من الأحقاد والأضغان، ولحظة صدق

وخشوع لله تعالى، يمحو بها سبحانه شقاء عُمر كامل .

فما أعظم الإسلام! وما أكرم مبادئه! المبادئ التي تتعالى على كلِّ

الصَّغَائِنِ والأحقاد، وتزيل من النفوس كلَّ رواسب الماضي، وتأسو جراح

القلوب والنفوس مهما كانت عميقة .

﴿وَنُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ حقيقة الإسلام، وما فيه من مبادئ سامية،

وأخلاق نبيلة كريمة .

إنَّ البشرية في أمسِّ الحاجة إلى معرفة حقيقة الإسلام وسماحته ونبله،

لكي يزولَ عن قلوب الناس ما فيها من أحقادٍ وضغائن لا تزال تستعر في

صدورهم، وتنطفئ في نفوسهم نيرانُ البغض والحسد والبغي على بعضهم، التي

فجَّرتها فيهم الحضارة المادية الطاغية، تلك الحضارة التي قامت على مراعاة

المصالح الذاتية، دون نظر إلى أي قيمة خلقية ومبدأ سماوي .

#### • أئمة الكفر والضلال:

وإذا ما ارتدَّ القومُ بعد إيمانهم، وعادوا إلى حماة الضلالة، وغلبت عليهم

نفوسهم وشهواتهم وأهواؤهم، فنقضوا عهد الإيمان وميثاق الإسلام، فقد شرع

الله تعالى قتالهم وجهادهم حتى يُسَلِّمُوا أو يستسلموا:

﴿وَإِنْ كَثُرُوا أَيَّمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَإِنْ كَثُرُوا أَيَّمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي: نقضوا عهودهم ومواثيقهم التي قطعوها على أنفسهم عندما دخلوا في الإسلام، فالدخول في الإسلام عهد وميثاق مع الله تعالى على توحيده وطاعته والانقياد لأحكام دينه وشرعه.

﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: عابوه وانتقصوه وانتقدوه، وفضّلوا عليه نظاماً ابتدعوه، وقانوناً استحدثوه، يلائم أهواءهم وشهواتهم.

فأيُّ انتقاصٍ لأحكام الإسلام وانتقادها يُعدُّ كفراً وردّةً عن الإسلام، وكذلك إذا صدر عن أهل الذمة الذين يعيشون في بلاد المسلمين أي طعن في الإسلام، وانتقاصٍ لحكم من أحكامه، يعدّون ناقضين لعهد الذمة، فلا عهد لهم بعد ذلك ولا ذمة، ولا أمان لهم ولا سلام.

﴿فَقَاتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ﴾ أي: قاتلوا رؤوس الكفر والشر والضلال، ولا شك أن قتالهم قتال لأتباعهم وأنصارهم.

﴿إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ﴾ أي: لا عهد لهم ولا ميثاق، عهدهم وميثاقهم شهواتهم ومصالحهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ عمّا هم فيه من الكفر والفساد والضلال.

وفي تخصيص أئمة الكفر بالقتال، إشارةً إلى حقيقة هامة، دلّ عليها قوله تعالى: ﴿وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ﴾ فالطعن في الدين عادة لا يصدر عن عامة الناس، إنه لا يصدر إلا عن العريقين بالكفر والضلال، الذين يدعون لأنفسهم صفة الحاكمية، وهي استحداث القوانين وإصدار التشريعات، أو يدعون لأنفسهم صفة النبوة زوراً وكذباً، فيغيرون أحكام دين الله تعالى، ويعبثون بشريعته، ويدعون الناس إلى تصديقهم واتباعهم.

ولقد كان للمرتدين عن الإسلام بعد وفاة النبي ﷺ رؤوس في الضلالة

والكفر، دعوهم إلى الردة وحسّنها لهم؛ مثل: الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وطلحة الأسيدي، وسجاح بنت الحارث التميمية<sup>(١)</sup> وغيرهم. وللمرتدين عن الإسلام في العصر الحاضر رؤوسٌ في الضلال أيضاً، من أصحاب النظريات الإلحادية؛ مثل: داروين، وفرويد، وماركس، وأنجلز، ولينين، وسارتر... وغيرهم، ومن الدجالين الكذابين مدعي النبوة؛ مثل: غلام أحمد القادياني، والبهاء حسين المازندراني... حتى يظهر آخرهم المسيح الدجال قبيل قيام الساعة.

#### • الحز على الجهاد:

ثم أخذت الآيات تحث المسلمين على الجهاد، وتشجعهم على التصدي للمشركين وقتالهم:

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَاكْفَرُوا بِرِيسَالِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدءُكُمْ وَأُولَئِكَ مَرَّةً كَانُوا فِيهَا أَسَاغًا مُمَدِّدِينَ ۚ فَأَلْقَوْهُم بِالْحَمِيمِ ۚ فَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَانُوا مُشْرِكِينَ ۚ فَالَّذِينَ كَفَرُوا وَأَصْحَابُ الْمَشْأَلِ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَصْحَابُ الْمَشْأَلِ ۚ أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَصْحَابُ الْمَشْأَلِ ۚ﴾

﴿أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا﴾ وهم مشركو مكة، مما يدل على أن هذه الآيات نزلت قبل فتح مكة.

﴿نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ التي عقدها مع النبي ﷺ في الحديبية، عندما دخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ وعهده، ثم إن بعض قبائل بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بموضع يقال له: الوتير، قرب مكة، فغدروا بهم، وقتلوا عدداً منهم، وأعانتهم قريش على ذلك، وأمدتهم بالسلاح، فأرسلت خزاعة عمرو بن سالم إلى المدينة المنورة يستنصر رسول الله ﷺ، ويخبره بما حدث، فأمر النبي ﷺ بالتجهز للجهاد، وأخفى

(١) ادّعت سجاح النبوة وكانت أحد رؤوس الردة، وتزوجت مسيلمة الكذاب، ويقول ابن حجر في كتابه «الإصابة»: «عادت بعد قتل مسيلمة إلى الإسلام، فأسلمت وعاشت إلى خلافة معاوية (ن)».

وجهته، كي يفاجئ قريشاً ويبلغتهم في مكة المكرمة، وسأل الله تعالى ذلك، وتم له عليه الصلاة والسلام ما أراد، وفتح مكة.

﴿وَهَكُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة عندما كان يدعوهم إلى الإسلام قبل الهجرة، ولم يتمكنوا من إخراجه عليه الصلاة والسلام، وما خرج مهاجراً إلى المدينة إلا بأمر ربه له بذلك<sup>(١)</sup>، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]<sup>(٢)</sup>.

﴿وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أُولَئِكَ مَرَّةً﴾ بالعدوان والأذى والقتال.

﴿أَتَخَشَوْنَهُمْ﴾ أي: أتخافونهم فتركون قتالهم؟! وهو توبيخ على الخشية والخوف من الكفار، والتقاعس عن قتالهم.

﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فالمؤمن لا يخشى إلا الله تعالى.

وبعد هذا الحضر على الجهاد، وما فيه من توبيخ للمتقاعسين، أمرتهم الآيات أمراً صريحاً ملزماً بجهاد المشركين وقتالهم، وبيّنت لهم الحكمة من ذلك، بقوله تعالى:

﴿قَتَلُوهُمْ يَْعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾

﴿قَتَلُوهُمْ يَْعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ هكذا قدر الله تعالى أن يكلف المؤمنين بالجهاد، ليسلطهم على أعدائه، ويجعل عذابهم في الدنيا بأيدي أوليائه.

﴿وَيُخْزِيهِمْ﴾ وينزل بهم الذل والهوان.

﴿وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ لأن النصر بيده سبحانه.

(١) انظر: تفسير ابن عطية: ٤٢٨/٦.

(٢) انظر: (تفسير سورة الإسراء) في هذا التفسير الموضوعي الكبير، وقد أسمىناه: (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).



﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ عانوا كثيراً من ظلم الكفار وأذاهم وعدوانهم .

﴿وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ .

﴿وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ فتمتلىء بالسرور والفرح بنصر الله تعالى بعد أن كانت ممتلئة بالغم والحزن .

وقتل الكفار لا يعني حرمانهم بالضرورة من الهداية والتوبة، فباب التوبة والهداية مفتوح، كما سبق، قبل القتال وبعده، والقتال لا يوقف الدعوة، ولهذا قال تعالى على سبيل الإخبار:

﴿وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ وحدث ما أخبر عنه سبحانه، إذ أسلم كثير من المشركين بعد ذلك .

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ لا يفعل ولا يشرع إلا ما فيه حكمة ومصلحة، فامثلوا لأمره، وانقادوا لشرعه .

#### • الابتلاء بالجهاد والبراءة:

وقد اقتضت حكمته تعالى أن تكون الحياة الدنيا ابتلاءً واختباراً، وأن التكليف بالجهاد من أسباب الابتلاء والاختبار للمؤمنين، ولهذا قال سبحانه مخاطباً لهم:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَنَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾ أي: لا تتركون دون ابتلاء، لا بد أن يميز الله تعالى بين الصادقين والكاذبين، والمخلصين والمنافقين، كما في قوله تعالى: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ

لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾  
[العنكبوت].

ولا شك أنه سبحانه يعلم الصادق من الكاذب في الأزل، ولكنه سبحانه أراد وجوده وتحققه ليجازيهم عليه، فالجزاء على حسب العمل لا على حسب علمه سبحانه.

﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَعَةٍ﴾ أي: لم يتخذوا من الكفار بطانة، والوالمؤمنهم ويصاحبونهم. والوليعة: البطانة، والرجل يكون في القوم وليس منهم: وليعة، من الولوج وهو الدخول.

والمعنى: أحسبتم أن تتركوا بلا مجاهدة ولا براءة من المشركين<sup>(١)</sup>.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم فالشؤون كلها منكشفة له سبحانه، لا تخفى عليه خافية.

والابتلاء كما يكون بمجاهدة الكفار وقتالهم، يكون أيضاً بالبراءة منهم كما سيأتي معنا إن شاء الله تعالى.

#### • عمارة المسجد الحرام والأقصى:

واتبعت الآيات أسلوباً جديداً في حث المؤمنين على قتال المشركين، فذكرتهم بالمسجد الحرام ومسؤوليتهم عنه، وأنه لا ينبغي أن يبقى تحت سلطان المشركين وسيطرتهم.

وهذا يؤكد ما سبق معنا، أن هذه الآيات نزلت قبل فتح مكة المكرمة.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ أُولَٰئِكَ حِطَّتْ  
أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٧﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ أي: ما ينبغي للمشركين أن يكونوا

(١) تفسير النسفي: ٩٢/٣.

عَمَّاراً لمساجد الله، فضلاً عن المسجد الحرام، والعمارة إما البناء أو الدخول إلى المسجد والمكث فيه للعبادة، فالواجب يحثم على المسلمين ألا يتركوا المسجد الحرام بأيدي المشركين ليقوموا على عمارته، فهم ليسوا أولياءه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ آلَا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُٗٓ إِنَّ أَوْلِيَاءَهُٗٓ إِلَّا الْمُتَنَفِّوْنَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

وبمثل هذا الأسلوب يمكن أن يقال للمسلمين في العصر الحاضر: ما كان لليهود أن يعمروا المسجد الأقصى، مع العلم أن ثمة فرقاً كبيراً بين اليهود وبين مشركي قريش، إذ كان مشركو قريش حريصين على المسجد الحرام وصيانته رغم شركهم وكفرهم، بينما اليهود يسعون إلى تخريب المسجد الأقصى وإزالة معالمه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

﴿شَهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ بإظهار الشرك وعبادة غير الله تعالى، فأحوالهم شاهدة عليهم، مع أن المسجد بُني لعبادة الله تعالى وحده القائل: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

﴿أُولَٰئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي: بطلت أعمالهم بسبب كفرهم وشركهم، فعمارتهم المسجد الحرام لا تنفعهم ما داموا على كفرهم وشركهم. ﴿وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ إذا ماتوا على الكفر.

ثم بين سبحانه المستحقين لعمارة المساجد، فقال:

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ ۗ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ ۗ﴾ فلا يتركون دين الله وشرعه خشية من الناس.

﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ و(عسى) في كلامه تعالى تفيده

الوجوبَ والتحقق، وذكرت في الآية لتقطع أطماع المشركين في الانتفاع بأعمالهم، فأعمال المؤمنين من صلاة وزكاة وخشية لله تعالى، دائرة بين (عسى) و(لعل)، فما ظنك بأعمال المشركين؟! وفي هذا تنبيه للمؤمنين أيضاً لكي لا يغتروا بأعمالهم وأحوالهم<sup>(١)</sup>.

#### • الجهاد والعبادة في المسجد الحرام:

ومع أنّ عمارة المسجد الحرام والعبادة فيه من العبادات ذات الثواب الكبير والفضل الجزيل، فإنّ الجهاد في سبيل الله تعالى أفضل عند الله تعالى منها، دل على ذلك قوله سبحانه:

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾

﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ﴾ والخطاب للذين كانوا يرون لأنفسهم فضلاً بخدمة الحجاج والعناية بالمسجد الحرام على المجاهدين، فالجهاد في سبيل الله تعالى أفضل عند الله تعالى من سقاية الحجاج وعمارة المسجد الحرام.

وقرن سبحانه بين الإيمان والجهاد ليُنَبِّه المشركين إلى كفرهم، وفيه بيان للتلازم الكامل بينهما، فالإيمان والجهاد متلازمان، ومن شأن المؤمن بالله تعالى وحده أن يجاهد في سبيله.

وتدلّ الآية على أفضلية الجهاد وتقدمه على العبادة في المسجد الحرام، وعلى العبادة في غيره من المساجد بالأولى، فالمجاهدون في سبيل الله تعالى أفضل عند الله تعالى من العباد المعتكفين في المساجد والزوايا والخلوات.

كان عبدُ الله بن المبارك والفضيل بن عياض صديقين، وكان ابن المبارك

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٩٤/٣.

يتقربُ إلى الله تعالى بالجهاد والمرابطة في الثغور، بينما كان الفضيل معتكفاً في المسجد الحرام، فأرسل إليه ابن المبارك في سنة سبعين ومئة هذه الأبيات من طرسوس، وهو ثغرٌ في شمال بلاد الشام في مواجهة بلاد الروم، قال فيها:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا      لعلمتَ أنك في العبادَةِ تَلْعَبُ  
مَنْ كَانَ يَخْضِبُ خَدَّهُ بدموعِهِ      فنحورنا بدمائنا تَتَخَضَّبُ  
أو كان يُتَعَبُ خَيْلَهُ في باطلٍ      فخيولنا يومَ الصبيحةِ تَنْعَبُ  
ريحُ العبيرِ لكم ونحنُ عبيرُنا      رَهْجُ السنابِكِ والغبارُ الأطيبُ  
ولقد أتانا مِنْ مقالِ نبينا      قولٌ صحيحٌ صادقٌ لا يَكْذِبُ  
لا يستوي غبارُ خَيْلِ اللهِ في      أنفِ امرئٍ ودُخانُ نارٍ تَلْهَبُ  
هذا كتابُ اللهِ يَنْطِقُ بيننا      ليسَ الشهيدُ بميتٍ لا يَكْذِبُ

ولما قرأ الفضيلُ الأبيات ذرفت عيناه وقال: صدق أبو عبد الرحمن (١).

قال سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وجاء في الحديث الشريف ما يؤكد هذا المعنى: عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كنتُ عند منبر النبي صلى الله عليه وسلم، فقال رجلٌ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعدَ الإسلامِ إلا أن أسقي الحاج. وقال آخر: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعدَ الإسلامِ إلا أن أعمُرَ المسجدَ الحرامَ. وقال آخر: الجهادُ في سبيلِ اللهِ أفضلُ مما قلتُم. فزجرهم عمرُ رضي الله عنه وقال: لا ترفعوا أصواتكم عند منبرِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وهو يومُ جمعةٍ، ولكن إذا صليتُ الجمعة، دخلتُ فأستفتيه فيما اختلفتم

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير: ٣٥٢/١. والقصة رواها ابن عساكر، وقد ضَعَفَهَا بعض الكتاب المعاصرين لانقطاع في سندها، وهذا غير صحيح، فقد رواها بالسند المتصل الرافعي في (تاريخ قزوين). وحبذا لو التزم هذا الفاضل قواعد المحدثين في كل ما يرويه! انظر: نقض أوهام الاتهام، للأستاذ خالد السوسي، ص ٣٣٨ - ٣٤٠.

فيه، فأنزل الله تعالى: ﴿أَجْعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾ الآية .  
[رواه مسلم (١٨٧٢)].

وختم سبحانه الآية بقوله:

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين يضعون الأمور في غير مواضعها .  
ثم أثنى الله تعالى على الصحابة الذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله،  
ليُظهر فضلهم على غيرهم تأكيداً لمعنى الآية السابقة، فقال:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ  
وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (٢٠).

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ﴾ أي:  
أعلى رتبة وأكثر كرامة ممن لم تجتمع فيهم هذه الصفات .  
ولم تذكر الآية المفضل عليهم، لتفيد أن فضيلة الصحابة على الإطلاق،  
ولا شك أن أهل السقاية والعمارة من جملة المفضل عليهم<sup>(١)</sup>.

﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ بنصر الله تعالى في الدنيا، وبالمنازل الرفيعة في الآخرة.

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ (٢١).

دائم لا ينتهي ولا يزول .

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي؛  
فوالذي نفسي بيده لو أن أحداً أنفق مثل أحدٍ ذهباً، ما بلغ مدَّ أحدِهِم ولا نصيفه»

(١) انظر: نظم الدرر: ٤١٨/٨ .

لرواه مسلم (٢٥٤٠). رضي الله عنهم وأرضاهم، أولئك الذين رفعوا رايات الإسلام بجهادهم وإخلاصهم.

### • ولاء وحب:

وبراءة الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام من المشركين، التي جاءت في صدر السورة، تقتضي براءة المؤمنين أيضاً من المشركين مهما كانت الصلوات القائمة بينهم، فلا ينبغي أن يتخذ المؤمنون من الكافرين وليجةً أبداً، ولو كانوا أقرباءهم، أو كانت للمؤمنين مصالح مادية عندهم، ولتوضيح هذا المعنى وتأكيده، قال تعالى:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ أي: اختاروا الكفر وأعرضوا عن الإيمان، أو فضلوا الكفر على الإيمان. ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم وضعوا ولاءهم؛ وهو النصرة والمحبة في غير موضعهما، فولاء المؤمن للمؤمنين، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكٰفِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقٰةً وَيُحٰذِرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

ثم أمر الله سبحانه النبي ﷺ أن يوضح هذا المبدأ الإسلامي للمسلمين، ويفضله لهم أكمل تفصيل، فقال:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسٰكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ .

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَاؤُكُمْ﴾ الذين توفروا عنهم وتعزون بالانتساب إليهم.

وكان العربُ في عصر التنزيل شديدي التمسك بأنسابهم، ولهذا قدّمهم سبحانه بالذكر.

﴿وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ وهم أقربُ الناس إلى الإنسان، وأحبُّهم إليه.

﴿وَإِخْوَانُكُمْ﴾ الذين تجمعكم بهم رابطة النسب وأرومتهم.

﴿وَأَزْوَاجُكُمْ﴾ اللاتي تجمعكم بهنَّ رابطة الزوجية.

﴿وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ وهم أقاربكم الذين تعيشون بينهم وتعاشرهم.

﴿وَأَمْوَالٌ أَقْرَبَتْكُمْ﴾ أي: بذلتم الجهد في تحصيلها واكتسابها، فالإسلام يقوم على المبادئ لا على المصالح، كما هو حال كثير من الناس في العصر الحاضر، كما مرَّ معنا.

﴿وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بسبب انشغالكم عنها بما كلفكم سبحانه به من الهجرة والجهاد، وهو كناية عن تعطل مصالحهم المادية.

﴿وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا﴾ أي: بيوت تحبُّون السكنى فيها لطيبها وحسنها، وللذكريات الجميلة التي تربطكم بها وتشدكم إليها.

فإذا كانت هذه الأشياء المحبوبة طبعاً وفطرة للإنسان:

﴿أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ فمحبَّة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام فوق كلِّ محبَّة في قلب المؤمن، ولما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: والله يا رسول الله لأنت أحبُّ إليَّ من كلِّ شيءٍ إلا من نفسي. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه» فقال عمر: فأنت الآن والله أحبُّ إليَّ من نفسي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الآن يا عمر» [رواه البخاري (٦٦٣٢)].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين» [رواه مسلم (٤٤)].

﴿وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾ وحبُّ الجهاد في سبيل الله تعالى من محبته سبحانه، وقرن حبَّ الجهاد في الآية الكريمة مع حبِّ الله صلى الله عليه وآله وحبِّ رسوله عليه الصلاة



والسلام، تنوبها لشأنه، وتنبيهاً على أنه ممّا يجب أن يُحبَّ فضلاً عن أن يكره<sup>(١)</sup>.

﴿فَتَرَبُّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ فانتظروا حتى ينزل بكم العذاب.

ولا يتعارض هذا مع قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ٢١٦]، إذ المراد كراهيته بمقتضى هوى النفس وطبعها، وليس المراد من الآية الحبّ الطبيعي التابع لهوى النفس، فهذا الحبّ ليس داخلياً تحت اختيار الشخص، بل هو خارج عن حدّ الاستطاعة، فلا مؤاخذة به، لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، بل المراد الحبّ العقلي الاختياري، الذي هو إثارة ما يقتضي العقل رجحانه، وإن كان على خلاف الطبع، ألا ترى أنّ المريض يكره الدواء المرّ بطبعه، ومع ذلك يميل إليه باختياره، ويهوى تناوله بمقتضى عقله، لما علم أو ظنّ أن صلاحه فيه<sup>(٢)</sup>.

ولهذا قيّد أكثر المفسرين الحبّ المطلوب في الآية بالحبّ الاختياري دون الطبيعي<sup>(٣)</sup>.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يرشد الخارجين عن محبة الله تعالى

ورسوله عليه الصلاة والسلام، ولا يوفّقهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

وفي الحديث الشريف: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم بأذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذللاً، لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم» [رواه أحمد (٤٢/٢) وأبو داود (٣٤٦٢)].

فالآية تدلّ على أنّ الدين يجب أن يكون الأول في حياة الإنسان، فإذا وقع تعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا، وجب على المسلم ترجيح مصالح الدين على مصالح الدنيا<sup>(٤)</sup>.

(١) تفسير أبي السعود: ٥٥/٤.

(٢) انظر: شرح الشفا: ٥٣٩/٣.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي: ٩٧/٣؛ وتفسير أبي السعود: ٥٥/٤.

(٤) تفسير الخازن: ٩٨/٣.

قال العلامة النسفي رحمته الله: «والآية تنعى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حبل اليقين»<sup>(١)</sup>.

وماذا يقول النسفي الذي عاش في القرن السابع الهجري لو أدرك القرن الخامس عشر الهجري، الذي غلبت على الناس فيه قيم الحضارة المادية وأخلاقها المنحلّة، وأصبحت المصالح المادية محور حياة أكثر الناس وهدفهم الأساس الأول، وجعلها كثير منهم وثناً يُعبد من دون الله تعالى.

نسأل الله العليّ القدير أن يتداركنا بلطفه، فالآية كما قال الآلوسي: شديدة على الناس، لأنّها أمرتهم أن يتخلّصوا من شيء، لا يتخلّص منه إلا مَنْ تداركه الله بلطفه<sup>(٢)</sup>.

وهكذا كان حال سيدي الشيخ محمد الحامد رحمته الله، فقد كان من الصفوة النادرة في هذا العصر الذين أخلصوا لله تعالى إخلاصاً قدّموا فيه محبة الله تعالى ورسوله صلوات الله عليهم على كلّ المحبوبات.

ولا يعني تحريم موالاة الكفار ولو من ذوي القربى، قطع جميع الصّلات بهم، والكف عن دعوتهم، وترك برهم ومساعدتهم، فالاستمرار بدعوتهم إلى الإسلام أمر مطلوب، كما أن برّ الأقارب منهم ومساعدتهم غير ممنوع، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة].

#### • يوم حنين:

يجب أن يكون ولاء المسلم لله تعالى وحده، ثم لأوليائه سبحانه، ﴿إِنَّ وِلَايَةَ اللَّهِ الَّتِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

والولاء لله تعالى يقتضي التوكلَ عليه سبحانه وحده، والاستعانة به وحده،

(١) تفسير النسفي: ٩٨/٣.

(٢) روح المعاني: ٧١/١٠.

وعدم الاعتماد على غيره، ولهذا جاءت الآيات الكريمة تذكّرهم بالدرس البليغ الذي لَقْنَهُمْ سبحانه إياه يوم حنين، بقوله:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَصَافَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي: في معارك كثيرة كبدر والخذق وقریظة وخيبر، مع أنهم كانوا أقلَّ عدداً وعدداً من أعدائهم. ونَصَرَهُمْ سبحانه أيضاً يوم حنين:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ كانت بعد فتح مكة في سؤال من سنة ثمانٍ من الهجرة، وهي آخر المعارك التي باشر النبي ﷺ فيها القتال مع العرب المشركين في أرض العرب.

فبعد فتح مكة المكرمة عزَّ على الوثنية العربية أن ترى راية التوحيد تخفق في رحاب مكة المكرمة، وأن تتحطم الأصنام والأوثان التي كانت فيها، فاجتمع رؤساء القبائل المشركة، ثقيف وهوازن والقبائل المجاورة لها في الطائف على مالك بن عوف النصري سيد هوازن، وحشدوا جموعهم بين مكة والطائف وراء عرفات إلى جهة الشمال في وادي حنين.

ولمَّا علم رسول الله ﷺ بجموعهم هذه واستطلع أخبارهم، خرج بجيش الفتح، وكانوا عشرة آلاف، وانضمَّ إليهم من الطلقاء في مكة ألفان.

ويبدو أن انتصارات المسلمين المتوالية، والتي توجَّها فتح مكة المكرمة، جعل بعضهم يزهو ويعجبُ بكثرة عددهم، حتى قالوا: لن نُغلب اليوم من قلة.

وبدأ القتال قبل طلوع الشمس في غلَسِ الصبح، روى ابن إسحاق بسند صحيح: عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: انحدرنا في وادٍ من أودية تهامة أجوفَ حَطُوط - كثير الميل - إنَّما ننحدرُ فيه انحداراً في عماية الصُّبح، وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه ومضايقه، وقد أجمعوا

وتهيؤوا وأعدوا، فوالله ما راعنا، ونحن منحنُّون، إلا الكتاب قد شدوا علينا شدة رجل واحد، وانشمر الناس راجعين، لا يلوي أحد على أحد، وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثم قال: «أيها الناس هلموا إليّ، أنا رسول الله، أنا محمّد بن عبد الله» قال: فلا شيء، حملت الإبل بعضها على بعض، وانطلق الناس، إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته: أبو بكر، وعمر، وعلي، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وأسامة بن زيد<sup>(١)</sup>.

وعن العباس رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلما التقوا: المسلمون والكفار، ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض بغلته قبل الكفار، وأنا أخذ بلجام بغلته أكفها إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان أخذ بركاب رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «يا عباس ناد أصحاب السّمة<sup>(٢)</sup>» فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السّمة؟ فوالله! لكان عطفهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، فاقتلوا والكفار... ثم أخذ رسول الله ﷺ حصيات، فرمى بهنّ وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا وربّ محمّد» فوالله ما هو إلا أن رماهم بحصيات، فما زلت أرى حدّهم قليلاً، وأمرهم مدبراً حتى هزمهم الله. [رواه مسلم (١٧٧٥)].

#### • الإعجاب بالكثرة:

﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ عندما قال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، كما مرّ معنا.

وذكر ابن الجوزي رواية عن سعيد بن المسيب: أنّ القائل لذلك أبو بكر

(١) سيرة ابن هشام: ٦٦/٤.

(٢) الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان.

الصديق، وحكى ابن جرير الطبري أنّ القائل لذلك رسول الله ﷺ، وفيه بُعد، لأنه ﷺ كان في جميع أحواله متوكلاً على الله ﷻ، بل نظره إلى ما يأتي من عند الله ﷻ من النصر والمعونة<sup>(١)</sup>.

وتوجيه الخطاب في الآية ﴿أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ إلى الصحابة يدلُّ دلالةً قاطعةً على أن النبي ﷺ لم يقل هذه الكلمة، ولا يعقل أن يصدرَ مثلها عنه ﷺ أبداً. ومن المستبعد أيضاً أن يكون أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد قالها، وقد أثبتت الروايات الصحيحة أنه من القلة الذين ثبتوا مع رسول الله ﷺ ولم يفروا، والآية خاطبت الفارّين عن رسول الله ﷺ في حنين، ولا شك أن الذين قالوا تلك الكلمة كانوا منهم، ولعلّ الذين نسبوها إلى أبي بكر صحّفوا رواية ابن إسحاق المذكورة في السيرة؛ وهي: وحدثني بعض أهل مكة أنّ رسول الله ﷺ قال حين فصل من مكة إلى حنين، ورأى كثرة من معه من جنود الله: لن تغلب اليوم من قلة. قال ابن إسحاق: وزعم بعض الناس أن رجلاً من بني بكر قالها<sup>(٢)</sup>.

وفرق كبير بين رجل من بني بكر وبين أبي بكر، وكلا الروايتين لابن إسحاق غير صحيحتين للمجاهيل في سندهما.

ولعلّ الذي نسب هذه الكلمة إلى النبي ﷺ، أخذها من قوله: «خير الصحابة أربعة، وخير السرايا أربعمئة، وخير الجيوش أربعة آلاف، ولا تهزم اثنا عشر ألفاً من قلة» [رواه أحمد (١/٢٢٤) وأبو داود (٢٦١١) والترمذي (١٥٥٥)].

والظاهر أنه عليه الصلاة والسلام قال هذا الحديث في غير هذه المناسبة. والكلمة في حدّ ذاتها لا شيء فيها، إلا إذا صاحبها ما صاحبها من الإعجاب<sup>(٣)</sup> الذي أنكرته عليهم الآية في قوله تعالى:

(١) تفسير الخازن: ٩٨/٣.

(٢) السيرة النبوية: ٦٦/٤، قلت: ومعناه على هذا التقدير: أننا إن غلبنا فلن يكون سبب ذلك قلة العدد، بل السبب هو الغرور بالكثرة، وعدم أخذ الحيطة ونحو ذلك (ن).

(٣) روح المعاني: ٧٤/١٠.

﴿إِذْ أَعْبَجْتُمْ كَفْرُكُمْ فَلَمْ تُعْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ أي: لم تنفعكم تلك الكثرة، ولم تدفع عنكم عدوكم.

﴿وَضَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ﴾ أي: ضاقت مع سعتها عليكم من شدة ما اعتراكم من الرعب والخوف.

﴿ثُمَّ وَابَتْكُمْ مُدْرِبَاتُ﴾ أي: منهزمين.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٦﴾.

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ﴾ أي: أنزل رحمته التي تسكن بها القلوب وتثبت، فلا تنزل، ولا تضطرب: على رسوله عليه الصلاة والسلام.

﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ الذين ثبتوا بجانبه، والذين رجعوا إليه بعد أن سمعوا نداء العباس رضي الله عنه.

﴿وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ بأبصاركم، وهم الملائكة.

﴿وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالقتل والأسر والهزيمة.

﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ في الدنيا.

ثم فتح سبحانه لهم باب التوبة، وأطمعهم برحمته ومغفرته فقال:

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿٢٧﴾.

وجاء بعد ذلك وفد هوازن إلى رسول الله ﷺ تائبين مسلمين، وسألوه أن يردَّ إليهم أموالهم وسبيهم، فخيرهم ﷺ بين سبيهم وأموالهم، فاختروا السبي، فردده عليهم. [رواه البخاري (٤٣١٨ و٤٣١٩)].

#### • تعظيم بيت الله الحرام:

وتستدعي البراءة من المشركين - المعلنة في صدر السورة - تطهير بيت الله

الحرام من المشركين، ومنعهم من الاقتراب منه، فبيئ الله الحرام رمز توحيد

المسلمين ووحدتهم، يستقبلونه في صلاتهم، ويأتون إليه من كل فج عميق، حاجين ومعتمرين، يجب أن ينزه عن أي أثر للشرك والمشركين، صيانة لحرمة التي أوجبها الله تعالى له منذ خلق السماوات والأرض. ولهذا قال تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ أخبر عنهم بالمصدر ﴿نَجَسٌ﴾ للمبالغة في ذمهم، فكأنهم عين النجاسة، أو لأنهم ذوو نجاسة، لخبث بواطنهم، وفساد عقائدهم، ولأنهم أيضاً لا يتطهرون، ولا يجتنبون النجاسات. والجدير بالذكر أن جمهور الفقهاء لا يرون نجاسة أبدانهم، وأن المراد من الآية خُبْتُ بواطنهم وعقائدهم.

﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ أي: لا تمكّنوهم من الاقتراب من المسجد الحرام؛ والمراد أرض الحرم، والآية دليل لمن يقول: الحرم كله مسجد.

﴿بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ وهو العام التاسع من الهجرة، ولم يحجّ فيه النبي ﷺ لكي لا يتأذى برؤية المشركين يحجّون ويطوفون بالبيت عراة، ولهذا أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج، ثم أتبعه بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لينادي في المشركين: «ألا يحجّ بعد العام مُشركاً، ولا يطوف بالبيت عريان» إرواه البخاري (٤١٥٥) ومسلم (٦٦)، ويعلمهم بالبراءة ونبذ العهود، كما مرّ معنا في أول السورة.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ أي: فقراً، بسبب منع المشركين من الحرم، وانقطاع ما كان أهل مكة يستفيدونه من قدومهم عليهم من المكاسب والأرزاق.

﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ﴾ فالرزق متعلّق بمشيئته تعالى وتقديره، وقد أغناهم سبحانه فعلاً، إذ انتشر الإسلام في أرض العرب، ودخل

الناس في دين الله أفواجاً، كما أغناهم سبحانه أيضاً بما فتح عليهم من الفتوح حتى غنموا كنوز كسرى وقيصر.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بأحوالكم.

﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يعطي ويمنع، ويحرّم ويشرّع.





## الْفَصْلُ الثَّانِي

## أهل الكتاب

## عقائدهم وفضائح أخبارهم وزهبانهم

﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا  
يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ  
(١٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ  
بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ آتٍ يُوَفِّكُونَهُ  
أَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا  
لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٠) يُرِيدُونَ أَنْ  
يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٢١) هُوَ الَّذِي  
أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٢٢)  
﴿يَتَّخِذُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ كَثُرَ مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ  
وَيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِفُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ  
فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٣) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ  
وَأُظْهَرُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (٢٤) إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ  
اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ  
الَّذِينَ أَلْقِمْنَا فِيهَا فِئْتًا فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٢٥) إِنَّمَا السَّبِيُّ زَيْدَةُ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا  
يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤْطِقُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنٌ لَهُمْ سُوءٌ  
أَعْمَلِيهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦) يَتَّخِذُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ

انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ  
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا  
 غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا نَصْرُهُ فَقَدْ نَصَرَهُ  
 اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا  
 تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ  
 كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾  
 انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ  
 تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

#### • تمهيد:

كانت الآيات السابقة من أول السورة تركّز على انتشار الإسلام في أرض العرب، وتهتمُّ باجتثاث الشرك، وتخليص المجتمع العربي منه، ويلاحظ أنَّ أحكام الآيات الكريمة قطعية نهائية، لأنها جاءت كبلاغٍ أخير، وإنذارٍ نهائي، فغلب عليها الإنذار والوعيد والتهديد، مع شيء من الترغيب، فالدعوة الإسلامية قائمة ومستمرّة، ولا تتوقف في أي ظرف من الظروف، والإسلام لا يوصل الناس - مهما كانت جرائمهم وذنوبهم - إلى اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى.

وقد نجح أسلوبُ البلاغِ الأخير والإنذار القطعي النهائي المتبع في هذه السورة الكريمة نجاحاً كبيراً، إذ انقاد العربُ المشركون للدين الجديد، فدخلوا فيه أفواجا، ولم ينته العام التاسع الهجري حتى جاءت إلى المدينة المنورة وفودُ العربِ من أطراف شبه الجزيرة العربية تبايعُ النبي ﷺ، وتعلن دخولها في الإسلام، ورضاها بأحكام شريعته.

#### • مشروعية الجزية وحقيقتها:

وبعد أن انتشر الإسلام في أرض العرب وتمكّن فيها، أمر الله تعالى

المسلمين أن يمددوا رواق الدعوة والجهاد إلى البلاد المحيطة بهم؛ فرسالة الإسلام عامة، وهي للناس كافة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال أيضاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨].

وبدأت الآيات بأهل الكتاب من اليهود والنصارى، لكثرة مخالطتهم للعرب، وقرب البلاد التي يغلبون عليها من شبه الجزيرة العربية؛ قال تعالى:

﴿قَنِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (٢٩)

﴿قَنِيلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الإيمان الصحيح.

﴿بِاللَّهِ﴾ الواحد الأحد المنزه عن الشريك والصاحبة والولد.

﴿وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ أي: ولا يؤمنون باليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء، كما بينه تعالى في كتبه وعلى لسان أنبيائه ورسوله.

﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ بالقرآن الكريم والسنة المطهرة، أو لا يعملون بما في التوراة والإنجيل، بل انصرفوا عنهما، وابتدعوا أحكاماً تخالف ما شرع الله تعالى فيهما.

﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ الذي هو دين الإسلام، القائم على الاستسلام الكامل لله تعالى وحده، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَاسْلَمُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٩].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ وهم اليهود والنصارى.  
﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ أي: حتى يعطوا الجزية عن قهر وغلبة وهم ذليلون.

والجزية: من الجزاء، مقدار من المال يؤديه المستطيعون منهم إلى بيت مال المسلمين، كدليل مادي يدلُّ على انقيادهم لحكم الإسلام، ورضاهم بالعيش تحت سلطانه وفي كنفه، وفي مقابل ذلك يأمنون على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا يُكرهون على الدخول في الإسلام، ولا يُمنعون من ممارسة طقوسهم وعباداتهم، كما لا يُمنعون عن شيء يعتقدون أنه حلال في ملَّتهم كأكل الخنزير وشرب الخمر.

وقد حذَّر رسول الله ﷺ من ظلمهم والاعتداء عليهم، فقال: «أَلَا مَنْ ظَلَمَ معاهداً، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغيرِ طيبِ نفسه؛ فأنا حَاجِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» [رواه أبو داود (٣٠٥٢)].

وفي الآية الكريمة دلالة واضحة على مدى القوَّة والعزَّة التي بلغت الدعوة الإسلامية عند نزولها، والتي يجب أن تكون كذلك دائماً، وفيها أيضاً بيان للأسلوب الذي يجب على المسلمين اتباعه في مجال التعامل مع أهل الكتاب.

#### • شرك أهل الكتاب:

ثم جاء قوله تعالى التالي على وجه التقرير والتأكيد لما وصف به أهل الكتاب في الآية السابقة، وكذلك على سبيل الإغراء للمؤمنين على قتالهم:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلْنَا لَهُمُ اللَّهُ آتَانَ يَوْفَقُونَ﴾ ﴿٣٠﴾.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ الذين كانوا في المدينة المنورة.

﴿عَزِيزٌ أَبْنُ اللَّهِ﴾ واليهود يقدسون عزيزاً، فهو الذي أعاد كتابة التوراة بعد أن أحرقت في أثناء هجوم البابليين عليهم في عهد نبوخذنصر الملك البابلي.

﴿وَقَالَتِ الْنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، فهو الواحد الأحد، المنزه عن الشريك والصاحبة والولد: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ: أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء].

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يجري على ألسنتهم فقط، من غير فهم، أو تعقل، أو تفكر فيه، فهو قول بعيد عن الحق، لم يستحيوا عن التلفظ به مع سخافته وظهور بطلانه، ولهذا ترى أكثر النصارى يعدون عقيدة التثليث أمراً غيبياً وراء عقولهم، ولا مستند لهم في ترديد هذا القول الباطل سوى تقليد سلفهم من آبائهم وأجدادهم، ولهذا قال تعالى:

﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي: يشبه قولهم هذا قول الذين كفروا من قبلهم<sup>(١)</sup>، فالكفر قديم فيهم، يتوارثه الخلف عن السلف.

﴿قَنَالَهُمُ اللَّهُ﴾ وهو دعاء عليهم، وتعجيب من بشاعة قولهم.

﴿أَنْفٌ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصرفون عن الحق إلى الباطل، ومع سخافته وبطلانه فهو كبير وشديد القبح في حق الله تعالى القائل: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم].

#### • عبادة أهل الكتاب لأحبار والرهبان:

ثم فصلت الآيات كيف أن أهل الكتاب لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ﷺ، وأنهم لا يدينون دين الحق، باتخاذهم ما يسمونهم رجال الدين أرباباً

(١) انظر كتاب: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، للأستاذ محمد طاهر التتير، فقد بين

أن التثليث كان معروفاً عند الفراعنة والبوذيين والهنداك (ن).

يقدسونهم، ويطيعونهم طاعة عمياء، حتى لو شرعوا لهم أحكاماً تخالف دين الله تعالى وشرعه؛ قال تعالى:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحٰنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ .

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ فأتباعهم في تحليل ما حرم الله، وفي تحريم ما أحلَّ الله تعالى.

ولما دخل عدي بن حاتم الطائي - وهو على نصرانيته، والصليب في عنقه - على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ اعترض عدي فقال: إنهم لم يعبدوهم، فقال ﷺ: «بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلّوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إيّاهم» [رواه الترمذي (٣٠٩٥)].

فطاعة الذين يتدعون شرائع وقوانين تخالف شريعة الله تعالى عبادة لهم من دونه سبحانه، إذ حق التشريع لله تعالى وحده، فهو الخالق وحده، وهو الأمر والمشرّع وحده سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤].

فالحكم له وحده، والطاعة يجب أن تكون لدينه وشرعه: ﴿إِن الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: واتخذوا المسيح ابن مريم إلهاً، وجعلوه بزعمهم ابناً لله ﷻ، ورفعوه عن مقام عبوديته لله تعالى ﷻ، ولهذا حكم سبحانه بكفرهم فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِيَسْرِيَلُ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال سبحانه هنا أيضاً:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تعالى وتنزه وتقدس عن الشريك والصاحبة والولد.

### • معارضة الأحرار والرهبان لدعوة الإسلام:

ولا شك أن الإسلام بعقيدته الواضحة النقية عن أي شائبة من شوائب الشرك، وبشريعته التي لا يستطيع أحد أن يعبث فيها، خطرٌ يهددُ باطلهم وكفرهم، ولهذا أعرض أكثر أهل الكتاب عنه، وقاوموا انتشاره بتحريض من أحرارهم ورهبانهم، ووصف سبحانه ذلك بقوله:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٦).

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ وهو دين الإسلام الذي جعله سبحانه نوراً يهتدون به ويسترشدون، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة].

﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي: بما يصدر عن ألسنتهم من كفر وكذب وافتراء.

وما أكثر حملات التشويه للإسلام والافتراء عليه التي شنّها اليهود والنصارى - ولا يزالون - لطمس حقيقة الإسلام الناصعة، وتشويه صورته الجميلة، لصدّ الناس عنه، وتنفيرهم منه، ويقف على رأس هذه الحملات، ويتولى كبرها المستشرقون وزعماء التنصير، وأكثرهم من كبار الأحرار والرهبان، ويسخّرون لهذه الغاية كلّ ما لديهم من وسائل الإعلام، ويوجهونها إلى بلاد المسلمين آناء الليل وأطراف النهار.

﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ بإعلاء كلمة التوحيد نقية صافية، وحفظ شريعته تامة كاملة، فالإسلام لا يزال بحمد الله تعالى قائماً في الساحة ثابتاً

قويًا، يضيءُ الدربَ للحائرين بنوره وسنائه وجماله وبهائه، والدعوة الإسلامية مستمرة بحمد الله تعالى، حتى في عُقر دورهم وقلب بلادهم.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ظهوره وانتشاره.

فالإسلام دين الله تعالى الذي رضيه للناس إلى أن يرث الله تعالى الأرض

ومن عليها:

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ (٣٣).

وسياتي الوقت إن شاء الله تعالى الذي لا يُعْبَدُ فيه غيره تعالى في الأرض كلها، فلا يبقى فيها غير دين الإسلام ظاهراً على جميع الأديان.

فليطمئن الدعاءُ إلى هذا الوعد الكريم من الله تعالى، الذي لا تُخْلَفُ في وعده، ولتقرَّ أعينهم، وليستمروا على طريق الدعوة بأقدام راسخة، وكلهم أمل ورجاء في رحمة الله تعالى ونصره وتأييده، فأعلامُ الحقِّ ستبقى بإذن الله تعالى عالية خفاقة.

عن تميم الداري رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لَيَبْلُغَنَّ هذا الأمرُ ما بلغَ الليلُ والنهارُ، ولا يتركُ اللهُ بيتَ مَدْرٍ ولا وَبَرٍ إلا أدخله هذا الدينَ، بعزٍّ عزيزٍ، أو بذلِّ ذليلٍ، عزًّا يعرِّ اللهُ به الإسلامَ، وذلاً يذلُّ اللهُ به الكفرَ» [رواه أحمد (١٠٣/٤)].

ويلاحظ أنَّ الله تعالى وصفَ اليهود والنصارى في ذيل الآيتين السابقتين بصفتي الكفر والشرك.

● من فضائح الأخبار والرهبان:

وكشفت الآياتُ للمسلمين بعضَ فضائح أخبار اليهود ورهبان النصارى الذين اتخذهم اليهود والنصارى أرباباً من دون الله تعالى، ويُنْتِ كيف استغلوا



مناصبهم الدينية لمصالحهم الدنيوية، وجاء الخطابُ للمسلمين على سبيل التحذير لهم من تقليدهم:

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْذِبُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾﴾ .

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ أي: بالاحتيال والخداع والغش، وقد تمثل أكلهم لأموال الناس بالباطل في صور شتى:

منها: ما يأخذه على تحليل الحرام، وتحريم الحلال، لصالح أصحاب المال والسلطان.

ومنها: ما يأخذه القسيس أو الكاهن مقابل الاعتراف له بالخطايا، وغفرانه لها في زعمهم.

ومنها: ما يجمعونه من أموال الناس لما يسمونه التنصير ومقاومة انتشار الإسلام، وقد جمع الكرادلة والبابوات والأساقفة والرهبان أموالاً كثيرة طائلة في الحروب الصليبية، ولا يزالون يجمعون الأموال للتنصير والاستشراق للصد عن سبيل الله<sup>(١)</sup>.

ومن فضائحهم في العصر الحاضر ما تناقلته الصحف ووسائل الإعلام في أمريكا عن القس «جيمي سويجارت» وما جمع من أموال طائلة بلغت سنوياً مئة وأربعين مليون دولار، وأنه يعيش في قصر كلف بناؤه مليون دولار، ويتنقل بطائرة خاصة له خارج ولايته، وأنه منغمس في الرذائل، ومثله أيضاً القس «جيمي بيكسر» الذي قُدِّرَ دخله السنوي بمئة وتسعة وعشرين مليون دولار، وقد

(١) انظر: في ظلال القرآن: ٣/١٦٤٥.

اعترف بأنه كان يمارس الزنى مع إحدى موظفاته، كما اعترفت زوجته بالإدمان على المخدرات<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: ويمنعون الناس عن الدخول في دين الإسلام، فهم إلى جانب أكلهم للمال الحرام، يصدون الناس عن اتباع الحق بكل ما لديهم من وسائل المكر والكيد والاحتيال.

ثم توعد سبحانه كل من يتشبه بهم، وذلك بجمع المال، ومنع حقوق الله تعالى الواجبة فيه، فقال:

﴿وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: الذين يجعلهم حب المال والحرص على جمعه يمتنعون عن إنفاق شيء منه في الوجوه التي شرعها الله تعالى.

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

والكنز: هو المال الذي لا تؤدى منه النفقات الواجبة على أصحابه، كالزكاة، قال ابن عمر رضي الله عنهما: هو المال الذي لا تؤدى زكاته، فما أدت زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع أرضين، وما كان ظاهراً لا تؤدى زكاته فهو كنز<sup>(٢)</sup>، لأن الزكاة والنفقات الأخرى الواجبة تنقصه، وقد تأتي عليه كله مع مرور السنين إذا لم يثمره صاحبه.

ويؤيد هذا المعنى قول النبي صلى الله عليه وسلم: «من آتاه الله مالاً، فلم يؤد زكاته، مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع - أي: ثعبان سقط شعره لشدة حرارة سُمه - له زبيبتان، يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه - يعني بشدقيه - ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك» ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَخْلُقُونَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٨٠]. [رواه البخاري (١٤٠٣)].

(١) أخبار العالم الإسلامي، عدد: ١١٠٧، ١١/٢٣، ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م/١/٣٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٣٩/٢.

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ .

﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ ، ويقال لهم تبيكيتاً وتقريعاً:

﴿هَذَا مَا كَنْزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْزِبُونَ﴾ .

كما قال رسول الله ﷺ: «ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة، صُفِّحَتْ له صفائح من نار، فأحْمِيَ عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار» [رواه مسلم (٩٨٧)].

#### • العابثون بالأشهر الحرم:

ثم تطرقت الآيات إلى ذكر حالات كانت عند العرب في الجاهلية تشبه ما عليه الأخبار والرهبان عند أهل الكتاب، إذ كان بعض أصحاب المناصب الدينية في الجاهلية يستغلون مكانتهم ومناصبهم، فيعبثون في أوقات العبادات، ويغيرون مواضع الشهور عن مواقعها الأصلية في السنة، اتباعاً لأهوائهم، ومراعاة لمصالحهم.

ذكرت الآيات أولاً عدد الشهور القمرية في السنة، وأنه سبحانه جعل أربعة منها حُرماً:

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُفْتِنُوكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ : أي في كتاب

القدر الذي قدره العليم الحكيم .

﴿يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ وهي: ذو القعدة، وذو

الحجّة، والمحرم، وشهر رجب .

﴿ذَلِكَ الَّذِينَ أَلْقَيْنَا﴾ المستقيم، الذي كان عليه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام،

وكان العرب متمسكين به، فكانوا يعظمون الأشهر الحرم، ويتركون القتال والغزو فيها .

﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ أي: لا تظلموا في الشهور المحرمة أنفسكم

بارتكاب المعاصي ومقارفة الآثام، فالمعاصي والآثام أكثر إثماً وأشدّ قبحاً منها في غيرها من الشهور لحرمتها .

وحتى لا يظنّ أحدٌ أنّ الجهاد يتوقف في الأشهر الحُرْمِ، لأنّ العرب كانوا

يمتنعون عن الغزو والقتال فيها، قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ مجتمعين متناصرين .

﴿كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ يؤيدهم وينصرهم، فهو

أمرٌ عام بقتال المشركين في جميع الأوقات، يبين أهمية التقوى ودورها في استنزال نصر الله تعالى ومعونته .

ثم بعد هذه المقدمة عن الشهور وعددها والحُرْمِ منها، بيّنت الآيات حكم

العبث فيها، وتغييرها عن مواضعها، بقوله تعالى:

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُكْرِمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطَعُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾﴾ .

﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ أي: إنّما النسِيءُ كفرٌ على كفرٍ، لأنّه

تحليلٌ ما حرّمه الله، وتحريم ما أحلّه سبحانه .

والنسيءُ: تأخيرُ شهر حرام إلى شهر آخر، يفعله رجل من كنانة، وكان

يقومُ في موسم الحج، فيعلنُ تأخير المحرَّم إلى صفر، فإذا فعل ذلك عقدوا أوتار القسي، وركَّبوا الأستة في الرماح، وأغاروا<sup>(١)</sup>.

﴿يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ضلالاً زائداً إلى ضلالهم، أو يُضِلُّ به زعماء الكفر أتباعهم، كما كان الأخبار والرهبان يضلُّون أتباعهم.

﴿يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا﴾ أي: يحلُّون الشهر الحرام في عام بتأخيره عن موضعه، ويتركونه على حرمة في عام آخر، بحسب أهوائهم ونزواتهم.

﴿لِيُؤَاطِفُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ ليوافقوا عدَّة الشهور المحرمة الأربعة.

﴿فِيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ اتباعاً لأهوائهم، مما يؤدي إلى اختلال القيم والموازن، وتضارب المصالح، والفوضى في المعاملات، ولهذا قال سبحانه:

﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوُّ أَعْمَالِهِمْ﴾ أي: حُبِّت لهم أعمالهم السيئة إما من قبل الشيطان أو من قبل نفوسهم الخبيثة.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا يرشدهم إلى ما فيه صلاحهم وسعادتهم.

ومن رحمة الله وفضله على الأمة المسلمة أنه قدَّر أن تعود الشهور إلى مواقعها الأصلية في السنة العاشرة من الهجرة، التي حجَّ فيها النبي ﷺ، وأعلن ذلك في خطبته، فقال: «إنَّ الزمانَ قد استدارَ كهيئته يومَ خلقَ اللهُ السماواتِ والأرضَ، السنةُ اثنا عشرَ شهراً، منها أربعةٌ حرَّم، ثلاثٌ متوالياتٌ: ذو القعدة، وذو الحجة، والمُحرَّم، ورجبُ مضر الذي بين جُمادى وشعبان» [رواه البخاري (٥٥٥٠)].

#### • غزوة تبوك:

وانتقلت الآيات بعد الحديث عن أهل الكتاب، وضلال عقائدهم، وفساد

(١) انظر: تفسير الخازن: ١٢٠/٣.

أحبارهم ورهبانهم، إلى الحديث عن محاولتهم العدوانَ على الدولة المسلمة الفتية، ومحاولتهم القضاء عليها، وما فعله النبي ﷺ لرد عدوانهم.

ويظهر لنا بهذا الاتساق والارتباط بين آيات السورة الكريمة، ولا شك أن الأمر بقتال أهل الكتاب، وبيان ضلالهم وفساد أحبارهم ورهبانهم، له صلة بالبراءة العامة المعلنة في صدر السورة، وهو توطئة وتمهيدٌ للحديث عن أعظم الأعمال العسكرية التي ختمَ بها النبي ﷺ سجلَّ مفاخره العسكرية في حياته المليئة بجلائل الأعمال، وهي غزوة تبوك، التي كانت مفتاحَ الفتوح الكبيرة التي تمت بعده عليه الصلاة والسلام بأيدي خلفائه وأصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم<sup>(١)</sup>.

تحدّى رسول الله ﷺ في غزوة تبوك أقوى دول الأرض قاطبةً في ذلك الزمن، وهي الإمبراطورية الرومانية، التي كانت تعدُّ نفسها حاميةً أهل الكتاب، ورافعةً لواء النصرانية، والتي امتدَّ سلطانها إلى القارات الثلاث المعروفة في ذلك الوقت: أوروبا، وجنوب غربي آسيا، وشمال إفريقيا، وكانت قد انتصرت على الدولة الفارسية التي كانت تنازعها السيادة في العالم، وطردتها من جنوب بلاد الشام، وكان قد سجّل سبحانه ذلك في القرآن الكريم، قبل حدوثه ببضع سنوات، فكان كما أخبر جلّ وعلا، قال سبحانه في سورة الروم: ﴿الَّذِينَ غَلَبَتْ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وعندما كان هرقل ملك الروم يحتفل في بيت المقدس بانتصاره على الفرس في السنة السادسة من الهجرة، جاءه كتابُ النبي ﷺ يدعوه فيه إلى الإسلام، قال له فيه:

«من محمدٍ رسولِ الله إلى هرقلَ عظيمِ الرومِ، سلامٌ على من اتبع الهدى.

(١) انظر تفاصيل الغزوة في كتابنا: سيرة النبي ﷺ، ص ٤٦٥، دار القلم - دمشق.

أما بعدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلَمَ تَسَلَّمَ، وَأَسْلَمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ<sup>(١)</sup> ﴿يَأْهَلُ الْكُتُبِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] [رواه البخاري (٧) ومسلم (١٧٧٣) واللفظ له].

وكان هذا الكتابُ أولَ احتكاكٍ للنبي ﷺ بأكبر قوة نصرانية في العالم .  
وبعثَ النبي ﷺ أيضاً رسالةً إلى ملكِ غَسَّانِ الموالِي للرومِ، والذي كان نصرانياً أيضاً، يدعوهُ فيها إلى الإسلامِ، فغَدَرَ برسولِ رسولِ الله ﷺ وقتلَهُ، فأرسلَ عليه الصلاة والسلامَ جيشاً بقيادة الأُمراءِ الثلاثةِ الشهداءِ: زيدِ بنِ حارثة، وجعفرِ بنِ أبي طالب، وعبدِ الله بنِ رواحة، وحدثت معركةٌ مؤتة في جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة، وكانت أوَّلَ قتالٍ بينَ المسلمين وبينَ نصارى الرومِ والعربِ في بلادِ الشامِ.

عرف الرومُ خطرَ الإسلامِ عليهم، فعزموا على القضاءِ عليه، وأخذوا يحشدون جيوشهم في المشارفِ الجنوبية للبلقاء من أرضِ بلادِ الشامِ، واستنفروا القبائلَ العربيةَ المواليةَ لهم: غَسَّانَ وَمَنْ مَعَهَا، ليكونوا طليعةً لجيوشهم .  
وجاءت أخبارُ الحشودِ الروميةِ والقبائلِ المتنصِّرةِ إلى المدينة المنورةِ وانتشرت بين الصحابة، حتى قال عمر رضي الله عنه: كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ غَسَّانَ تَعَلَّ الْخَيْلَ لَتَغزونا . [رواه البخاري (٤٩١٣)].

وقوله: (تعل) أي: تضع صفائح الحديد في حوافر الخيل .

#### • النفي العام:

ورأى رسول الله ﷺ أن الهجومَ خيرٌ وسيلةً للدفاع، وأنَّ الخروجَ إليهم أفضلٌ من انتظارِ هجومهم على المدينة المنورة، فعزمَ على الخروجِ والتوجهِ إلى

(١) عامة الناس من رعايا الدولة. وللأريسيين معنى آخر فضَّله السيد أبو الحسن الندوي في كتابه: السيرة النبوية، ص ٣٠٦، فانظره ثمَّ.

تبوك في الشمال من أرض العرب، وحشد رسول الله ﷺ في جيش تبوك جنودَ الله من جميع القبائل العربية المسلمة، وسَخَّرَ كُلَّ ما كان عنده وعند أصحابه من الإمكانيات لهذا الجيش، وأمر الناسَ بالاستعداد، وجلا لهم أمرهم، ليتأهبوا ويستعدُّوا، على خلافِ عادته، فما غزى غزوةً إلا ورى عنها، إلا في غزوة تبوك. وأنزل الله تعالى الآيات الكريمة التالية تستنفر المؤمنين وتحضهم على تلبية الدعوة إلى الجهاد، وتعاتب المتخلفين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ  
أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا  
قَلِيلٌ﴾ (٣٨)

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: قيل لكم:

اخرجوا مسرعين بجد ونشاط.

﴿أَنْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي: ثاقلتم وتباطأتم عن الخروج إلى الجهاد، وملتم

إلى الدنيا وشهواتها، وكرهتم مشاقَّ السفر.

والجديرُ بالذكر أنهم استنفروا في وقتِ عسرةٍ وقحطٍ وقِيظٍ، مع بُعدِ

الشُّقَّةِ، وكثرةِ العدوِّ وقوَّته، فسقَّ عليهم ذلك.

﴿أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ أي: أرضيتم بالدنيا الزائلة

الحقيرة بدل الآخرة ونعيمها الدائم.

﴿فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي: فما التمتع بالحياة

الدنيا في جنب الآخرة إلا شيءٌ قليل حقير.

قال رسول الله ﷺ: «ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم

إصبعه في اليم، فليُنظر بِمَ يرجع» [رواه مسلم (٢٨٥٨) والترمذي (٢٣٢٣) وابن ماجه

(٤١٠٨)].

ثم انتقلت الآياتُ من العتاب إلى التهديد والوعيد:



﴿إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

﴿إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالذلة والهوان، وفي الآخرة بالاحتراق في النيران.

﴿وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ يحملون رسالة الإسلام، ويتحملون تبعاته الجسام، فدين الله تعالى باقٍ في الأرض إلى قيام الساعة، فإذا ضعفتم وتوانيتم عن تحمل أمانته، نزع الله تعالى هذا الشرف الكبير منكم، وجعله في غيركم. وقد ذكر سبحانه مثل هذا المعنى في عدة آيات، منها: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

ومنها أيضاً: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِن يَدَيْكَ مِنَ الْكُفْرِينَ أَتَىٰ اللَّهُ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ لأنه تعالى غني عنكم وعن جهادكم.

﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ينصر دينه ويعزُّ نبيه من دون جهادكم وقتالكم.

#### • في الغار:

والدليل على ذلك أنه تعالى نصر نبيه عليه الصلاة والسلام، ونجاه من كيد أعدائه المشركين، عندما هاجر إلى المدينة المنورة، وما كان معه عليه الصلاة والسلام أحدٌ من الناس سوى صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

﴿إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّا نَرَىٰ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدَاهُ يَجُودٌ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسْفَلًا وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ .

﴿إِلَّا نَضُرُّهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ أي: إذا لم تنصروا النبي صلى الله عليه وسلم وتلبوا دعوته

إلى الجهاد، فاذكروا كيف نصره الله تعالى .

﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ عندما اضطره المشركون في مكة إلى الهجرة،

بعد أن أذن الله تعالى له فيها .

﴿ثَافِتًا﴾ وهو عليه الصلاة والسلام واحدٌ من اثنين .

﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ غار ثور، وهو جبل قرب مكة المكرمة، على بعد

عدة أميال إلى الجنوب منها، مكث فيه النبي ﷺ ومعه صاحبه أبو بكر الصديق،

بعد أن خرج مهاجراً، ثلاثة أيام، حتى هدأ بحثُ المشركين عنه، وطلبهم له،

قالت عائشة رضي الله عنها في حديث الهجرة: لحق رسول الله ﷺ وأبو بكر بغارٍ في جبلٍ

ثورٍ، فكَمْنَا فيه ثلاث ليالٍ . . . [رواه البخاري (٣٩٠٥)].

ولمَّا اقترب طلبُ المشركين من الغارِ، وأحاطوا به مِنْ كُلِّ جانبٍ،

وصعدوا فوقه، خاف أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله ﷺ:

فمن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: حدّثني أبو بكر رضي الله عنه قال: كنتُ مع النبيِّ

ﷺ في الغارِ، فرأيتُ آثارَ المشركين، قلتُ: يا رسولَ الله لو أنّ أحدَهُم رفعَ

قدمه رأنا، قال: «ما ظنُّكَ باثنينِ اللهُ ثالثُهُما؟!» .

وفي روايةٍ ثانيةٍ بلفظ: لو أنّ أحدَهُم نظرَ تحتَ قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ:

«ما ظنُّكَ يا أبا بكرٍ باثنينِ اللهُ ثالثُهُما؟!» [رواه البخاري (٣٦٥٣) ومسلم (٢٣٨١)]

واللفظ للبخاري].

﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ بالنصر والمعونة والحفظ

كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

فأبو بكرٍ صاحبُ رسولِ الله ﷺ، ومن أنكرَ صحبته كفرًا، لإنكاره نصَّ

القرآنِ الكريم<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ أي: مع رسولِ الله ﷺ ومع أبي بكرٍ

رضي الله عنه، ففي الآية فضيلةٌ كبيرةٌ لأبي بكرٍ رضي الله تعالى عنه .

(١) تفسير الخازن: ١٢٤/٣ .

وقوله تعالى: ﴿ثَانِيًا أَتَيْنَ﴾ يدلُّ على أنه أحقُّ الناس بخلافة النبي ﷺ (١).

وسبق أن مرَّ معنا دليلٌ آخر لذلك، وهو أنَّ النبيَّ ﷺ استخلفه على الحجِّ في العام التاسع من الهجرة، وصحَّ أيضاً أنه عليه الصلاة والسلام استخلفه ليومٍ الناس في الصلاة، عندما مرض ﷺ قبيل وفاته.

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ رحمته التي تسكن بها القلوب.

﴿عَلَيْهِ﴾ على أبي بكر رضي الله عنه، أو على النبيِّ ﷺ، والأظهر الأول، لأنه عليه الصلاة والسلام لم ينزعج حتَّى يسكن، فالسكينة لم تفارقه عليه الصلاة والسلام، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما (٢).

قال في «الفتح»: قال رسول الله ﷺ: «أبو بكر صاحبي ومؤنسي في الغار...» [رواه الحاكم من طريق سعيد بن جبير عنه] (٣).

﴿وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ من الملائكة.

﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ فاشلة خاسرة، وهي كلمة

المشركين التي اتفقوا عليها عندما اجتمعوا بدار الندوة، واتفقوا على قتل النبيِّ ﷺ، فنجاه الله تعالى من كيدهم، وحفظه من مكرهم.

﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ دائماً وأبداً، لأن إرادته سبحانه هي التامة

النافذة، ومشيئته هي الغالبة.

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ لا يُغلب.

﴿حَكِيمٌ﴾ في تدبيره وأمره جلَّ وعلا.

#### • تلبية الدعوة:

وبعد أن استنهضت الآيات همم المؤمنين بهذا العتاب والتهديد، وهيات

(١) روح المعاني: ٩٩/١٠.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) فتح الباري: ١٠/٧.

قلوبهم لقبول الأمر بالنفير والاستجابة له، توجهت إليهم بالأمر الموجب الملزم:

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٤١).

﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي: انفروا للجهاد، سواءً كان خفيفاً عليكم أم ثقيلاً، ركبناً ومشاةً، شاباً وشيوخاً، أقوياء وضعفاء.

قال ابن كثير رحمته الله: «أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك، لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب، وحثم على المؤمنين في الخروج معه على كل حال، في المنشط والمكره، والعسر واليسر»<sup>(١)</sup>.

﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فالجهاد في النفير العام واجب بالنفس والمال، ومن كان قوياً وذا مال عليه أن يقدم نفسه وي بذل ماله في سبيل الله تعالى.

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فضل الجهاد وثوابه العظيم عند الله تعالى، فبادروا

إلى الجهاد، ولبوا دعوة النفير.

وقد لبى الصحابة رضي الله عنهم دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى جهاد الروم، وبذلوا أموالهم، وخرجوا بأنفسهم، فلم يتخلف منهم سوى ثلاثة فقط من دون عذر كما سيأتي معنا.

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بأكبر قوة عسكرية حشدتها في حياته، بلغت ثلاثين ألف مجاهد، في شهر رجب من السنة التاسعة من الهجرة، وما إن سمع الروم ومن معهم بخروجه عليه الصلاة والسلام حتى امتلأت قلوبهم خوفاً ورعباً، فانسحبوا من مواقعهم في تبوك، ووصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك، ونصب فيها

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٤٤/٢.

راياته، متحدياً أكبر دولة في الأرض حينئذٍ، وبثَّ سراياه في البلاد المحيطة بها، حتى وصلت إلى أيلة (العقبة) ودومة الجندل، فأخضعها لسلطانه، وأخذ من أهلها الجزية، ثم عاد ﷺ إلى المدينة المنورة مظفراً منتصراً.



## الفصل الثالث

### المنافقون

#### وكيفية تطهير المجتمع من مكرهم وكيدهم

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٦﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَسْتَغْنِيكَ الَّذِينَ يُولُونَكَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَزَّابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَزِدُّونَ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٥٠﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَمُومٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ لَقَدْ اسْتَعَاذَ الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ وَقَالُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذَّنَّا لِي وَلَا نَفْتِيَّ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَكَانُوا فِي شَكٍّ ﴿٥٤﴾ قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَرْتَضِي بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرْتَضُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرْتِبُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ أَنْتُمْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُفْقَهُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٨﴾ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ

أَنفُسِهِمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ لِمَنْكُمْ وَمَا هُمْ بِمَنْكُمُ وَلِلَّكُفْرَةِ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ  
 ﴿٥٦﴾ لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَجًا أَوْ مَدْخَلًا لَوْلَا إِيَّتِهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ  
 فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا  
 آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ  
 رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ فُلُوبِهِمْ وَفِي  
 الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ  
 ﴿٦٠﴾ وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ  
 لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ  
 لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ  
 يُحَادِدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ  
 الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَخْرِجُوا إِنَّا اللَّهُ مُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ  
 ﴿٦٤﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ  
 تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْذَرُوا فَمَنْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نَعْدَبُ طَائِفَةٌ  
 يَأْتِيهِمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ  
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيهِمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ  
 ﴿٦٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمْ  
 اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا  
 وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ  
 وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةُ آعْمَلُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ  
 الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ  
 وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ  
 كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ  
 وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ

اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ  
 خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ  
 الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ  
 الْمَصِيرَ ﴿٧٣﴾ يَخْلُوفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ يَوْمًا  
 لَمْ يَبَالُوا وَمَا نَعَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا  
 يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾  
 ﴿٧٥﴾ وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَأْتِيَهُمْ جُنُودٌ مِنْ فَضْلِهِ لَنْ يَأْتِيَهُمْ جُنُودٌ مِنْ فَضْلِهِ لَنْ يَأْتِيَهُمْ جُنُودٌ  
 مِنْ فَضْلِهِ لَنْ يَأْتِيَهُمْ جُنُودٌ مِنْ فَضْلِهِ لَنْ يَأْتِيَهُمْ جُنُودٌ مِنْ فَضْلِهِ لَنْ يَأْتِيَهُمْ جُنُودٌ مِنْ فَضْلِهِ  
 يَمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٦﴾ أَمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ  
 وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿٧٧﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي  
 الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٨﴾  
 اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ  
 كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٧٩﴾ فَرَحَّ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ  
 رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ  
 أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨٠﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَسْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ  
 رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُواكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفَنِّلُوا مَعِيَ عِدَدًا  
 إِكْرَامَ رَضِيئِهِمْ بِالْقُعُودِ أَوْلَ مَرَّةٍ فَأَقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٢﴾ وَلَا تَضِلَّ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ  
 عَلَيْهِ قَبْرُهُ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَجْعَلْ أَمْوَالَهُمْ وَأَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا  
 يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا  
 بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّلُوعِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْفَاعِلِينَ ﴿٨٥﴾ رَضُوا  
 بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُغِيَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٦﴾ لَنْ يَكُنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ  
 آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ هُمْ الْمَخْلُوعُونَ ﴿٨٧﴾



أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ حَنْتَ تَحَرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَذْهَرُ خَلِيدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْعَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٤٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ يُؤَذِّنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلُوبٌ لَا أَحْجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ فَيِضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٥٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَلِدُونَكَ وَهُمْ أَغْيَاءٌ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ .

#### • توبيخ المتناقلين:

اتخذت الآيات غزوة تبوك مناسبةً للحديث عن المنافقين وكشفهم، وتنظيف المجتمع المسلم منهم، ولما كانت آياتُ السورة قطعياً ونهائياً جاءت كبلاغٍ أخير وإنذارٍ نهائي لهم، وفضحت آيات السورة جميع شرائح النفاق، فلم تغادر من المنافقين أحداً إلا فضحته وكشفت أمره، حتى سُميت السورة الفاضحة، وسميت أيضاً المبعثرة، لأنها أخرجت ما في قلوبهم ونفوسهم. وكانت غزوة تبوك اختباراً كبيراً، محصت المؤمنين، وميّزتهم عن المنافقين، وكشفت كذب الكاذبين، وأظهرت صدق الصادقين. ولما أعلنت الآيات النفير العام، استجاب المؤمنون الصادقون لدعوة الجهاد كما مر معنا، وتناقل المنافقون وتخلّفوا، فاتجهت الآيات إليهم توبيخهم، وتظهر عجزهم وضعفهم أمام نفوسهم وأهوائهم، قال تعالى:

﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَدَدَتْ عَلَيْهِمُ الشَّقَّةُ وَسَيَّحِلُّونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾﴾ .

﴿لَوْ كَانَ﴾ ما دعوا إليه .

﴿عَرَضًا قَرِيبًا﴾ منفعة دنيوية سهلة المأخذ .

﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ سهلاً قريباً .

﴿لَا تَبْعُوكَ﴾ لخرجوا معك، ولبوا دعوتك .

﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ مسافة السفر، فلا تُقَطِّعْ إلا بمشقة وتعب

وعناء، ففي نظرهم لا يعادل ما يحصل لهم من التعب ما يرجونه من المنفعة .

فهم ذوو همم ضعيفة عاجزة قاصرة، ونفوس دنيئة مادية جشعة، لا تتحرك إلا لما يلوح لها من المنافع الأرضية الفانية، والإسلام رسالة كبيرة رفيعة، لا يقوم بأعبائها إلا أصحابُ الهمم العالية، والنفوس الكريمة الأبية .

ولهذا كان رسول الله ﷺ يربي أصحابه على علو الهمة، والتطلع إلى معالي الأمور، والإعراض عن سفاسفها، ومن أقواله عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى: «إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ مَعَالِيَ الْأُمُورِ وَأَشْرَافَهَا، وَيَكْرَهُ سَفَسَافَهَا» [رواه الطبراني في المعجم الكبير].

وقبل أن تشرع الآيات الكريمة باستعراض شرائح المنافقين وبيان الخصال المذمومة في كل شريحة، بينت موقف المنافقين إجمالاً من غزوة تبوك، وأخبرت النبي ﷺ بتخلفهم عن الخروج إليها، وأنهم بعد رجوع النبي ﷺ منها، سيأتون إليه معتذرين عن تخلفهم، وهم يحلفون الأيمان الكاذبة على صحة اعتذارهم:

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ أي: لو استطعنا الخروج إلى

غزوة تبوك لخرجنا، فكأنهم تمارضوا، وأدعوا الضعف والعجز عن الخروج إلى الجهاد، وحلفوا الأيمان الكاذبة على ذلك، وبهذا:

﴿يَهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن الأيمان الكاذبة تهلك أصحابها، وتعرضهم لسخط

الله تعالى وانتقامه .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ في أعدارهم وأيمانهم .

#### ● شهادة ربانية:

وسبق للمتخلفين من المنافقين أنهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يستأذنونهم في

العودة وعدم الخروج، عندما كان الرسول ﷺ يستعدُّ مع أصحابه للخروج إلى تبوك، فأذن لهم ﷺ لعلمه أن خروجهم معه لا نفع فيه، وأنه لا يُعتمد عليهم في القتال، ولهذا توجهت الآيات تخاطب النبي ﷺ بهذا الأسلوب اللطيف:

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعَلَّمَ الْكَافِرِينَ ٤٣﴾ .

﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ﴾ فهو كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً له: عفا الله عنك، ما صنعت في أمري؟ رضي الله عنك، ما جوابك عن كلامي؟ وعافاك الله، وغفر لك، وكلُّ هذه الألفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدلُّ على تعظيم المخاطب به<sup>(١)</sup>.

﴿لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ في اعتذارهم.

﴿وَتَعَلَّمَ الْكَافِرِينَ﴾ فالتكليف بالجهاد ابتلاءً واختباراً يميّز بين المؤمنين والمنافقين، ويظهر الصادقين من الكاذبين.

فالمؤمنون الصادقون لا يتخلفون عن الجهاد، ولا يأتون إلى النبي ﷺ لكي يستأذنوه في التخلف:

﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالْمُنْفِقِينَ ٤٤﴾ .

وفي الآية الكريمة شهادة ربانية رفيعة، أكرمهم الله تعالى بها بسبب صدقهم وإخلاصهم.

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ .

﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ في التخلف عن الجهاد.

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بسبب الشك والاضطراب الذي يملأ قلوبهم .

﴿وَأَزَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَرْتَدِدُونَ﴾ فهم في شكهم واضطرابهم يتحيرون، فاستئذنانهم يدل على حالهم، ويكشف حقيقةهم، فالشك والقلق والحيرة والاضطراب أبرز الصفات التي يتصف بها المنافقون .

ولو كانوا يريدون الخروج إلى الجهاد لأعدوا عدته، وأخذوا للأمر أهبطه :

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً﴾ للسفر والجهاد .

﴿وَلَكِنَّ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ﴾ خروجهم إلى الجهاد مع النبي ﷺ .

﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ فصرفهم عن الخروج، وزهدهم فيه، ونتيجة ذلك :

﴿وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ عن الجهاد، كالعجزة والمرضى والنساء

والصبيان، فللمكارم أهلها وأصحابها، كما قال الشاعر أبو الطيب المتنبى :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

وأما شأن المتخلفين فكقول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

• المسارعون إلى الفتن:

ثم بين سبحانه حكمته في تشييطهم عن الجهاد، فقال :

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ إِلَّا قَلِيلًا يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ هُثَمٌ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ فساداً وشرّاً، والمعنى : لو خرجوا

معكم ما زادوكم قوة، لكن فساداً وشرّاً، بإيقاع الجبن والفشل بين المؤمنين، بتهويل الأمر، وشدّة السفر، وكثرة العدو وقوتهم<sup>(١)</sup>.

﴿وَلَا تَوَضُّعُوا خِلَالَكُمْ﴾ ولأسرعوا بنشر الخلاف والفتن، وإشاعة الأخبار الكاذبة بينكم.

﴿يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ يطلبون إحداث الخلاف والخلل والاضطراب في صفوفكم، فلا تأسفوا على تخلفهم عنكم.

﴿وَفِيكُمْ سَمَّعُونَ لَهُمْ﴾ أي: وفيكم من يسمع أكاذيب المنافقين، ويصدقها، بسبب سذاجتهم، وبساطتهم، وسلامة صدورهم.

ولا يخلو مجتمع عن أمثال هؤلاء السذج البسطاء من الناس، وهم نقطة ضعف في وحدة الأمة، كثيراً ما استغلّها الأعداء، وتسلبوا عن طريقها إلى جسم الأمة، ففرقوها ومزقوها، بواسطة ما أشاعوا من أراجيف وأكاذيب.

فالواجب يقتضي توعية أمثال هؤلاء الناس وتحذيرهم من الوقوع في شباك المنافقين والمداهنين، وخاصة في أوقات الحروب والأزمات.

﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمُ بِالظَّالِمِينَ﴾ علماً تاماً محيطاً بضمائرهم وظواهرهم، وماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم، ولا يخفى ما في الآية من وعيد لهم.

ثم ذكرت الآيات النبي ﷺ بماضي المنافقين الأسود، وصحيفة سوابقهم المشينة:

﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَكَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ

كَرْهُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ في غزوة أحد عندما خذلوا المسلمين، وعادوا مع زعيمهم عبد الله بن أبيّ، إلى المدينة المنورة، وكذلك في غزوة بني المصطلق، عندما استغلّ ابن أبيّ خلافاً حدث بين مهاجريّ وأنصاريّ، فقال

ما حكاه الله تعالى عنه: ﴿لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضَ مِنْهَا الْأَذْلَ﴾ الآية [المنافقون: ٨].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ (أي: ضربه على دبره) رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟!» وَزَادَ فِي رَاوِيَةٍ ثَانِيَةً: «دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا مُتَنَنَةٌ» فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي: فَعَلَوْهَا؟! وَاللَّهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُضَ مِنْهَا الْأَذْلَ. فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَامَ عَمْرٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ دَعْنِي أُضْرَبَ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَعُهُ، لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ» [رواه البخاري (٤٩٠٧)].

وفي غير ذلك من مواقفهم المخزية.

﴿وَقَابُولِ لَكَ الْأُمُورِ﴾ أي: اجتهدوا ودبروا لك الحيل والمكايد.

﴿حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ﴾ بنصر الله وتأييده، وعصمة النبي ﷺ من مكرهم وكيدهم.

﴿وَوَظَّهَرَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ بعلو دينه وظهوره وانتشاره.

﴿وَهُمْ كَرِهُونَ﴾ لذلك، فكلما أعزَّ الله الإسلام وأهله ازدادت قلوبهم

غيطاً، ونفوسهم حقدًا، فحالهم في هذا كحال أهل الكتاب الذين سبق معنا قوله تعالى فيهم: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

#### • أعذار واهية:

ثم عرضت الآيات نماذج من الأعذار الواهية التي اعتذر بها بعض

المنافقين عن الخروج إلى غزوة تبوك، قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَسْأَلُ اللَّهَ عِزِّيَ وَلَا يَشَاءُ أَن يَرْجِعَ بِنِيَّتِهِ إِلَى الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ فَأَعْرِضُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ إِنَّهُمْ عَلَىٰ بِلْغَةٍ مِنَ الْعَبَاثِ﴾

﴿مُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (٤٩).

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أَسْأَلُ اللَّهَ عِزِّيَ وَلَا يَشَاءُ أَن يَرْجِعَ بِنِيَّتِهِ إِلَى الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ فَأَعْرِضُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَيْتِ الْمَقْدِسِ إِنَّهُمْ عَلَىٰ بِلْغَةٍ مِنَ الْعَبَاثِ﴾ في التخلُّف والعودة.

﴿وَلَا نَفْتِنِي﴾ أي: لا توقعني في فتنة العصيان والمخالفة؛ فهو متخلفٌ في حال الإذن وعدمه. أو: لا تعرّضني لأسباب الافتتان، برؤية نساء الروم، الشقراوات الجميلات.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الذي اعتذر بهذا العذر: الجَدُّ بن قيس، إذ قال له النبي صلى الله عليه وآله ذات يوم، وهو في جهازه: «هل لك يا جدُّ العام في جلاذ بني الأصفر؟» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي، ما رجلٌ أشدُّ عجباً بالنساء مني، وإنني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبرَ عنهنَّ. فأعرضَ عنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله وقال: «قد أذنتُ لك»، ففي الجدُّ بن قيس نزلت هذه الآية. [أخرجه ابن المنذر والطبري (١٤٧/١٠) وابن مردويه<sup>(١)</sup>].

هكذا تظاهر المعتذرون بهذا العذر بالورع والحرص على الدين، فما كان اعتذارهم عن الخروج إلى الجهاد إلا خوفاً من مقارفة المعاصي، وتورعاً عن رؤية أسبابها!.. وهو ورع كاذب، رده الحق جلّ وعلا، فقال:

﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ ففي الفتنة نفسها سقطوا لا في غيرها، فتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وآله هو الفتنة بعينها، تلبّسوا بها، وأحاطت بهم من كل جانب. وفي التعبير بالسقوط ما يشعر أنهم وقعوا فيها وقوع من يهوي من أعلى إلى أسفل، وذلك أشدُّ من مجرد الدخول في الفتنة<sup>(٢)</sup>.

﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ كما أحاطت بهم الفتنة من كل جانب.

#### • حسد وشماتة:

وكيف يتظاهرون بهذا الورع الكاذب، وقلوبهم ممتلئة بالحقد والحسد للمسلمين عموماً، وللنبي صلى الله عليه وآله على وجه الخصوص؟! يظهر ذلك من قوله تعالى:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٤٧/٢؛ والسيرة النبوية، لابن هشام: ١١٨/٤.

(٢) فتح القدير: ٣٩٧/٢.

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾﴾ .

﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي: إذا أصابك في مغازيك وجهادك نصر وظفر وغنيمة يحزنون ويستأثرون، لشدة عداوتهم وبغضهم لك، فلا يريدون وصول أي خير إليك .

﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ﴾ شدة من شدائد القتال كجرح وقتل .  
﴿يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ﴾ بالحيلة والحذر في تخلفنا عن الجهاد،  
وقعودنا عن الخروج .

فهم معجبون برأيهم، ويرون أنهم متصفون باليقظة والحذر والحيلة، كأن الخروج مع النبي ﷺ نوع من المغامرة والتهور والتسرع في زعمهم .  
﴿وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ وينصرفوا عن النبي ﷺ وهم شامتون مسرورون، لما ناله من المصيبة، ولسلامتهم منها .

وبعد أن فضحتهم الآيات، وكشفت خبيثة نفوسهم، أمرت النبي ﷺ أن يرده عليهم بقوله تعالى:

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ .

﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ أي: إلا ما قدره سبحانه واختاره لنا بإرادته ومشيئته .

﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ هو ناصرنا ومتولي أمورنا، ولا يختار لنا سبحانه إلا الخير، فنحن في جميع الأحوال نفوض أمورنا إليه تعالى، ونرضى بما كتب لنا جلّ وعلا .

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ذلك هو شأن المؤمنين بالله تعالى، يفوضون أمورهم إليه، ويتوكلون عليه وحده، ويرضون بما كتبه لهم، وقدره عليهم .

وتهون المصائب على الإنسان إذا علم أن ما قدر الله كائن لا محالة، وأن



كلَّ ما ناله من خير أو شر، إنَّما هو بقدره وقضائه، ولا يجد الإنسان المسلم مرارة شماتة الأعداء وتشفي الحسدة.  
وخاب عن الحسدة الشامتين أمرٌ آخر، أمر الله سبحانه النبي ﷺ أيضاً أن يبيِّنه لهم بأسلوب التوبيخ لهم والتقريع:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُوكُمْ إِنَّا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾﴾

﴿قُلْ هَلْ تَرَبُّصُوكُمْ إِنَّا﴾ أي: هل تنتظرون أن ينزل بنا.  
﴿إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ أي: إلا إحدى العاقبتين اللتين كلُّ واحدة منهما هي حسنى العواقب، وهما: النصر والشهادة، فما يزعمونه مضرّة للمسلمين من القتل والشهادة، أنفع مما يعدُّونه منفعة من النصر والغنيمة<sup>(١)</sup>.  
وجاء في الحديث النبوي الشريف: أنه ﷺ قال: «تضمَّن الله لمن خرج في سبيله، لا يخرجُه إلا جهاداً في سبيلي، وإيماناً بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامنٌ أن أدخله الجنة، أو أرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجرٍ أو غنيمة» [رواه مسلم (١٨٧٦)].

﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ أي: وبالمقابل فنحن ننتظر بكم إحدى السوءتين:  
﴿أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ﴾ كما أصاب من كان قبلكم من المكذبين.

﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ بالظفر بكم والنصر عليكم.  
﴿فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ ولا يخفى ما في الأمر بالتربُّص من التحدي والتهديد لهم.

#### • نفقة مردودة:

ويبدو أن بعض المنافقين بذل بعض المال للجهاد رياءً وسمعةً، وسترًا

(١) تفسير أبي السعود: ٤/٧٣.

لتخلفه عن الخروج بنفسه إلى الجهاد، فأمر الله تعالى النبي ﷺ برّد هذا المال، وعدم قبوله، قال سبحانه:

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾﴾ .

﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُنْقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ وهو خبرٌ جاء بصيغة الأمر، أي: لن تقبل منكم نفقاتكم، سواء أنفقتم طائعين أو مكرهين.

ومعنى عدم القبول أنه عليه الصلاة والسلام يرثها عليهم، أو أنه تعالى لا يثيبهم عليها، والسبب بينه تعالى بقوله:

﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الإيمان، كافرين، فلا يقبل الله تعالى أيّ عمل صالح من كافر، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الصَّلْدُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨].

وقال أيضاً: ﴿وَقَدْ مَنَّآ إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جُعدان كان في الجاهلية يصلُّ الرِّحْمَ، ويطعمُ المسكينَ، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» [رواه مسلم (٢١٤)].

فالكفر يمنع قبول أي عمل، ولهذا قال تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَذِبُونَ ﴿٥٤﴾﴾ .

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، ومن الأدلة الدالة على كفرهم:

﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ متناقلين، كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ

الْمُنْفِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كَسَاكٍ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢].

فلا رغبة لهم في الصلاة بسبب كفرهم، فلا يرجون على فعلها ثواباً، ولا يخافون على تركها عقاباً.

ومن علامات كفرهم أيضاً:

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾ للانفاق، وإذا ما أنفقوا فللرياء والسمعة،

ودفع التهمة.

• المعدَّبون في الدنيا وللآخرة:

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَرْهَقَ أَنفُسَهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ ﴿٥٥﴾ .

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ هذا أدب رباني رفيع، وجَّهه سبحانه إلى نبيه ﷺ، لأنه القدوة الطيبة للمؤمنين، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ذَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ حَبْرٌ وَابِقٌ﴾ [طه: ١٣١].

ومن المعلوم أن الإعجاب بالشيء يستدعي تعلق النفس به، ونفس النبي ﷺ مُعْرِضَةٌ عن الدنيا إعراضاً كاملاً، ومتعلقة بالله تعالى، حتى كان ﷺ يقول: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وفي رواية: «كفافاً» [رواه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (٧٤٤٠)].

وكان في معيشته عليه الصلاة والسلام زاهداً في الدنيا، مُعْرِضاً عنها، قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتالين حتى قبض رسول الله ﷺ. [رواه البخاري (٥٤٢٤) ومسلم (٢٩٧٠)].

وكان المنافقون ذوي أموال وأولاد، ومن أجلها فُتِنُوا ونافقوا، فجعلها سبحانه سبب شقائهم وعنائهم في الدنيا والآخرة، فقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لهذا تراهم يكابدون في جمعها

وحفظها من الهموم الكبيرة والشدائد الكثيرة، ويكابدون أيضاً لما يصيبهم فيها من المصائب، وفي الوقت نفسه لا يستطيعون التقرب بها إلى الله تعالى بسبب نفاقهم وكفرهم، فنفقاتهم - كما مر معنا - مردودة غير مقبولة. ولا يزالون هكذا حالهم حتى يختم لهم بالخاتمة السيئة فيموتوا على الكفر والنفاق:

﴿وَتَرْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَكِافِرُونَ﴾.

وما أكثر ما نرى في حياتنا المعاصرة من أمثال هؤلاء المنافقين، يكذبون ويكدهون طول أعمارهم في جمع الأموال وتكديس الثروات، ثم يسقطون على طريق الكدح والكدّ عندما توافيهم منيتهم، وما جنوا من حياتهم إلا التعب والشقاء والهم والعناء، كما قال سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَرَابٍ يَغِيغُهُ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَاقًّا إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

أولئك تجارُ الآمالِ الخادعةِ والأمانِي الكاذبةِ، المعذبون في الدنيا والآخرة.

#### • الانتماء والغرباء:

وثمة شقاء آخر يعاني منه المنافقون إلى جانب شقائهم بأموالهم وأولادهم، وهو الخوف والقلق، وعدم الشعور بالأمن، وهو نتيجة طبيعية لما يخفون في قلوبهم من كفر ونفاق، فشأنهم شأن المجرم الذي أخفى جريمته، وهو يخشى أن تظهر الأدلة التي تدلُّ عليها.

كان المنافقون في عهد رسول الله ﷺ يخافون أن ينكشف أمرهم، ويُنتضح نفاقهم، بواسطة وحي ينزله الله تعالى على النبي ﷺ، ولهذا كانوا في همٍّ دائمٍ وقلقٍ مستمرٍ، إنَّهم في أشدِّ الحاجة إلى الإحساس بالأمن وتذوق الطمأنينة النفسية والسكينة القلبية، ولا يتأتَّى لهم هذا الإحساس إلا إذا طهَّروا

قلوبهم من النفاق، وأكّدوا بذلك انتماءهم إلى المجتمع المسلم، عندئذٍ يشعرون أنهم جزء منه، ويتذوقون الأمن والطمأنينة في ظلاله.  
ولهذا كانوا يحاولون التأكيد على صلتهم بالجماعة المسلمة والمجتمع المسلم، وأنهم جزء منه، بالأيمان الكاذبة:

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ (٥٦).

﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ﴾ في الدين والإيمان والإسلام، والحقيقة تكذبهم، فالإيمان ليس مجرد دعوى يدعيها الإنسان بلسانه، الإيمان تصديق وانقياد واستسلامٌ لدين الله تعالى وشريعته.

﴿وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ بسبب الكفر والنفاق في قلوبهم، إنه الذي يقطعهم عنكم، فإذا ما انقطع حبل الإيمان والعقيدة انقطعت معه كل الحبال، وجميع الصلات الأخرى، كصلة النسب والأرض والمصلحة، وما حدث لنبي الله نوح مع ولده الكافر أكبر شاهدٍ على صحة ذلك: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنِّي وَأَنَا وَعَدَاكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (٥٥) قَالَ يَنْوُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنِّي مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ إِنَّ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعْطَيْتُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود].

إن المنافقين غرباء عن المجتمع المسلم الذي يعيشون فيه، وإن الشعور بالاغتراب نابغٌ من قلوبهم، وهو الذي يقلقهم ويزعجهم، ويجعلهم في همٍّ دائم، واضطراب نفسي مستمر.

﴿وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ يخافون أن يُفْتَضَحَ حالهم، وتتكشف حقيقتهم. إن الشعور بالانتماء أمن وسكينة، بينما الشعور بالاغتراب خوف وضعف وقلق واضطراب، وقد صوّرت الآيات الكريمة شدة خوف المنافقين وقلقهم بقوله تعالى:

﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ (٥٧).

﴿لَوْ يَحْذَرُونَ مَلْجَأًا﴾ يلجؤون إليه.

﴿أَوْ مَغْرَبَاتٍ﴾ في بطون الجبال وأعماق الشعاب .

﴿أَوْ مَدَّخَلًا﴾ أي : مكان يدخلون فيه ، يحسون داخله بالأمان والطمأنينة .

﴿تَوَلَّوْا إِلَيْهِ﴾ لأقبلوا إليه .

﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ وهم مسرعون إسراعاً لا يرُدُّهم عنه شيء ، كالفرس

الجموح المسرع الذي لا يُثنيه اللجام .

النفاقُ قطعهم عن المجتمع المسلم ، وجعلهم يشعرون بالخوف

والاغتراب ، وهذا يدلُّ على قوة المجتمع المسلم ، وسلامة بنيته الداخلية في

عهد النبي ﷺ وعهود أصحابه والتابعين بعده ، وما دام المنافقون يشعرون

بالخوف والاغتراب ، فالمجتمعُ المسلمُ بخير وعافية ، وأما عندما تنعكس

الأحوال ، وتتغيَّرُ المواقف ، وتضطربُ القيم ، ويستشعر المؤمنون الصادقون أنهم

غرباء عن مجتمعهم بسبب صدقهم وصلاحهم وتمسُّكهم بدينهم واستقامتهم

عليه ، بينما يطمئنُّ المنافقون ، فالمجتمع عندئذٍ مجتمعٌ مريض ، غلب عليه

الفسادُ والنفاقُ . ومن أعلام نبوته ﷺ قوله : «بدأ الإسلامُ غربياً ، وسيعودُ غربياً

كما بدأ ، فطوبى للغرباء» [رواه مسلم (١٤٥)] .

#### • أهم أسباب النفاق:

الحرص على المصالح المادية ، وشدة التأثر بها ، هو أهم أسباب النفاق ،

وكلِّما غلبت المادية على نفوس الناس ، ازداد النفاق ، واستشرت جذوره في

أعماق المجتمعات الإسلامية ، وهذا ما أكَّده الآيات القرآنية الكريمة ، وهي

تتحدَّث عن شريحة من شرائح المنافقين :

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ

يَسْتَخْطُونَ ﴿٥٨﴾ .

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي : ومن المنافقين من كان ينتقد النبي ﷺ ،

ويعيبه سراً في قسمة الصدقات ، وهي أموال الزكاة ، فحبُّ المال والحرص عليه

أعمى بصائرهم عن رؤية مقام النبوة، وإجلاله واحترامه، ومعرفة قدره عليه الصلاة والسلام، وأنه لا يفعل إلا ما يأمره به ربه جلّ وعلا.

﴿فَإِنْ أَعْطُوا مِنْهَا﴾ قدر ما يريدون.

﴿رِضْوَانًا﴾ بالقسمة واستحسنوها.

﴿وَأِنْ لَّمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ أي: يغضبون على النبي ﷺ، فرضاهم وغضبهم لأنفسهم ومصالحهم، لا لدينهم.

وهذه الآيات جاءت في سياق الآية التي وصفتهم بكثرة الأموال والأولاد: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ [التوبة: ٥٥] مما يدل على شدة طمعهم وجشعهم، كما يدل أيضاً على قوة الاتساق والاحتباك بين الآيات الكريمة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ وإن قلّ. وذكر الله ﷻ للتعظيم وللتنبيه على أن ما فعله الرسول ﷺ كان بأمره سبحانه.

﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ كفانا فضله وقسمه لنا.

﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ الذي لا يخالف أمره سبحانه.

﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ لا إلى غيره سبحانه، فلو أنهم فعلوا ذلك لكان خيراً لهم من اعتراضهم على قسمة النبي ﷺ.

#### • مصارف الزكاة:

ثم بين سبحانه مصارف أموال الزكاة والمستحقين لها، فلا يجوز صرفها لغيرهم، فقال:

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَفَةَ فُلُوهُمْمْ فِي الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ  
وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ ﴾ (٦٠)

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ ﴾ المحتاجين حقيقةً وفعلاً، لا عجزاً وكسلاً، قال رسول الله ﷺ: «لا تحلُّ الصدقةُ لغنيٍّ، ولا لذي مِرَّةٍ سويٍّ» وهو الذي يقدر على العمل والكسب، غير عاجز ولا ضعيف. [والحديث رواه أحمد (١٦٤/٢) وأبو داود (١٦٣٤) والترمذي (٦٥٢)].

﴿ وَالْمَسْكِينِ ﴾ الذين يعملون ويدأبون في طلب الرزق والاكتساب، فلا يحصلون على ما يكفيهم لسدِّ حاجاتهم، وتمنعُهُم عقبتهم وكرامتهم عن دُلِّ السؤال والتكفُّف.

قال رسول الله ﷺ: «ليس المسكينُ الذي يطوفُ على الناس، تردهُ اللقمةُ واللقمتان، والتمرَّةُ والتمرتان، ولكنَّ المسكينَ الذي لا يجدُ غنًى يغنيه، ولا يُفطنُ له فيُتصدَّقُ عليه، ولا يقومُ فيسألُ الناسَ» [رواه البخاري (١٤٧٩) ومسلم (١٠٣٩)].

﴿ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ الساعين في جمع أموال الزكاة وتحصيلها، فهؤلاء يُعطون أجورهم منها، ولو كانوا أغنياء.

﴿ وَالْمَوْلَفَةَ فُلُوهُمْمْ ﴾ على الإسلام، كان رسولُ الله ﷺ يتألَّفهم على أن يسلموا، ويعطي آخرين أسلموا تقريراً لهم على الإسلام<sup>(١)</sup>.

وهذا يدلُّ على أنَّ لوليَّ الأمر أن يصرف جزءاً من أموال الزكاة لنشر الدعوة الإسلامية بين الناس، فيعطي منها من يُرجى إذا دخلوا في الإسلام أن يقتدي بهم غيرهم.

﴿ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ أي: وفي فكِّ الرقاب، وتخليص العبيد من الرقِّ وذلِّ العبودية. فالإسلامُ دينُ الحرية، وقد شرع كثيراً من الشرائع لتحرير الأرقاء، ومنها

(١) تفسير النسفي: ١٤٤/٣.



تخصيصُ جزءٍ من مال الزكاة لمساعدة العبيد المكاتبين، وهم الذين يتفقون مع سادتهم على أن يؤدوا لهم مبلغاً معيناً من المال في مقابل إعتاقهم وتحريرهم، وقد ندب الإسلام إلى ذلك وحثَّ عليه في قوله تعالى: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَأَثْوَاهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣] وشرع مساعدتهم من أموال الزكاة.

﴿وَالْعَدْرِمِينَ﴾ الذين ركبتهم الديون وأثقلتهم، ولا يملكون وفاءً لها، وخاصة الذين استدانوا لكي يصلحوا بين المتخاصمين، فهؤلاء يعطون من الزكاة لسدِّ التزاماتهم ووفاء ديونهم.

﴿وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: للمجاهدين في سبيل الله تعالى، يعطون من الزكاة ليستعينوا بها على أمر الجهاد.

﴿وَأَبْنِ السَّبِيلِ﴾ المسافر المنقطع عن ماله في الطريق.

﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ﴾ أي: فرض الله تعالى الزكاة في أموال الأغنياء، وجعلها في هذه المصارف، فلا يجوز لأحد أن يغيِّرها ويبدلها، لأنها فريضة الله العليم الحكيم:

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

وهذا يدلُّ على أنَّ للزكاة دوراً كبيراً في نظام التكافل الاجتماعي بين أبناء المجتمع المسلم، وأن لها صلة أيضاً بالدعوة الإسلامية ونشرها وحمايتها.

#### • أذن الخير:

أنزل القرآن الكريم النبي ﷺ في قلوب المؤمنين أعلى المنازل وأرفعها، فهو الأول في قلوبهم ونفوسهم، ووجدانهم وسلوكهم، قال تعالى: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٦] (١).

وحبه عليه الصلاة والسلام وطاعته والتمسك بسنته أول كل شيء، ومقدم

(١) انظر ما كتبه المؤلف في معنى هذه الآية في: تفسير سورة الأحزاب، وقد أصبح عنوان هذه السورة في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (النبي ﷺ وأزواجه في سورة الأحزاب).

على كل شيء في حياة المؤمنين، وقد مرَّ معنا التأكيد على هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

والقلوب التي ملاًها مرضُ النفاق لا تعرفُ للنبي ﷺ هذه المنزلة، التي له في قلوب المؤمنين، وقد مرَّ معنا من قريب جرأة المنافقين على النبي ﷺ، وسوء أدبهم معه، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمُزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨].

وقد مهَّد سبحانه في هذه الآية لبيان شدة بغض المنافقين للنبي ﷺ، وسعيهم في إيذائه، فقال جلَّ وعلا:

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ  
لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾﴾

﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ﴾ أي: ومن المنافقين، وهم شريحة جديدة من شرائح النفاق، ظهرت فيهم خصلة من خصاله، وهي بُغض النبي ﷺ، والسعي في أذاه.

﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ يسمع كلَّ ما يقال له ويصدِّقه.

وقصدوا بذلك ذم النبي ﷺ، وأنه في زعمهم سليم القلب، سريع الاغترار، سهلُ خداعه والاحتياي عليه، فمهما فعلوا أو تكلموا، فإن جاؤوا إليه، وكلموه؛ واعتذروا له؛ صدَّقهم، وتجاوز عنهم، وقبِلَ اعتذارهم، وهذا ما شجَّعهم على التخلف عن الخروج إلى غزوة تبوك.

وغفلوا عن حقيقة هامة، هي أنه عليه الصلاة والسلام كان يعاملهم بحسب علانيتهم، مع علمه عليه الصلاة والسلام بحقيقتهم، ويكلِّل سرائرهم إلى الله تعالى، لأنه رسول في مقام الأسوة والقدوة، ولا يريد عليه الصلاة والسلام أن يسنَّ لمن بعده سنَّة التفتيش عن أسرار الناس، فيعاملوهم بالظن والحدس والتخمين، فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى الظلم.

وعندما فعل ذلك بعض أصحابه أنكر عليهم إنكاراً شديداً:

ففي الحديث الشريف: أَنَّ رجلاً من بني سُليم، مرَّ على نفر من أصحابِ رسولِ الله ﷺ، ومعه غنمٌ، فسَلَّمَ عليهم، فقالوا: ما سَلَّمَ عليكم إلا ليعودَ منكم، فقاموا فقتلوه، وأخذوا غنمه وأتوا بها رسولَ الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا نَقُولُوا لِمَنْ آَلَقَ إِلَيْكُمْ االسَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]. [رواه البخاري (٤٥٩١) ومسلم (٣٠٢٥) وأبو داود (٣٩٧٤)].

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: بعثنا رسولَ الله ﷺ إلى الحُرَاقَةِ (اسم قبيلة) فصَبَّحنا القومَ، فهزمناهم، فلحقتُ أنا ورجل من الأنصارِ رجلاً منهم، فلَمَّا غشيناها، قال: لا إله إلا الله، فكفَّ عنه الأنصاريُّ، وطعنته برمحي فقتلته، فلَمَّا قدمنا بلغَ ذلك النبيَّ ﷺ، فقال: «يا أسامةُ! أقتلته بعدما قال: لا إله إلا الله؟!» قلتُ: إنَّما قال متعوِّذاً، قال: «أقتلته بعد أن قال: لا إله إلا الله؟!» فما زال يكرِّرها حتَّى تمنيتُ أني لم أكن أسلمتُ قبلَ ذلك اليوم. [رواه البخاري (٦٨٧٢) ومسلم (٩٦)].

وبعد أن حكى الله تعالى قول المنافقين في النبي ﷺ، ردَّ عليهم بقوله:

﴿قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ نعم هو أذن، ولكن نعم الأذن هو، يسمع الخير ويقبله، لا كما ظنَّه المنافقون بسبب غبائهم وضعف إدراكهم.  
﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ يصدِّق بالله تعالى.

﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ويصدِّق المؤمنين، ويقبل منهم، لما علم من إيمانهم وإخلاصهم.

﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ وهو عليه الصلاة والسلام رحمة للذين أظهروا الإيمان من المنافقين، حيث قبل علانيتهم، ولم يكشف حقيقتهم ويفضحهم.  
﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

فالويل كل الويل لمن يؤذي رسولَ الله ﷺ، ولا يعرفُ حقَّه وفضلَه، وينزله المنزلة الرفيعة التي أنزله الله تعالى بها.

## ● مطايا المنافقين:

الأيمان الكاذبة مطايا المنافقين، يحاولون أن يسترُوا بها نفاقهم، ويسخّروها لمآربهم الفاسدة، وأغراضهم الخبيثة، إلا أن آيات التنزيل الحكيم كانت لهم بالمرصاد، تفضّحهم، وتبيّن كذبهم:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (١٦)

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ﴾ أي: لترضوا عنهم أيها المؤمنون، فالمنافقون يسعون من أجل تأمين مصالحهم أن يكسبوا رضا المؤمنين.

﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ والرسول ﷺ أحقُّ بالإرضاء من غيره، وذلك بطاعته، وموافقة أمره، واتباع سنته، وإيتاء حقوقه، وإعظامه وإجلاله عليه الصلاة والسلام في حضوره وغيبته.

ودلّ توحيد الضمير في ﴿يُرْضَوْهُ﴾ على أن رضا الرسول ﷺ من رضا الله تعالى، كما أن طاعته عليه الصلاة والسلام من طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

فتلازم رضا الله والرسول ﷺ جعلهما كشيء واحد، فعاد إليهما الضمير المفرد. أو نقول: الضمير للرسول ﷺ، والخبر له لا غير، لأن الكلام في إيذاء الرسول عليه الصلاة والسلام وإرضائه، فيكون ذكر الله تعالى تعظيماً له عليه الصلاة والسلام<sup>(١)</sup>.

وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ يدلُّ على أن المؤمن الحقَّ يسعى للحصول على رضوان الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام دون نظر منه للناس، فلا ينافق، ولا يجامل، ولا يدهن، ولا يخاف في الله لومة لائم،

(١) انظر: روح المعاني: ١٠/١٢٨.

وكل شيء عنده يهونُ من أجل الوصول إلى رضوان الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

وكلمة المصلحة، ومراعاة المصالح وتأمينها، السائدة بين الناس في هذا العصر، والتي من أجلها تجاوزوا كثيراً من أحكام الدين، وخرقوا قواعد شريعته، لا مكان لها في حياة المسلم الحريص على الوصول إلى رضوان ربه سبحانه ورضا الرسول ﷺ.

وفي الحديث الشريف: عن السيدة عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ التمسَ رضا الله بسخطِ الناسِ، كفاه الله مؤونةَ الناسِ، ومن التمسَ رضا الناسِ بسخطِ الله، وكَلَهُ اللهُ إلى الناسِ» [رواه الترمذي (٢٤١٤)].

#### ● الفاضحة:

فعلى أولئك المنافقين الحريصين على إرضاء الناس من أجل مصالحهم، أن يعلموا هذه الحقيقة المُخيفة المرعبة:

﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُكَادِرُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ، فَأَنْتَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ (١٣)

﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُكَادِرُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾ أي: يخالف الله ورسوله.

فالمحادّة: المخالفة والمعاداة، يقال: حادَّ فلان فلاناً، إذا صار في غير حدّه، وخالفه في أمره.

﴿فَأَنْتَ لَهُ نَارُ جَهَنَّمَ خَلِيدًا فِيهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك العذاب في جهنم هو الذل والهوان والفضيحة.

والخوف من الفضيحة وانكشاف أمرهم، يلزم المنافقين - كما مرّ معنا - في كل أحوالهم وتصرفاتهم، حتى وهم في مجالسهم الخاصّة مع بعضهم، قال تعالى يخبرهم عن خوفهم وحذرهم من الفضيحة:

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَخَرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ .

﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ وقد أنزل الله سبحانه هذه السورة فعلاً، إنها هذه السورة التي بين أيدينا، قال قتادة: كانت تسمى هذه السورة الفاضحة، فضحت المنافقين (١).

﴿قُلِ اسْتَزِرُوا وَإِنَّ اللَّهَ لَخَرِجٌ مِمَّا تَحْذَرُونَ﴾ فمهما استهزأتم وأخفيتم فإن الله تعالى سيكشفكم ويفضحكم، كما قال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَهُمْ﴾ [محمد: ٢٩].

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ .

﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ﴾ بعد أن فضحهم الله سبحانه عما تكلموا به .  
 ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ﴾ في الحديث على غير قصد ونظام .  
 ﴿وَنَلْعَبُ﴾ بما لا حرج علينا فيه .  
 ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي: قل لهم ذلك موبخاً ومقرعاً غير ملتفت إلى اعتذارهم .

﴿لَا تَعْتَذِرُوا فَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِبُ طَائِفَةٌ بِآيَاتِهِمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾ .

﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أي: لا تشتغلوا بالاعتذار، وتستمروا عليه، فالكذب ظاهر واضح، والجريمة كبيرة وعظيمة .  
 ﴿فَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ الذي تدعونه وتظهرونه .

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٥٢/٢ .

وتدلُّ الآية على أنَّ الجِدَّ واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء، ولا خلاف بين الأئمة في ذلك<sup>(١)</sup>؛ فأمر العقيدة خطيرٌ، وشأن الدين كبيرٌ، وعلى المؤمن أن يحذر من فلتات لسانه وزلاته.

﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَآئِفَةٍ مِّنْكُمْ﴾ علم الله تعالى أنهم سيتوبون عن نفاقهم، ويُخلصون في إيمانهم.

﴿نَعَذَّبَ طَآئِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي: بسبب أنهم مصرون على النفاق متمسكون بالإجرام.

قال ابن إسحاق: كان جماعة من المنافقين منهم وديعة بن ثابت، ورجلٌ من أشجع يقال له: مخشي بن حمير، يسيرون مع رسول الله ﷺ، وهو منطلقٌ إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: «أتحسبون جِلاَدَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟! والله لكأننا بكم غداً مقرنين في الجبال» إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا، فاسألهم عما قالوا، فإن أنكروا فقل: بل قتلتم كذا وكذا» فانطلق إليهم عمار، فقال لهم ذلك، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب. وقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أبي. فكان الذي عُفي عنه في هذه الآية مخشي بن حمير، فتسمَّى عبد الرحمن، وسأل الله أن يقتل شهيداً لا يُعلمُ بمكانه، فقتل يوم اليمامة<sup>(٢)</sup>.

#### • اختلال الموازين وانعكاس القيم:

وللمنافقين صفات خاصة يتميزون بها عن المؤمنين، بينها سبحانه بقوله:

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي: يشبه بعضهم بعضاً، فهم من

(١) روح المعاني: ١٣١/١٠.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٥٣/٢.

طينة واحدة، وطبيعة واحدة، ولو اختلفت أفعالهم وأقوالهم، لأنها ترجع إلى أصل واحد، وتنبع من معين واحد، وهو سوء الطويّة، ولؤم السريرة، والغمز والدس، والضعف عند المواجهة، والجبن عن المصارحة<sup>(١)</sup>.

تلك هي الصفات العامة لهم، وأما سلوكهم:

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ مما يدلُّ على مدى الخلل والاضطراب في نفوسهم، حتى انعكست القيم في نظرهم، فأصبح المنكر معروفاً، يأمرون به، ويدعون إليه، وأصبح المعروف عندهم منكراً، يمتقونه ويمنعون، وهو ما نراه في عصرنا الحاضر فاشياً في كثير من المجتمعات، حتى الإسلامية منها، مما يدلُّ على ذبوع النفاق وانتشاره الكبير بين الناس.

وفي الحديث الشريف: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف بكم إذا فسق فتيا نكم، وطغى نساؤكم؟» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟! قال: «نعم وأشدُّ، كيف أنتم إذا لم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر؟» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟! قال: «نعم وأشدُّ، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر، ونهيتم عن المعروف؟» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟! قال: «نعم وأشدُّ، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؟» قالوا: يا رسول الله وإن ذلك لكائن؟! قال: «نعم» [رواه رزين].

﴿وَيَقِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ عن الإنفاق في سبيل الله، وإذا ما أنفقوا شيئاً، أنفقوه كارهين أو مرأئين.

﴿سُئِلُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: تركوا طاعة الله، وغفلوا عن ذكره، فحرمهم من رحمته وعفوه يوم القيامة، والجزاء من جنس العمل، كما جاء في قوله تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَ أَعْيُنُنَا فَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نَسْفَعُ

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٦٧٣.



أي: تعامل معاملة المنسي، والله سبحانه منزه عن النسيان ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون على ربهم، والخارجون عن طاعته.

#### • المنافقون والمستغربون:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٦٨).

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ﴾ أي: هي كافيتهم، فعذاب جهنم عذاب عظيم بلغ الغاية، فلا زيادة عليه. ﴿وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أبعدهم من رحمته، وطردهم من ساحة فضله وإحسانه. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ معهم في الدنيا لا ينفك عنهم، وهو ما مرّ معنا من الخوف والقلق والاضطراب.

ومع هذا الوعد القطعي دعتهم الآيات إلى التوبة والإنابة، فباب التوبة - كما سبق معنا - مفتوح، فلا يأس من رحمة الله، وطلبت منهم أن يعتبروا بمصير المعاندين المكذبين من قبلهم:

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حِطَّةَ آعْمَالِهِمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (٦٩).

﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَكَثَرَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ﴾ أي: تمتعوا بنصيبيهم المقدر لهم من شهوات الدنيا وحظوظها. ﴿فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ﴾ مقتفين آثارهم دون أن تنظروا في مصيرهم. ﴿كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ﴾ في التمتع بشهوات الدنيا،

فمتاع الدنيا مقدر، ولا يستطيع طلاب الدنيا وعبيد متاعها أن يأخذوا منه إلا ما قَدَّر لهم .

﴿وَحُصِّمْتُ﴾ في الباطل .

﴿كَأَلَيْذِ خَاضُوا﴾ أي: كخوضهم في الباطل، فأنتم تقلّدونهم في باطلهم وشهواتهم فقط، تماماً كما هو حال المستغربين من أبناء المسلمين، يقلّدون الكفار في باطلهم وشهواتهم فقط .

﴿أُولَئِكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فلا هم من أبناء الدنيا ولا من أبناء الآخرة .

والآية تذكّر المنافقين في قولهم الذي مرّ معنا من قريب: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥] .

ثم صرحت لهم الآيات ببعض أولئك الذين استمتعوا بنصيبهم المقدر لهم من الدنيا، وكيف أعرضوا عن دعوة المرسلين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾ مدائن لوط .

﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ باتباعهم للشهوات، وإعراضهم عن البيّنات .

#### • مقارنة:

ثم عقدت الآيات الكريمة مقارنةً بين ما سبق من صفات المنافقين وسلوكهم ومصيرهم، وبين صفات المؤمنين وسلوكهم ومصيرهم، قال تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ .

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ في التناصر والتكافل والتعاون .

﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ خلافاً للمنافقين الذين يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف .

﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ بينما المنافقون لا يأتون الصلاة إلا وهم

كسالى، ويقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله، كما مر معنا .

﴿وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، بينما المنافقون: ﴿سَأُوا اللَّهَ فَدَسَسَهُمْ إِنَّكَ الْمُنْفِقِينَ

هُمُ الْفٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧] .

ولهذا كان مصير المؤمنين متميزاً عن مصير المنافقين:

﴿أُولَئِكَ﴾ المؤمنون .

﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ . ومن رحمته تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ

طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ .

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ

طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ حيث الإقامة الدائمة .

ولمَّا سئل ﷺ عن بناء الجنة قال: «لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها

المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، مَنْ يَدْخُلُهَا يَنْعَمُ

لَا يَبْأَسُ، وَيَخْلُدُ لَا يَمُوتُ، لَا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلَا يَفْنَى شِبَابُهُ» [رواه أحمد (٣٠٥/٢)] .

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَغُرَفًا يَرَى

ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا» فقام أعرابي فقال: يا رسول الله لِمَنْ

هي؟ فقال: «لِمَنْ طَيَّبَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَأَدَامَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ» [رواه الترمذي (١٩٨٤)].

﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: أكبر وأعظم وأجلُّ مما في الجنة من النعيم، فلا يكتمل تلذذ أهل الجنة بنعيمها إلا برضا الله تعالى عنهم، فمهما قدّم السيّد لعبده من أنواع المآكل الفاخرة والأشربة الرفيعة، لا يلتذُّ العبدُ بها ما دام يشعر أنّ سيده غير راضٍ عنه، فإذا ما أحسَّ برضاه، وعلم ذلك، كملت لذّته، وتمّت سعادته.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يدك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا ربّ، وقد أعطيتنا ما لم نعط أحداً من خلقك؟! فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا ربّ وأي شيء أفضل من ذلك؟! فيقول: أحلّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً» [رواه البخاري (٧٥١٨) ومسلم (٢٨٢٩)]. اللهم إنا نسألك رضاك والجنة.

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز بعده. فأين هذا المصير مما مرّ معنا في مصير المنافقين: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ وَاللَّهُ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

وفي الآية الكريمة دليلٌ قاطعٌ على أنّ اللذة المعنوية الروحية أعلى وأعظم من اللذة الجسدية المادية.

والنتيجة العملية لهذه المقارنة بين المؤمنين والمنافقين أنه سبحانه أمر النبي ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين، وتطهير المجتمع من شرهم ومكرهم:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ﴾ (٧٣).

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الجهاد الذي يتناسب مع كل فريق.

﴿وَأَعْلَظُ عَلَيْهِمْ﴾ وشدد عليهم، ولا ترفق بهم.  
﴿وَمَا وَنَلَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ إنها البلاغ الأخير والإنذار النهائي.

### • المنافقون كذابون:

يحاولون - كما مر معنا - ستر كذبهم بالأيمان:

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ أَيْمَانُ يَنَالُونَ  
وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَوَلُوا يَعَذِّبَهُمُ  
اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾﴾.

﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ أي: بعد أن أعلنوا الإسلام بألسنتهم.

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنت مع عمي، فسمعت عبد الله بن أبي ابن سلول يقول: «لا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا».

وقال أيضاً: «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعرض منها الأذل» فذكرت ذلك لعمي، فذكره عمي لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبني، فأصابني هم لم يصبني مثله، فجلست في بيتي، فأنزل الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ إلى قوله: ﴿يُخْرِجَنَّ الْأَعْرَضُ مِنْهَا الْأَذْلَ﴾ [المنافقون: ١ - ٨] فأرسل إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقرأها علي ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ» [رواه البخاري (٤٩٠١) ومسلم (٢٧٧٢) واللفظ للبخاري].

﴿وَهُمْ أَيْمَانُ يَنَالُونَ﴾ أي: هموا بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن الله عصمه من كيدهم، فلم يتمكنوا من ذلك.

ففي طريق العودة من تبوك اختار صلى الله عليه وسلم أن يمر بممر جبلي ضيق مشرف على واد عميق، فأرسل من ينادي في الجيش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد أن يسلك العقبة، فلا يسلكها أحد، واسلكوا بطن الوادي، فأسرع بعض المنافقين بعد أن اتتمروا

فيما بينهم على رسول الله ﷺ، فتلثموا، وحبسوا أنفسهم على رواحلهم قرب أول الممر، فلما بدأ رسول الله ﷺ في سلوك العقبة، غشيه المنافقون بإبلهم، فزحموا ناقته حتى سقط بعض متاعه، ولكن الله تعالى عصم نبيه عليه الصلاة والسلام، فقام حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بردّهم، وضرب وجوه رواحلهم، فانحطوا إلى الوادي مسرعين، واختلطوا بالناس مستترين بظلام الليل.

﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: وما للرسول عندهم ذنب إلا أن الله أغناهم ببركته ويؤمن سعادته، لما جاء به.

وهذه الصيغة تقال حيث لا ذنب<sup>(١)</sup>، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

ورغم جريمتهم الكبيرة هذه رغبهم سبحانه بالتوبة، فقال:

﴿فَإِنْ يَتُوبُوا يَكْ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة.

ثم هددهم وتوعدهم في حال الإعراض عن التوبة والإصرار على النفاق:

﴿وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

نَصِيرٍ﴾.

#### • المنافقون انتهازيون وصوليون:

﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَاهُ مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٧٥).

هذه شريحة أخرى من شرائح المنافقين، تبرز الانتهازية والوصولية في سلوكهم، أعلنوا الإسلام بألسنتهم، وقطعوا على أنفسهم العهود والمواثيق حتى يصلوا إلى مآربهم، ويحققوا مصالحهم.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَحَلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧٦).

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَحَلُوا بِهِ﴾ أي: لما حقق الله تعالى لهم مرادهم،

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٥٧/٢.

ووسع عليهم أرزاقهم، منعوا الحقوق التي أوجبها سبحانه في أموالهم كالزكاة والنفقات الواجبة عليهم.

﴿وَتَوَلَّوْاْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ ورفضوا الانقياد لأمره تعالى، وهم مصرّون على ذلك. فماذا كانت النتيجة؟:

﴿فَاعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (٧٧).

﴿فَاعْقَبَهُمْ﴾ أي: جعل تعالى عاقبة انتهازيتهم ووصوليتهم.

﴿نِفَاقًا﴾ ملازماً لهم راسخاً.

﴿فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ في آخر حياتهم، حين تحينُ آجالهم، وتنتهي أعمارهم.

﴿بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بسبب إخلافهم الوعد وكذبهم.

فما أجرأهم على الله تعالى! وما أجهلهم بصفات كماله وجلاله!.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ﴾ (٧٨).

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ أي: يعلم ما أضمروه في أنفسهم، وما تحدّثوا به سرّاً فيما بينهم.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّمَهُ الْغَيْبِ﴾ لا تخفى عليه غائبة سبحانه.

#### • اللَّمَّازُونَ:

ومع اجتماع كلِّ هذه العيوب والقبائح في المنافقين، فألسنتهم طويلة وحادة، فلم يسلم أحدٌ من عيبتهم وطعنهم، فعندما رغب النبي ﷺ المسلمين في الإنفاق في سبيل الله لتجهيز جيش تبوك، استجاب المؤمنون لأمر رسول الله ﷺ، فأنفق الأغنياء أموالاً كثيرة، وقدّم الفقراء كلَّ ما يستطيعون، حتى إنَّ

بعضهم آجر نفسه في أعمال شاقة لكي يتصدق بأجرته، ويكون له سهم في نفقة جيش تبوك، فطعن المنافقون على الأغنياء والفقراء، ولم يسلم أحد منهم.

عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: لَمَّا أَمَرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ - وفي رواية: نحامل، أي: نؤاجر أنفسنا في الحَمْلِ - فجاء أبو عقيل بنصف صاع، وجاء إنسانٌ بأكثر منه، فقال المنافقون: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ صَدَقَةِ هَذَا، وما فعل هذا الآخر إلا رِئَاءً، فنزلت: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ الآية. [رواه البخاري (١٤١٥) ومسلم (١٠١٨) واللفظ للبخاري].

﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يُعيبون المتطوعين.

﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي: ويعيبون أيضاً المقلين الفقراء الذين لا يجدون شيئاً ينفقونه إلا ما حصلوه بمشقة وعناء، والله سبحانه يقبل القليل والكثير، ما دام صاحبه يبتغي به وجه الله تعالى، ورُبَّ درهمٍ سبق ألف درهمٍ بسبب إخلاص صاحبه.

﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي: ومع ذلك فإن المنافقين يسخرون منهم ويستهزئون بهم.

﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي: جازاهم سبحانه على سخريتهم، والجزاء من جنس العمل، أو هو دعاء عليهم.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ مقدّر ومقرّر، لا يدفعه عنهم استغفار أحد أبداً.

﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ أي:



مهما بالغتَ في الاستغفار لهم، فلن يغفر الله تعالى لهم.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والله سبحانه لا يغفر لكافر أصراً على الكفر حتى مات عليه، فهو حكم قطعي حاسم نهائي جاء في سورة البلاغ الأخير.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أي: لا يوفقهم للإيمان بسبب إصرارهم على نفاقهم وفسقهم، كما في قوله سبحانه: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ الَّذِينَ يَنْفُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة].

#### • الضاحكون قليلاً والباكون كثيراً:

وكيف يهديهم الله تعالى، وهم يكرهون كل ما يقربهم إليه تعالى، ويفرحون بما يسخطه سبحانه عليهم، يكرهون الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد، ويفرحون بالتخلف عنه:

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾.

﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ أي: بقعودهم عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى الجهاد.

وذلك فرحهم على كراهيتهم للجهاد في سبيل الله تعالى:

﴿وَكَرَهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾، فبين فرحهم بالتخلف وكراهتهم للجهاد ارتباط وثيق، يدلُّ على رسوخ الكفر والنفاق في أعماق قلوبهم، فقد يضعف الإنسان المؤمن أحياناً أمام نفسه، فيتخلف، ولكنه لا يفرح بتخلفه، بل يأسف بعد ذلك على تخلفه ويتألم، ويُقبل على نفسه يلومها، كما فعل الثلاثة من المؤمنين الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ، وسيأتي معنا إن شاء الله تفصيل خبرهم عند الآية [١٠٦].

وجعلتهم كراهيتهم للجهاد يثبطون غيرهم عنه:  
﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ حرّ الصيف الذي خرج فيه النبي ﷺ إلى تبوك،  
وكان صيفاً حاراً.

﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ فلو أن لديهم فهم ما فرّوا من حرّ  
الصيف إلى حرّ جهنم، التي يزيد حرّها على حرّ الدنيا أضعافاً كثيرة.

قال رسول الله ﷺ: «ناركم هذه التي يوقد ابن آدم، جزء من سبعين جزءاً  
من حرّ جهنم» قالوا: والله إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: «فُضِّلْتُ عَلَيْهَا  
بتسعة وستين جزءاً كلّها مثل حرّها» [رواه البخاري (٣٢٦٥) ومسلم (٢٨٤٣)].

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ في الدنيا.

ومهما ضحك الإنسان في الدنيا فضحكه قليل، لأن أيام الفرح والسرور  
في الدنيا قليلة مهما طال، فالدنيا زائلة، والحياة فيها قصيرة، ومن كثر ضحكه  
في الدنيا زاد بكاؤه يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم  
لضحكتكم قليلاً ولبكيتم كثيراً» [رواه البخاري (٤٦٢١)].

﴿وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا﴾ في الآخرة.

﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وجاء الخبر بلفظ الأمر لتحديدهم وإظهار ضعفهم وعجزهم عن الإفلات  
من المصير الأليم الذي ينتظرهم.

• إسقاط وحرمان:

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا  
مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَائِفِينَ﴾.

﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: إن ردك الله إلى المتخلفين من

المنافقين، أو إلى من بقي منهم، إذ مات بعضهم في أثناء سفره عليه الصلاة والسلام إلى تبوك.

﴿فَاسْتَدْرَكَ لِلْخُرُوجِ﴾ معك إلى غزوة أخرى.

﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقْبَلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾ وبهذا حرم الله المنافقين المتخلفين عن رسول الله ﷺ من شرف الجهاد معه، وأسقطهم من مقام صحبته عليه الصلاة والسلام سقوطاً قطعياً مؤبداً.

وسبب هذا الحرمان القطعي المؤبد، بينه سبحانه بمواجهتهم بتقاعسهم وتخلفهم:

﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْعُقُودِ أَوْلَٰ مَرَّةٍ﴾ عندما استنفرتم للخروج إلى تبوك، فسبب الحرمان نابع منكم، من كسبكم واختياركم.

﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ المتخلفين من أصحاب الأعدار كالمرضى والنساء والصبيان، فلا تصلحون لجهاد، ولا خير يرجى منكم.

وكما حرمهم سبحانه في الدنيا من شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ، حرمهم أيضاً من استحقاق التكريم بعد الموت، قال تعالى:

﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِي قَبْرَهُ وَلَا نَقُومُ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۗ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَمَاتُوا وَهُمْ

فَلَسِقُونَ ﴿٨٤﴾

﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّا تَأْتِي قَبْرَهُ وَلَا نَقُومُ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۗ﴾

فمن المعلوم المشروع أنَّ المسلم يكرّم بعد موته، بتغسيله وتكفينه والصلاة عليه والاستغفار له، ويجبُ على المسلمين أن يقوموا بذلك، ومن السنّة بعد دفنه أن يقوموا عند قبره، يسألون الله تعالى له التثبيت والمغفرة وهو يُسأل في قبره.

والمنافق محرومٌ من كل هذا، لأنّ نفاقه قطعه عن المؤمنين، وعندما مات رأسُ المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، جاء ابنه عبد الله ﷺ - وكان من

خيار شباب الأنصار - إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر رضي الله عنه فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا خَيْرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيده على السبعين» قال: إنه منافق. قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ﴾. [رواه البخاري (٤٦٧٢) ومسلم (٢٧٧٤) واللفظ للبخاري].

ثم بين سبحانه سبب النهي عن الصلاة عليهم، فقال:

﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: «أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يبرأ من المنافقين، وألا يصلي على أحد منهم إذا مات، وألا يقوم على قبره ليستغفر له، أو يدعو له، لأنهم كفروا بالله ورسوله ﷺ، وماتوا عليه، وهذا حكم عام في كل من عرف نفاقه»<sup>(١)</sup>.

وهذا يبين لنا أن البراءة المعلنة في أول السورة براءة من جميع أصناف المشركين والكفار، وأنها شاملة للحياة وبعد الممات، وأنها أيضاً براءة قطعية نهائية. وعادت الآيات مرة ثانية تربي المؤمنين، وتنهاهم عن الإعجاب بما في أيدي الكافرين والمنافقين من الأموال والأولاد، ووجهت الخطاب للنبي ﷺ لأنه القدوة الحسنة للمؤمنين والمثل الأعلى لهم:

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ

كَافِرُونَ﴾ (٨٥).

﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا﴾ بجمعها وتثميرها

وحفظها. ثم بعد ذلك:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٦١/٢.

﴿وَتَزَهَّقَ أُنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فهم الأشقياء المعذبون في الحياة والممات .  
ويدلُّ تكرار النهي عن الإعجاب بما لدى المنافقين من متاع الدنيا  
وزينتها، على خطورته على المؤمنين، وقد فُتِنَ كثير من المسلمين بسبب ما يرون  
من متاع الدنيا وزخارفها عند الكافرين والمنافقين، وخاصة في عصرنا الحاضر،  
إنهم يظنون أنهم سعداء بما في أيديهم، ولو أمعنوا النظر في حياتهم لعرفوا مدى  
شقائهم وعنائهم، فالقلق والاضطراب وتعب القلوب والأعصاب وكثرة  
المشكلات، سُحِبَ كثيفة ذاتُ ظلال سود قاتمة تغطي حياتهم، وتعكّر عيشتهم .  
ومما يدلُّ على شدة إصرار المنافقين على تخلفهم عن الجهاد مع رسول الله  
ﷺ أنهم كلما أنزل الله تعالى سورة تأمر بالجهاد مع رسول الله ﷺ تقاعسوا وتخلفوا:

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا  
نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ (٨٦)

﴿وَإِذَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي:  
أصحاب القوة والغنى من المنافقين .  
﴿وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ من الضعفاء والعاجزين .  
وكأنه سبحانه أراد بهذا أن يبين كلمته فيما شرع من حرمانهم الدائم من  
شرف الخروج إلى الجهاد:

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (٨٧)

﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ مع أنهم أقوياء أغنياء .  
﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: وختم الله على قلوبهم بسبب  
نفاقهم حتى أصبحوا لا يميّزون بين ما ينفعهم وما يضرهم .  
فأين حال هؤلاء المتقاعسين المتخلفين من حال المؤمنين المليين للدعوة  
والمسارعين إلى الجهاد؟! .

وقد عوّدنا سبحانه في هذه السورة على مقارنة أحوال المنافقين بأحوال المؤمنين، ولهذا قال تعالى:

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأَوْلِيَّكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾﴾ .

﴿لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ ولم يتخلفوا كما فعل المنافقون .

﴿وَأَوْلِيَّكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ﴾ في الدنيا والآخرة .

﴿وَأَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالمطالب الرفيعة في الدنيا والآخرة:

﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾ .

#### • البحوث والمنقّرة:

وامتدَّ حديثُ الآيات الكريمة في سورة التوبة عن المنافقين وتشعب، مما يدلُّ على خطورة النفاق على سلامة المجتمع، وكانت الآياتُ ترصد أعمال المنافقين وتحركاتهم في كل مكان، ولهذا أطلق العلماء على هذه السورة اسم البحوث والمنقّرة، لأنها بحثت عن أحوالهم، ونقّرت وفتّشت عنهم في كل مكان، وهاهي الآياتُ الكريمة تنتقل من المدينة إلى البادية لتتحدّث عن المنافقين من الأعراب في باديتهم؛ قال تعالى:

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ .

﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ أي: جاء المعتذرون من أعراب

البادية إلى رسول الله ﷺ ليأذن لهم في التخلف عن الخروج إلى تبوك .

﴿وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهم المنافقون من الأعراب الذين لم يجيئوا

ولم يعتذروا، فظهر بذلك نفاقهم، وأنهم كذبوا الله ورسوله ﷺ في ادعائهم الإيمان.

﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ أي: سيصيب الذين يصرون على الكفر حتى يموتوا عليه:  
﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

#### • الأعداء المشروعة للتخلف عن الجهاد:

وبمناسبة الحديث عن المعتذرين من الأعراب، بين الله سبحانه الأعداء المشروعة التي يجوز لأصحابها أن يتخلفوا بسببها عن الخروج إلى الجهاد في حال النفير العام، عندما يكون الجهاد فرض عين على كل مستطيع له؛ فقال:

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٩١).

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ﴾ بسبب صغر أو كبر.

﴿وَلَا عَلَى الْمَرْضَى﴾ الذين يمنعهم المرض عن الجهاد.

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾ ليؤمّنوا لأنفسهم مؤونة السفر والسلاح، إذ كان المجاهدون في عهد النبي ﷺ مكلفين أن يؤمّنوا لأنفسهم كل ما يحتاجون إليه من عتاد وسلاح، وأما إذا تكفّلت الدولة لهم بنفقات الجهاد، كما هو الحال في العصر الحاضر، فلا عذر لهم في التخلف.

﴿حَرَجٌ﴾ إثم في التخلف عن الخروج إلى الجهاد.

فهؤلاء الأصناف الثلاثة معذورون شرعاً في التخلف:

﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: إذا أخلصوا في إيمانهم بالله تعالى وطاعة رسوله عليه الصلاة والسلام، ومن النصح لله ورسوله ﷺ أن يحافظوا على مصالح الأمة في غياب المجاهدين، وأن يحترزوا عن إشاعة الأراجيف

والأكاذيب، وإثارة القلاقل والفتن، وأن يقدموا مشورتهم ونصحهم إلى المجاهدين، إن كانوا من أهل الدراية والخبرة في شؤون القتال.

فمن تميم الداري رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ قال: «الدين النصيحة» قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم» [رواه مسلم (٥٥)].

فليس على من أحسن ونصح في تخلفه عن الجهاد بعذر مشروع لوم يلام عليه أو عقاب يعاقب بسببه، فقد سد بإخلاصه ونصحه كل سبيل إلى لومه وعقابه.

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يغفر لهم ويرحمهم ويشيهم على نصحهم وإخلاصهم.

قال رسول الله ﷺ: «إن بالمدينة رجالاً، ما سرتهم مسيراً، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم، حبسهم المرض» وفي رواية: «إلا شركوكم في الأجر» [رواه مسلم (١٩١١)].

ولما رجع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك، ودنا من المدينة المنورة قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتهم من مسير، ولا قطعتم وادياً، إلا كانوا معكم فيه» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر» [رواه البخاري (٤٤٢٣)].

#### • دموع خالدة:

ومن هؤلاء الذين أثنى عليهم رسول الله ﷺ فريق البكائين، الذين بلغ بهم حُب الجهاد والخروج مع رسول الله ﷺ حداً جعلهم يبكون ويذرفون الدمع أسفاً، لأنهم لم ينالوا شرف الجهاد مع النبي ﷺ، ولم يستطيعوا الخروج معه إلى تبوك، وقد خلّد الله تعالى دموعهم في التنزيل الحكيم، فقال:

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحْضَاكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ (٩٢).

﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ﴾ أي: لا حرج ولا إثم على الذين إذا



ما أتوك يطلبون منك أن تعطيتهم ظهراً يحملهم معك إلى تبوك، إذ كانوا فقراء لا يملكون ثمن راحل يرتحلون عليها .

﴿قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ بسبب أنه ﷺ أنفق كل ما كان عنده، وما جمعه، فلم يبقَ عنده شيء يقدمه لمن بقي من فقراء المجاهدين من حمولة وظهر .

﴿تَوَلَّوْا﴾ أي: تركوا رسول الله ﷺ، وابتعدوا عنه، كأنهم يريدون أن يخفوا شدة وجدهم وانكسارهم ودموعهم عن رسول الله ﷺ .

﴿وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ أي: تسيل من الدمع، فكأن أعينهم صارت كلها دمعاً فياضاً، وهو أبلغ من القول: أعينهم يفيض دمعها .

﴿حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ على أنفسهم لكي يخرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك .

وما كان الخروجُ إلى تبوك أمراً سهلاً كالخروج إلى نزهة، لقد كان كما مرَّ معنا في صيف حارٍّ لاهب، في وقتٍ طابت فيه الظلال، ونضجتِ الثمار، والمسافة بعيدة، تحتاج إلى السير مدةً شهر كامل في صحراء جرداء محرقة جافة، ولهذا سمى سبحانه زمن غزوة تبوك: ساعة العسرة، كما سيأتي معنا، وسمَّى الجيش الذي خرج معه: جيش العسرة، لكثرة ما عانوا من عسرة الطريق ومشاقه، وزاد في معاناتهم قلة الظهر والزاد والماء .

ورغم كلِّ هذا بكى فقراء المؤمنين الذين لم يجدوا ما ينفقون أسفاً وحزناً لما فاتهم من شرف الخروج مع النبي ﷺ إلى تبوك، بينما فرح المنافقون أولو الطول والغنى والسعة، بسبب قعودهم وتخلفهم؛ فما أعظم الفرق بين الفريقين! فريق البكائين، وفريق الفرحين الضاحكين، الفريق الذين فاضت عيونهم دمعاً، والفريق الذين اهتزت أصدقُهم وبطونهم ضحكاً، والذين توجهت الآيات باللوم والتفريع إليهم:

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٩٣)

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُوكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ رضوا بالدناءة والضعفة والانتظام في جملة الخوالف من العجزة والمرضى والصغار والنساء<sup>(١)</sup>.

﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ حقيقة الجهاد وثوابه وشرف الخروج مع رسول الله ﷺ.

والجديرُ بالذكر هنا أنَّ رسول الله ﷺ كان يقدرُ مشاعر الفقراء من أصحابه، وكان يشاركهم مشاعرهم وأحاسيسهم، حتى إنه أحياناً كان يترك الخروج إلى الجهاد مواساةً لهم، مع حبه الشديد للجهاد، وقد صرح ﷺ بذلك فقال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده لولا أن يشقَّ على المسلمين، ما قعدتُ خلافَ سريةٍ تغزو في سبيلِ الله أبداً، ولكن لا أجدُ سعةً فأحملهم، ولا يجدون سعةً، ويشقُّ عليهم أن يتخلفوا عني» [رواه البخاري (٣٦) ومسلم (١٨٧٦)].



(١) انظر: تفسير الخازن: ١٧٨/٣.

## الْبَيْتُ الرَّابِعُ

### مَعَ الْمُؤْمِنِينَ بَعْدَ تَبُوكِ تَحْذِيرَاتٍ وَإِرْسَادَاتٍ

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ بَيَّأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِيُتَعَرَّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُنْفِقُ مَعْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَالسَّيْفُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَىٰ النِّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ حُذِّمْنَا مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِنَّمَا

يُعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ<sup>١١٦</sup> وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿١١٦﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفَرُّقًا  
بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِزْكَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ وَاللَّهُ  
يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسَسَّ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ  
فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَظْهَرُوا<sup>١١٨</sup> وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١١٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى  
تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُيُوتَهُ عَلَى شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَاهَا بِيَهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ  
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١١٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ  
قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ ﴿١٢٠﴾ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ  
لَهُمُ الْجَنَّةَ يَفْعَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ  
وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ  
هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢١﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْحِدُونَ الْأَحْمَدُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْحِدُونَ الْأَحْمَدُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَنِيفُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ مَا كَانَتِ لِلنَّبِيِّ  
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ  
أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٢٣﴾ وَمَا كَانَتِ اسْتَغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأبيه إِلَّا عَنِ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا  
بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١٢٤﴾ وَمَا كَانَتِ اللَّهُ يُضِلُّ قَوْمًا بَعْدَ  
إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيَّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ  
وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٦﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى  
النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ  
فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٧﴾ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ  
إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ  
ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا  
مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٢٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنِ رَسُولِ اللَّهِ  
وَلَا يَرْعَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَنِ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخَصَصَةٌ فِي  
سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوَّفُ مَوْطِنًا يَغِيظَ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنَ عَدُوِّ نَبِيٍّ إِلَّا كُيِّبَ لَهُمْ

بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٦﴾ وَلَا يُفْقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْفَرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرٌ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَبِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ ءِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ ءِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٣٠﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٣١﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣٢﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٣٣﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٣٤﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٣٥﴾ .

### • تحذير المؤمنين من خداع المنافقين:

بعد أن انتهت الآيات من بيان مواقف المنافقين من غزوة تبوك، وتفصيل شرائعهم، اتجهت بالخطاب إلى المؤمنين تحذِّرهم من كيد المنافقين وخداعهم، وترسُّم لهم أسلوب التعامل معهم؛ قال تعالى:

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَالِيِّ وَاللَّهِ هَادِي السُّبُلِ ﴿٩٤﴾﴾ .

﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: يعتذر المنافقون إليكم أيها المؤمنون إذا رجعتم إليهم من غزوة تبوك.

﴿قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ﴾ أي: لن نصدقكم، لأن الله سبحانه قد كشف لنا أمركم:

﴿قَدْ بَيَّنَّا اللَّهُ مِنْ أَعْبَارِكُمْ﴾ وأظهر أسراركم، وفضح نفاقكم.

﴿وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ في المستقبل، أتوبون وتتعتون بما مضى، أم تصرون على نفاقكم؟.

﴿ثُمَّ تَرُدُّونَ﴾ بعد الموت.

﴿إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ويجازيكم عليه.

ويقدم المنافقون مع أعذارهم الواهية أيمانهم الكاذبة، كما مر معنا:

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَلَّهُمْ جِهَتُهُمْ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ من غزوة تبوك.

﴿لِنُعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لتعرضوا عن لومهم وتوبيخهم على تخلفهم، وتصفحوا عنهم.

﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ لا إعراضٍ صفحٍ ورضا، كما أرادوا، بل إعراضٍ اجتنابٍ وكرهٍ واحتقارٍ. والسبب:

﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ قَدْرٌ وَحَبْثٌ، ومن شأن الرجس أن يُجْتَنَبَ ويكره ويُنبذ، فبواطنهم خبيثة نجسة، وأعمالهم قبيحةٌ قدرٌ، ولهذا أعطوا إعراضَ المقت والغضب، بدل إعراض العفو والصفح.

﴿وَمَا وَلَّهُمْ جِهَتُهُمْ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ باختيارهم وإرادتهم من النفاق.

وقد ينجح المنافقون بكلامهم المعسول وأيمانهم الكاذبة بخداع بعض المؤمنين، وكسب رضاهم، ولكنهم لا يستطيعون خداع الله تعالى عالم الغيب

والشهادة، الذي يعلم حقيقة ما يُخفون في صدورهم من حُبث ولؤم ونفاق، ولهذا قال سبحانه محذراً المؤمنين من التأثر بأقوال المنافقين وأيمانهم:

﴿يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِرِضْوَانَهُمْ فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ  
الْفَاسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ .

فلا قيمة لرضاكم بجانب رضا الله تعالى، ومن شأن المؤمن أن يكون رضاه تبعاً لرضا ربّه، فلا يرضى إلاّ عمّن يرضى الله تعالى عنه.

#### • جهل وحقاء:

وكذلك حذرت الآيات المؤمنين من منافقي الأعراب في البادية أيضاً، وجاء التحذير بأسلوب تنبيه المؤمنين إلى الصفات المذمومة في منافقي البادية:

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ  
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ .

﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أي: البدو الرّحل أشد في الكفر والنفاق من أهل الحواضر والمدن، لما فيهم من جفوة البادية وخشونة الحياة فيها. ولا شك أن للبيئة تأثيراً كبيراً على طباع الإنسان وأخلاقه؛ قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَكَنَ الْبَادِيَةَ جَفَا، وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى السُّلْطَانَ افْتِنَ» [رواه أبو داود (٢٨٥٩) والنسائي (١٩٥/٧) والترمذي (٢٢٥٦)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قدم ناسٌ من الأعرابِ على رسول الله ﷺ فقالوا: أتقبلون صبيانكم؟ فقالوا: نعم، فقالوا: لكننا والله ما نقبلُ، فقال رسول الله ﷺ: «وَأَمَلْتُ إِنْ كَانَ اللَّهُ نَزَعَ مِنْكُمْ الرَّحْمَةَ» [رواه مسلم (٢٣١٧)].

﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي: وهم أحرى أن يغلب الجهل عليهم بسبب قلة مخالطتهم للعلماء والوعاظ، وبُعدهم عن منابع العلم ومصادره.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوال عباده.

﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما قدره وشرعه.

فالواجب يقتضي من الدعاة والعلماء أن يأتوا الأعراب في منازلهم لنشر الدعوة بينهم، وتعليمهم أحكام دينهم، وكان رسول الله ﷺ يرسل أصحابه إلى القبائل لنشر الدعوة والعلم، وقد انتشر الإسلام نتيجة لذلك بينهم، وبقي بعضهم على الشرك، ووافق بعضهم أيضاً.

وقد بينَّ تعالى أصناف الأعراب هذه فقال:

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٩٨).

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا﴾ وهم المنافقون، فقد كانوا يرون أموال الزكاة التي كانوا يدفعونها كارهين غرامة وخسارة، ولا يرونها صدقة وعبادة تقربهم إلى الله تعالى.

﴿وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ﴾ أي: ينتظر هذا الصنف من الأعراب أن تنزل بكم أيها المسلمون تقلبات الزمان وصروفه ومصائبه، ليتملص من دفع الزكاة ويمنعها. وقد حدث هذا فعلاً كما أخبر سبحانه، فعندما توفي رسول الله ﷺ امتنع كثير من الأعراب عن دفع الزكاة.

﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وهذا دعاء عليهم بنحو ما كانوا يرجون حصوله للمؤمنين.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

#### • شهادة وبشارة:

وأما المؤمنون من الأعراب، فقال الله تعالى فيهم:



﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ اللَّهِ  
وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾

﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَتٍ عِنْدَ  
اللَّهِ﴾ أي: يجعل نفقاته التي ينفقها عبادةً يتقربُ بها إلى الله تعالى.

﴿وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ ويطلب أيضاً بنفقاته الفوزَ بدعوات الرسول ﷺ له،  
فقد كان رسول الله ﷺ يدعو للمتصدقين بالخير والبركة، ويستغفر لهم، كما  
سيأتي معنا.

﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ﴾ أي: إنَّ نفقتهم قربةً، أو إنَّ دعوات الرسول ﷺ عبادةً  
تقربهم إلى الله تعالى. وهي شهادة طيبة رفيعة من الله تعالى بصحة إيمانهم  
وإخلاصهم في عباداتهم.

وبعد هذه الشهادة الربانية، أتبع الله تعالى بها البشارة الكريمة:

﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ وهي أقصى ما يؤمله المؤمنون ويرجونه من رب  
العالمين، اللهم أدخلنا برحمتك يا أرحم الراحمين:  
﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

والجدير بالذكر أن النبي ﷺ أثنى على بعض القبائل العربية من سكان  
البوادي؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أسلمُ سالمها الله،  
وغفارُ غفر الله لها، أما إنِّي لم أقلها، ولكن قالها الله ﷻ» [رواه مسلم (٢٥١٦)].  
ولعلَّ النبي ﷺ أشار إلى ما في هذه الآية الكريمة.

وعنه أيضاً: أنه ﷺ قال: «قريشُ والأنصارُ ومُزَيْنَةُ وجُهَيْنَةُ وأسلمُ وغفارُ  
وأشجعُ، موالِيٌّ، ليس لهم مولى دونَ الله ورسوله» [رواه مسلم (٢٥٢٠)].

#### • فضيلة السابقين:

ثم عمَّم الله تعالى الثناء على جميع أبناء الأمة المسلمة، وخصَّ بالذكر

روادها الأوائل، السابقين على درب الإيمان والجهاد من المهاجرين والأنصار، فقال جلّ وعلا:

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهِجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْمُهِجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ الذين سبقوا إلى الإيمان والهجرة والنصرة، وللسابق فضل التقدم والسبق، ولهذا فضل الله تعالى الذين سبقوا إلى الجهاد بأموالهم وأنفسهم، فقال: ﴿لَا يَسْتَوِي مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلَ أَوْلِيَّتِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلَوْا وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

فلقد كان الحال في المراحل الأولى للدعوة الإسلامية شديداً، فما آمن في أثنائه إلا الصديقون، وأما بعد ذلك، وخاصةً بعد فتح مكة، فقد ظهر الإسلام وعزّ أهلُه، ودخل الناسُ في دين الله أفواجاً. وظهر بهذا فضلُ السيدة خديجة أم المؤمنين عليها السلام، فهي سبّاقة الخلق إلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم والدخول في الإسلام، فهي أول الناس إسلاماً باتفاق العلماء، وأول من صلّى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup>.

كما ظهر فضلُ أبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، عليهم السلام، وفضل الذين سبقوا إلى الإسلام بعدهم من المهاجرين والأنصار.

قال ابن كثير رحمته الله: «أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فإيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم وخيرهم

(١) تفسير الخازن: ١٨٤/٣؛ وانظر كتابنا: السيدة الأولى خديجة أم المؤمنين سبّاقة الخلق إلى الإسلام، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

وأفضلهم؛ أعني: الصديق الأكبر، والخليفة الأعظم أبا بكر رضي الله عنه! فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك<sup>(١)</sup>.

وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من سبهم فقال: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه» [رواه البخاري (٣٦٧٣) ومسلم (٢٥٤١)].

#### • شرط الإحسان:

﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ من بقية الصحابة، ومن جاء بعدهم، وسار على طريقهم إلى يوم الدين، وقد ذكر الله تعالى في التابعين شرطاً، وهو شرط الإحسان، ومعناه أن يقتدوا بالأعمال الحسنة التي كان عليها الصحابة رضي الله عنهم، وبهذا يُحسنون اتباعهم واقتفاء آثارهم.

ويدخل أيضاً في شرط الإحسان أن يذكروهم ذكراً حسناً، فلا يقولوا فيهم إلا قولاً حسناً، ولا يذكروهم إلا بخير، وهو أمر مطلوب في حق كل من توفاه الله تعالى من المسلمين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اذكروا محاسن موتاكم، وكفوا عن مساوئهم» [رواه أبو داود (٤٩٠٠) والترمذي (١٠١٩) وابن حبان (٣٠٠٩)].

وقال أيضاً: «لا تسبوا الأموات فإنهم أفضلوا إلى ما قدموا» [رواه البخاري (١٣٩٣) وابن حبان (٣٠١٠)].

ويتأكد هذا الأمر في حق الصحابة رضي الله عنهم، لقوله تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ولمَّا قيلَ للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: إن قوماً يشتمون أصحاب محمد

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٦٦/٢.

ﷺ! قالت: قطع الله عنهم العمل، فأحبب ألا يقطع عنهم الأجر. وقالت أيضاً: أمروا أن يستغفروا لأصحاب النبي ﷺ فسبوهم<sup>(١)</sup>.

ثم أخبر سبحانه برضاه عن الصحابة وعن كل من اتبعهم بشرط الإحسان في اتباعهم فقال:

﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بقبول طاعاتهم وعباداتهم وجهادهم، فلتقر أعينهم، ولتطمئن قلوبهم، فإنَّ أشدَّ ما يقلق الصالحين ألا يتقبل الله أعمالهم، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ بما أفاض عليهم من فضله وإحسانه ونعمه، ورضوا أيضاً بما شرع لهم وكلفهم، ورضوا أيضاً بما قدر عليهم.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّةٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الذي لا فوز بعده، فهو الفوز الحقيقي.

وتبيِّن الآية وحدة الطريق الذي جمع بين المسلمين: السابقين والتابعين، فالإسلامُ طريقٌ واحد، والقصدُ واحد، وهو الوصول إلى رضوان الله تعالى.

فيا فوزَ الثابتين على الطريق، حتى يكرمهم الله تعالى باللحاق بقافلة الصالحين: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تُوَفِّي مُسْلِمًا وَالْحَقْفَىٰ بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

#### • فن النفاق:

ولا تظننَّ أخي القارئ الكريم أنَّ الحديث عن المنافقين قد انتهى، فالنفاق أمره خطير وشأنه كبير، وشرائح المنافقين كثيرة، ومشكلاتهم كبيرة، وما كان حديث الآيات عن فضل السابقين من هذه الأمة وفضل التابعين لهم بإحسان إلا استراحة على طريق البراءة الذي جعلتنا آيات السورة نسلكه من أول آية فيها، وهاهي الآيات الكريمة تعود بنا إلى الحديث عن المنافقين على سبيل تحذيرنا من شر مكرهم وكيدهم:

(١) انظر كتابنا: عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء الإسلام، وهو من منشورات دار القلم بدمشق.

﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَعَدْنَاهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿وَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ﴾ والخطاب في الآية للصحابة في المدينة المنورة.

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ منافقون أيضاً.

﴿مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ﴾، أي: ألقوا فنَّ النفاق ومهروا فيه، فالنفاق فنٌّ لا يتقنه أي إنسان، لقد أصبح لهؤلاء المقيمين حول المدينة وبداخلها من المنافقين خبرة ودراية كبيرة في النفاق حتى إنك:

﴿لَا تَعْلَمُهُمْ﴾ يا نبيَّ الله ﷺ مع قوة فطنتك، وصدق فراستك إلا إذا

أعلمك الله تعالى بهم، لأنه سبحانه يعلمهم:

﴿نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾، فمهما احتاطوا في ستر نفاقهم، وتفننوا في مكرهم

واحتيالهم، فلا تخفى علينا حقيقتهم.

﴿سَعَدْنَاهُمْ مَّرَّتَيْنِ﴾ المرّة الأولى عندما تتولّى الملائكة قبض أرواحهم عند

موتهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال].

ويمكن أن تكون المرّة الأولى في الحياة الدنيا قبل الموت، بما يصيبهم من

همٍّ وقلق خشية أن يُفتضح أمرهم، وتظهر حقيقتهم، وبما يعانون أيضاً من التعب والشقاء في أموالهم وأولادهم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٨٥].

والمرّة الثانية تعذيبهم في قبورهم، وبعد المرّتين:

﴿ثُمَّ يَرُدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ في جهنم، حيث يعذبون فيها أشدَّ أنواع

العذاب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنْفِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

## • التوبة عن النفاق:

﴿وَأَخْرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ حَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ .

ولقد نجح أسلوب البلاغ الأخير الذي اتبعته الآيات الكريمة في سورة التوبة، الأسلوب الذي تضمّن فضح المنافقين بكشف حقيقتهم، وبيان صفاتهم التي تميزهم عن المؤمنين، وعزلهم ومقاطعتهم وردّ صدقاتهم، ومنعهم من الخروج إلى الجهاد مرة ثانية بعد تبوك، وتهديدهم بأشد أنواع العذاب، وترغيبهم بقبول توبتهم إن تابوا وأقلعوا عن النفاق.

وأثمر ثماراً طيبة، إذ صلح إيمان كثير منهم، وتابوا عن النفاق.

قال ابن حجر رحمته الله: (باب: ﴿وَلَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا نَقْمُ عَلَى قَرِيْبٍ﴾ [التوبة: ٨٤]) ظاهر الآية نزلت في جميع المنافقين، لكن ورد ما يدل على أنها نزلت في عدد معين منهم، قال الواقدي: أنبأنا معمر، عن الزهري قال: قال حذيفة: قال لي رسول الله ﷺ: «إِنِّي مُسِرٌّ إِلَيْكَ سِرًّا فَلَا تَذْكُرْهُ لِأَحَدٍ، إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَصَلِّيَ عَلَى فَلَانٍ وَفَلَانٍ» رهط ذوي عدد من المنافقين.

قال: فلذلك كان عمر إذا أراد أن يصلّي على أحد استتبع حذيفة، فإن مشى معه وإلا لم يصلّ عليه.

ومن طريق أخرى عن جبير بن مطعم أنهم اثنا عشر رجلاً... ولعلّ الحكمة في اختصاص المذكورين بذلك أن الله علم أنهم يموتون على الكفر، بخلاف من سواهم فإنهم تابوا<sup>(١)</sup>.

وفي «صحيح مسلم» [٢٧٧٩]: عن حذيفة قال: أشهد بالله أن اثني عشر منهم حربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

(١) فتح الباري: ٣٣٨/٨ مع اختصار قليل.

فبعد أن كان ثلث المدينة المنورة تقريباً من المنافقين، تاب أكثرهم عن النفاق، وحسن إيمانهم، فلم يبق فيها سوى اثني عشر منافقاً<sup>(١)</sup>، وفي هؤلاء التائبين عن النفاق قال سبحانه:

﴿وَأَخْرُونَ﴾ أي: وفريق آخر من المنافقين.

﴿أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: أقروا بنفاقهم وتخلفهم عن رسول الله ﷺ وغير

ذلك.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ أي: خلطوا بين أعمال المؤمنين الصالحة، وأعمال المنافقين السيئة، فتارة يفعلون فعل المؤمنين، وتارة يفعلون فعل المنافقين، ثم وفقهم الله تعالى للتوبة فتابوا، وأخلصوا الله تعالى أعمالهم. ولهذا قال سبحانه:

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عسى الله أن يقبل توبتهم، و(عسى) في كلامه تعالى تفيد الوجوب والتحقق، كما مر معنا في قوله: ﴿فَعَسَىٰ أَوْلَتْكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة: ١٨].

فمن أخلص الله تعالى في توبته، تاب عليه وقبل توبته، وهو سبحانه القائل: ﴿إِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]. وتأكيذاً لهذا المعنى ختم سبحانه الآية بقوله:

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

والآية وإن كانت في التائبين عن النفاق إلا أن حكمها عام ينسحب على جميع التائبين.

هذا المعنى الذي ذكرته في تفسير الآية أولى مما ذهب إليه جمهور المفسرين، ويتفق مع سياقها من آيات السورة أكثر، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الآية نزلت في بعض المتخلفين من المؤمنين، وهم أبو لبابة الأنصاري

(١) وكان للمعاملة الطيبة والموقف الكريم الذي وقفه رسول الله ﷺ من زعيم المنافقين عبد الله بن أبي عند موته، أثر أيضاً في توبة كثير منهم عن النفاق.

وجماعة معه، تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ثم ندموا وتابوا وربطوا أنفسهم في سواري المسجد، وحلفوا ألا يحلوا أنفسهم حتى يتوب الله عليهم.

وهذا الذي ذهبوا إليه رواية عن ابن عباس أخرجها البيهقي في «الدلائل»، وهي تخالف الرواية الصحيحة الثابتة عن كعب بن مالك رضي الله عنه في قصة تخلفه، وستأتي معنا، ففيها ما يدل على أن المتخلفين من المؤمنين عن تبوك ثلاثة فقط، تخلفوا من دون عذر مشروع، وليس أبو لبابة منهم، والمعروف أن أبا لبابة ربط نفسه في سارية المسجد في غزوة بني قريظة عندما أرسله النبي ﷺ إلى يهود بني قريظة ليطلب منهم أن ينزلوا من حصونهم على حكم الله ورسوله ﷺ فيهم، فلما كلمهم أشار إليهم إشارة إلى عنقه، فهموا منها أن الحكم هو قتلهم، وندم في الحال، وعلم أنه بهذه الإشارة قد خان الله ورسوله ﷺ، وذهب إلى المسجد وربط نفسه في سارية من سواريه، حتى حلّه رسول الله ﷺ بيده (١).

#### • الزكاة طهارة ونماء:

ثم أمر الله تعالى النبي ﷺ بقبض صدقات التائبين من المنافقين، وقبولها منهم، بعد أن كانت غير مقبولة منهم، كما مر معنا؛ فقال:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١٠٣).

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ من الذنوب والآثام، فالحسنة تمحو السيئة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِفَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّكِرِينَ﴾ [هود: ١١٤].

وقال رسول الله ﷺ: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلقٍ حسنٍ» [رواه الترمذي (١٩٨٧)].

(١) انظر: السيرة النبوية، لابن هشام: ١٤٣/٣.



﴿وَتُرَكِّبْهُمَا﴾ أي: وتنمِّي بها حسناتهم، وترفعهم إلى منازل المخلصين<sup>(١)</sup>.

ففي التزكية معنى النماء والبركة، وقد يجعل الله البركة والزيادة في أموالهم، ويكون المعنى: تنمي أموالهم ببركة أخذها منهم، والله سبحانه يبارك في المال المزكى، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]. وقال ﷺ أيضاً: ﴿يَمَحُّ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

وتدلُّ الآية على أنَّ لولي أمر المسلمين أن يأخذ الزكاة من المكلفين، ويجبرهم على دفعها له، كما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه عندما قاتل مانعي الزكاة، وقال: والله لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ الْمَالِ، وَاللَّهُ لَوْ مَنَعُونِي عَقَالاً كَانُوا يُوَدُّونَهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِقَاتَلْتَهُمْ عَلَى مَنَعِهِ. [رواه البخاري (١٤٠٠) ومسلم (٢٠)].

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ادعُ الله لهم، واستغفر لهم، فإنَّ أصلَ معنى الصلاة في اللغة الدعاء، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿وَيَتَّخِذْ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ﴾ [التوبة: ٩٩].

وفي الحديث الشريف: عن عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أتى بصدقة قوم صلَّى عليهم، فأتاه أبي بصدقته، فقال: «اللهم صلِّ على آل أبي أوفى» [رواه البخاري (١٤٩٧) ومسلم (١٠٧٨)].

﴿إِنَّ صَلَوَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ أي: إن دعاءك رحمةٌ لهم، وطمأنينة لقلوبهم ونفوسهم، لأنهم يستدلون بها على قبول الله تعالى لصدقاتهم. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

(١) تفسير البيضاوي: ١٨٩/٣.

## • الحث على التوبة والصدقة:

ثم أخبرهم سبحانه بأسلوب الاستفهام التقريري بقبول صدقاتهم، فقال:

﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ  
الرَّحِيمُ﴾ (١٠٣).

﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ وهي بشارة عظيمة للتائبين بقبول توبتهم، تُرْعَبُ بالتوبة وتحض عليها.

﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ أي: يقبلها سبحانه ويثيب عليها، وقد أسند تعالى أخذ الصدقات إلى نفسه، مع أن الذي يأخذها هو الإنسان الذي أوتيتها، لأنه سبحانه هو الذي شرع الزكاة وأوجبها، وهو أيضاً الذي يثيبُ عليها.

وفي هذا تعظيم لشأن الزكاة والصدقات، وبيان لأهميتها وشرفها ومكانتها الرفيعة عند الله تعالى، ألا ترى أنه سبحانه عندما أراد أن يعظم شأن بيعة الرضوان قال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

ومن هذا القليل الحديث القدسي الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ! مَرَضْتُ فَلَمْ تُعْذِنِي، يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُوذُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! قال: أما علمت أن عبدي فلاناً مَرَضَ فَلَمْ تُعْذِهِ، أما علمت أنك لو عُدْتَهُ لوجدتني عنده. يا ابن آدم! استطعمتك فلم تُطْعِمْنِي، قال: يا ربِّ وكيف أطعمتك وأنت ربُّ العالمين؟! قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلانٌ فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي. يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقني، قال: يا ربِّ كيف أسقيك وأنت ربُّ العالمين؟! قال: استسقاك عبدي فلانٌ فلم تسقه، أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي» [رواه مسلم (٢٥٦٩)].

وجاء أيضاً في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما تصدَّقَ أحدٌ بصدقةٍ من طيبٍ - ولا يقبلُ اللهُ إلا الطيبَ - إلا أخذها

الرحمنُ بيمينِهِ، وإنْ كانتْ تمرَّةً، فتربو في كفِّ الرحمنِ حتى تكونَ أعظمَ من الجبلِ، كما يرَبِّي أحدكم فُلُوهُ أو فَصِيلُهُ» [رواه البخاري (١٤١٠) ومسلم (١٠١٤)] واللفظ له]. والفلو: المهر. والفصيل: ولد الناقة.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ يقبل توبة التائبين ويرحمهم.

#### • الحرص على السمعة الحسنة:

﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فِسْرَى اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَارِدُونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنْتَقِمُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (١٠٥)

﴿وَقُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء التائبين:

﴿أَعْمَلُوا﴾ بطاعة الله تعالى، وأخلصوا له في عملكم.

﴿فِسْرَى اللَّهِ عَمَلِكُمْ وَرَسُولِهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: إنَّ عملكم لا يخفى على الله ولا على رسوله ﷺ ولا على المؤمنين، فسارعوا إلى أعمال الخير، وأخلصوا أعمالكم لله ﷻ (١).

ففي الآية تهديد بأنَّ عملهم لا يخفى على الله ورسوله ﷺ والمؤمنين. وفيها أيضاً ترغيبٌ بفعل الخير والإخلاص، فإنَّ مَنْ علم أنَّ عمله لا يخفى، سواء كان خيراً أو شراً، رغب في الخير، وتجنَّب الشر.

وكذلك فيها ترغيب من جانب آخر، وذلك أنه عليه الصلاة والسلام إذا رأى عملكم الصالح سرَّ بذلك، ودعا لكم، وإذا رآها المؤمنون أثنوا عليكم، وذكركم ذكراً طيباً حسناً، وكان لكم بينهم سمعة حسنة، وهو أمر مشروع يباين الرياء المذموم، لأنَّ الرياء أن تعملَ العملَ لأجل الشهرة والسمعة بين الناس، لا تقرباً إلى الله تعالى، وأمَّا الحرصُ على حُسنِ السمعة بين الناس بأن تنأى بنفسك عن مواضع التهمة والريبة، وأن تكون قدوةً حسنةً في فعل الخير، فهو

أمر مشروع، سأله إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤].

ويسأله المؤمنون أيضاً في دعائهم: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وهذا فضلاً عن الثواب يوم القيامة:

﴿وَسَارِدُونَ إِلَى الْعِلِيِّ وَالشَّهَدَةِ فَيَنْتَكِرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

#### • المتخلفون الثلاثة من المؤمنين:

كان بين المتخلفين عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ثلاثة من المؤمنين، تخلفوا من غير عذر، ولم يعتذروا للنبي صلى الله عليه وسلم بأعذار واهية كالمنافقين، بل أقروا له بذنبهم في التخلف، وهم كعب بن مالك الشاعر المعروف، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، قال تعالى فيهم:

﴿وَالْآخِرُونَ مَرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَالْآخِرُونَ﴾ أي: ومن المتخلفين آخرون.

﴿مَرَجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ أي: مؤخرون حتى يحكم الله تعالى فيهم، فالإرجاء

التأخير، وفي قراءة: (مُرَجَّوُونَ).

وأخر سبحانه أمرهم خمسين ليلة، كما سيأتي معنا في قصتهم، ولهذا

قال:

﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ فأمرهم موقوف بين هذين الأمرين.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

ولنستمع إلى قصتهم من كعب بن مالك رضي الله عنه وهو يتحدث عن تخلفه:

«لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير

أنِّي كنتُ تخلفتُ في غزوة بدرٍ، ولم يعاتبَ أحداً تخلفَ عنها.

كان من خبري أنني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفتُ في تلك

الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريدُ غزوةً إلا ورىَ غيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبل سفيراً بعيداً ومفازاً، وعدواً كثيراً، فجلى للمسلمين أمرهم، ليتأهبوا أهبةً غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتابٌ حافظٌ، فما رجلٌ يريد أن يتغيَّبَ إلا ظنَّ أن سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحي الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابتِ الثمارُ والظلالُ، وتجهَّزَ رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهَّزَ معهم، فأرجع ولم أقضِ شيئاً، فأقولُ في نفسي: أنا قادرٌ عليه.

فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدَّ بالناس الجِدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه، ولم أقضِ من جهازي شيئاً، فقلتُ: أتجهَّزُ بعده بيومٍ أو يومين، ثم ألحقهم.

فغدوتُ بعد أن فصلوا لأتجهَّزَ، فرجعتُ ولم أقضِ شيئاً، ثم غدوتُ، ثم رجعتُ ولم أقضِ شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو<sup>(١)</sup>.

وهمتُ أن أرتحلَ فأدرَكهم، وليتني فعلتُ، فلم يقدر لي ذلك، فكنتُ إذا خرجتُ في الناس بعدَ خروج رسول الله ﷺ، فطفئتُ فيهم، أحزنتني أني لا أرى إلا رجلاً مغموصاً عليه النفاق<sup>(٢)</sup>، أو رجلاً ممَّن عذر الله من الضعفاء.

ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغَ تبوك، فقال وهو جالسٌ في القومِ بتبوك: «ما فعلَ كعبٌ؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه بُرداه، ونظره في عِظهِ<sup>(٣)</sup>. فقال معاذُ بنُ جبلٍ: بئسَ ما قلتُ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً. فسكت رسول الله ﷺ.

(١) أي: فات وسبق.

(٢) أي: متهماً بالنفاق.

(٣) أي: منعه جمالٌ ثوبه ونظره إلى نفسه نظرة التكبر.

فلما بلغني أنه توجه قافلاً حضرني همي، وطفقت أتذكرُ الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غداً؟ واستعنتُ على ذلك بكلِّ ذي رأيٍ من أهلي.

فلما قيل: إنَّ رسولَ الله ﷺ قد أظَلَّ قادماً زاحَ عني الباطلُ، وعرفتُ أنني لن أخرج منه أبداً بشيءٍ فيه كذب، فأجمعتُ صدقَه.

وأصبح رسولُ الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسولُ الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفرَ لهم، ووكلَ سرائرهم إلى الله.

فجئته، فلما سلمتُ عليه تبسّم تبسّم الغضب، ثم قال: «تعال» فجئتُ أمشي حتى جلستُ بين يديه، فقال لي: «ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعتَ ظهرك؟».

فقلتُ: بلى إنّي والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا لرأيتُ أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلاً، ولكن والله لقد علمتُ لئن حدثتكَ اليومَ حديثَ كذبٍ ترضى به عني، ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليّ، ولئن حدثتكَ حديثَ صدقٍ تجدُّ عليّ فيه، إنّي لأرجو عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنتُ قط أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفتُ عنك.

فقال رسولُ الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

فقمْتُ، وثار رجالٌ من بني سلّمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنتَ أذنبت ذنباً قبلَ هذا، ولقد عجزتَ أن لا تكونَ اعتذرتَ إلى رسولِ الله ﷺ بما اعتذرَ إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسولِ الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنّبوني حتى أردتُ أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلتُ لهم: هل لقيَ هذا معي أحدٌ؟ قالوا: نعم، رجلانِ قالا مثلَ ما قلتُ، فقيل لهما مثلَ ما قيلَ لك، فقلتُ: مَنْ هما؟ قالوا: مُرارةُ بنُ الربيعِ العمريُّ، وهلال بن أمية الواقفي. فذكروا لي رجلين قد شهدا بداراً فيهما أسوة، فمضيتُ حين ذكروهما لي.

ونهى رسولُ الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة مِنْ بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ؛ فاجتنبنا الناسُ، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرضُ، فما هي التي أعرفُ، فلبثنا على ذلك خمسينَ ليلةً.

فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيانِ، وأما أنا فكنْتُ أَشَبَّ القومِ وأجلدهم، فكنْتُ أخرجُ فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ في الأسواقِ، ولا يكلمني أحدٌ، وآتي رسولَ الله ﷺ فأسلمَ عليه، وهو في مجلسه بعدَ الصلاةِ، فأقول في نفسي: هل حرَّكَ شفَّتيه بردُ السَّلامِ عليَّ أم لا؟ ثم أُصَلِّي قريباَ منه، فأسارِقُه النظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي أقبلَ إليَّ، وإذا التفتُ نحوَه أعرَضَ عني.

حتى إذا طالَ عليَّ ذلك من جفوةِ الناسِ، مشيتُ حتَّى تسوّرتُ جدارَ حائطِ أبي قتادةَ، وهو ابنُ عمِّي، وأحبُّ الناسِ إليَّ، فسلمتُ عليه، فوالله ما ردَّ السلامِ، فقلتُ: يا أبا قتادةَ أنشدك بالله هل تعلمني أحبُّ الله ورسولَه؟ فسكت، فعدتُ له فنشدته، فسكَّت، فعدتُ له فنشدته، فقال: الله ورسولُه أعلمُ، ففاضت عيناي، وتولَّيتُ حتَّى تسوّرتُ الجدارَ.

فبينما أنا أمشي بسوقِ المدينةِ إذا نبطيُّ من أنباطِ الشامِ مَمَّنْ قَدِمَ بالطعامِ يبيعه بالمدينةِ، يقول: مَنْ يَدُلُّ على كعبِ بنِ مالكٍ؟ فطفقَ الناسُ يشيرونَ له، حتى إذا جاءني دفعَ إليَّ كتاباً من ملكِ غسانِ، فإذا فيه: أمّا بعدُ، فإنَّه قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك اللهُ بدارِ هوانٍ ولا مَضِيعَةٍ، فالحقُّ بنا نواسك. فقلتُ لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاءِ. فتيَمَّمْتُ بها التُّورَ فسجَّرتُه بها.

حتى إذا مضتُ أربعونَ ليلةً من الخمسينِ، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إِنَّ رسولَ الله ﷺ يأمرُك أن تعتزلَ امرأتك. فقلتُ: أطلقها أم ماذا أفعلُ؟ قال: لا بل اعتزلها، ولا تَقْرَبْهَا. وأرسل إلي صاحبيِّ مثلَ ذلك، فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضيَ اللهُ في هذا الأمرِ.

فجاءت امرأةَ هلالِ بنِ أميةَ رسولِ الله ﷺ، فقالت: يا رسولَ الله إِنَّ هلالَ بنَ أميةَ شيخٌ ضائعٌ، ليس له خادمٌ، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا،

ولكن لا يقربك» قالت: إِنَّه والله ما به حركةٌ إلى شيءٍ، والله ما زال يبكي منذُ كان من أمرِهِ ما كان إلى يومه هذا.

فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنت رسولَ الله ﷺ في امرأتِكَ كما أذن لامرأةَ هلال بن أمية أن تخدمه. فقلتُ: والله لا أستأذنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدريني ما يقولُ رسولُ الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجلٌ شابٌّ.

فلبثتُ بعد ذلك عشرَ ليالٍ حتى كملتُ لنا خمسونَ ليلةً من حين نهى رسولُ الله ﷺ عن كلامنا. [رواه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ للبخاري] وستأتي بقية الحديث عند تفسير الآية [١١٨] من السورة.

#### • مسجد الضرار:

وأرجأت الآياتِ أمرَ هؤلاء الثلاثة كما أرجأ الله تعالى أمرهم، وشرعت تتحدّث عن شريحةٍ أخرى من شرائح المنافقين، بنوا مسجداً عُرفَ فيما بعدُ بمسجد الضرار، أنزل الله تعالى فيه قوله:

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا﴾ أي: بنوا مسجداً لأجل الضرر، إذ قصدوا الإضرار بالمسلمين من أهل مسجد قُباء.

﴿وَكَفْرًا﴾ أي: ولأجل تقوية الكفر والنفاق.

﴿وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ولأجل التفريق بين المؤمنين، الذين كانوا يصلُّون جميعاً في مسجد قُباء، فبنوا مسجد الضرار قريباً منه، ليصلِّي فيه بعضهم، مما يؤدي إلى الاختلاف وتفرُّق الكلمة.

﴿وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: وبنوه أيضاً ترقباً وانتظاراً لمن عادى الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام، وهو أبو عامر الفاسق، والد حنظلة، الذي استشهد في أحد وغسلته الملائكة.



وكان أبو عامر قد تنصّر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وكانت له مكانة كبيرة بين قومه الخزرج، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، وأصبحت كلمة الإسلام عالية فيها، وأعزّ الله المسلمين في غزوة بدر، فاض الحقد والحسد في قلب أبي عامر، فخرج إلى المشركين في مكة ممالئاً لهم على حرب رسول الله ﷺ، وقدم معهم إلى أحد، وحفر في أرض المعركة حفراً، وقع في إحداها رسول الله ﷺ.

وحاول أبو عامر قبل القتال أن يجعل قومه من الأنصار يخذلون رسول الله ﷺ، فردوا عليه ردّاً قبيحاً، ونالوا منه وسبوه، ودعا عليه رسول الله ﷺ قبل أن يخرج من المدينة إلى المشركين أن يموت بعيداً طريداً، فأصابته دعوة النبي عليه الصلاة والسلام، إذ خرج أبو عامر بعد أحد من أرض العرب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده هرقل ومناه، فكتب أبو عامر إلى جماعة من المنافقين يخبرهم أنه سيقدم بجيش كبير يغلب به رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يستقبلون فيه من يأتيهم من عنده برسائله، ويكون له مرصداً إذا قدم عليهم بنفسه.

فبنوا مسجد الضرار مجاوراً لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، وجاؤوا إليه ﷺ، وسألوه أن يأتي إليهم، فيصلي في مسجدهم، لكي يستروا أمرهم، ويحتجوا بصلاته عليه الصلاة والسلام، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء، فعصمه الله تعالى من الصلاة فيه، وقال: «إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله».

ولما رجع عليه الصلاة والسلام من تبوك، وقبل أن يصل المدينة بيوم، أنزل الله تعالى عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، فبعث ﷺ إلى ذلك المسجد من حرّقه وهدّمه قبل وصوله إلى المدينة. [رواه الطبري (١١/٢٣)].

﴿وَلِيَحْلِفَنَّ﴾ أي: المنافقون الذين بنوه.

﴿إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَ﴾ أي: ما أردنا ببناؤه إلا الخير.

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في حلفهم .

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ .

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي: لا تصل فيه أبداً، وهو يدلُّ على تحريم الصلاة فيه تحريماً قطعياً دائماً.

#### • المسجد المؤسس على التقوى:

﴿لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ من أيام بنائه، أسسه النبي ﷺ يوم وصل إلى قباء، وهو في طريقه مهاجراً إلى المدينة المنورة.

﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي: أن تصلي فيه، وهذا يدلُّ على فضل الصلاة في مسجد قباء، ولهذا كان رسولُ الله ﷺ يزورُ مسجدَ قباء كلَّ سبتٍ راكباً وماشيّاً ويصلي فيه ركعتين. [رواه البخاري (١١٩٠) ومسلم (١٣٩)].

وحضَّ النبي ﷺ على الصلاة فيه، فعن سهل بن حنيفٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ أَتَى مَسْجِدَ قُبَاءَ، فَصَلَّى فِيهِ صَلَاةً، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ عُمْرَةَ» [رواه أحمد (٤٨٧/٣) والنسائي (٣٧/٢) وابن ماجه (١٤١٢)].

وهذا لا يتعارض مع ما جاء في الحديث النبوي الصحيح: أنَّ مسجد رسولِ الله ﷺ في المدينة المنورة، هو المسجد الذي أُسِّسَ على التقوى.

قال ابنُ كثيرٍ رحمته الله: «إِذَا كَانَ مَسْجِدُ قُبَاءَ قَدْ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ، فَمَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِطَرِيقِ الْأُولَى وَالْأُخْرَى، وَلِهَذَا رَوَى الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ قَالَ: اخْتَلَفَ رَجُلَانِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ، أَحَدُهُمَا قَالَ: هُوَ مَسْجِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ الْآخَرُ: هُوَ مَسْجِدُ قُبَاءَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَسَأَلَاهُ، فَقَالَ: «هُوَ مَسْجِدِي هَذَا» [مسند أحمد (١٦٦/٥)]<sup>(١)</sup>.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٧٠/٢.

وبعد أن أثنى سبحانه على المكان، أثنى أيضاً على الرجال الذين يعمرونه بطاعته تعالى، فقال:

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا مِنَ الْمَعَاصِي وَالْآثَامِ، وَمِنَ الْأَقْدَارِ وَالنَّجَاسَاتِ، فَهَمَّ يَحِبُّونَ الطَّهَارَةَ الْمَعْنَوِيَّةَ وَالْحَسِيَّةَ.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ الحريصين على طهارة نفوسهم وأجسامهم.

ففي الحديث الشريف: عن عويمر بن ساعدة قال: قال رسول الله ﷺ لأهل قُباء: «إِنِّي أَسْمَعُ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَحْسَنَ عَلَيْكُمْ الشَّنَاءَ فِي الطَّهْوَرِ، فَمَا هَذَا الطَّهْوَرُ؟» قالوا: يا رسول الله ما نفعُ شيئاً، إلا أنَّ جيراناً لنا من اليهود رأيناهم يغسلون أديبارهم من الغائط، فغسلنا كما غَسَلُوا. [رواه أحمد (٤٢٢/٣) وابن خزيمة (٨٣)].

#### • الأساس المحكم:

ثم بيّن تعالى أن بناء الأعمال يجب أن يكون على أساس الإخلاص لله تعالى وحده، وخشيته وتقواه وطلب رضاه، عندئذ يكون الأساس محكماً قوياً، وأما إذا كان أساس الأعمال الغش والكذب والنفاق، فإنه أساس ساقط منهار، قال سبحانه:

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ﴾ أي: على طرف جرف وشيك السقوط.

فالشفا: الشفير والحرف، ومنه يقال: أشفى على السقوط، إذا دنا من الحرف والشفير وقرب من السقوط.

والجُرْفُ: المكان الذي جَرَفَ الماء ما تحته فأصبح هارياً ضعيفاً وشيك

السقوط.

﴿فَاتَّهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي: سقط البناء ببانيه في نار جهنم، وهكذا أوقعه عمله الفاسد في جهنم.

وجاء المثال بأسلوب الاستفهام التقريري، تعقيباً على بناء مسجد الضرار، رائعاً واضح الدلالة والمعنى، غير محتاج إلى جواب، فجوابه قد سبق فيما آل إليه مسجد الضرار، ولهذا سكنت الآية عن جوابه، وحُتمت بقوله تعالى:

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم للخير والصلاح بسبب ظلمهم وفسادهم ونفاقهم.

أغاظ هدم مسجد الضرار وتحريقه المنافقين، وملاً قلوبهم حسرةً وألماً، وأخبر سبحانه عن ذلك بقوله:

﴿لَا يَزَالُ بُنِنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

﴿لَا يَزَالُ بُنِنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: سيبقى البناء الذي بنوه سبب غضب وحسرة في قلوبهم بسبب هدمه وتحريقه، وسيظل ذلك ملازماً لهم، ينغص عيشهم، ويكدر حياتهم حتى الموت.

﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: إلا أن يموتوا، فلا يرتاحون من حسراتهم وآلام نفوسهم وقلوبهم إلا بالموت، وما بعده أشد وأعظم.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالهم.

﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره بهدم بنائهم.

فما يُبنى باسم الإسلام، ويُرادُ به الكيد بالإسلام وأهله، تجب إزالته كلياً، كما فعل رسول الله ﷺ بمسجد الضرار، كي لا يغترَّ به السدج والبسطاء، وحتى لا يتمكن أعداء الإسلام من الوصول إلى مآربهم من بنائه.

والسعي في إزالة الضرر، واستئصال مسبباته، قاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية، ولهذا قال الفقهاء: «الضرر يُزال» أي: تجب إزالته، ولا يجوز إقراره والسكوت عنه.

## • تجارة رابحة:

وانتقلت الآيات مباشرةً من ركام مسجد الضرار المحترق، وقلوب المنافقين المحترقة أيضاً بالأسى والحسرة، إلى الترغيب بالجهاد الذي تثاقل عنه المنافقون، وتخلّفوا عن الخروج إليه، وكأن الله تعالى أراد أن يبين للمنافقين حقيقة الجهاد الذي تثاقلوا عنه، والخسارة الفادحة التي نزلت بهم عندما حرموا أنفسهم من المشاركة فيه.

إنّ الجهاد عقدُ تجارةٍ رابحةٍ، ربحها لا حدَّ له، نصر وظفر وعزة في الدنيا، وجنة في الآخرة، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، إنّه عقدٌ مع رب العزة ﷻ، ومكان التسليم والاستلام فيه ميدان المعركة، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْفُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِنَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ فالجنة هي المقصودة في العقد، وما يبذله المؤمنون المجاهدون من نفس ومال وسيلة إليها. ويدل قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ على تقرير وصول الثمن إليهم واختصاصه بهم، كأنه قيل: الجنة الثابتة لهم المختصة بهم<sup>(١)</sup>.

ووصف سبحانه كيف يتم عقد البيع فقال:

﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي: يقاتل المؤمنون أعداء الله تعالى لإعلاء كلمته.  
﴿فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ أي: سواء قتلوا أو قُتلوا، فهم مجاهدون، باذلون أنفسهم وأموالهم في سبيل الله، الجنة واجبة لهم بفضل سببانه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذْكَرُ عَلَىٰ تَحَرُّرِ نَفْسِكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَجَاهِدُونَ

(١) روح المعاني: ٢٧/١١.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكُونٍ فِيهَا مِنْ بَدَائِعِ الثَّمَرَاتِ وَوَسَاوِيحٍ مِنْهَا الْأَنْهَارُ ﴿١١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَيَسِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾ [الصف].

﴿وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ أي: وعداً ثابتاً قطعه الله على نفسه بفضله وإحسانه، وذكره في التوراة والإنجيل والقرآن، مما يدل على أن التكليف بالجهاد موجود في جميع الكتب المنزلة.

﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أوفى بعهده منه سبحانه.

﴿فَأَسْتَبْشِرُوا بِيَعْيُكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾ أي: استبشروا أيها المجاهدون وافرحوا بما تفضّل الله تعالى به عليكم في هذا البيع:

﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

#### • رِبْحُ الْبَيْعِ:

إنها لدعوة كريمة من الله تعالى إلى الجهاد، أكرم بها من دعوة! تَلَطَّفَ سبحانه بالمؤمنين كل هذا اللطف، حتى سأل عباده المؤمنين أن يبيعوه مُلْكَهُ، فهم وأموالهم وأنفسهم ملك لله تعالى، وهو سبحانه الغني عنهم وعن جهادهم

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦].

قال بعض العلماء: لا ترى ترغيباً في الجهاد أحسن ولا أبلغ مما في هذه الآية<sup>(١)</sup>.

وذكرت بعض الروايات أنها نزلت بمناسبة بيعة العقبة الثانية، وهي من أعظم المناسبات التي مهّدت للهجرة إلى المدينة، قال فيها عبد الله بن رواحة رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وآله: اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: «أشترط لربي أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم» قالوا: فما لنا إن فعلنا ذلك؟ قال: «الجَنَّةُ» قالوا: ربح البيع، لا نقيلاً ولا نستقيلاً. فنزلت:

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ . . . الآية. [رواه الطبري (١١/٣٥)].

(١) روح المعاني: ٢٦/١١.

لكن يعترض على هذه الرواية ما عرف من تأخر آيات سورة التوبة في النزول، إلا إذا استثنينا هذه الآية، وما عرف أيضاً من أن آيات الجهاد ما نزلت إلا بعد الهجرة. والله سبحانه أعلم.

#### • صفات المؤمنين:

ثم بين تعالى صفات المؤمنين الذين يبذلون أموالهم وأنفسهم في سبيل إعلاء كلمته، فكأن سائلاً يسأل: من يفعل ذلك؟ فيقال له:

﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّاجِدُونَ الْرَاكِعُونَ أَلَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

﴿التَّائِبُونَ﴾ عن المعاصي والآثام، فالمؤمن غير معصوم عن المعاصي، ولكنه لا يصرُّ عليها، بل يبادر إلى الإقلاع عنها، والتوبة والندم على فعلها. واستهلال الآية بهذه الصفة فيه حثُّ على التوبة، وتشجيع للمنافقين كي يبادروا إلى التوبة عن النفاق، فما أكثر ما حثَّهم الآيات على التوبة، وأطمعتهم بالمغفرة، حتى سُميت السورة سورة التوبة.

﴿الْعَابِدُونَ﴾ أي: المطيعون لله تعالى وحده في كل ما شرع لهم، فلا يُحلُّون إلا ما أحلَّه لهم سبحانه، ولا يحرمون إلا ما حرَّمه عليهم، ولا يفعلون كما يفعل أهل الكتاب بطاعة أحبارهم ورهبانهم فيما يشرعون لهم، كما مرَّ معنا في قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

﴿الْحَامِدُونَ﴾ أي: الذين يثنون على الله تعالى بكل صفات الكمال في جميع الأحوال؛ السراء منها والضرراء.

﴿السَّاجِدُونَ﴾ في ملك الله تعالى للنظر والاعتبار، أو للجهاد في سبيله، أو لطلب العلم، أو للاكتساب وطلب الرزق الحلال، أو لأداء مناسك الحج والعمرة، وكل ذلك من المقاصد المشروعة للسياحة في الأرض، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧].

وقال أيضاً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَأَمْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» [رواه مسلم (٢٦٩٩)].

وقد يراد من السياحة الصيام، لأنَّ الصائم يترك الشهوات والملذات من الطعام والشراب والنكاح.

﴿الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ لله تعالى في صلاتهم.

﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ أي: الذين ينفعون الناس، يرشدونهم إلى طاعة الله تعالى، ويحذرونهم من معصيته، فلا يعزلون أنفسهم عن أمّتهم ومجتمعهم ما داموا يستطيعون ذلك، وجاء حرف العطف بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لكونهما متلازمين، فكأنَّهما خصلة واحدة.

وفوق كل ما تقدّم من صفاتهم، فهم وقّافون عند حدود شريعة الله تعالى، فلا يتجاوزونها، ولا يخرقون أسوارها، لكي ينصرفوا إلى غيرها. وهو المراد من قوله سبحانه:

﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ فحدود الله: أحكام دينه وشرعه، وما أكثر ما حذّر الله سبحانه من مجاوزتها أو انتهاكها، كقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا﴾ الآية [البقرة: ١٨٧].

وقوله أيضاً: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

والمعيار الحقيقي لمدى تدبّر الإنسان هو وقوفه عند حدود الله تعالى، ولهذا أخره سبحانه عن جميع الصفات السابقة، وخصّه بالعطف عليها بحرف الواو، لبيان أهميته، ولخطورته في حياة المؤمنين.



﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الموصوفين بهذه الصفات الكريمة، بشرهم بفضل الله ورحمته والجنة، فالجنة ليست للمجاهدين فقط، إنما هي لهم ولغيرهم من المؤمنين المتصفين بهذه الصفات الكريمة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

### • تحريم الاستغفار للمشركين:

ومهما كانت صلوات النسب قويةً بين المؤمنين والكافرين، فإنها تنقطع بالموت، ولهذا حرّم الله تعالى على المؤمنين أن يستغفروا لأقاربهم من المشركين بعد موتهم على الكفر، وحرّم عليهم أيضاً أن يصلّوا عليهم ويقوموا عند قبورهم بعد دفنهم، كما مرّ معنا، قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (١١٣).

أي: ما صح لهم الاستغفار في حكم الله وحكمته، من بعد ما ظهر لهم أنهم ماتوا على الشرك<sup>(١)</sup>، أما قبل موتهم فيجوز الاستغفار لهم بالدعاء لهم بالهداية إلى الإيمان.

وببدو أنّ النبي ﷺ كان يستغفر لعمّه أبي طالب حتى نزلت هذه الآية، ففي الحديث الشريف: عن سعيد بن المسيب، عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة، دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل وعبدُ الله بنُ أبي أمية، فقال النبي ﷺ: «أَيُّ عَمِّ قُلْ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، كلمةٌ أُحاجُّ لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبدُ الله بنُ أبي أمية: يا أبا طالب ترغّب عن مِلَّةِ عبد المطلب؟! فلم يزالا يكلمانه حتى قال آخر شيءٍ كلمهم به: على مِلَّةِ عبد المطلب، فقال النبي

(١) تفسير النسفي: ٢٠٤/٣.

﴿لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْهَ عَنْهُ﴾ فنزلت: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ . [رواه البخاري (٣٨٨٤)].

وحتى لا يحتج أحدٌ باستغفار إبراهيم ﷺ لأبيه، بقوله: ﴿وَأَغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦] بين سبحانه أن استغفار إبراهيم لأبيه كان بسبب وعده له بذلك، فقال:

﴿وَمَا كَانِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ (١١٤).

﴿وَمَا كَانِ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ﴾ وذلك عندما قال إبراهيم لأبيه: ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]. ﴿فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ﴾ بموته على الكفر، أو بواسطة الوحي. ﴿تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ أي: تبرأ إبراهيم من أبيه، وقطع استغفاره له. ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ﴾ أي: كثير التأوه، مما يدلُّ على شدة رأفته، ورقة قلبه، ورهافة أحاسيسه، وقوة عاطفته ومشاعره.

﴿حَلِيمٌ﴾ كثير الصبر، عظيم الصفح، ولهذا قابل غلظة والده وجفوته، برقة وشفقة وعطف<sup>(١)</sup>.

وقد يقال: إذا كان الأمر كذلك، فلم مُنعنا من الاقتداء به، في قوله تعالى: ﴿فَدَكَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَّاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْرُكَ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [المتحنة: ٤]؟.

أقول: لعلَّ سبب ذلك أن أكثرنا لا يفرقون بين الاستغفار بمعنى طلب الهداية لمن تُرجى منه، وهو جائز، وبين الاستغفار بمعنى طلب المغفرة لمن مات

(١) انظر تفصيل ذلك في: تفسير سورة مريم، التي أصبح عنوانها في هذا التفسير الموضوعي الكبير: (التوحيد والتنزيه في سورة مريم).

على الكفر، وهو غير جائز، أو لعلَّ استغفاره ﷺ لأبيه كان من خصائصه<sup>(١)</sup>.  
ثم بيَّن سبحانه أنه لا يؤاخذهم على ما صدر منهم قبل نزول هذه الآيات، فقال:

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ أي: ليحكم عليهم بالضلال والعصيان.  
﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ بعد أن وفقهم للإيمان.  
﴿حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمَ مَا يَتَّقُونَ﴾ أي: يبين لهم ما يجب اتقاؤه واجتنابه.  
﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾  
[الإسراء: ١١٥].

فالتحليل والتحریم لله تعالى وحده، لأنه هو الخالق والمالك، وهو الذي يدبّر أمر الخلق وحده سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾﴾ .

فعلیکم أن تتوجهوا إلى الله تعالى وحده، فهو مولاکم وناصرکم، وعلیکم أيضاً أن تبرؤوا ممن تبرأ الله تعالى منهم، فاتصال الآيات بما صدر الله تعالى السورة من البراءة واضح وظاهر.

#### • ساعة العسرة:

وبعد أن مرّت خمسون ليلةً على المتخلفين الثلاثة من المؤمنين، الذين أرجأ الله تعالى أمرهم في قوله تعالى السابق: ﴿وَأَخْرُوتَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] أنزل الله سبحانه توبته عليهم، وأخبر سبحانه قبلها بتوبته على جميع

(١) انظر: التفسير الكبير: ٢٣٠/٢١.

المهاجرين والأنصار الذين خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، فقال:

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ﴾ بزيادة في كماله عليه الصلاة والسلام وترقيته ورفعة شأنه، فالإنسان مهما ترقى في العبادة والخشوع لله تعالى، محتاج دائماً إلى توبته سبحانه عليه.

﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ أي: وتاب سبحانه على المهاجرين والأنصار.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ أي: الذين اتبعوا النبي ﷺ، وخرجوا معه إلى تبوك في وقت العسرة، وقت الشدة والضيق، ولهذا سميت غزوة تبوك غزوة العسرة، وجيشها جيش العسرة، لكثرة المعوقات والشدائد التي واجهتهم، ومع العسرة وشدائدها خرج رسول الله ﷺ ومعه أصحابه، فلم يتخلف منهم سوى ثلاثة، فالمعوقات مهما اشتدت وكثرت، لا تمنع أصحاب الهمم العالية من الوصول إلى غاياتهم النبيلة السامية.

إن في الآية الكريمة وساماً ربانياً رفيعاً تفضّل الله تعالى به على جنود جيش العسرة، تقديراً لجهادهم وصبرهم وتحملهم لمشقات العسرة، لقد كانوا في قلة من الظهر، حتى كان العشرة يعتقبون البعير الواحد، وكانوا في قلة من الزاد، حتى كان الواحد منهم يلوك التمرة، ثم يخرجها من فمه، ويعطيها صاحبه ليشاركة فيها، وخرجوا في حر شديد، وساروا في مفازة مهلكة، وعطشوا عطشاً كادت رقابهم أن تنقطع من شدته.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، فأصابنا فيه عطش، حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، وحتى إن كان الرجل ليذهب يلتبس الماء، فلا يرجع حتى يظن أن رقبته ستقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو

بكر: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع لنا، قال: «تحب ذلك؟» قال: نعم، فرفع يديه، فلم يرجعهما حتى سالت السماء فأهطلت، ثم سكنت، فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد ما جاوزت العسكر. [رواه الطبراني في الأوسط (المجمع: ١٩٤/٦)].

### • التوبة:

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من بعد ما قاربت أن تميل قلوب بعضهم عن الحق بسبب عظم الشدة، وضخامة المشقة، لكنهم ﷻ صبروا واحتسبوا، وثبتهم ﷻ، وندموا على الخواطر السيئة التي خطرت لهم.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: عمّا طاف في خواطرهم، وهجس في نفوسهم لما علمه سبحانه من إخلاصهم، وكرّر سبحانه ذكر توبته عليهم زيادة في تطيب نفوسهم وقلوبهم وتطمينهم، مما يدلُّ على إحسانه تعالى إليهم ﷻ.

﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهنيئاً لكم جند العسرة، هنيئاً لكم توبة الرؤوف الرحيم بكم.

إنني لأتصور مدى سعادتهم وفرحتهم رضي الله تعالى عنهم، وهم يسمعون النبي ﷺ يتلو عليهم هذه الآيات الكريمة:

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ أي: وتاب سبحانه على المؤمنين الثلاثة الذين أرجأ سبحانه أمرهم، والذين قصص علينا كعب بن مالك قصّتهم، كما مرّ معنا عند تفسير الآية (١٠٦) من السورة، وقد أرجأت بقية قصّتهم إلى موضعها هنا مع الآيات الكريمة:

قال كعب بن مالك: فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا

على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالسٌ على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرضُ بما رَحُبَتْ، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى على جبلٍ سَلَعٍ بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر!

قال: فخررتُ ساجداً، وعرفتُ أنْ قد جاءَ فرجٌ، وأذنَ رسولُ الله ﷺ بتوبةِ الله علينا حين صلّى صلاةَ الفجرِ، فذهبَ الناسُ يبشروننا، وذهبَ قِبَلِ صاحبيّ مبشّرون، وركضَ إليّ رجلٌ فرساً، وسعى ساعٍ من أسلم، فأوفى على الجبلِ، وكان الصوتُ أسرعَ من الفرسِ، فلمّا جاءني الذي سمعتُ صوته يبشرنِي، نزعتُ له ثوبيّ، فكسوتهُ إياهما ببشراه، والله ما أملكُ غيرهما يومئذٍ، واستعرتُ ثوبين فلبستُهما، وانطلقتُ إلى رسولِ الله ﷺ، فيتلقاني الناسُ فوجاً فوجاً يهتفونني بالتوبة، يقولون: لتهنك توبةُ الله عليك.

حتى دخلتُ المسجدَ، فإذا رسولُ الله ﷺ جالسٌ حوله الناسُ، فقام إليّ طلحةُ بنُ عبيدِ الله يُهرولُ حتى صافحني وهنأني، والله ما قامَ إليّ رجلٌ من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، فلمّا سلّمتُ على رسولِ الله ﷺ قال رسولُ الله ﷺ وهو يبرقُ وجهُه من السرور: «أبشُرْ بخيرِ يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أمك» قلتُ: أمن عندك يا رسولَ الله أم من عندِ الله؟ قال: «لا بل من عندِ الله» وكان رسولُ الله ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعةُ قمرٍ، وكنا نعرفُ ذلك منه.

فلمّا جلسْتُ بين يديه قلتُ: يا رسولَ الله إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله تعالى وإلى رسوله. قال رسولُ الله ﷺ: «أمسكْ عليك بعضَ مالك، فهو خيرٌ لك» قلتُ: فإني أمسكُ سهمي الذي بخير.

فقلتُ: يا رسولَ الله إن الله إنَّما نجَّاني بالصدق، وإنَّ من توبتي أن لا أحدثَ إلا صدقاً ما بقيتُ. فوالله ما أعلمُ أحداً من المسلمين أبلاه الله (١) في صدق الحديث، منذ ذكرتُ ذلك لرسولِ الله ﷺ أحسنَ مما أبلاني، وإنِّي لأرجو

(١) أي: أنعم عليه.

أن يحفظني الله فيما بقي .

وأنزل الله على رسوله: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩] فو الله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط، بعد أن هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبتُه، فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرّاً ما قال لأحدٍ، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجَسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (١٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة].

قال كعب: وكنا تخلّفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا﴾ وليس الذي ذكر مما خلفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه. فقبل منه. [أخرجه البخاري (٤٤١٨) ومسلم (٢٧٦٩) واللفظ للبخاري].

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي: مع سعتها بسبب مقاطعة الناس لهم.  
﴿وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾ من كثرة الحزن والهم والوحشة التي نزلت بهم.  
﴿وَوَدُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أي: وعلموا أنه لا ينجيهم من غضب الله تعالى وسخطه إلا اللجوء إليه تائبين مستغفرين خاشعين.

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ أي: أنزل سبحانه توبته عليهم ليصبحوا من جملة التوابين المقبولين، أو ليستقيموا على التوبة:

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ .

#### • كونوا مع الصادقين:

جاء تعقيب الآيات الكريمة على توبة الله تعالى على المؤمنين الثلاثة الذين تخلّفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلى تبوك، بتوجيه المؤمنين هذا التوجيه الكريم:

## ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ (١١٩)

الذين صدقوا في إيمانهم وطاعتهم، ولم يتخلفوا عن رسول الله ﷺ. وإن لم تستطيعوا أن تكونوا معهم بأجسامكم، فكونوا معهم بقلوبكم وأرواحكم، كما جاء عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما رجَعَ رسولُ الله ﷺ من غزوة تبوك، فدنا من المدينة قال: «إِنَّ بِالْمَدِينَةِ لِقَوْمًا، مَا سِرْتُمْ مِنْ مَسِيرٍ، وَلَا قَطَعْتُمْ وادياً إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ فِيهِ» قالوا: يا رسول الله وهم بالمدينة؟ قال: «وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعَدْرُ» [رواه البخاري (٤٤٢٣) وأبو داود (٢٥٠٨) وابن ماجه (٢٧٦٤) واللفظ له].

وفي الآية فضيلةٌ لجنود جيش العسرة، وهي شهادة الله تعالى لهم بالصدق والإخلاص في إيمانهم وجهادهم ﷺ.

أو: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ الذين صدقوا في اعترافهم بذنب تخلفهم عن رسول الله ﷺ، ولم يعتذروا له بالأعذار الكاذبة كما فعل المنافقون.

ولهذا وفقهم الله تعالى بعد ذلك، وتابَ عليهم بسبب صدقهم، وهو ما أشار إليه كعب بن مالك رضي الله عنه أحد المتخلفين الثلاثة في آخر قصَّة تخلفه وتوبة الله تعالى عليه التي مرَّت معنا.

ولا شك أن عاقبة الصدق حميدة طيبة، تحدَّث عنها النبي ﷺ فقال: «إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصْدُقَ، وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفَجْوَرِ، وَإِنَّ الْفَجْوَرَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا» [رواه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧)].

ومفهوم الآية النهي عن مخالطة المنافقين والكذابين، ووجوب مبادعتهم، والحذر من كيدهم ومكرهم، فَمَنْ جالَسَ جَانِسَ، وعلى المؤمن أن يحرص على مجالسة أهل الإيمان والصلاح، وأهل العلم والتقوى، وينأى بنفسه عن مجالس الفساق والفجار والكذبة والمنافقين.



عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوِّءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكَيْبِرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ (يعطيك)، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكَيْبِرِ، إِمَّا أَنْ يَحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحاً خَبِيثَةً» [رواه البخاري (٢١٠١) ومسلم (٢٦٢٨)].

• يا حيران رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ثم بينت الآيات الكريمة فضيلة وشرف وكرامة ضحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم والجهاد معه، بقوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُنِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾﴾ .

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ﴾، وهو أفضل الصادقين وسيدهم، وقد أكرم الله تعالى أهل المدينة ومن حولها بجوار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ينبغي لهم أن يتخلفوا عن الجهاد معه، ولا أن يخالفوا سنة من سننه عليه الصلاة والسلام، وهو حُكْمٌ عام ينسحب على جميع المسلمين والمسلمات، وخصت الآية أهل المدينة ومن حولها لقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتشرفهم بجواره الكريم، مما يدل على أنه ينبغي لكل من يكرمه الله تعالى بسكنى المدينة أن يكون شديد الحرص على سنته صلى الله عليه وسلم، وأن يتحفظ من مخالفته أكثر من غيره، فقد أكرمه الله تعالى بنعمة عظيمة، يجب عليه أن يعرف قدرها، وما يترتب عليه من أجلها.

﴿وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ أي: لا يرغبوا لأنفسهم بالراحة، بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمعاناة والمشقة، وكيف يرغبون بأنفسهم عن نفسه، وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم: ﴿الَّذِينَ أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٦].

هذا الشعور هو الذي جعل أبا خيثمة رضي الله عنه يلحق برسول الله ﷺ إلى تبوك، إذ كان في أوّل أمره قد تخلّف عن الخروج أياماً، وفي يوم حار رجع أبو خيثمة إلى بيته، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستانه، قد رشّت كل واحدة منهما عريشها، وبرّدت له فيه الماء، وهيأت له طعاماً، فلما نظر إلى امرأتيه، وما صنعتا له، قال: رسول الله ﷺ في الضحّ (الشمس) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظلّ باردٍ، وطعام مهيّباً، وامرأة حسناء، في ماله مقيم، ما هذا بالنصف (الإنصاف). ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ فهيتا لي زاداً، ففعلتا، ثم قدّم ناضحه (بعيره) فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك.

قال الناس لما رأوه من بعيدٍ: هذا راكبٌ على الطريقٍ مقبل. فقال رسول الله ﷺ: «كُنْ أبا خيثمة» فقالوا: يا رسول الله هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له: «أولى لك يا أبا خيثمة» فأخبره الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير<sup>(١)</sup>.

بين سبحانه أنه يعطي المجاهدين ثواب كل ما يصيبهم من عناء ومشقة في طريق الجهاد، فقال:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ﴿١﴾ عَطَشٌ.

﴿وَلَا نَصَبٌ ﴿٢﴾ تَعَبٌ.

﴿وَلَا مَحْمَصَةٌ ﴿٣﴾ مَجَاعَةٌ شَدِيدَةٌ.

﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٤﴾ وَهُمْ يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

﴿وَلَا يَطْطُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ ﴿٥﴾ أَي: لَا يَضَعُونَ قَدَمًا فِي مَكَانٍ

يغضب الكفار.

﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا ﴿٦﴾ أَي: وَلَا يَصِيبُونَ مِنَ الْعَدُوِّ إِصَابَةً، كَقَتْلِ أَوْ

جرح أو أسر أو غنيمة.

(١) السيرة النبوية، لابن هشام: ١٢١/٤ بتصرف قليل.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ إلا كتب الله لهم بذلك ثواب عمل صالح، فلا ينقصهم الله شيئاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فالجهاد من أعلى مراتب العبادة، يصل به المجاهدون إلى مرتبة الإحسان.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَجْرِهْمُ  
اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ في سبيله تعالى.

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا﴾ وهم في طريقهم إلى الجهاد.

﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَجْرِهْمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: يعطيهم الله تعالى على كل نفقة بذلوها في سبيل الله، وعلى كل حركة لهم على طريق الجهاد، أحسن الثواب وأكملها، فالله سبحانه يجعل بفضله ثواب العمل القليل كثواب العمل الكبير إذا كان في سبيل الله.

#### • مراعاة المصالح العامة كلها:

ولاشك أن الترغيب الكبير للخروج إلى الجهاد، بهذا الاستقصاء والتتبع لكل حركة من حركات المجاهدين، يجعل كل فرد من أفراد الأمة يندفع إلى الجهاد، لكن هذا الاندفاع الجماعي الكلي إلى الجهاد لا ينبغي أن يكون إلا في حالات الخطر الكبير، وذلك عندما يعلن ولي أمر المسلمين حالة النفير العام، كما فعل النبي ﷺ عندما خرج إلى تبوك لدفع خطر اجتياح الروم لبلاد المسلمين، وهذه حالات استثنائية مؤقتة، لا تبقى مستمرة إلا ببقاء أسبابها، إذ إن دوامها واستمرارها يعطل حياة الأمة، ويعوق تقدمها، فثمة مصالح عامة ضرورية للمجتمع ينبغي تأمينها، ولا يكون ذلك ممكناً إذا انصرف الجميع إلى الجهاد، ففي الأحوال العادية حيث لا يكون الخطر داهماً يكون الجهاد فرضاً

كفاية، إذا قام به البعض سقط إثم التكليف عن الآخرين، وهو ما دلّت عليه الآية التالية في قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَنْفِقَهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ (١٣٢).

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً﴾ أي: ما صحَّ وما استقام أن يخرج جميع المؤمنين إلى مقصد واحد كجهاد أو طلب علم، بل ينبغي أن يكون خروجهم مدروساً بحسب خطة موضوعة، يراعى فيها تأمين جميع المصالح الضرورية العامة التي تحتاج إليها الأمة، فالأخذ بالأسباب أمر مشروع، ورسم الخطط المستقبلية لتأمين المصالح العامة للأمة وتقدمها أمر مرغوب في الإسلام، وهذه الآية الكريمة تدلُّ عليه.

وقد فعله نبي الله يوسف عليه السلام، عندما رسم خطة مستقبلية لمواجهة سنوات القحط والجفاف: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابَّاً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يا كلن ما قدمتم هنن إلا قليلاً ممّا تحصنون (٤٨) ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴿يوسف﴾ (١).

وبينت الآية كيف ينبغي أن تراعى جميع المصالح العامة للمجتمع بقوله تعالى:

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾ أي: هلاً خرج من كل مجتمع كأهل بلد أو قبيلة كبيرة، أو أهل منطقة، جماعة قليلة.

﴿لِيَنْفِقَهُوا فِي الدِّينِ﴾ أي: ليطلبوا علم الفقه في دين الله تعالى، أي:

ليفهموا أحكام شريعة الله، وهو من أشرف العلوم وأفضلها.

ففي الحديث الشريف: عن معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مَنْ

يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين» [رواه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧)] واللفظ للبخاري.

(١) انظر: تفسير سورة يوسف في تفسيرنا الموضوعي الكبير هذا، تحت عنوان: (الوحي والنبوة والعلم في سورة يوسف).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ حَتَّى يَرْجِعَ» [رواه الترمذي (٢٦٤٧) وحسنه].

وذكرت الآية الخروجَ لطلب العلم على سبيل التمثيل، فأشرف العلوم وأعلى المقاصد لا ينبغي لجميع أبناء المجتمع أن ينصرفوا إلى تحصيله، بحيث تتعطل المصالح الأخرى، بل يقومُ به جماعة من كل مجتمع، وينصرف الآخرون إلى تأمين الجوانب الأخرى التي تحتاج إليها الأمة، وكذلك الشأن في الجهاد وغيرها من المقاصد والأغراض.

﴿وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي: وليجعلوا الغاية من خروجهم خدمة أمتهم، وأبناء مجتمعهم، فإذا رجعوا قاموا بتعليمهم وإرشادهم إلى ما ينفعهم، وتحذيرهم مما يضرهم ويؤذيهم.

فالآية الكريمة توجه المسلمين إلى أن تكون استجابتهم الجماعية لتنفيذ الواجبات الشرعية العامة، استجابة منظمة واعية، تُراعى فيها جميع المصالح الضرورية للأمة.

ولم يغفل رسول الله ﷺ عن هذا الأمر، عندما استنفر الأمة كلها لمواجهة الخطر الذي كان يهددُ كيان الأمة كلها في تبوك، فخلف عليه الصلاة والسلام وراءه في المدينة المنورة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، لكي يراعى مصالح أهل بيته في غيابه خاصة، ومصالح الأمة عامة، ومن المعلوم أن علياً رضي الله عنه أمة في الجهاد والشجاعة والإقدام، ومع ذلك خلفه ﷺ في المدينة.

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: إن رسول الله ﷺ خرج إلى تبوك واستخلف علياً، فقال: أتخلفني في الصبيان والنساء؟! قال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبي بعدي» [رواه البخاري (٤٤١٦) ومسلم (٢٤٠٤) واللفظ للبخاري].

#### ● خطة مدروسة:

وكذلك أمر سبحانه المسلمين أن يكون جهادهم لأعدائهم منظماً

مدروساً ، فقال :

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَذَلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَعَلِمُوا أَنَّ  
اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَذَلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ أي : قاتلوا الكفار  
القريبين منكم ، ابدؤوا بقتال العدو القريب حتى تصلوا بعده إلى البعيد ، وبذلك  
تتمكنون من قتال المشركين كافة ، الذي سبق في قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا  
الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتَلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة : ٣٦] .

فلا تعارض بين الآيتين ، ولا نسخ ، كما رأى بعض المفسرين ، فالآية هنا  
ترسم للمسلمين الخطة التي يجب اتباعها في قتال جميع الكفار ، فلا ينبغي لهم  
أن يفتحوا على أنفسهم جهات متعددة في وقت واحد ، إذا كانوا لا يستطيعون  
القيام بها ، كما هو الحال في أمر الدعوة ، يبدأ الإنسان بدعوة الأقرب فالأقرب  
حتى يصل إلى البعيد ، ولهذا قال الله تعالى للنبي ﷺ في أول الأمر : ﴿وَأَنْذِرْ  
عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء : ٢١٤] ، ولما فرغ ﷺ من دعوة قريش التفت إلى  
غيرها من قبائل العرب ، ثم توجه رسول الله ﷺ إلى نشره في خارج أرض  
العرب ، وبدأ ببلاد الشام التي كانت تحت سيطرة الروم ، لأنها كانت أقرب  
البلاد إلى أرض العرب .

فشؤون الجهاد والدعوة وغيرها يجب أن تخضع لخطة مدروسة مرسومة ،  
ولا ينبغي أن تكون قرارات المسلمين ومواقفهم فيها ارتجالية عاطفية ، حتى لا يتمكن  
أعداء الإسلام من استدراج المسلمين إلى الوقوع في شرك خداعهم ومكرهم .

﴿وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي : شدة في قتالهم ، فإن ذلك يؤدي إلى إدخال  
الخوف والرعب في قلوب غيرهم من الكفار ، كما قال تعالى : ﴿فَأَمَّا نَشَقَّفَهُمْ فِي  
الْحَرْبِ فَشَرِدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدْكُرُونَ﴾ [الأنفال : ٥٧] .

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ الملتزمين بأحكام شريعته، وللجهاد في الإسلام أحكامٌ يجبُ على المسلمِ المجاهد أن يلتزم بها.

هكذا بينت هذه الآياتُ الكريمةُ الخطوطَ العامةَ التي ينبغي للمسلمين أن يسترشدوا بها في جميع شؤون حياتهم، وقد جاءت كلماتٍ نهائيةٍ للنظام العام للمجتمع الإسلامي، وخاصة في مجال الدعوة والجهاد والتعامل مع غير المسلمين.

#### • الكلمة الأخيرة:

وقبل أن تصل بنا الآيات إلى ختام السورة، وقفت وقفةً قصيرةً نهائيةً مع بقايا المنافقين المصريين على نفاقهم، لتوجه لهم الإنذار النهائي القطعي، وتقول لهم الكلمة الأخيرة من خلال وصف موقفهم السلبي من السورة الكريمة، قال تعالى:

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ من سور القرآن الكريم.

﴿فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ أي: فمن المنافقين من يقول ساخراً مستهزئاً: أيكم ازداد إيماناً وتصديقاً بهذه السورة؟! فكأنهم لا يجدون أي فائدة من السور والآيات التي تنزل على رسول الله ﷺ بسبب النفاق الذي استولى على قلوبهم وغطى على عقولهم ومداركهم.

وردَّ سبحانه عليهم بقوله:

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ أي: زادتهم تصديقاً وتعظيماً لله تعالى

ولأمره وشرعه.

﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي: وهم أيضاً يفرحون بتتابع نزول الوحي والقرآن،

ولهذا حزنوا حزناً شديداً على انقطاع الوحي بموت رسول الله ﷺ.

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله ﷺ:

انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزرورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها. فلما أتيا

إليها بكت، فقالا لها: ما يُبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ؟! قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خيرٌ لرسول الله ﷺ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء. فهيجتُهما على البكاء، فجعلا يبكيانِ معها. [رواه مسلم (٢٤٥٤)].

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ أي: كفراً إلى كفرهم، لأنهم كلما جحدوا نزول سورة، أو استهزؤوا بها، ازدادوا كفراً.

فالقرآن الكريم رحمةٌ وهدايةٌ للمؤمنين، وحنةٌ وشقاء على الكافرين: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ بسبب إصرارهم على النفاق.

﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ﴾ أي: ألا يرى هؤلاء المنافقون المصرؤون على النفاق أن الله تعالى يبتليهم ويختبرهم في كل عام مرة أو مرتين بأنواع المصائب والعذاب، أو بما ينزل من آيات وسور تفضحهم وتكشف نفاقهم، ومع ذلك:

﴿ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي: لا يتوبون عن نفاقهم، ولا يتعظون ويعتبرون بما أنزل الله فيهم.

وأنى لهم أن يتعظوا بما أنزل الله تعالى، وهم يستثقلون مجالس القرآن وينصرفون عنها؟!.



﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (١٢٧)

﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ أي: أشار بعضهم إلى بعض بنظرات الإنكار والغضب، ثم تساءلوا سرّاً:

﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾ من المؤمنين إذا قمتم وتركتهم المجلس.

﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ عن مجلس التنزيل خشية أن يكون فيه ما يفضحهم ويكشف أمرهم.

﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ عن هداية الإيمان، وهو دعاء عليهم.

﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي: بسبب أنهم لا يفهمون كلام الله تعالى، فلا يتدبرونه ولا يتعظون به.

#### • الختم والطابع:

وأخيراً ختم الله تعالى سورة التوبة بهذا الخطاب الموجه للمؤمنين عامة وللعرب منهم خاصة، ذكّرهم ﷺ بمنّته الكبرى عليهم، ببعثه رسول الله ﷺ منهم، لكي يعرفوا قدر المسؤولية التي أُلقيت عليهم، فقال جلّ وعلا:

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨)

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من جنسكم ومن نسبكم، عربي تعرفون نسبه وحسبه.

قال القرطبي رحمه الله: «والخطاب للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاءهم بلسانهم، وبما يفهمونه، وشرفوا به غابر الأيام، وقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي ﷺ، وأنه من

صميم العرب وخالصها»<sup>(١)</sup>.

ورأى بعض المفسرين: أن الخطاب في الآية لجميع المؤمنين، كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزُكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

قال ابن كثير رحمته الله: «يقول تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من جنسهم وعلى لغتهم، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]»<sup>(٢)</sup>.

ويمكن القول: إنه خطاب للمؤمنين كافة، إلا أن الإسلام عند نزول الآية كان قد انتشر بين العرب خاصة، ولم ينتشر بعد بين الأمم الأخرى. ومن صفاته الكريمة عليه الصلاة والسلام:

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: شديد شاق عليه عنتكم.

والعنت: المشقة والمكروه، فلا يريد بكم إلا الخير والسهولة واليسر، ويصعب عليه أن يصيبكم أي مكروه ومشقة، فهو رسول الرحمة، أرسله الله تعالى بالشريعة السمحة الميسرة، التي نفى الله تعالى عنها الحرج والمشقة، فقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

وقال عليه السلام أيضاً: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ الآية

[البقرة: ١٨٥].

وكان رسول الله ﷺ يوصي أصحابه إذا بعثهم في أي شأن بالتيشير؛ فعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: «بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا» [رواه مسلم (١٧٣٢)].

ويختار رسول الله ﷺ الأيسر؛ قالت عائشة رضي الله عنها: ما خيّر رسول الله ﷺ

(١) تفسير القرطبي: ٣٠١/٨.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٨٠/٢.

في أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه. [رواه البخاري (٣٥٦٠) ومسلم (٢٣٢٧)].

وكان رسول الله ﷺ يترك في بعض الأحيان بعض النوافل خشية أن تُفرض على أمته؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليدع العمل، وهو يحب أن يعمل به، خشية أن يعمل به الناس، فيُفرض عليهم. [رواه البخاري (١١٢٨)].

وعنها أيضاً: أن رسول الله ﷺ صلى ذات ليلة في المسجد، فصلى بصلاته ناساً، ثم صلى من القابلة فكثرت الناس، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ، فلما أصبح قال: «قد رأيت الذي صنعتُم، ولم يمنعني من الخروج إليكم إلا أنني خشيتُ أن تُفرض عليكم» وذلك في رمضان. [رواه البخاري (١١٢٩)].

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: حريصٌ على هدايتكم وسعادتكم، فما أكثر ما تحمّل رسول الله ﷺ من أجلكم، ونصح لكم!.

﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ يشفقُ عليهم، ويرحمهم، ويحسن إليهم، ويدعو لهم في حياته ﷺ، ويشفع لهم يوم القيامة.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى (جمع) لي الأرضَ فرأيتُ مشارِقها ومغارِبها، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأَعْطَيْتُ الْكَنْزِينَ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يَهْلِكَهَا بَسَنَةً عَامَّةً (أي: القحط)، وَأَنْ لَا يَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوٌّ مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ (جماعتهم)، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بَسَنَةً عَامَّةً، وَأَنْ لَا أَسْلُطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بِيضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بَاقِطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يَهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا» [رواه مسلم (٢٨٨٩)].

ثم أفردت الآية الأخيرة النبي ﷺ بالخطاب بعد أن بينت بعض السمات المميزة للشريعة الإسلامية، كآثار وظلال لشخصيته الكريمة الرحيمة:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩)

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي: أعرضوا عن هذه الرسالة السمحة الكريمة.

﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ فلا يسعك إلا أن تقول: حسبي الله، أي: يكفيني

الله وينصرني.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على غيره.

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ وكيف لا تكون بالله الكفاية والنصرة وهو ربُّ

العرش العظيم؟! فلا كافي إلا هو سبحانه، ولا ناصر سواه.

وجاءت كلمات الآية الأخيرة كختم رسمي للسورة كلها، أظهر الله تعالى

بها سمة البلاغ الأخير الموجه في السورة إلى جميع الناس.

لقد بدأه سبحانه بالبراءة من المشركين، وختمه برحمته العظمى ومنته

الكبرى ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين، فالبلاغ ما وجه في الحقيقة إلا لخيرهم

وسعادتهم، فلعله يسوقهم إلى الإيمان، ويجعلهم ينضمون إلى النبي الكريم

ﷺ، ليسعدوا برسالته، رسالة الإسلام والسلام، رسالة السماحة واليسر

والسعادة في الدنيا والآخرة.

فمن تولى وأعرض عنها، فهو الجاني على نفسه، وحسبه أن رسول الله

ﷺ قد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، حسبه أن الله رب العرش العظيم هو مولاه

وناصره صلى الله عليه وآله وسلم.

أسأله سبحانه أن يثبتنا على دينه، ويحشرنا تحت لوائه، اللهم آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، والتابعين لهم بإحسان

إلى يوم الدين.



## تفسير سورة يونس الإنسان بين التَّقديرِ والتَّكليفِ في سُورَةِ يُونُسَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ  
الْمُقَدِّمِ

الحمد لله ربَّ العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.  
أما بعد: فإنَّ الإيمان بالقضاء والقدر ركنٌ من أركان الإيمان، لا يصح من دونه، لما له من اتصال وثيق بكمال الله سبحانه، وكمال علمه وإرادته، وهو موضوع خطير ودقيق، ضلَّت فيه أفهام كثير من الناس، فتشعبت آراؤهم، وتعددت فرقهم.

وكان السَّلَفُ الصالح مُسكِّين عن الخوض في مسائله، اتباعاً للأمر النبوي الشريف: «إِذَا ذُكِرَ الْقَدْرُ فَأَمْسِكُوا» [رواه الطبراني في (الكبير) من حديث ابن مسعود، وهو حديث صحيح].

وقد اضطر المتأخرون من علماء الأمة للخوض فيه بسبب ظهور البدع وشيوع الفتن في الدين، إشفاقاً على عامة المسلمين من الزيغ والضلال.  
ولما تدبرْتُ آيات سورة يونس وجدتها تركز على موضوع القضاء والقدر، فترددت كثيراً قبل الكتابة في موضوعها، ثم عزمْتُ متوكلاً على الله تعالى، ومستعيناً به سبحانه، والذي جعلني أجمع رأبي، وأعزم في أمري، أنني وجدت

آيات السورة الكريمة تقرر موضوع القضاء والقدر ببساطة ووضوح لا حفاء فيه ولا لبس، بحيث لم تدع فيه مجالاً لأدنى ريب أو زيغ.

واسترشدت بما كتبه شيخنا الشيخ محمد الحامد رحمته الله في هذا الموضوع، وقد قرأه علينا في الدرس، وقرره قبل نشره، فأفاد رحمته الله وأجاد، ودفع كل ما يمكن أن يعلق بالأذهان من شبه بما آتاه الله تعالى من علم وبيان ودقة وإحكام، فجزاه الله عنا وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، وأسأله سبحانه أن يجمعنا به تحت لواء سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأن يرفع مقامه في عليين.

كما استعنت بما كتب غيره من أهل العلم والفضل، وما ذكره أصحاب التحقيق والتدقيق من علماء التفسير رحمهم الله تعالى.

وقد قسمت الكتاب إلى تمهيد وأربعة فصول:

فخصّصْتُ التمهيد: لتعريف القارئ بموضوع السورة، وشرح معنى التقدير، وضرورة التكليف، وعلاقة أعمال العبد بالقضاء والقدر، ومعنى الإرادة والمشية، وكيفية التوفيق بين الآيات في هذا الموضوع.

ثم جاءت فصول الكتاب الأربعة تساير آيات السورة الكريمة:

• **الفصل الأول:** للوحي وضرورته، وحاجة الناس إليه، وصلة الوحي بكمال حكمته سبحانه وعلمه وتدبيره لشؤون المكونات.

• **والفصل الثاني:** لبيان مواقف الناس من آيات التنزيل الحكيم، ومن عبادة الله تعالى، ولمواقفهم وأحوالهم في حال الخطر، ثم ما يعترتهم من أحوال بعد نجاتهم منها.

• **والفصل الثالث:** لبعض حجج عقيدة التوحيد البالغة الملزمة، وللمؤيدات الكبرى لرسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

• **والفصل الرابع:** لبيان أحوال السعداء والأشقياء، وذكر نماذج لكلا الفريقين من الأمم الغابرة.

جعلنا الله تعالى بمنه وكرمه من السعداء، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والذين دعواهم في الجنة سبحانك اللهم، وتحيتهم فيها سلام، وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.

اللهم آمين، وصلّى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين.



## تَهْيِيد

## موضوع السورة

لا بدّ لفهم موضوع سورة يونس من توضيح الأمور الآتية:

## أولاً: التقدير:

إن وجود الكائنات بعد العدم يدلُّ على وجود الله تعالى، وإن ارتباط بعضها ببعض من أصغر ذراتها إلى أكبر أجرامها، يدل على وحدانيته سبحانه، وتنزُّهه عن الشريك، كما أنّ كثرة أجناس المخلوقات؛ وكثرة أنواعها وأفرادها، وتخصيص كل فرد منها بخصائص يميّز بها عن سائر المخلوقات دليلٌ على كمال إرادته تعالى، وتمايم مشيئته، ونفوذها في كلّ المكونات.

ثم إنّ إيجاد المخلوقات، وإبرازها من العدم على نحو ما تعلّق بها علمه سبحانه، واقتضتها إرادته، دليلٌ على عظمة قدرته.

والتقدير من القدر، ويقال لكلّ من الإحاطة العلمية، والتخصيص بالإرادة، والإبراز بالقدرة على وفق ذلك، يقال له: قدر، من قولهم: قدرت الشيء: إذا أحطت بقدرة، أو خصصته بقدر مخصوص بإرادتك، أو وضعته على قدر مخصوص على وفق هذه الإرادة<sup>(١)</sup>.

## ثانياً: قدم صفاته سبحانه:

ويجب التنبيه إلى أنّ صفات الله تعالى قديمة قدم ذاته تعالى، قال الشيخ محمد الحامد رحمته الله: إنّ الله سبحانه أزلي بصفاته الأزلية، فهو أول بلا بداية، وآخر بلا نهاية، واتصافه بصفاته الذاتية أزلي أيضاً.

(١) انظر: البراهين الساطعة في رد بعض البدع الشائعة، للشيخ سلامة العزامي رحمته الله.



والعلم منها، فتعلّقه بالمعلومات تعلّق أزلي لم يسبقه جهل، ولم يتجدّد له سبحانه علمٌ ما لم يكن يعلم، وإنّ من المعلوم من الدين بالضرورة استحالة البدء عليه سبحانه، وهو أن يبدو له سبحانه ما كان خافياً عنه، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

والإرادة: صفة أزلية أبدية قائمة بذاته تعالى، تخصّص الممكن ببعض ما يجوز عليه من وجود وعدم، وصفة ومقدار، وزمان ومكان وجهة. ويكون الإبراز من بعدُ بصفة القدرة؛ وهي صفة أزلية أبدية يتأتّى بها إيجاد كلٍّ ممكن وإعدامه على وفق الإرادة. وللقدرة تعلّقان:

١ - تعلّق صلوحى قديم: أي إنها صالحة في الأزل للإيجاد والإعدام لكل ممكن.

٢ - وتعلّق تنجيزي حادث: وهو الإيجاد والإعدام بالفعل للممكنات التي قدّر الله إيجادها وإعدامها<sup>(١)</sup>.

والجدير بالذكر بيان أنّ المشيئة والإرادة مترادفان ومعناها واحد<sup>(٢)</sup>.

### ثالثاً: التكليف:

وتظهر حكمة التقدير بالتكليف، فتقدير المكونات على ما هي عليه يبدو عبثاً ولعباً من دون تكليف، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧].

فلا منافاة بين التقدير والتكليف، بل إنّ التقدير يقتضي التكليف، قال الشيخ العزامي ﷻ: «فمن التقدير انبثق التكليف، وكان رحمةً على رحمة،

(١) ردود على أباطيل: ٨٧/٢.

(٢) المرجع السابق: ٣٨٤/١.

ولهذا جاء في الحديث القدسي قوله تعالى: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفّيكم إيّاها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه» [رواه مسلم (٢٥٧٧)]<sup>(١)</sup>.

#### رابعاً: إرادة المكلف واختياره:

ولا بدّ للتكليف من إرادة واختيار، وإرادة المكلف واختياره أساس التكليف، وما يستتبع من مسؤولية وثواب وعقاب، ولهذا أراد الله تعالى للإنسان المكلف أن يكون مريداً، وشاء سبحانه له أن يشاء، فخلق له إرادة وجعل له اختياراً، فإرادة الإنسان مخلوقة ومحدودة مثله، ولا يعقل أن تكون إرادته تامة نافذة كإرادة الخالق سبحانه، فإرادة المخلوق مخلوقة وتابعة لإرادة خالقه ومشيئته: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠].

#### خامساً: أفعال المكلف واتصالها بالقضاء والقدر:

ولا يُسأل المكلف عن الأفعال الصادرة عنه بلا إرادة ولا اختيار، ولهذا فإنّ العلماء يميّزون في الحكم بين أفعال المكلف الاختيارية وأفعاله الاضطرارية.

قال الشيخ محمد الحامد رحمته الله: «الفرق واضح بين الأفعال التي يأتيها الإنسان بمحض اختيار وحرية تصرف، وبين ما ينزل به ويصيبه من أمور ليس في إمكانه دفعها عن نفسه، كحركة المرتعش مثلاً وكالجوع والعطش والنعاس، فإنّه فيها مقهور، وعليها مجبور، فلا حساب عليه ولا عقاب.

أما الأولى فإن المذمة فيها متجهة إلى فاعلها إن كانت سيئة، والمحمدة تناله إن كانت حسنة، من حيث إنه فعل ما فعل بمحاكمة ذهنية، نظر فيها إلى المقدمات ونتائجها، واتخذ سبيله إلى الأسباب التي تُفضي إلى مسبباتها، فهو بهذا جدير بالمدح إذا أحسن، وبالذمّ إن أساء.

(١) البراهين الساطعة، للعزامي.

وليس يصحُّ في الأذهان التسوية بين النوعين في الحكم من حيث إنها إنكار لما تقضي به بدهة الفكر وواقع الحال، فإنَّ الحيوانات لها موازنات في أفعالها، تفرّق بها بين ما ينفعها منها وما يضرها، فهي تتقي الحفر والوهاد، ولا تلقي بأيديها إلى التهلكة، وتميِّز طيب المرعى من خبيثه، وصافي الماء من كدره. . إذا كانت هذه حالها - وهي لا تملك من سعة أفق التفكير ما يملكه الإنسان - فهل يسوغ في المنطق الصحيح أن يكونَ هو أدنى منها فكراً، وأقلَّ بصراً في الأمور، فيدَّعي أنَّه فاقد الاختيار فيما يأتي ويذر؟! اللهمَّ إنَّ هذا مما لا يقبله العلم، ولا يقرُّه العقلُ الصحيحُ والمنطقُ السليم.

نحن نشعر يقيناً أننا نأتي ما نأتي من الأعمال مختارين، وهذه ضرورةٌ عقليةٌ ليس من الممكن جردها ودفعها إلا أن ينسلخ المرءُ من رشاده تائهاً في بيداء الضلال.

لو أنَّ الأمر كان إجباراً محضاً فعلامَ السمع وعلامَ البصر؟! وعلامَ إرسال المرسلين مبشّرين ومنذرين؟! وأي معنى مع هذا لوعده الله ووعيده؟! هل كان هذا إلا لأنَّ للعبد تمييزاً يسبق عمله، واختياراً يتقدّم فعله، أما الذي في علم الله فغيّب عنه، يظهر بعد صدوره، ويثبت بعد حصوله، وهذا لا ينفي اختيار العبد ولا يلغيه»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷻ في موضع آخر: «وليس القدر الإلهي إلا العلم الأزلي السابق، وتعلُّق الإرادة الأزلية طبق هذا العلم، والترتب بين تعلُّق العلم الأزلي بالأشياء وبين تعلُّق الإرادة ترتب عقلي للفهم فقط، لا ترتب وقوعي متأخر، لأنَّ كلاً من العلم والإرادة صفة أزلية لله تعالى لا افتتاح لاتصاف مولانا بها ولا ابتداء، فالله تعالى أزلي قديم بذاته وصفاته، والإرادة الإلهية هي تخصيص الله الشؤون منذ الأزل، وقد يكون الشيء المخصص مرَضياً ومأموراً به كالطاعات، وقد يكون غير مرضيٍّ كالمعاصي، فالإرادة غير العلم وغير الرضا وغير الأمر، وهذا هو

(١) ردود على أباطيل: ١١٧/٢.

الذي توجهه لغة العرب، وهي ملاك النصوص الدينية ووعاؤها، فإذا علم الله أزلاً من زيد مثلاً أنه سيفعل كذا باختياره ولا يفعل غيره، والإرادة تعلقت بهذا الذي تعلّق به العلم بلا ترتب وقوعي متأخر كما قلنا، فهل يكون الله مجبراً له على ما يفعل، خيراً كان هذا الفعل أو شراً؟<sup>(١)</sup>.

#### سادساً: التوفيق بين النصوص:

ثم رسم ﷻ مسلكاً وفق فيه بين النصوص القرآنية وأظهرها مجموعة واحدة صدرت من إله واحد، لا تناقض في بياناته، ولا يضل في إرشاداته، فقال:

«فما كان من النصوص موهماً للإطلاق، وأنَّ العبد حرٌّ في أفعاله، فهو محمول على كسب الفعل وتحصيله بتوجيه عزمه إليه، وقصده إياه بإرادته، وهذا تنطق به آيات كثيرة، مثل: قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، و﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَبْغِيهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

والنصوص التي ظاهرها الإيجار تُحمَلُ على عقوبة أنزلها الله بهم، وضلال ألزمهم إياه، لمزيد تعنتهم، وقبيح تنكّرهم للحق، ومحاولتهم إطفاء نور الله بأفواههم، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، و﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

وقد تُحمَلُ على أن الله قادر على أن يهدي الخلق كلهم، وأنه ليس بعاجز، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، و﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجْمَةُ الْبَلِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩].

وقد تُحمَلُ على علم الله أزلاً بالذي سيكون من العبد خيراً كان أو شراً، كقوله عليه الصلاة والسلام: «السعيدُ مَنْ سَعَدَ فِي بطنِ أمه» [رواه الطبراني في (الصغير)] والعلم ليس فيه معنى الإيجار.

فلا تعارض بين الآيات ولا تضارب، ومعاذ الله أن تكون آيات الله

(١) ردود على أباطيل: ٣٩٤/١.

سبحانه يضربُ بعضها بعضاً وهو القائل: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ آيَاتٌ أَنْ يَسُبِّحَ اللَّهَ لَوْ جَدُّوا فِيهِ آخِثَاتًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]»<sup>(١)</sup>.

على ضوء هذا التوضيح لما سبق يمكننا أن نلاحظ كيف أن آيات السورة الكريمة تدور في هذا الفلك من أول آية إلى آخر آية.



(١) ردود على أباطيل: ١٢٥/٢.



## الْفَضِيلَةُ الْاُولَى

### ضرورة الوحي وصلته بالتقدير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ عِنْدِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ بِالْقِسْطِ ۗ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ ۗ لِنَعْلَمَ مَا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحِسَابُ ۗ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ لَآيٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايٰتِنَا غٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحٰنَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ ۗ فِيهَا سَلَامٌ وَأَسْلَامٌ ۗ دَعَوْنَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ ۗ فَنذُرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ۗ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنٰتِ وَمَا كَانُوا

لِيَوْمِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ  
كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ .

### • هذه الحروف المقطّعة:

افتتح الله تعالى سورة يونس بقوله الكريم:

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾ .

﴿الرَّ﴾ وقد ذكر علماء التفسير في الأحرف المقطّعة التي استهلَّ الله تعالى بها بعض السور القرآنية أقوالاً كثيرة في معانيها، وتدلُّ كثرة هذه الأقوال على حقيقة هامة، هي: أنَّ الإنسان مهما تدبَّر كلمات الله تعالى فلن يقف على كل معانيها وأسرارها، ولهذا ذهب كثير من المفسرين إلى القول بأن معاني هذه الحروف مما استأثر الله تعالى بعلمها، فهي من الآيات المتشابهات التي لا يعلم حقيقة معانيها إلا الله سبحانه القائل: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

ورأى فريق آخر أنها ذكرت لبيان إعجاز القرآن الكريم، وتنبيه الأسماع إليه، فقد كان المشركون ينفرون عند سماع القرآن، فلما نزلت: ﴿الرَّ﴾، و﴿الرَّصَّ﴾... استنكروا هذه الألفاظ، فلما أنصتوا إلى رسول الله ﷺ أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وأذانهم، ويقىم الحجّة عليهم، ففي هذه الحروف إشارة إلى حروف الهجاء، أعلم الله بها العرب حين تحدّاهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي بناء كلامهم عليها، ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجّة عليهم<sup>(١)</sup>.

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني: ٢٩/١.

ولقد انتصر لهذا الرأي ابن كثير رحمته الله في تفسيره، وأيده بقوله: «ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن، وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء في تسع وعشرين سورة»<sup>(١)</sup>.  
وسورة يونس من بين هذه السور، وسيأتي معنا ما فيها من بيان لإعجاز القرآن وعظمته.

### • الكتاب الحكيم:

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ تلك: للإشارة إلى الآيات الموجودة في سورة يونس، وهي تستعمل للإشارة إلى البعيد، والتباعد هنا للتعظيم، كما قال الشوكاني رحمته الله<sup>(٢)</sup>.

وقد تكون الإشارة إلى كل ما تقدم نزوله من آيات القرآن.

ومعنى ﴿الْحَكِيمِ﴾ ذو الحكمة لاشتماله عليها، أو المحكم عن الكذب والافتراء<sup>(٣)</sup>.

أو الحكيم بمعنى الحاكم، فهو حاكمٌ بالحلال والحرام، وحاكمٌ بين الناس بالحق، فعيل بمعنى فاعل، أو بمعنى المحكوم فيه، أي: حكم الله فيه بالعدل والإحسان، وبالجنة لمن أطاعه، وبالنار لمن عصاه، فهو فعيل بمعنى المفعول<sup>(٤)</sup>.

ولا شك أن القرآن الكريم يتّصف بكل هذه المعاني، فهو ذو حكمة، ومحكم، وحاكم، ومحكوم فيه، لأنه كلام الحكيم الخبير، قال تعالى: ﴿الرَّ كُنْتُ أَحْكَمَ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّي حَكِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١].

(١) انظر: تفسير سورة النمل في تفسيرنا الموضوعي هذا، وقد جعلنا عنوانها في هذا التفسير: (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

(٢) فتح القدير، للشوكاني: ٤٢١/٢.

(٣) تفسير البضاوي: ٢٢٥/٣.

(٤) انظر: تفسير القرطبي: ٣٥/٨.



## • التعجب من نزول الوحي:

أثار نزول الوحي على سيدنا رسول الله ﷺ تعجب المشركين من العرب وإنكارهم، فاستهل سبحانه سورة يونس بذكر هذا التعجب، ورده بيان ضرورته للناس، فقال ﷺ:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾﴾ .

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾؟ وهمزة الاستفهام في ﴿أَكَانَ﴾ لإنكار تعجبهم، وتوبيخ لهم عليه، مع التعجب منه، فليس في الإيحاء إلى رجل من جنسهم ما يقتضي العجب، فلو أرسل الله تعالى لهم ملكاً لأرسله إليهم بهيئة رجل، حتى يستطيعوا التلقي عنه، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ لَوْ كَانِ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥].

والعجب: حالة تعتري الإنسان من رؤية الشيء على خلاف العادة.

ولم يكن إرسال سيدنا محمد ﷺ أمراً جديداً على خلاف العادة، فقد أرسل الله تعالى كثيراً من الرسل قبله، وهو عليه الصلاة والسلام خاتمهم؛ قال تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَاٍ مِنَ الرُّسُلِ وَمَا آدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩].

وذكر المفسرون أن المراد من الناس في قوله: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ﴾ كفار العرب، لكنني لا أرى مانعاً من تعميمها على جميع الكفار من العرب وغيرهم الذين أنكروا ظاهرة الوحي، واستبعدوا وقوعها، بسبب قُصْر عقولهم ومداركهم على الظواهر المادية المحسوسة المحيطة بهم، أو بسبب غلبة التعصب والحسد على قلوبهم ومشاعرهم، مما جعلهم ينكرون نبوة نبينا محمد ﷺ، وهذا ما فعله بعض المستشرقين من أمثال «درمنغهام»، و«واط»، و«جولدتسهر» وغيرهم.

## • قَدَمُ الصَّدَقِ:

﴿أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ هذه هي المهمة الأساس للرسول ﷺ، وهي الإنذار والتبشير.

وجاء الإنذار عاماً لكل الناس، لأنهم يحتاجون إلى مَنْ يهددهم ويتوَعَّدهم، ويعرفهم نتيجة إعراضهم عن دعوة ربهم، أو مخالفتهم لحكم من أحكام شريعته وخروجهم عليها.

وجاء التبشير خاصاً بالمؤمنين ليقوّي رغبتهم في دعوة ربهم، ويشدّ عزيمتهم للتغلب على المعوقات النابعة من أهوائهم ونزواتهم، والعقبات التي يقيمها الأعداء في طريقهم.

وقد تعددت أقوال المفسرين في معنى ﴿قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ قالوا: المراد بقدَم الصدق السعادة التي قدّرها الله تعالى لهم في سابق علمه، وتعلّقت بها إرادته سبحانه، وكتبها في اللوح المحفوظ، ولهذا المعنى اتصال وثيق بموضوع السورة الذي سبق الحديث عنه.

وقالوا أيضاً: الأجر الحسن بما قدّموا من أعمال، أو المنزلة الرفيعة يوم القيامة، أو شفاععة النبي ﷺ.

ولا تنافي بين هذه الأقوال، فللمؤمنين سابقة فضل عند الله تعالى سبقت في علمه سبحانه، وتعلّقت بها إرادته، وبها ينالون يوم القيامة الثواب العظيم والمنازل الرفيعة، ويكرمهم الله تعالى بشفاعة النبي ﷺ.

والسبب في إطلاق لفظ القَدَمِ على هذه المعاني أنّ السعي والسبب لا يحصل إلا بالقدم، فسُمي المسبب باسم السبب، كما سُميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد<sup>(١)</sup>.

وأضيفت القَدَمُ إلى الصدق للدلالة على زيادة الفضل، أو لتأكيد تحققها

(١) تفسير الخازن: ٢٢٧/٣.

وزيادة مدحها<sup>(١)</sup>، أو للتنبية على أن ما نالوه من المنازل الرفيعة كان بسبب صدق القول والنية<sup>(٢)</sup>.

﴿قَالَ الْكٰفِرُونَ اِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِيْنٌ﴾ وفي قراءة: ﴿لَسِحْرٌ مُّبِيْنٌ﴾، وقول الكافرين هذا فيه اعترافٌ بعجزهم عن معارضة القرآن الكريم، قال الألوسي رحمته: «وفي هذا اعترافٌ بأن ما عينوه خارجٌ عن طوق البشر، نازلٌ من حضرة خلاق القوى والقدر، ولكنهم سمّوه بما قالوا تمادياً في العناد»<sup>(٣)</sup>.

### • الأيام الستة:

وردّ الله سبحانه على الكفار المتعجبين من الوحي والمنكرين له، بيان أنه تعالى الخالق للكون كلّه، وأنه سبحانه مالكه، يتصرّف فيه كما يشاء، وأن حكيمته سبحانه من الخلق والتكوين أن يعمره المكلفون بطاعته وعبادته، فلا بدّ إذن من التكليف، ولا يتم التكليف إلا بإنزال الوحي على من يختارهم سبحانه لحمل رسالته، وتبليغ أمانته لعباده المكلفين بطاعته وعبادته؛ قال سبحانه على وجه الإلزام والتقرير:

﴿اِنَّ رَبَّكُمْ اَللّٰهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِيْ سِتَّةِ اَيّٰمٍ ثُمَّ اَسْتَوٰى عَلٰى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْاَمْرَ مَا مِنْ شٰفِعٍ اِلَّا مِنْۢ بَعْدِ اِذْنِهٖ ذٰلِكُمْ اَللّٰهُ رَبُّكُمْ فَاَعْبُدُوْهُ اَفَلَا تَذَكَّرُوْنَ﴾

﴿اِنَّ رَبَّكُمْ اَللّٰهُ﴾ لأنه خالقكم ومالككم ومدبر أمركم، فهو سبحانه ربكم شتم أو أبيتتم.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ فِيْ سِتَّةِ اَيّٰمٍ﴾ أي: إن ربكم الذي تعجبون من

(١) تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٣/ ٢٢٧.

(٢) روح المعاني: ٤/ ٦٢.

(٣) المرجع السابق: ٤/ ٦٤.

إرساله إليكم رجلاً منكم هو الله ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في ستة أوقات؛ فالمراد من اليوم معناه اللغوي وهو مطلق الوقت (١).

وما دمنا لا ندري مقدار هذه الأيام وحقيقتها فلا ينبغي أن ندخل في تحديدها، فهي كما قال سيد قطب رحمته الله: «ذُكِرَتْ لبيان حكمة التقدير والتدبير في الخلق، فالأيام الستة غيبٌ من غيبِ الله الذي لا مصدر لإدراكه إلا هذا المصدر، فعلياً أن نقف عنده ولا نتعداه» (٢).

وتدل الآية الكريمة على أنه سبحانه ما خلق الخلق دفعة واحدة، بل خلقه على التدرج في ستة أوقات مع أنه سبحانه قادر على خلقه دفعة واحدة في أقل من لمح البصر: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

ولا بد للتدرج في الخلق من حكم عظيمة يعلمها سبحانه، وقد ذكر المفسرون أن من حكمته سبحانه أن يعلم عباده الفرق والتثبت في الأمور، والتأني في الأحوال، ولا شك أن في التدرج في الخلق دليلاً على كمال مشيئته سبحانه، فما خلق الخلق مجبراً عليه، بل خلقه بمحض إرادته ومشيئته وعلمه.

وقد فصل سبحانه التدرج في الخلق في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) وجعل فيها رواسي من فوقها وبنح فيها وقدر فيها أقوامها في أربعة أيامٍ سواءً للسَّالِبِينَ (٢) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أَنْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَنْتِنَا طَائِعِينَ (٣) فَفَضَّنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿ [فصلت].

#### • ثم استوى على العرش:

وقوله سبحانه:

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ نؤمن به على المعنى الذي أراده سبحانه من غير تكيف، ولا تشبيه، ولا تعطيل.

(١) روح المعاني: ٦٤/٤.

(٢) في ظلال القرآن: ١٧٦٢/٣.

روى البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» بسنده عن عبد الله بن وهب قال: كنا عند مالك بن أنس فدخل رجلٌ، فقال: يا أبا عبد الرحمن ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كيف استواؤه؟ قال: فأطرق مالك وأخذته الرُّحضاء (عرق كثير)، ثم رفع رأسه فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كما وصف نفسه، ولا يقال كيف، وكيف عنه مرفوعٌ، وأنت رجلٌ سوءٍ وصاحبٌ بدعةٍ، أخرجوه.

قال ابن كثير رحمته الله: «الظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفيٌّ عن الله، فإن الله تعالى لا يشبهه شيء من خلقه، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].»

بل الأمر كما قال نعيم بن حماد الخزازي، شيخ البخاري، قال: من شبه الله بخلقه كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله، ونفى عن الله النقائص، فقد سلك سبيل الهدى<sup>(١)</sup>.

والعرش أكبر المخلوقات وأعظمها، ويطلق في اللغة على أكثر من معنى، فهو سرير الملك، وسقف البيت، والمُلك، والسلطان والعز<sup>(٢)</sup>.

#### • التقدير والتدبير:

ثم أكد سبحانه كمال قدرته وتام مشيئته بقول: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يقدِّر ويقضي أمر جميع المخلوقات، فلا يحدث حدثٌ في العالم كله إلا بإرادته سبحانه وقضائه وتدبيره وحكمته، فلا يخرج أمر عن قضائه وتقديره<sup>(٣)</sup>.

فالتقدير والتدبير له وحده سبحانه، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٥/٢.

(٢) انظر: فتح القدير: ٢١١/٢.

(٣) انظر: تفسير البيضاوي والخازن: ٢٢٧/٣.

﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾، فنفي الشفاعة يدلُّ على استبداده سبحانه وحده بالتدبير والتقدير، وهو تقرير لعظمته سبحانه إثر تقرير، فلا يشفع أحد في أي وقت إلا بعد إذنه تعالى المبني على الحكمة الباهرة، وذلك عند كون الشفيع من المصطفين الأخيار والمشفوع له ممن يليق بالشفاعة<sup>(١)</sup>.

﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ فالموصوف بهذه الصفات الجليلة هو ربكم المستحق للعبادة.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده، فلا ربَّ غيره، ولا معبود سواه.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ فأمر الله سبحانه بإفراجه بالعبادة والطاعة ظاهرٌ واضحٌ لا يحتاج إلى تفكُّر كثير، وتعقُّل كبير، ولهذا ختم سبحانه الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

#### • أهمية الإيمان بالقضاء والقدر:

ومن خلال هذه الآيات الكريمة تظهر لنا أهمية الإيمان بالقضاء والقدر، فهو ركن من أركان الإيمان، فلا يكون العبد مؤمناً بالله تعالى وكمالته ووحدانته إلا إذا صدَّق بالقضاء والقدر، الذي يدلُّ على أنه لا يحدث شيء في الكون كلُّه إلا بسابق علمه سبحانه وإرادته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

قال الشيخ محمد الحامد رحمته الله: «الإيمان بالقدر أساس من أسس العقيدة، وركن من أركانها، ولما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره» [رواه مسلم (٨)].

وشرُّ القدر هو بالنسبة إلى العبد المتصف بالشر لا إلى الرب تعالى وتبارك سبحانه، فهو منزّه عن الشر مطلقاً، وكان من دعاء النبي عليه الصلاة والسلام ربه تعالى: «الخير في يديك، والشرُّ ليس إليك» [رواه مسلم (٧٧١)]<sup>(٢)</sup>.

فأفعاله سبحانه كلُّها حكَمٌ، وعدم ظهور الحكمة في بعضها لقصور علم

(١) روح المعاني: ٦٥/٤.

(٢) ردود على أباطيل: ٣٨٨/١.

المخلوق عن علمه سبحانه، وما هو شرٌّ في نظر الناس ليس شرّاً بالنسبة إليه سبحانه، فما خلقه إلا لحكمة بالغة، قال الشيخ العزامي رحمته الله: «ويقرب ذلك إلى فهمك أن تنظر إلى فعل الطبيب الشفيق على المريض في إعطائه الدواء الكريه قهراً، وقطعه العضو الذي يخشى من بقاءه على الجسد كله، ونحو ذلك، فهو شرٌّ في نظر الضعفاء لما فيه من الإيلام وتشويه الجسد بقطع شيء منه، وهو في النظر السليم يعدُّ خيراً لما يُفضي إليه من الصحة والسلامة لباقي البدن، وكلُّ أفعاله تعالى من هذا القبيل عند من دقق النظر وكان من أولي الألباب»<sup>(١)</sup>.

ولقد فطن الناس في العصر الحاضر إلى أهمية استمرار البيئة كما خلقها الله تعالى وأبدعها، وأنَّ أي تغيير فيها تشويه لها وتلويث قد يؤدي إلى أخطار كبيرة تهدد حياة الإنسان ووجوده على الأرض، ولهذا ترى أنصار حماية البيئة يبذلون الجهود الكبيرة لحماية جميع أنواع الحيوانات من الانقراض، سواء منها القريبة من الإنسان أو البعيدة عنه في أعماق البحار الدافئة والمتجمدة، كل ذلك لاعتقادهم أنَّ لوجودها حكمة وارتباطاً بحياة الإنسان ووجوده.

فسبحان الذي أحسن كل شيء خلقه، وبدأ خلق الإنسان من طين. وتدييره سبحانه للأمر كلها يمتد للدنيا والآخرة، للحياة وبعد الممات، فلا فوت للإنسان إذا مات من قدرته سبحانه وإرادته:

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إلى ربكم أيها الناس رجوعكم بعد الموت فاستعدوا للقاءه.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا﴾ لا خُلفَ فيه، إذ سبق بذلك علمه، وتعلقت به مشيئته.

﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ من العدم.

﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بعد الموت إلى الحياة.

﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، فلا ينقص من أجورهم شيئاً، بل يزيدهم من فضله. أو: ليجزيهم بما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا، فالإيمان عدلٌ قويم، والشرك ظلم عظيم<sup>(١)</sup>.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ بلغ الغاية في حرارته.

﴿وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾.

وتغيّر نظم الكلام عند الحديث عن العذاب عن نظمه في الحديث عن الثواب، للتنبيه على أنّ المقصود بالذات من إعادتهم إلى الحياة بعد الموت هو الثواب للمؤمنين، وأما عقاب الكافرين فغير مقصود<sup>(٢)</sup>، فهو واقع بالعرض، ساقه إليهم سوء اعتقادهم وشؤم أفعالهم؛ فالله سبحانه ما خلق الخلق ليعذبهم، ولكن الناس يعرضون أنفسهم إلى عذاب الله تعالى بكفرهم وفجورهم: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

ويلاحظ المتأمل للآيات السابقة أنها أثبتت للإنسان كسباً واختياراً في إيمانه أو كفره، وبيّنت في الوقت نفسه كمال علم الله سبحانه المحيط أزلاً بكل المخلوقات، وتمام مشيئته النافذة في كل الحادثات.

#### • الشمس المضيئة والقمر المنير:

ومن مظاهر تدبيره سبحانه لأمر المخلوقات وتقديره لنواميس الكائنات خلقه الشمس والقمر، وتخصيص كل واحد منهما بخصائص ونواميس يسير عليها لا يتجاوزها، وإبداعه لنظام الليل والنهار، وجعل كل ذلك مرتبطاً بمصالح العباد وحياتهم على الأرض:

(١) تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٢٢٨/٣.

(٢) تفسير النسفي: ٢٢٨/٣.



﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً﴾ أي: ذات ضياء .

﴿وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ أي: ذا نور .

وقد تساءل بعض المفسرين عن سِرِّ وصف الشمس بالضياء، ووصف القمر بالنور، فقال بعضهم: خصَّ الشمس بالضياء لأنها أقوى وأكمل من النور، وخصَّ القمر بالنور لأنه أضعف من الضياء<sup>(١)</sup>.

وقال آخرون: ما بالذات ضوءً، وما بالعرض نور، وقد نبه ﷺ بذلك على أنه خلق الشمس مضيئة بذاتها، والقمر منيراً بعرض مقابلة الشمس والاكتماب منها<sup>(٢)</sup>.

وهذه حقيقة علمية عرفت في العصور المتأخرة، فنور القمر مستمدٌ من ضوء الشمس، وهو انعكاسٌ لأشعة الشمس، ولهذا سمى الله تعالى الشمس بالسراج، لأنها مضيئة بذاتها، كما وصف القمر بالمنير لأن نوره انعكاس لأشعة الشمس عليه، قال تعالى: ﴿نَبَارِكُ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وقال ﷺ أيضاً: ﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح].

﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ أي: وقدَّر لسير القمر منازل لا يجاوزها ولا يقصُر عنها، كما في قوله سبحانه: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [يس: ٣٩].

وهذا التقدير والتنظيم جعله الله بفضله من أجل الإنسان وفائدته: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ فتقوم به مصالح الناس الدينية والدنيوية،

(١) تفسير الخازن: ٢٢٩/٣ .

(٢) تفسير النسفي: ٢٢٩/٣ .

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَحَوَّنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَضَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢].

### • العلم والتقوى:

وهذا التقدير والإبداع ما خلقه الله تعالى عبثاً ولا باطلاً:

﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الثابت الذي يدلُّ على كمال قدرته سبحانه

وبديع حكمته .

﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ دلائل قدرته، وبراهين وجوده وعظمته،

فيؤمنون به ويصدقون بوحدانيته وكماله .

﴿إِنَّ فِي أُخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

يَتَّقُونَ﴾

﴿إِنَّ فِي أُخْتَلَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، ومجيء أحدهما بعد الآخر على وفق النظام

المقدر لهما .

﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ من أنواع المخلوقات والنواميس والنظم

التي تحكمها، والتي تدل على وجود خالقها ومبدعها .

﴿لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتقون الله تعالى بعبادته وطاعته واتباع رسله .

ويلاحظ أنه سبحانه ختم الآية الأولى بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، ثم ختم

الآية الثانية بقوله: ﴿لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ﴾، ممَّا يدلُّ على أن الإنسان الذي يتأمل

ويتدبر ويلاحظ بديع صنع الله في مخلوقاته، ويعلم ما فيها من الأدلة والبراهين

على وجوده سبحانه ووحدانيته، لا بد أن يؤمن بالله ويخشاه، ويعمل في طاعته

وعبادته ليتقي عذابه وغضبه، فالعلم مع الإيمان يؤدي إلى العمل بطاعته،

ويوصل طلاب الحق إلى معرفة ربهم وتقواه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِن عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨].

## • المطمئنون بالدنيا:

إلا أن أكثر الناس يغفلون عن آيات الله تعالى الماثورة في هذا الكون، بسبب انشغالهم بالحياة الدنيا وانكبابهم على ملذاتها، وصرهم كل إمكاناتهم في تأمين متطلباتها، حتى إنهم لا يتوقعون لقاء الله تعالى، ولا يؤمنون بيوم الحساب والجزاء، وتلك هي مشكلة أكثر الناس، وخاصة في العصر الحاضر: الغفلة عن الأدلة الكثيرة التي قربها العلم من أسماعهم وأبصارهم، والاعتزاز بالدنيا والاطمئنان بها.

هذه الغفلة عن آيات الله تعالى لا تخلصهم من الحساب يوم القيامة، ولا تنجيهم من العقاب، فقد زودهم سبحانه بكل وسائل النظر والتفكير، وأرسل إليهم رسلاً يذرونهم ويحذرونهم، وجعل لهم إرادة واختياراً وكسباً، وقدرة على التمييز والاختيار:

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ أي: لا يتوقعون لقاء الله تعالى يوم القيامة، أو لا يخافون لقاء الله تعالى لأنهم لا يؤمنون به .

﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فسكنوا إليها، وقصروا همهم على ملذاتها وزينتها .

﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾ مما جعلهم يغفلون عن آيات الله تعالى فلا يتفكرون بها

ولا يلتفتون إليها .

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾ :

﴿أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾﴾ .

فسوء اختيارهم وكسبهم وغفلتهم عن ربهم أوصلهم إلى عذاب النار .

## • الواصلون إلى الجنة:

وبالمقابل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ  
فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالله تعالى وآياته التي غفل عنها الغافلون.  
﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ التي كُفِّوا بها بواسطة الأنبياء والمرسلين.  
﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي: يوفقهم ربهم للسير على طريق الحق،  
ويثبتهم عليه حتى يصلوا إلى جنته ورضوانه بسبب إيمانهم، فهو كقوله ﷻ:  
﴿وَالَّذِينَ ءَاهَدُوا زَادَهُمْ هُدًى وَءَانَّهُمْ وَقَوْهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وقوله أيضاً: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ. وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١].  
فنظرهم إلى الأدلة الدالة على وجود الله تعالى ووحدانيته، واستجابتهم لدعوة  
المرسلين، جعلهم في كنف الله ورعايته وتوفيقه، فسدّد خطاهم، ونور بصائرهم،  
فاستقاموا على الصراط، حتى وصلوا بفضل الله تعالى إلى رضوانه وجنته.  
﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ حيث السعادة الأبدية الحقة،  
والنعيم الدائم الذي لا ينقطع، فلا يشغلهم فيها عن ربهم سبحانه طلب رزق  
وتحصيل لذة وتحقيق متعة، أعطاهم سبحانه فوق ما يؤملون وأعظم مما يشتهون.  
ولهذا يقبلون على تسبيحه سبحانه وتمجيده وتقديسه والثناء عليه بما هو  
أهله، فيزيدهم الله سبحانه من فضله، ويفتح عليهم خزائن جوده وكرمه، فتزداد  
سعادتهم ويتضاعف سرورهم:

﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۗ وَءَاخِرُ دَعْوَتُهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ  
الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿دَعْوَتُهُمْ فِيهَا﴾ أي: كلام أهل الجنة في الجنة، أو دعاؤهم فيها.

﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ أي: يصفون الله تعالى بصفات الجلال التي يقال فيها: جلّ عن كذا وجلّ عن كذا، وهذا معنى التسييح والتنزيه والتقديس، ثم يشنون عليه سبحانه بصفات الإكرام والكمال وهو التحميد..

﴿وَيَحْيِيهِمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ أي: يقابلون بالسلام من ربهم: ﴿يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٤].

ومن الملائكة الذين يدخلون عليهم من كل باب قائلين لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].

﴿وَأَعِزُّهُمْ دَعْوَتُهُمْ﴾ أي: وخاتمة كلامهم أو دعائهم:

﴿إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

#### ● المستعجلون للعذاب:

لقد اقتضت حكمة الله سبحانه ورحمته إمهال الكافرين، وعدم تعجيل عذابهم، لعلمهم ينتبهوا من غفلتهم، ويصححوا من سكرتهم، فتفتح بصائرهم على الأدلة الماثورة حولهم، وتستنير عقولهم وقلوبهم بأنوار الهداية، فتتقاد لدعوة المرسلين عليهم أفضل الصلاة والتسليم، وتلزمهم بهذا الإمهال الحجة، وتقوم عليهم البينة، فإذا ما استعجلوا العذاب لفرط جهلهم وعنادهم فالله سبحانه لا يعجل لعجلتهم، ومشيئته سبحانه أجل وأعز من أن تكون تابعة لمشيئتهم، بل يتركهم سبحانه متحيرين مترددين في ظلمات كفرهم:

﴿وَلَوْ يَعِجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

﴿وَلَوْ يَعِجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلَهُمْ بِالْخَيْرِ﴾ أي: مثل استعجالهم بالخير.

فمن المعروف شدة حُبِّ الإنسان للخير، واستعجاله في تحصيله.

﴿لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ أي: لأهلكوا وأميتوا، ولكن حكمته سبحانه اقتضت

إمهالهم.

﴿فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي: يترددون ويتحيرون.

وما أشدَّ جهلهم حين يستعجلون العذاب! ألا فلينظروا إلى أحوالهم عندما يصيبهم شيء من المكروه، وحينئذ يستشعرون ضعفهم، ويعرفون ذلَّتْهم وافتقارهم، فيقبلون على الله تعالى ضارعين يسألونه كشف الضر عنهم:

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ .

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾ كالفقر والمرض .

﴿دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ أي: دعانا في جميع أحواله؛ سواء كان مضطجعا أو قاعداً أو قائماً، وهذا يدلُّ على أنه يستمر في الدعاء والسؤال حتى يكشف الله عنه المكروه .

﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ﴾ أي: مضى واستمر على ما كان عليه من الإعراض عن الله تعالى، والانصراف إلى الدنيا وزينتها وشهواتها . أو: مرَّ عن موقف الدعاء والابتهاال والشعور بالضعف والذلة إلى موقف التكبر والتجبر .

#### • من حقائق النفس البشرية:

﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والمسرفون هم المتجاوزون لحد الاعتدال، والمبالغون في الإقبال على الدنيا وشهواتها، مما جعلهم غافلين عن آخرتهم ومصيرهم .

والتزيين: التحسين والتحبيب، ولا شك أن نفوسهم الأمارة بالسوء زينت لهم أمر الإقبال على الدنيا والانهماك بشهواتها، والانصراف عن أمر الآخرة وما فيها من حساب وعقاب .

هذه حقيقة من الحقائق التي تنطوي عليها النفس البشرية، تواجهنا بها الآية الكريمة بكل ما فيها من موضوعية وصدق، مع عمق في تحليل نفس الإنسان، وبيان ما انطوت عليه من نزعات ونزغات .

وقد أحسن سيد قطب رحمته الله عندما تحدّث عن الاتساق والاتفاق بين كلمات الآية الكريمة وبين الحالة النفسية للإنسان فقال: «والسياق ينسّق خطوات التعبير، وإيقاعه مع الحالة النفسية التي يصوّرها، والنموذج البشري الذي يعرضه، فيصوّر منظر الضر في بطء وتلبث وتطويل: ﴿دَعَا نَا لِجَنِّهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾، يعرض كل حالة وكل وضع وكل منظر، ليصور وقفة هذا الإنسان، وقد توقف التيار الدافع في جسمه أو في ماله أو في قوته كما يتوقف التيار أمام السد، حتى إذا رفع الحاجز ﴿مَرَّ﴾ كلمة واحدة تصور الاندفاع والمروق والانطلاق ﴿مَرَّ﴾ لا يتوقف ليشكر، ولا يلتفت ليتدبّر، ولا يتأمل ليعتبر، ﴿مَرَّ﴾ كَأَنَّ لَمَّ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضَرْبٍ مَّسَّةٍ﴾، واندفع مع تيار الحياة دون كابح ولا زاجر ولا مبالاة»<sup>(١)</sup>.

#### • جزاء المجرمين:

ثم التفتت الآيات تخاطب المشركين وتذكّرههم بمصير الأمم السابقة التي كذّبت رسلها، وإهلاك الله تعالى لهم بسبب ذلك:

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا  
كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ أي: عندما أشركوا.

﴿وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾، مما يدلُّ على أن ظلمهم كان بتكذيب الرسل

وإعراضهم عن المعجزات والحجج التي جاؤوا بها.

﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ مهما طال عليهم الزمن، وامتدَّ بهم العمر، لأن الله علم

أنهم يصرون على كفرهم<sup>(٢)</sup>.

فالسبب في إهلاكهم تكذيبهم للرسل، بعد أن أقام الله عليهم الحجة

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٧٦٩.

(٢) تفسير البيضاوي: ٣/ ٢٣٤.

بالبينات والمعجزات التي جاء بها الرسل، وعلمه سبحانه (أنهم لن يؤمنوا) لم يكن سبب هلاكهم، كما أنه لم يكن سبب امتناعهم عن الإيمان، إنما هلاكهم كان بسبب اختيارهم للكفر، وإعراضهم عن دعوة المرسلين.

﴿كَذَلِكَ﴾ مثل ذلك الإهلاك.

﴿يَجْزَى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾، وهو وعيد شديد للمشركين المعرضين عن دعوة الرسول ﷺ والمكذبين له، ولا يخفى من صفة الإجمام التي وصفوا بها ما فيها من دلالة على تأكيد اختيارهم وكسبهم ومسؤوليتهم عن هذا الكسب والاختيار.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (١٤).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: ثم استخلفناكم في الأرض بعد الأمم السابقة التي أهلكناها، والخطاب للذين أرسل إليهم سيدنا محمد ﷺ، وهو يشمل الذين شهدوا بعثته، ومن يأتي بعدهم من الأجيال إلى قيام الساعة.

﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي: أتعلمون خيراً أم شراً؟ فنعاملكم على حسب عملكم لا حسب علم الله سبحانه، فالله سبحانه يعلم ما يكون قبل أن يكون، وهو سبحانه يعامل العباد معاملة من يطلب العلم بما يكون منهم ليجازيهم بحسبه<sup>(١)</sup>.

قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَاظِرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ مِنَ النِّسَاءِ» [رواه مسلم (٢٧٤٢)].

وقد بين الله تعالى لنا من خلال هذه الآيات الكريمة قاعدة عظيمة جليلة في موضوع القضاء والقدر، وهي تقرر أن للإنسان كسباً واختياراً، وأنه سبحانه سيحاسبه ويسأله عمّا صدر عنه من عمل باختياره وكسبه، لا بمقتضى علمه سبحانه به.





## الفصل الثاني

## مواقف

﴿وَإِذَا تُخَلَّى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا آتَتْ بِشَرِّهِمْ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فُلٌ مَّا يَكُونُ لِي أَن أَبَدَلَهُ مِنْ تِلْقَائِي أَنفُسِي إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ إِنِّي أَعَافُ إِذَا عَصَيْتُمْ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَسْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنُذِرُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحٰنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرِّهِمْ مَسَّتْهُم إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِن رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا نَمَكُرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِين بِيَمِ بَرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجَيْنَا مِن هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَجْلَبَتْهُم إِذَا هُمْ يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْبِكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ وَمِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتْمَلْنَا لَمِيلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّم تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلٰوَةِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۗ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٦﴾  
 وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۗ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِن عَاصِمٍ ۗ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ  
 وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ  
 نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ فَزَلَلْنَا بَيْنَهُمُ الْقَالَ شُرَكَاءُ هُمْ مَا كُنتُمْ إِنَّا نَاصِرُونَ ﴿٦٨﴾  
 فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لِغَفْلَاتِكُمْ ﴿٦٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلَأُونَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا  
 أَسْلَفَتْ ۗ وَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ ۗ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٠﴾

### • القرآن والنبي ﷺ:

وجاءت الآيات الكريمة بعد ذلك تبين مواقف الخلائف في الأرض الذين أرسل إليهم سيدنا محمد ﷺ، وبدأت ببيان موقفهم من القرآن الكريم عندما كان الرسول ﷺ يتلوه عليهم.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِفِرْعَوْنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ  
 بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ ۗ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ ۗ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ  
 عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على أنها كلام الله تعالى وعلى صدق رسول الله ﷺ.

﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتِ بِفِرْعَوْنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ﴾ وهو طلب عجيب يدل على أنهم طلبوه على سبيل السخرية والاستهزاء، أو طلبوه على سبيل الجدل امتحاناً للنبي ﷺ (١).

وعلى كلا الاحتمالين فهو طلب لا يصدر إلا عن قوم لا يرجون لقاء الله تعالى، ولا يدركون مدى المسؤولية المترتبة على مثل هذا الكلام.

(١) انظر: التفسير الكبير: ٥٩/١٧.

﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي﴾ أي: قل أيها الرسول لهم: ما يصح لي أصلاً تبديله من جهتي ومن عندي.

﴿إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي: ما أتبع إلا ما يوحي إلي من غير زيادة ولا نقصان، لأنه من عند الله تعالى لا من عندي، فحاله عليه الصلاة والسلام مقصورة على اتباع ما يوحي إليه، فلا يستقل بشيء دونه أصلاً<sup>(١)</sup>.

﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وهو تأكيد لعبوديته عليه الصلاة والسلام لربه، ولشدة خشيته منه ﷺ، وفيه ردٌّ على تعريضهم به عليه الصلاة والسلام عندما طلبوا منه تبديل القرآن الكريم.

#### • حقيقة القرآن الكريم:

وبعد أن بين سبحانه بطلان ما اقترحوه بين حقيقة القرآن الكريم وأنه من عند الله تعالى، نزل على النبي ﷺ بأمره تعالى ومشيته:

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ ۗ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٦)

﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ﴾ أي: لو شاء الله أن لا ينزل هذا القرآن علي ما قرأته عليكم.

﴿وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ﴾ أي: ولا أعلمكم الله به على لساني.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ﴾ أي: فقد أقيمت بينكم أربعين سنة من قبل نزول القرآن لا أتلوهُ ولا أعلمه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم في التدبر والتفكر فيه، لتعلموا أنه ليس مني، ولكنه كلام الله تعالى.

وفي الآية إشارة إلى أن القرآن الكريم معجز خارق للعادة، فإن من عاش

بين أظهرهم أربعين سنة، لم يمارس فيها علماً، ولم يشاهد عالماً، ولم يُنشئ شعراً ولا خطبة، ثم قرأ عليهم كتاباً بَرَّتْ فصاحته فصاحة كل منطق، وعلا عن كل منشور ومنظوم، واحتوى على قواعد علمي الأصول والفروع، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث الآخرين على ما هي عليه: عَلِمَ أَنَّهُ مَعَلَّمٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

• الصادق الأمين:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ  
الْمُجْرِمُونَ ﴿٧﴾﴾

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؟ وهو استفهام إنكاري معناه النفي، أي: لا أحد أظلم ولا أعتى ولا أشدُّ إجراماً ممن كذب على الله.

وحاشا رسول الله ﷺ أن يكون كذلك، ولقد اشتهر عليه الصلاة والسلام بغاية الصدق والأمانة بين قومه، فلا يُعقلُ أن يترك الكذب على الناس، ويكذب على الله تعالى.

وقد استدلَّ هِرَقْلُ ملك الروم بهذا على صدق النبي ﷺ عندما سأل أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا. وكان أبو سفيان إذ ذاك رأس الكفر وزعيم المشركين، ومع ذلك اعترف بالحق، فقال له هِرَقْلُ: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب ليكذب على الله. [رواه البخاري (٧)].

وقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه للنجاشي ملك الحبشة: بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته. [رواه أحمد (١/٣٠٢ و٥/٢٩٠)].

﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، وهو تعريض بالمشركين المكذِّبين للقرآن الكريم، أي: ولا أحد أظلم ممن كذب بآيات الله ﷻ.

ويدلُّ على أن الكاذب على الله تعالى والمكذب بآياته في الكفر سواء<sup>(١)</sup>،

ولهذا كرّر وصفهم بصفة الإجماع بقوله سبحانه:

﴿إِنَّهُمْ لَا يَفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

#### • توبيخ واستنكار:

وبعد أن بينت الآيات الكريمة موقف المشركين من القرآن الكريم، بينت

موقفهم من العبادة:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ، وَتَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨).

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي: يعبدون آلهة مزعومة لا تضر ولا تنفع، والعبادة أعظم أنواع التعظيم، فلا تليق إلا بمن يضر وينفع، ويحيي ويميت.

﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، وهذا يدل على شدة جهلهم حيث ينتظرون من هذه الآلهة التي لا تضر ولا تنفع أن تشفع لهم عند الله تعالى.

﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: قل لهم على وجه التوبيخ والاستنكار: أتخبرون الله أن له شريكاً في ملكه، أو شافعاً بغير إذنه، وهو سبحانه لا يعلم أن له شريكاً في السماوات ولا في الأرض؟! :  
﴿سُبْحَانَهُ، وَتَعْلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٩).

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: وما كان الناس كافة من أول الأمر إلا متفقين على الحق مجتمعين على التوحيد من غير اختلاف، وذلك من عهد آدم ﷺ إلى عهد نوح ﷺ.

وقيل: المراد من ﴿النَّاسُ﴾ العرب خاصة، وكانوا على التوحيد من زمن

إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، إلى أن ظهر عمرو بن لُحَي، وجلب الأصنام إلى أرض العرب، ونشر عبادتها بينهم<sup>(١)</sup>. فحدث الاختلاف بينهم حينئذ:

﴿فَاخْتَلَفُوا﴾ و صاروا مللاً، فالشرك أمر طارئ على الناس.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي: ولولا ما تقدم أن الله تعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وأنه سبحانه جعل لكل المخلوقات أجلاً معدوداً ومحدوداً، لقضى بينهم فيما اختلفوا فيه، وأنزل العقوبة على المكذبين<sup>(٢)</sup>.

وفي الآية كما قال القرطبي إشارة إلى القضاء والقدر.

ولا شك أن اختلاف الناس دليل على أنه سبحانه جعل لهم إرادة واختياراً وكسباً، واقتضت مشيئته وحكمته سبحانه أن تكون الحياة الدنيا للابتلاء والتكليف، ولا يتم هذا إلا إذا تمتع المكلف بالإرادة والكسب والاختيار.

#### • اقتراح المعجزات:

أظهرت لنا الآيات السابقة أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبي صلى الله عليه وسلم، وأنه يكفي للدلالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته، ويغني عن أي معجزة أخرى، وطلب معجزة ثانية لا يكون إلا مكابرة وعناداً، وقد اشتهر مشركو مكة بالعناد والمكابرة، وعرفوا بكثرة مواقف العناد والمكابرة، وجاءت الآية الكريمة تعبر عن هذه المواقف بصيغة المضارع:

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ لتؤذن أن هذه المقالة من دأبهم وعادتهم<sup>(٣)</sup>.

(١) روح المعاني: ٨٩/٤.

(٢) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١٨٨/٢.

(٣) روح المعاني: ٩٢/٤.

﴿لَوْلَا أَنْزَلْ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: هلاً أظهر الله على يده معجزة من المعجزات التي اقترحوها، والتي جاء ذكرها مفصلة في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا ﴿٩١﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَجِيلٍ وَعَنْبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩٢﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِنَانًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾﴾ (١).

ولو أنصفوا لوجدوا في القرآن الكريم ما يكفيهم ويغنيهم عن كل هذه المعجزات المقترحة.

وأمر الله تعالى النبي ﷺ أن يرد عليهم بقوله:

﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي: إن إنزال المعجزات من الغيب المختص بإرادته سبحانه.

﴿فَانظُرُوا إِلَيَّ مِنْ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ أي: انتظروا قضاء الله تعالى بيني وبينكم بإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

#### • من الآداب القرآنية:

وكيف يحقق الله تعالى ما اقترحوه من المعجزات وهم لا يقابلون نعمه سبحانه التي أنعم بها عليهم إلا بالجحود والكفران، وهو حال أكثر الناس؟!.

﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرُفٌ عَائِيَانًا قُلْ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾.

﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً﴾ كالصحة والسعة في الرزق.

﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُمْ﴾ أي: من بعد مرض أو قحط أصابهم، وللصحة بعد المرض، والغنى بعد العسر، وقع شديد وتأثير كبير على الإنسان.

(١) انظر تفصيلاً للموضوع: تفسير سورة الإسراء، في تفسيرنا الموضوعي هذا، والذي جاء تحت عنوان (المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).

ويلاحظ المتأملُ لكلمات الآية الكريمة أنه سبحانه أسند إلى ذاته المقدسة إذافة الرحمة للناس، بينما لم يسند الضراء إليه سبحانه، مع أن الكلَّ بإرادته وقدرته، وهذا يجعلنا نفقه أدباً من الآداب القرآنية التي تحلَّى بها الأنبياء ﷺ، ألا ترى إلى أدب إبراهيم عليه السلام مع ربه سبحانه عندما قال: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠].

كما يجعلنا نستيقنُ أن الخيرَ فضلٌ منه سبحانه، بينما الشرُّ لا يكون إلا بما يصدر عنَّا من أسباب تؤدي إليه، مع أنه من خلق الله تعالى وتقديره، إذ هو الخالق لكل شيء، قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

وقال ﷻ أيضاً: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكْ مُغَيِّرًا نِّعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٥٣].

### • الله أسرع مكرًا:

وقوله سبحانه:

﴿إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِيْ آيَاتِنَا﴾ يدل على مسارعتهم إلى المكر حال إنزال الرحمة عليهم، فكلمة ﴿إِذَا﴾ تفيد المفاجأة، ومعنى المكر: الكيد والاحتيال الخفي، أي: يسارعون إلى تكذيب آيات الله تعالى، والاحتيال في دفعها.

وجاء الجواب من الله تعالى يتناسب مع مسارعتهم إلى المكر:

﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي: أعجل عقوبة.

قال الشوكاني رحمه الله: «وتسمية عقوبة الله سبحانه مكرًا من باب المشاكلة، كما قرّر في مواطن من عبارات الكتاب العزيز»<sup>(١)</sup>.

ويمكن حمل المكر على المعنى الأصلي له على الوجه اللائق بكماله

(١) فتح القدير: ٤٣٤/٢.



سبحانه، قال الآلوسي رحمته الله: «وقد شاع أنه لا يُستعمل في حقّه تعالى إلا على سبيل المشاكلة، وليس بذلك كما حُقِّق في موضعه»<sup>(١)</sup>.

فالله سبحانه أشدُّ استدراجاً وإمهالاً حتى يظنَّ الظانُّ من المجرمين أنه ليس بمعذب، وإنما هو في مهلة، ثم يؤخذ على غرة منه<sup>(٢)</sup>.

أو أنه سبحانه قابل مكرهم بمكر أشدَّ منه، وهو إمهالهم إلى يوم القيامة<sup>(٣)</sup>. ويؤكدُه قوله تعالى بعد ذلك:

﴿إِن رُّسُلَنَا﴾ أي: الملائكة الموكِّلين بحفظ أعمالكم.

﴿يَكْتُبُونَ مَا تَمَكَّرُونَ﴾ وأنتم لا تشعرون، فما تدبُّرونه غير خافٍ على

الكرام الكاتبين فضلاً عن رب العالمين الذي لا تخفى عليه خافية.

#### • بين الأمواج العاتية:

ولا بد لتوضيح هذه المعاني من مثال عملي كامل يبيِّن فضل الله تعالى على الإنسان، بنقله من الضرِّ الشديد إلى الرحمة والسعة، ويبيِّن أيضاً موقف الإنسان بعد ذلك ومكره، لأنَّ المعنى الكلي المجرد لا يصل إلى أفهام السامعين إلا بذكر مثالٍ جلي واضح يكشف عن حقيقة ذلك المعنى الكلي<sup>(٤)</sup>:

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَاقٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ لَئِنْ أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾.

﴿هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ أي: الله سبحانه يهيئ لكم أسباب السير في

البر والبحر ويمكنكم منه، فلولا النواميس والوسائل التي جعلها الله سبحانه في

(١) روح المعاني: ٩٤/٤.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٨٩/٢.

(٣) تفسير الخازن: ٢٤١/٣.

(٤) انظر: التفسير الكبير: ٧٠/١٧.

البر والبحر ما تمكّن الإنسان من السير فيهما. أو: هو الذي جعلكم قادرين على السير في البر والبحر بما سخر لكم وخلق من أجلكم.

﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ أي: في السفن، والفلك كلمة تطلق على المفرد

والجمع.

﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئَةٍ﴾: وجرت السفن بركابها بريح طيبة هادئة لينة.

﴿وَفَرِحُوا بِهَا﴾ لموافقها لمقصودهم.

﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ شديدة الهبوب.

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ في البحر.

﴿وَوَلَّوْا أَنفُسَهُمْ أُحْطَ بِهِمْ﴾ أي: وظنوا أن الهلاك قد أحاط بهم.

﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ من غير إشراك به سبحانه، لرجوعهم إلى الفطرة

التي فُطروا عليها، وهي التوحيد، ولعلمهم أنه لا ينجيهم من الهلاك إلا الله وحده، ولهذا يقولون في دعائهم:

﴿لَيْنَ أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ الْأَهْوَالِ، أَوْ هَذِهِ الشَّدَائِدِ الَّتِي نَحْنُ فِيهَا.

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: والله لنكونن من الشاكرين لك دائماً.

#### • البغي في الأرض:

﴿فَلَمَّا أَجْلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بَعِيرَ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾.

﴿فَلَمَّا أَجْلَهُمْ﴾ مما نزل بهم من الشدائد والأهوال.

والفاء تدل على سرعة الإجابة.

﴿إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بَعِيرَ الْحَقِّ﴾ أي: يفسدون في الأرض، والبغي:

مجاوزة الحد، يعني أنهم أخلفوا الله ما وعدوه، وتجاوزوا في الأرض إلى غير ما أمر به سبحانه من الكفر والمعاصي.

وكلمة (إذا) تدلُّ على المسارعة والمبادرة إلى البغي إلى حال شعورهم

بالنجاة، وهذه طبيعة أكثر الناس في كل عصر ومصر، يقبلون على الله تعالى في الضراء، وينسون فضله، ويُعرضون عن طاعته وعبادته في الرخاء، فتراهم يفرحون بالنعمة، وينسون المنعم.

وجاء التعقيب على هذا المثال العملي الصادق في قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بِغَيْرِكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: إن وباله وعاقبته ترجع عليكم، فهو كقوله سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

أو: إن بغيركم واقع على أمثالكم وأبناء جنسكم<sup>(١)</sup>؛ إذ الناس بمثابة نفسٍ واحدة بما بينهم من وشائج وصلات؛ فهو كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءَ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٨٥] أي: يقتل بعضهم بعضاً.

أو: إن بغيركم عليكم في الحقيقة لا على الذين تبغون عليهم، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وجاء في الحديث الشريف: «ما من ذنب أجدد أن يُعَجَّل لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة؛ من البغي وقطيعة الرحم» [رواه الترمذي (٢٥١١)] وقال: حديث حسن صحيح.

﴿مَتَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: تمتعون متاع الحياة الدنيا.

﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ أي: ثم ترجعون إلينا.

﴿فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا ونحاسبكم عليه، فالبغي سريع

الزوال، شديد الوبال.

#### • حقيقة الحياة الدنيا:

ثم ذكرت الآيات مثلاً آخر لسرعة انتهاء الحياة الدنيا وقصر متاعها، وقلته وحقارته، فهي سريعة التقلب، وشيكة الانقضاء:

(١) تفسير النسفي: ٢٤٣/٣.

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ۝

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ أي: فاختلطت نبات الأرض بالماء، فنبت ونما.

﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾ كالحبوب والكلأ.

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا ﴾ أي: استكملت زينتها بأنواع النبات وألوانه الزاهية.

﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أي: تزينت كما تزين العروس وتبرج.

وأهلها مزهوون بها، مطمئنون إليها، يظنون أنهم أصحاب الأمر والنهي فيها، لا يغيرها عليهم مغير، ولا ينازعهم فيها منازع.

﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا ﴾ أي: على الأرض متمكنون منها، وذلك بسبب شدة اغترارهم بها.

﴿ آتْنَاهَا أَمْرًا ﴾ قضاؤنا بهلاكها.

﴿ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ في زمن غفلتهم ونومهم، أو في حال انتباههم ويقظتهم، فلا يمنع من عذاب الله مانع، ولا يدفعه دافع.

﴿ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا ﴾ محصودة مقطوعة.

﴿ كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ﴾ أي: كأن نباتها لم يكن ولم يقم منذ زمن قريب، من غني بالمكان، إذا أقام فيه.

وهكذا الدنيا بعد زوالها كأنها لم تكن، تزول في ومضة ولحظة بعد أن بذل أهلها فيها ما بذلوا، وأملوا منها ما أملوا، فما أشد خيبتهم! وما أعظم حسرتهم! خيبة وحزن في الدنيا، وحسرة وعذاب يوم القيامة، كما مر معنا في

أوائل السورة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ بإرادتهم واختيارهم .

وختم الله تعالى هذين المثليين الرائعين لحقيقة الدنيا وموقف الناس منها بقوله الكريم:

﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فالتفكر بداية التذكر والانسلاخ عن حال الغفلة الذي يغلب على الراضين بالحياة الدنيا والمطمئنين بها .

#### • الدعوة إلى دار السلام:

ومن المناسب بعد أن بينت الآيات الكريمة حقيقة الدنيا، وزهدت الناس بها، أن تبين بعض ما في الجنة من النعيم، فقد دأب القرآن الكريم على تشويق المؤمنين إلى الجنة، لتتعلق قلوبهم بها، وتتطلع نفوسهم إليها، وتسمو أرواحهم نحوها، فيسيروا على طريقها، ويلتزموا المنهج الرباني الذي يوصل إليها. قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ وهذه دعوة مفتوحة من الله العزيز الرحيم موجهة إلى سائر العباد بواسطة النبي ﷺ .

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «إني رأيتُ في المنام كأنَّ جبريلَ عند رأسي، وميكائيلَ عند رجلي، يقول أحدهما لصاحبه: اضرب له مثلاً، فقال: اسمع سمعتُ أذنك، واعقل عقل قلبك؛ إنما مثلكَ ومثلُ أمتكَ كمثلي أتخذ داراً، ثم بنى فيها بيتاً، ثم جعل فيها مائدةً، ثم بعث رسولاً يدعو الناس إلى طعامِهِ، فمنهم من أجاب الرسولَ، ومنهم من تركه. فاللهُ هو المَلِكُ، والدارُ الإسلامُ، والبيتُ الجنةُ، وأنت يا محمدُ الرسولُ، فمن أجابك دخلَ الإسلامَ، ومن دخلَ الإسلامَ دخلَ الجنةَ، ومن دخلَ الجنةَ أكلَ ما فيها» [رواه الترمذي (٢٨٦٠)].

وسميت الجنة بدار السلام لأنه سبحانه هو السلام، وأضافها إلى اسم من

أسمائه الحسنی تعظيماً لها، أو لكثرة ما فيها من التحية بالسلام، فالله سبحانه يسلم على أهلها، والملائكة تسلم عليهم أيضاً، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿دَعْوُهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَجْرٌ دَعْوَتُهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

أو لسلامتها عن الآفات والنقائص والنكبات، فلا تعب فيها ولا نصب، ولا هم ولا حزن: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر].

أو لسلامة أهلها من النقص في خلقهم وخلقهم، فلا يكرمهم الله تعالى بدخول الجنة حتى يهذبهم ويجملهم ويكملهم، قال سبحانه: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زَمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَىٰ صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَالَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَىٰ أَشَدِّ كَوْكَبٍ دريِّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوِّطُونَ، وَلَا يَتَمَخَّطُونَ وَلَا يَتَقَلَّبُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمَسْكُ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأُلُوَّةُ<sup>(١)</sup>، أَزْوَاجُهُمُ الْحَوْرُ الْعَيْنِ، أَخْلَافُهُمْ عَلَىٰ خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، عَلَىٰ صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سَتُونَ ذِرَاعاً فِي السَّمَاءِ» وزاد في رواية: «لا اختلاف بينهم ولا تباعض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرةً وعشياً» [رواه البخاري (٣٣٢٧) ومسلم (٢٨٣٤)].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ جُرْدًا مُّرْدًا مَكْحَلِينَ، أَبْنَاءُ ثَلَاثِينَ أَوْ ثَلَاثَ وَثَلَاثِينَ سَنَةً» [رواه الترمذي (٢٥٤٥) وحسنه].

اللهم أنت السلام، ومنك السلام، نسألك أن تدخلنا دار السلام بسلام.

#### • الهداية الخاصة:

ثم قال سبحانه بعد أن دعا إلى دار السلام: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: يوفق من يشاء إلى طريق الجنة، وهو

(١) أي: مباخرهم نباتات عطرية فائحة الشذى.

دين الإسلام، فيلتزم بأحكامه ويسير على نهجه، فالدعوة عامة، والهداية خاصة، فلا يدخل الجنة إلا المهديون<sup>(١)</sup>، كما مر معنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩] فإيمانهم وعملهم الصالح سبب توفيق الله سبحانه لهم.

والإنسان محتاج دائماً إلى هداية الله وتوفيقه ومعونته، فالطريق طويل، والعقبات كثيرة، والمعوقات كبيرة، ولهذا علّمنا ربنا أن نسأله الهداية كلّمًا وقفنا في الصلاة بناجيه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

#### • الحسنى والزيادة:

ثم بيّنت الآيات بعض النعيم الذي أعدّه الله تعالى في دار السلام لعباده المؤمنين الذين لبوا دعوته وانقادوا لرسالته:

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٦).

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح.

﴿الْحُسْنَىٰ﴾ وهي الجنة دار السلام ودار الإحسان: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

﴿وَزِيَادَةٌ﴾ وهي إكرامهم بالنظر إلى وجه ربهم الكريم. وقيل: الزيادة في

حسناتهم فضلاً منه سبحانه. وقيل: هي مغفرة الله ورضوانه. ولا مانع من إرادة العموم.

قال الطبري رحمته الله: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَعَدَ الْمُحْسِنِينَ مِنْ عِبَادِهِ عَلَى

إِحْسَانِهِمُ الْحُسْنَى، أَنْ يَجْزِيَهُمْ عَلَى طَاعَتِهِمْ إِيَّاهُ الْجَنَّةَ، وَأَنْ يَبْيِضَ وَجُوهَهُمْ، وَوَعَدَهُمْ مَعَ الْحُسْنَى الزِّيَادَةَ عَلَيْهَا، وَمِنْ الزِّيَادَةِ عَلَى إِدْخَالِهِمُ الْجَنَّةَ أَنْ يَكْرِمَهُمُ

(١) انظر: تفسير البيضاوي: ٢٤٦/٣.

بالنظر إليه، وأن يعطيهم غزافاً من لآلئ، وأن يزيدهم غفراناً ورضواناً، وغير مستنكر من فضل الله أن يجمع ذلك لهم، بل ذلك كله مجموع لهم إن شاء الله، فأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يعَمَّ»<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير رحمته: «هي تضعيف ثواب الأعمال، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنة من القصور والحدور، والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين، وأفضل من ذلك وأعلاه: النظر إلى وجهه الكريم، فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه، لا يستحقونها بعملهم، بل بفضلهم ورحمته، وقد روى تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم الجمهور من السلف والخلف»<sup>(٢)</sup>.

#### • رؤية الله تعالى يوم القيامة:

وقد أثبتت الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وهي رؤية تليق بذاته المقدسة بلا تكييف ولا تشبيه، قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿﴾ [القيامة].

ويُحَرِّمُ الْكُفَّارُ مِنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُورُونَ ﴿﴾ [المطففين: ١٥].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن ناساً قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنكم ترونه كذلك» [رواه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)].  
فيراها المؤمنون دون أن يضارَّ بعضهم بعضاً لزحمة أو مشقة.

وعن صهيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله ﷻ: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم

(١) تفسير الطبري: ١٠٨/١١.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير: ١٩٠/٢.



من النظر إلى ربهم» ثم تلا هذه الآية: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. [رواه مسلم (١٨١) والترمذي (٦٥٥٥) وابن ماجه (١٨٧)].

ومعنى قوله: «فيكشف الحجاب» أي: تزال مانعية الرؤية عن المؤمنين، فيكملهم الله تعالى حتى يصبحوا أهلاً لرؤيته سبحانه، فالحجاب فينا. وقد مرَّ معنا من قريب أنه سبحانه يكمل أهل الجنة خلقاً وخلقاً، فهو سبحانه منزّه عن حجاب يحجبه.

### • ترغيب وترهيب:

وتابعت الآية وصف أهل الجنة بقوله تعالى:

﴿وَلَا يَرَهُنَّ﴾ لا يعلو، أو لا يغشى، أو لا يلحق.

﴿وَجُوهُهُمْ قَهْرَةٌ﴾ غيرة وسواد وكآبة.

﴿وَلَا ذُلٌّ﴾ ولا هوان ولا مذلة، فلا يصيبهم ما يصيب أهل النار،

ولا تشوب نعيمهم شائبة من شوائب المكاره، قال تعالى: ﴿فَوَقَّهْمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّهْمُ نَصْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] أي: نصرته في وجوههم، وسروراً في قلوبهم، جعلنا الله منهم فضله ورحمته<sup>(١)</sup>.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

ومن أساليب القرآن الكريم الجمع بين الترغيب والترهيب، ولهذا انتقلت الآيات إلى وصف أصحاب النار:

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَبْتَئِلُهَا وَتَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَّ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٢٧).

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ أي: عملوا السيئات فكفروا بالله، وخالفوا أمره.

(١) انظر: مختصر تفسير ابن كثير: ١٩١/٢.

وجاء التعبير عن عمل السيئات بكلمة (كسبوا) ليؤكد اختيارهم وإرادتهم في كفرهم ومعاصيهم، فما عملوا السيئات مجبرين، وهم مسؤولون عنها ومجزيون: ﴿جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ فلهم جزاء السيئة مثلها من العقاب، والمقصود من هذا التقييد التنبيه على الفرق بين الحسنات والسيئات، فالحسنات تضاعف فضلاً منه سبحانه، وأما السيئات فالجزاء عليها بمثلها عدلاً منه سبحانه.

﴿وَرَهَقُهُمْ ذُلٌّ﴾ وتغشاهم ذلّة وشدة.

﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ أي: ما لهم مانع يمنعهم من عذاب الله إذا نزل بهم. ﴿كَأَنَّمَا أَغْشَيْتَ وَجُوهَهُمْ قِطْعًا مِنْ أَيْلٍ مُظْلِمًا﴾ أي: كأنما ألبست وجوههم سواداً من الليل المظلم، من شدة ما يعلو وجوههم من السواد والحزن والكآبة يوم القيامة.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ أي: ما كثون فيها أبداً.

#### • الطاعة والعبادة:

وتأكيداً لقوله سبحانه: ﴿مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ﴾ [يونس: ٢٧] عرضت الآيات المشهد التالي من مشاهد الحشر يوم القيامة:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فَرَزَلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِتَانًا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي: نجمعهم يوم القيامة جميعاً، المؤمنين والكافرين.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ أي: الزموا مكانكم، واثبتوا فيه.

﴿أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ﴾ أي: أنتم أيها المشركون وشركاؤكم الذين كنتم تعبدونهم

في الدنيا.

﴿فَرَزَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ ففرقنا بين العابدين والمعبودين، وميزنا بينهم.

والمراد: قطع الصلات التي كانت بينهم وبين الشركاء، فهو كقوله تعالى:

﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَأَوَّاءُ الْعَذَابِ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ﴾ وهم الأصنام، ونسبة القول لها غير بعيد من قدرته سبحانه، فينطقها الذي أنطق كل شيء.

أو: المراد الملائكة الذين كان بعض العرب يعبدونهم ويقولون عنهم: بنات الله - تعالى الله عن ذلك وتقدس - كما في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءُ لِأَيَّكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [سبأ: ٤٠].

وقد يكون المراد من الشركاء رؤساء الضلال وزعماء الكفر الذين وضعوا للناس شرائع وقوانين مخالفة لشريعة الله تعالى، فحرموا ما أحلَّ الله، وأحلوا ما حرم، وأطاعهم أتباعهم، فأصبحوا بطاعتهم عابدين لهم من دونه سبحانه، فالطاعة نوعٌ من أنواع العبادة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٦﴾ وَإِنْ أَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [يسر].

وقال أيضاً في طاعة عامة أهل الكتاب من اليهود والنصارى لأخبارهم ورهبانهم: ﴿اتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ولما دخل عدي بن حاتم الطائي على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية - وكان عدي على نصرانيته لم يسلم بعد - قال للنبي ﷺ: إنهم لم يعبدوهم، فقال رسول الله ﷺ: «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم» [رواه الترمذي (٣٠٩٥)].

﴿مَا كُنْتُمْ إِنَانًا تَعْبُدُونَ﴾ بل كنتم في الحقيقة تعبدون أهواءكم الداعية لكم إلى هذه العبادة.

#### • أمل خائب:

فما أعظم حسرتهم! وما أشدَّ خيبتهم! كانوا يرجون أن يشفع لهم شركاؤهم عند الله، كما سبق بيانه في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْنَاهُمْ عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمْ تُسَبِّحُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فبدل أن يشفعوا لهم يتبرؤون منهم، وتنقلب المودة إلى عداوة، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].  
ويشهدون الله سبحانه أنهم كانوا لا يشعرون بعبادتهم:

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلًا﴾ ﴿٢٩﴾.

أي: قد علم الله - وكفى به شهيداً - أنا ما كنا عن عبادتكم إيانا إلا غافلين ما نشعر بها.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ إِلَى اللَّهِ هُتُوًّا﴾ ﴿٣٠﴾  
﴿مَوْلَانَهُمْ الْحَقُّ﴾ ﴿٣١﴾  
﴿يَفْتَرُونَ﴾ ﴿٣٢﴾.

﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ أي: في ذلك الموقف تختبر كل نفس ما قدمت من عمل، فتعرف نفعه وضرره.  
﴿وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ إلى حكمه وجزائه.  
﴿مَوْلَانَهُمْ الْحَقُّ﴾ الذي هو مالكمهم ومتولي أمورهم على الحقيقة، لا ما اتخذوا مولى لهم.  
﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ﴾ وضاع وبطل عنهم.  
﴿مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ بأنهم آلهة وشركاء وشفعاء، وبهذا ضاع العمل، وخاب الأمل.



## الْفَصْلُ الثَّلَاثُ

## حُجَجٌ وَمُؤَيَّدَاتٌ

## لِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَلَإِنَّكُمْ لَعِنْدَ اللَّهِ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُبْعَثَ أَمَّنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يُبْعَثُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَاْتِهِمْ آتَاؤُهُ كَذَّبُوا كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيضُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِنَّمَا رَبُّنَا كَبُورٌ عَلَىٰ بَعْضِ الَّذِي نَعْبُدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّئُكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ

كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ  
 فَلَا يَسْتَعْرِضُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٍ أَوْ هَارًا مَآذَا يَسْتَعِجِلُ  
 مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَمَّا إِذَا مَا وَقَعَ عَامِنُكُمْ بِيَدِ الْعَنَانِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ  
 ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا يَمَّا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي  
 وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ  
 وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي  
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ  
 تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

### • الحجج الثلاث:

وبعد بيان مواقف الناس المُستخلفين في الأرض من القرآن الكريم وعبادة  
 غير الله تعالى، ومواقفهم في حال الخطر من الله تعالى وفي حال الرخاء،  
 وإقبالهم على الدنيا وانهماكهم بها، وقيمة الدنيا بالنسبة لما عند الله في الآخرة،  
 بعد كل هذا شرعت الآيات الكريمة تعرض بعض الحجج والبراهين والمؤيدات  
 للإيمان بالله تعالى والتصديق برسالة النبي ﷺ، فعرضت ثلاث حجج دامغة  
 وقاطعة لعقيدة التوحيد، ثم بعدها بيّنت المؤيدات الكبرى لرسالة الإسلام،  
 واتبعت أسلوب الاستفهام التقريري المفيد للقطع والجزم في عرض الحجج  
 الثلاث الدالة على توحيد الخالق سبحانه.

### • الحججة الأولى: التدبير والتقدير:

ويأتي التدبير على وفق التقدير الذي سبق به علمه ﷺ، وتعلقت به  
 إرادته، ولما كان الرزق أهم شيء يهتم به الإنسان في حياته ومعيشته بدأت  
 الآيات به، قال سبحانه:

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيَّتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِوْنَ ﴿٣١﴾﴾ .

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ بإنزال المطر .

﴿وَالْأَرْضِ﴾ بإخراج النبات، ويشكل الماء والنبات العناصر الأساسية الكبرى لكل ما يحتاج إليه الإنسان في معيشته .

ثم تتابعت الأسئلة التقريرية الملزمة بتراكيبها القصيرة السريعة متلاحقة كأنها مطارق تنزل على رؤوس الغافلين، تذكّرهم بحقيقة فقرهم، واحتياجهم إلى الله وحده خالقهم ومدبر أمور حياتهم ومعاشهم :

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾، و(أم) للإضراب، والانتقال السريع لتقرير حقيقة ثانية، والسمع والبصر أعظم الوسائل التي تصل الإنسان بالعالم الخارج عنه، وتمكّنه من الوصول إلى رزقه الذي أنزله الله تعالى من السماء، أو أخرجه له من الأرض، والتعبير بكلمة ﴿يَمْلِكُ﴾ يدلُّ على أنّ السمع والبصر لا يحدثان إلا بإرادته وقدرته سبحانه، فهو المالك لهما على الحقيقة، فلا يسمع الإنسان بأذنه إلا إذا أراد الله له أن يسمع، وقدّر له ذلك، ولا يبصر أيضاً بعينه إلا إذا أراد له سبحانه أن يبصر، وقدّره له، وليست الأذن والعين السليمتان سوى سببين للسمع والبصر، ستر الله تعالى بهما قدرته وتدبيره وأمره التكويني: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، فهو سبحانه المالك الحقيقي للسمع والبصر، فلا سمع ولا بصر إلا بمشيئته وقدرته .

#### • في أجسامنا:

﴿وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيَّتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيَّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ وهذه ظواهر مبثوثة في جميع المخلوقات، وهي أكثر وضوحاً في النبتة الخضراء الحية عندما تخرج بقدره الله تعالى من الحبة اليابسة أو من الجذر اليابس في أطباق الثرى، وأيضاً عندما تخرج الحبة اليابسة من داخل الثمرة أو النبتة الحية الخضراء بقدره الله

تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَلَقِ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَالِقُ تُوْفُكُونَ﴾ [الأنعام: ٩٥].

إنَّ إخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي بقدره الله تعالى ظاهرة مستمرة حتى في داخل أجسامنا، ففي كل لحظة تنقسم ملايين الخلايا في أجسامنا، ثم تموت ويحيي الله تعالى غيرها، وفي كل فترة تتولد داخل أجسامنا ملايين الحيوانات المنوية من الدم الذي تمده الأغذية المقطعة والمطبوخة والممضوغة والمهضومة. أبعد مرورها بكل هذه المراحل كيف يخلق الله تعالى منها هذه المخلوقات الحية التي هي أصل النوع الإنساني وعنصر توالده وتكاثره؟! .

#### • من يدبّر الأمر:

وقوله تعالى بعد ذلك:

﴿وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ تعميم بعد تخصيص، إذ جاء هذا السؤال التقريري على عمومه بعدما سبقه من التخصيص على بعض ظواهر الخلق والتدبير في المكونات.

من يدبّر أمر المكونات كلّها بدءاً من الذرة الصغيرة ذات النواة والجسيمات السابحة على أفلاكها من حولها، إلى المجرات الكبيرة الجارية على أفلاكها والتي تحوي المجرة الواحدة منها ملايين الكواكب والنجوم؟! .

أجيبوا على هذا السؤال أيها الماديون، أيها الدهريون، أيها الطبيعيون، أيها الملحدون! من يدبّر الأمر؛ أمر كل السابحات الجاريات في أعماق الذرات، والسابحات الجاريات في آفاق الفضاء؟ كم قدّم الناس من جهد وتعب وبحث ونظر وأموال حتى تمكّنوا من وضع بعض الأقمار الصناعية على أفلاك قريبة من الأرض في الفضاء؟ وكم يبذلون من جهود في مراقبتها ومتابعتها؟ كم عين تراقبها؟ وكم أذن تتسمع إلى ما يصدر منها؟ وأقمار الإنسان الصناعية لا تعد شيئاً بجانب الكواكب والأقمار الربانية، الأرض بمن عليها وما حولها من أقمار



لا تعادل هبأة صغيرة بالنسبة للمجرّات الفضائية وما فيها من أجرام، فمن يدبّر أمرها؟ ويضبط حركتها؟ وينظّم سيرها؟! .

### • أفلا تتقون:

﴿فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ لا بد لهم أن يقولوا: الله وحده الذي يدبّر الأمر، فلا مجال للمكابرة والعناد، والقائلون هذا القول هم الذين عاشوا في الجاهلية قبل الإسلام، أقروا لله تعالى بالربوبية، أقروا بأنه سبحانه الخالق والمالك والمدبّر للأمر، إلا أنهم جحدوا إلهيته سبحانه واستحقاقه للعبادة وحده، فعبدوا غيره، واتخذوهم شفعاء إليه سبحانه، فأشركوا وكفروا .

وهم مع شركهم وكفرهم وجاهليتهم خيرٌ من كثير من الناس في العصر الحاضر، هم خيرٌ من الملاحدة الماديين والطبيعيين والدهريين الذين ينكرون وجود الله تعالى، مع أنهم عرفوا أسرار الجاريات السابحات في أعماق الذرات، وعرفوا دقّة النظام وإبداع الناموس في تدبير شؤون المجرّات، عرفوا كثيراً من أسرار إبداع الخلق في أعماق البحار ولا يزالون غافلين عن الخالق العظيم الذي يدبّر الأمر .

لا نملك إلا أن نقول لهم ما أمر الله تعالى أن نقوله:

﴿فَقُلْ أَفَلَا نُنْقِونَ﴾ عذابَ الله تعالى الذي قرّب إلى أسماعكم وأبصاركم كلّ هذه الأدلة الدالة على وجوده سبحانه .

ولم يأمرنا سبحانه أن نقول لهم: أفلا تعلمون، فالقوم يعلمون بما شاهدوا ويشاهدون في مراكز بحوثهم ومخابرهم ومراصدهم ومركباتهم الفضائية وأقمارهم الصناعية، فهم محتاجون لمن يقول لهم: ﴿أَفَلَا نُنْقِونَ﴾ .

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الصَّلٰٓءُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ .

﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ الثابت الواجب الوجود الذي لا شك فيه ولا ريب .

﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ فلا واسطة بين الحق والضلال، فمن تخطى الحق وقع في الضلال، ومن زاغ عن الإيمان كفر.

﴿فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ فكيف تختارون الانصراف عن الحق إلى الباطل؟! .

﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ .

﴿كَذَلِكَ﴾ أي: كما أنه ليس بعد الحق إلا الضلال، وكما انصرف هؤلاء الكفار عن الحق إلى الضلال.

﴿حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ﴾ وجب عليهم قضاؤه وحكمه في سابق علمه<sup>(١)</sup>.

﴿عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا﴾ تمرّدوا وخرجوا عن الإيمان الذي فطرهم الله تعالى عليه إلى الكفر.

﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا يكون منهم اختيار للإيمان وكسب له.

#### • الحجة الثانية: بدء الخلق وإعادته:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلْ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ .

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾؟ ولا يخفى ما في هذا السؤال من إلزامٍ قاطعٍ مع التحدي لهم ولشركائهم الذين يعبدونهم من دون الله تعالى.

ولمّا كان القوم لا يؤمنون بالإعادة، وينكرون يوم القيامة، وكان أمر إعادة الخلق مسلماً بظهور برهانه، ولمشاهدتهم له كلّما أنزل المطر على الأرض اليابسة الميتة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

(١) انظر: تفسير الطبري: ١١/١١٤.

فمكابرتهم تمنعهم من الإقرار بالحقيقة، وهي أن جميع شركائهم لا يستطيعون أن يخلقوا ذبابةً صغيرةً، أو يعيدوها إلى الحياة بعد الموت.

ألم تقرأ قوله تعالى وهو يضرب مثلاً يبين فيه عجزهم: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبٌ مِثْلُ مَا سَمِعُوا لَهُ إِذْ يَدْعُونَكَ مِنَ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ [الحج: ٧٣].

وما دامت مكابرتهم تمنعهم من إعلان الحقيقة بأنفسهم، إذن أعلنها أنت بنفسك أيها النبي، أعلن في وجوههم الحقيقة التي تستيقننها أنفسهم وقلوبهم، وتأبى ألسنتهم أن تنطق بها:

﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

وقل لهم أيضاً تقریباً وتوبيخاً لعجزهم عن إعلان الحقيقة:

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ فكيف تصرفون عن الحق إلى الباطل؟! ما الذي يجعلكم

معرضين عن الحق غير مذعنين له؟! .

#### ● الحجة الثالثة: الهداية:

قال الشوكاني رحمه الله: «الاستدلال بالهداية بعد الاستدلال بالخلق وقع كثيراً

في القرآن، كقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشورى: ٧٨].

وقوله: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

وقوله: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: (١)].

وللهداية في القرآن معنيان:

أولهما: الإرشاد والبيان.

ثانيهما: التوفيق والتسديد والمعونة.

فمن رحمته سبحانه بخلقه أنه خلقهم وهداهم إلى كل ما يحتاجون إليه في

أمر حياتهم ومعادهم، وجاءت هدايته سبحانه لكل مخلوق بما يتناسب معه،

فلكل نوع من أنواع المخلوقات هداية خاصة به تناسب ظروف حياة هذا النوع ومستلزماتها .

والمتمامل للهداية عند بعض الحيوانات يستيقن وجود الله سبحانه وقدرته ورحمته :

انظر إلى النحلة كيف هداها الله تعالى لتنظيم حياتها، وبناء مساكنها، وجني طعامها، وسلوك السبل المذلة لها: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [النحل].

ومن النحل بين الأشجار والأزهار إلى النمل في طيات التراب، تأمل كيف هداه الله تعالى لتنظيم حياته الاجتماعية في تجمعات سكنية بينها في داخل الأرض، وكيف يجمع غذاءه ويدخره بطريقة علمية مدروسة، فلا تؤثر فيه عفونة الأرض ورطوبتها<sup>(١)</sup>.

وانظر إلى الأسماك في أعماق البحار كيف هداها ربها إلى كل ما تحتاجه في كل شؤون حياتها داخل المياه، بل هداها سبحانه إلى الهجرة داخل المحيطات طويلاً وعرضاً، فلا تضل عن مقصدها، ولا تخطئ هدفها .  
وارفع بصرك إلى جو السماء، وانظر إلى الطيور المهاجرة شمالاً وجنوباً وهي تقطع أجواء القارات والمحيطات، بلا آلات توجهها، ولا مخططات تعتمد عليها، إنها تعتمد فقط على هداية الله تعالى .

ومن الطبيعي أن تكون هداية الله تعالى للإنسان أعلى من هداية الحيوان وأكمل، كي تتناسب مع الميزات والخصائص التي خصه سبحانه بها، فليست هداية الله للإنسان قاصرة على إرشاده إلى طرق تحصيل معاشه، وتأمين أسباب بقائه، فهو مخلوق كرمه تعالى وشرفه بحمل التكليف والمسؤولية، فجاءت هداية

(١) انظر: تفسير سورة النمل في كتابنا هذا: التفسير الموضوعي لسور القرآن العظيم، وقد جاء تفسيرها هذه السورة تحت اسم (المعجزة والإعجاز في سورة النمل).

الله تعالى له تعرّفه بالمنهج الذي كُفّف به، ليعمر الحياة بعبادته سبحانه، ويسعد في دنياه وآخرته، بهذه الهداية تحدّى الله تعالى المشركين وشركاءهم فقال:

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ بإعطاء العقل، وبعثة الرسل، وإنزال الكتب، والتوفيق إلى النظر والتدبّر بما نصب في الآفاق والآنفس<sup>(١)</sup>.

ولا بدّ أن يكون جوابهم: لا، لأنّ عجز شركائهم واضح ظاهر، ولذلك أمر النبي ﷺ أن يقول لهم على سبيل التقرير والإلزام:

﴿قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ لا غيره سبحانه.

﴿أَفَنْ يَهْدِيَ إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ فالله سبحانه هو الذي يهدي إلى الحق، فهو أحق أن يتبع، لا رؤساء الكفر والضلال، فإنهم لا يقدرّون على هداية غيرهم إلا إذا هداهم الله تعالى.

فأصل ﴿يَهْدِي﴾: يهتدي، فأدغمت التاء بالدالِ وفُتحت الهاء بحركة التاء أو كسرت لالتقاء الساكنين.

﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بالباطل وتعبدون غير الله تعالى؟!.

#### • العقائد لا تُبنى على الظن:

هذه بعض حجج العقيدة الإسلامية التي جعلت منها عقيدة قوية راسخة لا تنزعزع، لأنها تستند إلى الحجج البالغة، والأدلة القاطعة، وكلّ العقائد المخالفة لها ظاهرة البطلان، بيّنة الفساد، ليس لها أدلّة تسندها، ولا حجج تحتج بها، لهذا تجد أصحابها في ريب وحيرة وتردد كما وصفهم الله تعالى في قوله:

(١) روح المعاني: ١١٣/٤.

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ .

﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ ، أنهم يقلّدون آباءهم أو رؤساءهم في الضلال والكفر .

﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ أي : إنَّ الشك لا يغني عن اليقين شيئاً ، ولا يقوم مقامه ، فلا ينبغي أن تُبنى العقائد على مجرد الظن ، فتحصيل العلم في الأصول واجب ، والاكتفاء بالظن غير جائز<sup>(١)</sup> .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ ، ولا يخفى ما فيه من الوعيد بسبب اتباعهم للظن والتخمين وإعراضهم عن الحق واليقين .

#### • إعجاز القرآن الكريم:

وبعد بيان بعض حجج عقيدة التوحيد انتقلت الآيات إلى الحديث عن مؤيدات العقيدة الإسلامية ، وبما أن آيات التنزيل الحكيم هي أكبر وأعظم مؤيدات الدعوة الإسلامية شرعت الآيات في الحديث عن إعجاز القرآن الكريم ، وتحدّى به كل المخالفين :

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ .

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي : ما صح وما استقام أن يكون مثل القرآن في علو أمره وإعجازه مفتري<sup>(٢)</sup> ، فالقرآن الكريم كلام الله تعالى ، وهو مبرأ عن الافتراء والكذب ، والدليل في القرآن نفسه ، فلا يقدر على مثله إلا الله تعالى .  
﴿وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولكنَّ الله أنزله يصدّق الكتب المتقدمة عليه في النزول كالتوراة والإنجيل ، فيشهد أن الله تعالى أنزلها .

(١) انظر: تفسير الخازن وتفسير النسفي: ٢٥٤/٣ .

(٢) تفسير البيضاوي: ٢٥٤/٣ .

﴿وَتَقْصِلَ الْكُتُبِ﴾ أي: ويبين ويفصل ما كتب الله وفرض على الأمة المسلمة من أحكام وتشريعات.

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شك فيه لأنه من رب العالمين.

#### • في ميدان التحدي:

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يتحدى بالقرآن جميع المكذبين له، ولا يزال هذا التحدي قائماً، وسيبقى إلى قيام الساعة، فالقرآن الكريم في الساحة يتحدى، وهو منذ نزوله حتى الآن وحده في ميدان التحدي يصول ويجول، ويعلن أنه كلام الله تعالى المنزل على سيدنا محمد ﷺ، فأين المكذبون؟! .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَظَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾﴾ .

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ أم يقول هؤلاء المكذبون: افتري محمد عليه الصلاة والسلام القرآن من قبل نفسه؟! وهو استفهام إنكار وتوبيخ.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: إن كان الأمر كما تقولون.

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ أي: بسورة شبيهة به في الفصاحة والبلاغة، فالتحدي بأي سورة من سور القرآن الكريم الطوال والقصار، وقد تكرر التحدي في عدة مواضع من القرآن الكريم مما يدل على الثقة الكبيرة بأنه كلام الله تعالى:

تحداهم أولاً بالقرآن كله: ﴿قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ [الإسراء: ٨٨] (١).

فعجزوا، فنزل بالتحدي إلى عشر سور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَظَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود: ١٣].

فعجزوا أيضاً، فتحدهم بسورة واحدة كما في هذه الآية وفي آية سورة

(١) انظر: تفسير سورة الإسراء، وقد جاءت في هذا التفسير الموضوعي الكبير تحت اسم:

(المواجهة والتثبيت في سورة الإسراء).

البقرة: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٣٣].

هذا وقد كانت الفصاحة من سجايهم وأشعارهم ومعلقاتهم، وإليهم المنتهى في هذا الباب، ولكن جاءهم من الله ما لا قبل لأحد به<sup>(١)</sup>.

● مقدار التحدي:

ومن المعلوم أن سورة الكوثر أقصر سور القرآن الكريم، وهذا يعني أن التحدي بمقدار سورة الكوثر، وهو موجه إلى كل المعارضين للقرآن من الإنس والجن أفراداً وجماعات.

﴿وَادْعُوا مِنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي: سوى الله تعالى.

﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوكم أن القرآن الكريم مفترى.

وسبحان الله العظيم ما أقوى هذه الحجة وأوضحها وأظهرها للعقول!.

وليس إعجاز القرآن الكريم في فصاحة كلامه وبلاغته وحسن نظمه فحسب، بل إعجازه في معانيه التي لا تنتهي، وفيما اشتمل عليه من أخبار الأمم السابقة والحوادث المستقبلية.

ولهذا دعا القرآن الكريم الناس ليتدبروا آياته، ويتأملوا في معانيه، فيكتشفوا وجوهاً كثيرة لإعجازه، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

وقال سبحانه هنا يقرِّع المخالفين للقرآن الكريم ويوبخهم، لأنهم كذبوا به قبل أن يتدبروا آياته، ويفهموا معانيه وبعض ما اشتمل عليه:

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ (٣٩).

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعِلْمِهِ﴾، فتكذيبهم للقرآن غير مقبول عند أهل العلم

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٩٤/٢.



المنصفين، لأنه صدر عن جهل بالقرآن لا عن علم.

وكثيراً ما نواجه في عصرنا الحاضر أمثال المشركين من أهل الجاهلية الذين يسارعون إلى تكذيب القرآن الكريم قبل أن يعلموا شيئاً عنه، ما أكثر ما نقرأ ونسمع عن أناس يدعون لأنفسهم صفة العلم والفهم والموضوعية، ويحملون ألقاباً علمية كبيرة، يكيلون الاتهامات جُزافاً للكتاب الكريم وللسنة النبوية الشريفة وهم أجهل الناس بالكتاب والسنة، ترى أحدهم يحاول انتقاد القرآن، وهو لا يستطيع قراءة آية من آياته، فضلاً عن فهم معانيها، وترى بعضهم يتناول بلسانه على كبار رجال الفكر الإسلامي وعلمائه وهو لا يستطيع قراءة كلماتهم بشكلها الصحيح، والأنكى من ذلك مسارعة كثير من الناس إلى الخوض في أحكام دين الله تعالى وإصدار الفتاوى فيها كأنهم أصحاب العلم والتخصص فيها. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وتتابع الآية الكريمة إظهار حقيقة هؤلاء المكذبين لكتاب الله وبيان زيفهم وخداعهم:

﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ أي: وكذبوا أيضاً بالقرآن قبل أن يأتيهم التأويل المنتظر، وهو ما يؤول إليه من الصدق في الإخبار بالمغيبات<sup>(١)</sup>.

﴿كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهذا شأن المكذبين للحق في كل زمان، يسارعون إلى التكذيب عناداً واستكباراً قبل معرفة الحقيقة.

﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: انظر نظر الاعتبار كيف أهلك الله الظالمين المكذبين.

#### • المغيبات في القرآن الكريم:

والمغيبات التي أخبر عنها القرآن الكريم كثيرة، منها ما ذكره عن بعض تاريخ الأمم السالفة وأخبار بعض الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله تعالى إلى

(١) روح المعاني: ٣/ ١٢١.

هذه الأمم، ومنها إخباره عن بعض أحداث مستقبله، وقد حدث أكثرها كما أخبر ﷺ عَلامَ الغيوب.

ومن هذه الأخبار المستقبلية في القرآن، والتي سارع المشركون إلى تكذيبها، ولكنها وقعت كما أخبر سبحانه عنها، ما جاء في أول سورة الروم: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في أقرب أرض من بلاد العرب، وهي بلاد الشام. وبعضهم يقول: في الأغوار بين فلسطين والأردن، ولا شك أنها من بلاد الشام، فلا تعارض بين الرأيين، وقد حدث هذا قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، فقد انتصر الفرس على الروم، واحتلوا قسماً كبيراً من بلاد الشام، وبعد أن أخبر عمّا حدث، أخبر عما سيحدث في المستقبل، فقال: ﴿وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ في بضع سنين. أي: وبعد هزيمة الروم سيغلبون الفرس خلال بضع سنين، وسارع المشركون إلى تكذيب القرآن، واستبعاد حصول ذلك، ولكنَّ خَبَرَ عَلامَ الغيوب لا يكون إلا حقاً وصدقاً، ففي العام السادس من الهجرة انتصر الروم على الفرس، واستعادوا سيطرتهم على بلاد الشام.

وما أكثر الآيات التي نزلت على النبي ﷺ تثبته وتواسيه، وهو في قمة مواجهته للمشركين، وتبشره بالظهور والنصر والتمكين في الأرض، وحدث كل ذلك كما وعد الله سبحانه في كتابه.

وهناك أخبار كثيرة عن أشراط الساعة الكبرى وعلاماتها، وما يكون بين يديها، وما يحدث عند قيامها، لم تقع بعد، ولكنها ستقع كما أخبر عنها العليم الخبير سبحانه.

#### • التبرؤ من المفسدين:

ومن المغيبات التي أخبر عنها سبحانه قوله بعد ذلك:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أي: ومن هؤلاء المكذبين من سيؤمن بالقرآن الكريم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ، فيبقى مصرّاً على كفره حتى الموت .  
﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ المصرّين على الكفر .

وعلمه سبحانه أنهم سيصروا على الكفر، ويستمرون عليه، لا يعني إجبارهم؛ فما أصرّوا على الكفر إلا بإرادتهم واختيارهم وكسبهم، كما أنّ الذين علم الله تعالى أنهم سيؤمنون به بعد تكذيبهم له، سيؤمنون بإرادتهم واختيارهم، ولو كانوا مجبرين على الإيمان ما صدر عنهم ما صدر من تكذيب وإعراض وكفر .

وجاءت الوقائع والأحداث مطابقة تماماً لما أخبرت به الآية القرآنية؛ إذ آمن بعد ذلك كثير من مشركي قريش، وأصبحوا من خيار أصحاب رسول الله ﷺ، وظلّ فريق آخر منهم مصرّاً على الكفر حتى مات عليه .  
وأمر رسول الله ﷺ أن يقول للمصرّين على الكفر والتكذيب:

﴿إِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٤١) .

﴿وَأِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي: لي جزاء عملي، ولكم جزاء عملكم، أنتم مسؤولون عن عنادكم وإصراركم، ولا يسألني ربي إلا عن عملي .  
﴿أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلا تؤاخذون بعلمي، ولا أوأخذ بعملككم .

فالمسؤولية شخصية، ولا يتحمل أحد وزر أحد، وهذا أيضاً يؤكد وجود الاختيار والكسب عند الإنسان المكلف .

#### • من أسباب الهداية:

وكان تكذيبهم للنبي ﷺ وإعراضهم عن دعوته يسبب له عليه الصلاة والسلام حزناً شديداً، لأنه كان شديد الحرص على هدايتهم ورشادهم، ولهذا

جاءت الآيات الكريمة تواسيه عليه الصلاة والسلام، وتبين له أن أمر توفيقهم إلى الإيمان منوط بإرادته سبحانه وحده ومشيئته:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ إذا قرأت القرآن، ولكنهم لا يستجيبون كالصم الذين لا يسمعون أصلاً.

﴿أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصَّمَّ﴾؟ فكما لا تقدر على إسماع الصم لا تقدر على جعل هؤلاء يسمعون منك سماع إجابة.

﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾ فكيف إذا انضم إلى صممهم عدم استعمالهم لعقولهم.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ أي: يشاهد دلائل الصدق وأعلام النبوة في كمال خَلْقِكَ وَخَلْقِكَ.

﴿أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ﴾ أي: لا تقدر على هداية العمى الذين لم يوفقوا إلى رؤية دلائل النبوة.

﴿وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ﴾ فكيف إذا انضم عمى البصر عن رؤية دلائل النبوة إلى عمى البصيرة عن التفكير والاستبصار؟!.

وفي الآية إشارة إلى أن النظر إلى النبي ﷺ ورؤية محاسنه الخلقية والخلقية من أسباب الهداية، وقد اهتدى كثير من الصحابة إلى الإيمان فور رؤيتهم لوجهه الشريف عليه الصلاة والسلام، قال عبد الله بن سلام ﷺ: لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة انجفل (أسرع) الناس إليه، فكننتُ فيمن انجفل، فلَمَّا رأيتُه عرفتُ أن وجهه ليس بوجه رجل كذاب، فكان أول ما سمعته يقول:

«يا أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام» [رواه الترمذي (٢٤٨٥) وقال: حسن صحيح].

ورضي الله عن حسان بن ثابت القائل:

لَوْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ آيَاتٌ مَبِينَةٌ      كَانَتْ بَدِيهَتُهُ تَأْتِيكَ بِالْخَبْرِ  
● المعرضون عن الهداية:

ولا تظنن أن الله ﷻ ظلمهم بعدم توفيقهم للهداية والإيمان، فقد أعطاهم الله سبحانه كل أسباب الهداية:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (٤٤)

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا﴾ أي: لا ينقصهم شيئاً فيه مصلحة لهم.

فقد زوّدهم بوسائل التمييز والإدراك والفهم، ونصب لهم الأدلة والحجج، وأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب، وحدّثهم فيها وبشّرتهم، وجعل لهم أهلية الكسب والاختيار بالإرادة التي وهبها سبحانه لهم.

﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ باختيارهم ما يُغضب ربهم عليهم، ولهذا

حرمهم سبحانه من هدايته ولم يوفّقهم إليها.

وليس لأحدٍ أن يتحكّم على الواحد الأحد، فيقول: لمّ لم يمنعه وهو قادر على منعه؟ بل الأجدر أن يوجه اللوم إلى العبد، فيقول: لمّ لم يطعه؛ وهو متمكن من طاعته؟<sup>(١)</sup> فليس لأحدٍ سابقة استحقاق على الله تعالى، فالكل مُلْكٌ له سبحانه، وحضرته سبحانه حضرة إطلاق: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وبهذا الاعتبار لا يتصور منه ظلم قطعاً، لأنّ الظلم تصرف في ملك الغير

(١) البراهين الساطعة.

على خلاف الإذن والمصلحة<sup>(١)</sup>، وهو سبحانه حكيم فيما أعطى وفيما منع، إن أتاب بفضله، وإن عاقب بعدله.

### • الخسارة الكبرى:

وما أكثر ما حذر سبحانه من يوم القيامة؛ وعرض لهم مشاهد مما سيكون في هذا اليوم العظيم:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾ أي: اذكر يوم يجمعهم الله تعالى، فيستقلون مدة أعمارهم، ولا يرونها إلا شيئاً يسيراً، كأنها ساعة من نهار، وذلك لأنهم ضيعوا أعمارهم في الدنيا، فأصبحت بالنسبة لهم كالعدم، أو استقلوها لشدة ما يلقون من العذاب ويرون من الأهوال.

﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يعرف بعضهم بعضاً، ولكنهم لا ينتفعون بهذه المعرفة، فكل واحد مشغول بنفسه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَلْ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَ الْمَجْزُمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَلَّجْتَهُ وَأَخِيهِ﴾ [المعارج].

﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ خسروا أنفسهم وحياتهم وأهلهم وأصحابهم، خسروا الإيمان والإسلام، والجنة والرضوان، والحسنى والزيادة، ولا عوض لخسارتهم ولا جبر لها.

وسبب خسارتهم عدم هدايتهم:

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

### • الانتقام العاجل والآجل:

وتابعت الآيات الكريمة مواساة النبي ﷺ عما يلقاه من تكبرهم وعنادهم:

(١) انظر: ردود على أباطيل: ١٠٤/٢.

﴿وَأَمَّا زُرَيْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ نُوَفِّقُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ .

﴿وَأَمَّا زُرَيْكَ بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾ أي: ننتقم منهم في حياتك لتقرَّ عينك منهم .

﴿أَوْ نُوَفِّقُكَ فَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي: مصيرهم ومنقلبهم، والمعنى: إن لم ننتقم

منهم عاجلاً انتقمنا منهم آجلاً .

وقد أراه الله سبحانه ذلهم وأسرههم وانكسار سورة كبرهم يوم بدر، وما بعده من المواطن، حتى أقرَّ سبحانه عين النبي ﷺ بفتح مكة، وتكسير الأصنام، وتطهير البيت الحرام، فله الحمد والمنة .

﴿ثُمَّ اللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ فيجازيهم عليه .

وعذاب يوم القيامة أشدُّ من عذاب الدنيا، عندما تعرض كل أمة على الله

تعالى بحضرة رسوله الذي أرسل إليها :

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ .

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل، فينجو

المصدقون، ويهلك المكذبون، وهذا تكريم من الله تعالى لعباده المرسلين عليهم

الصلاة والسلام، فلا يقضي الله تعالى بينهم حتى يأتي رسولهم، ونظيره قوله

تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَءَ بِالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ

بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٦٩] .

وكذلك ختم الآية هنا بقوله سبحانه:

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

#### • الأجال المقدرّة:

ومن الشواهد على عنادهم وتكبرهم استعجالهم للعذاب، وسبق أن بين

الله سبحانه في هذه السورة الحكمة من إمهالهم - الآية [١١] -، وحكاه عنهم هنا

كشاهد يشهد على شدة عنادهم واستكبارهم:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٤٨).

وهو خطاب موجه للنبي ﷺ والمؤمنين .

﴿قُلْ لَا أَمَلٌ لِّنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٤٩).

﴿قُلْ لَا أَمَلٌ لِّنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي: لا أقدر على دفع ضرر عن نفسي أو جلب نفع لها، فكيف أملك جلب العذاب لكم؟! .  
﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ أن أقدر عليه أو أملكه، فالأمور كلها منوطة بمشيئته سبحانه وحده .

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي: مدة مضرورية ووقت معين قدره العليم الخبير لهلاكهم .

﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ﴾ المقدر لهم .

﴿فَلَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ فللأفراد والجماعات والأمم وللدنيا كلها

بما فيها آجال مقدرة معينة، لا تزيد ولا تنقص، ولا تتقدم ولا تتأخر .

إنَّ للحياة نواميس كبيرة تسير عليها بتقدير الله سبحانه، فلا تقصر عنها ولا تتجاوزها، أوقاتها محدودة، وأحداثها مكتوبة، فهي مبرمجة - إن صحَّ هذا التعبير الحديث - وهذا دليل على وجود الخالق المدبِّر سبحانه .

• إيمان البأس واليأس:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٥٠).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: أخبروني .

﴿إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُهُ بَيِّنَاتٌ﴾ ليلاً .

﴿أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ما الذي يستعجلون من نزول العذاب،

ولا شيء فيه يستدعي الاستعجال فكله مكروه؟! وماذا يكون حالكم عند وقوعه؟! .



﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ وَأَلَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَعَجِلُونَ ﴿٥١﴾

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أبعدما وقع عذاب الله عليكم، وحلَّ بكم سخطه آمنتم به، حيث لا ينفع الإيمان لوقوعه في غير وقته مجرداً عن الاختيار والكسب، فهو إيمان اليأس، لأنه أتى عند نزول العذاب واليأس، كما مرَّ معنا في قصة فرعون عند غرقه، وهو أيضاً إيمان اليأس، لأنَّه وقع عند اليأس من الحياة، وهو إيمان الإلجاء والقهر لأنهم ما آمنوا وقتئذٍ إلا مجبرين ومقهورين، ولهذا لا ينتفعون به، ولا يقبله الله سبحانه منهم، ولهذا يقال لهم تفريراً وتوبيخاً:

﴿أَلَكُنْ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ سَتَعَجِلُونَ﴾ عندما كنتم تستهزئون بالنبي ﷺ والمؤمنين وتقولون: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨].

وممَّا يؤكد أنه سبحانه لا يقبل إيمان اليأس قوله بعد ذلك:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا يَمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بكفرهم وفجورهم:

﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ الذي لا ينتهي ولا ينقطع في جهنم.

﴿هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا يَمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ من الآثام والمعاصي.

وقد سبق أن نبهت إلى مدلول كلمة ﴿تَكْسِبُونَ﴾ على وجود الإرادة

للإنسان والاختيار في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهْمُ النَّارُ يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨].

#### • حيرة وقلق:

﴿وَسْتَخْبِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾

﴿وَسْتَخْبِرُونَكَ﴾ أي: يستخبرونك.

﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ أي: أحق عذاب الله؟ أو أحق يوم القيامة؟.

ويدلُّ السؤال على حيرتهم وقلقهم، فهم غير مطمئنين إلى عقائدهم الباطلة، ولهذا أمر الله الحكيم العليم نبيه ﷺ أن يقول لهم:

﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ أي: نعم وربي.

﴿إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ إنَّ عذاب الله حق، أو إنَّ يوم القيامة حق.

والجوابُ المؤكِّدُ بالقسم يدلُّ على أنَّ القوم يستشعرون في قرارة أنفسهم حيرةً وقلقاً، وأن نوازع الفطرة التي فُطروا عليها تجذبهم إليها، وجاء الجواب المؤكِّد بالقسم المجرد عن أي دليل وبرهان متناسباً تماماً مع الحالة النفسية التي يمرون بها.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: وما أنتم بفائتين من العذاب، فهو مدرِّكم

لا محالة إذا لم تنقذوا أنفسكم بالإيمان بالله تعالى والتصديق مع الإذعان لرسالة النبي ﷺ.

فالبدارَ البدارَ إلى ساحل الأمان وسُلم النجاة قبل أن ينزل بكم العذاب،

فحينئذ لا فداء لكم منه ولا خلاص ولا نجاة:

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ  
وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٥٤).

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ﴾ بالكفر والشرك.

﴿مَا فِي الْأَرْضِ﴾ من خيرات وأموال.

﴿لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ لجعلته فدية لها من العذاب.

ولكنَّها لا تملك ما تفدي به نفسها، ولو ملكت الفدية فلا تُقبل منها،

ولا تنفعها شفاعة. فبادروا إلى الإيمان في فسحة الحياة قبل فوات الأوان،

وقبل أن يحرق الأسي قلوبكم، ويعقد الخوف ألسنتكم:

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ إنها الحقيقة التي لا بدَّ منها، ولهذا جاء

التعبير عنها بصيغة الماضي تأكيداً لها، فالقوم بهتوا ودهشوا عندما رأوا العذاب، فلم يقدروا أن ينطقوا، فما كان منهم إلا أن أسروا الندامة.

﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وسبق أن قلنا: إن الظلم لا يكون

من الله تعالى أبداً، والقوم ظلموا أنفسهم بكسبهم واختيارهم.

ومما يؤكد صدق الوعد أنه صدر عن مالك السموات والأرض:

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٥٥)

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فوعده ثابت لا محالة.

﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لسوء استعدادهم، واستيلاء

الغفلة عليهم بسبب اطمئنانهم للحياة الدنيا ورضاهم بها وانهماكهم بها، كما مرّ معنا.

وهو سبحانه الذي يتصرف في ملكه، فلا يحدث في ملكه شيء لا يريد:

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٥٦)

﴿هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ وخصّ الإحياء والإماتة بالذكر لما لهما من صلة بوعد

سبحانه بالبعث والنشور، فقال بعد ذلك:

﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة.





## الْفَضِيلَةُ الرَّابِعَةُ

### أَحْوَالُ السُّعَدَاءِ وَالْأَشْقِيَاءِ

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾  
 قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ  
 مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْهُ عَلَى اللَّهِ تَفَتُّونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ  
 الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا  
 يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ  
 شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ  
 ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ  
 ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ  
 لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزَنُونَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ  
 السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ  
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْعَوْنَ إِلَّا الْأَظْلَمَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ  
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ  
 ﴿٦٧﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْعَزِيزُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ  
 عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهَدًى أْتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى  
 اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ  
 بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كَانَ كَبْرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي  
 وَتَذَكَّرِي بِعَابَتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً  
 ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ

أَكُونُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْتَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلِيفَةً وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ  
 كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ  
 بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ  
 بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ  
 الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا  
 يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَزَمًا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِرْيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا  
 نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى  
 أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِغُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا  
 يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ فَمَا آمَنَ لِمُوسَى  
 إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالِي فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ  
 لَمِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ تَأْمِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى  
 اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَبَيْنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾  
 وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ  
 وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا  
 رَبَّنَا لِيُضِلُّوهُ عَنِ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ  
 الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ فَاَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾  
 وَجَوَازِنَا بِنَجِيِّ إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُقُ  
 قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ  
 قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ  
 النَّاسِ عَنْ ءَايَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِثْوًا صَدَقِي وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا  
 اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي  
 شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا

تَكُونَنَّ مِنَ الْمُتَمَرِّينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾  
 إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا  
 الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُّؤَسُّوْنَ لِمَآ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ  
 عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنٰهُمْ اِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْاَرْضِ كُلُّهُمْ  
 جَمِيْعًا اَفَاَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُوْنُوْا مُؤْمِنِيْنَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَاثَ لِنَفْسٍ اَنْ تُؤْمِنَ اِلَّا بِاِذْنِ اللّٰهِ  
 وَيَعْمَلُ الرَّحْمٰنُ عَلٰى الَّذِيْنَ لَا يَعْقِلُوْنَ ﴿١٠٠﴾ قُلْ اَنْظِرُوْا مَاذَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا تُعْنٰى  
 الْاٰيٰتِ وَالذِّكْرِ عَن قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُوْنَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنْظُرُوْنَ اِلَّا مِثْلَ آبَاؤِ الَّذِيْنَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ  
 فَاَنْظِرُوْا اِنِّيْ مَعَكُمْ مِّنَ الْمُنْتَظِرِيْنَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّيْ رُسُلَنَا وَالَّذِيْنَ ءَامَنُوْا كَذٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي  
 الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١٠٣﴾ قُلْ يٰٓاَيُّهَا النَّاسُ اِنْ كُنْتُمْ فِيْ شَكٍّ مِّنْ دِيْنِيْ فَلَا اَعْبُدُ الَّذِيْنَ تَعْبُدُوْنَ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ وَلٰكِنْ  
 اَعْبُدُ اللّٰهَ الَّذِيْ يَتَوَفَّاكُمْ وَاُمِرْتُ اَنْ اَكُوْنَ مِنَ الْمُؤْمِنِيْنَ ﴿١٠٤﴾ وَاَنْ اَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّيْنِ حَنِيفًا وَلَا تَكُوْنَنَّ  
 مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَتَّبِعْ مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ اِنْ فَعَلْتَ فَاِنَّكَ اِذَا مِّنَ الظَّالِمِيْنَ  
 ﴿١٠٦﴾ وَاِنْ يَمْسَسْكَ اللّٰهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ اِلَّا هُوَ وَاِنْ يَرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ  
 بِهٖ مَن يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهٖ وَهُوَ الْغَفُوْرُ الرَّحِيْمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يٰٓاَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ  
 فَمَنْ اِهْتَدٰى فَاِنَّمَا يَهْتَدِيْ لِنَفْسِهٖ وَمَنْ ضَلَّ فَاِنَّمَا يَضِلُّ عَلٰيْهَا وَمَا اَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيْلٍ ﴿١٠٨﴾ وَاَتَّبِعْ  
 مَا يُوْحٰى اِلَيْكَ وَاَصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللّٰهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحٰكِمِيْنَ ﴿١٠٩﴾

وتعود بنا الآيات للمرة الثالثة إلى رحاب القرآن الكريم، لتحدثنا عن جانب آخر في القرآن الكريم غير ما تقدم.

ففي المرة الأولى: بينت لنا الآيات علاقة النبي ﷺ بالقرآن الكريم، وأنه عليه الصلاة والسلام يتلقى القرآن بالوحي من الله تعالى وأنه متبع له، ولا دخل له فيه، فلا يستطيع تغييره أو تبديله، أو تقديم نزوله عليه أو تأخيره.

وفي المرة الثانية: تحدثت الآيات عن إعجاز القرآن الكريم، وبيّنت بعض أوجه الإعجاز فيه، وأنه المعجزة الكبرى المؤيدة للنبي ﷺ.

وأما في المرة الثالثة: فتحدثنا الآيات عن آثار القرآن الكريم الطيبة في

قلوب ونفوس المصدقين به والمدعين لشرعه ونهجه؛ فهم السعداء بالقرآن الكريم، وأما المعرضون عنه فهم الأشقياء به.

### • أسباب السعادة:

وتبدأ الآيات ببناء موجّه إلى جميع الناس، فرسالة القرآن عامة شاملة لكلّ الناس:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: قد جاءكم كتاب من الله تعالى يتصف بأربع صفات رئيسة:

١ - فالقرآن واعظ بما فيه من زواجر عن المعاصي والآثام.

٢ - ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ والقرآن شافٍ لما في الصدور من الأمراض المعنوية الخطيرة، كالكفر، والشك، والنفاق، والجهل.

وإنه لتعبير عجيب عن حقيقة عميقة، كما قال سيد قطب رحمته الله: «إنّ هذا القرآن شفاء لما في الصدور بكل معنى من معاني الشفاء، إنه يدبُّ في القلوب فعلاً ديب الشفاء في الجسم المعلول، يدبُّ فيها بإيقاعه ذي السلطان الخفي العجيب، ويدبُّ فيها بتوجيهاته التي توقظ أجهزة التلقّي الفطرية، فتتهتّز وتفتّح وتتلقى وتستجيب، ويدبُّ فيها بتنظيماته وتشريعاته التي تضمن أقل احتكاك ممكن بين المجموعات البشرية في الحياة اليومية، ويدب فيها بإيحاءاته المطمئنة التي تسكب الطمأنينة في القلوب<sup>(١)</sup>».

٣ - ﴿وَهُدًى﴾ وفي القرآن هداية ورشاد إلى الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

(١) في ظلال القرآن: ٣/١٨٠٣.

٤ - ﴿وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وفيه أيضاً رحمة من الله تعالى للمؤمنين، تنزل عليهم عندما يتلون آياته ويتدبرون كلماته .

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما اجتمع قومٌ في بيتٍ من بيوت الله يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده» [رواه مسلم (٢٦٩٩) وأبو داود (١٤٥٥)].

وقال تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

وقال أيضاً: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

وهكذا جمع الله تعالى في القرآن الكريم كل أسباب السعادة في الدنيا والآخرة: فيه الموعظة، والشفاء، والموعظة تهذب النفوس من آفاتهما، والشفاء يطهر القلوب مما يلحقها ويدنس صفاءها، كما أن في القرآن شفاءً بإذن الله من أمراض الأجسام وأسقامها .

ثم بعد ذلك فيه الهداية إلى أقوم طريق: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وفوق كل ذلك الرحمات الربانية التي يفيضها الله تعالى على عباده المؤمنين عندما يكونون متحلّقين حول مائدة القرآن الكريم يتلونه ويتدارسونه .

#### • الفرح بفضل الله ورحمته:

بهذا ينبغي أن يكون فرح المؤمنين:

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (٥٨)

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ وهو القرآن الكريم، إذ هو فضل عظيم من الله تعالى، ورحمة جليلة وكبيرة.



﴿فَإِذْ لَكَ فَيَفْرَحُونَ﴾ أي: قل لهم يا محمد: عليكم أن تغتنموا ما في القرآن الكريم من الفضل والرحمة، فقبلوا عليه فرحين به، مسترشدين بهديه، متمسكين بشرعه.

﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا الزائل.

أو: عليكم أن تفرحوا بالنعمة، لأنها من فضل الله ورحمته، لا من حيث كونها نعمة، وحينئذ يكون فرحكم بالمنعم لا بالنعمة، وتتعلق قلوبكم بالله تعالى وحده، وهذا خير لها من التعلق بحطام الدنيا الزائل، والذي تشوبه الأكدار والمنغصات.

#### • حاجة الناس إلى الشريعة الإسلامية:

ومما يؤكد شدة حاجة الناس إلى هدي القرآن وشرعه، ما كان عليه الناس في الجاهلية؛ وما هم عليه الآن أيضاً؛ من فوضى في التشريع، وخاصة في مجال التحليل والتحرير، فقد حرم أهل الجاهلية على أنفسهم كثيراً من الرزق الطيب الذي أنعم الله به عليهم:

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ اللَّهُ أَدَبُكُمْ لَكُمْ ط  
أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ أي: أخبروني عما أنعم الله عليكم من رزق، فحرمتم بعضه، وأحللتم بعضه، وذلك كقولهم: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرَّتْ جِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٨].  
فعلى أي أساس صدر هذا التحريم والتحليل؟! وما القواعد التي جعلتكم تحرّمون هذا وتحلون هذا!؟.

إنّ التحريم والتحليل في شريعة الإسلام قائم على قواعد وأسس واضحة، استهدفت سعادة الإنسان وسلامة دينه وبدنه، فكلُّ حكم من أحكام الشريعة مرتبط بأصول وقواعد، ولهذا لا تجد فيها تعارضاً واختلافاً، بل إنها تتفق فيما

بينها، ويكْمَل بعضها بعضاً وتتلاءم مع طبيعة الإنسان وحياته، وتلبي كلَّ حاجاته التشريعية في كلِّ زمان ومكان، وهذا ما تتميز به الشريعة الإسلامية عن غيرها من الشرائع والقوانين الوضعية، وعندما يتعد الناس عن شريعة الله تعالى يقعون في الفوضى التشريعية، وتظهر شدة حاجتهم إلى شريعة الله تعالى، وفضله سبحانه عليهم بإنزال القرآن الكريم على النبي ﷺ.

﴿قُلْ أَلَمْ يَأْتِكُمْ أَمْرٌ عَلَى اللَّهِ فَتَتُوبُوا؟﴾! فلا تشريع ولا تحليل ولا تحريم إلا من عند الله تعالى بواسطة الوحي الذي ينزل على رسول الله ﷺ.

ولهذا توعدت الآيات أولئك الذين يرفعون أنفسهم إلى مقام التشريع والتحليل والتحريم:

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، ما ظنُّهم أن يصنع بهم ربهم يوم القيامة وقد كذبوا عليه سبحانه؟!.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ بإنزال أفضل الشرائع وأكملها وأكثرها سماحة ورحمة وملاءمة لمصالح الناس.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ الله على نعمه، بل يعرضون عن دينه وشريعته إلى ما يستحدثون من تشريعات متهافئة وقاصرة، لا تلبي حاجاتهم، ولا تلائم فطرتهم.

#### • كمال علم الله تعالى:

وكمال الشريعة من كمال علم مُشرِّعها، ولهذا فإنَّ شريعة الله تعالى كاملةٌ لكمال علمه سبحانه الذي وسع كل شيء:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾﴾ .

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾ والخطاب للنبي ﷺ، والشأن: الخطب والأمر والحال، ولا يقال إلا فيما يعظم من الأحوال والأمر<sup>(١)</sup>.

ولما كانت تلاوته عليه الصلاة والسلام للقرآن أعظم الشؤون، لأنه كان يتلوه للتبليغ والعبادة، خصّه سبحانه بالذكر، فقال:

﴿وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ﴾ أي: وما تتلو مما أنزل الله عليك من قرآن.

﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ﴾ وهو خطاب شامل لسائر العباد برّهم وفاجرهم.

وروعي في كلا الخطابين ما يليق به، ففي خطاب النبي ﷺ جاءت كلمة «الشأن» ولا تقال إلا لما يعظم من الأعمال والأحوال، لأن عمل العظيم عظيم، وفي الخطاب الثاني جاءت كلمة «تَعْمَلُونَ» لأنها شاملة للعمل الجليل والحقير<sup>(٢)</sup>.

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي: إلا كنا عليكم رقباء مُطَّلِعِينَ على أعمالكم حافظين لها.

﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ حين تدخلون في العمل وتتلصسون فيه.

والإفاضة: الدخول في العمل مع الانسراح والانبساط فيه.

فالله سبحانه شاهدٌ علينا ونحن نقوم بأي عمل من الأعمال، كما أنه سبحانه في سابق علمه قد أحاط بنا وبأعمالنا:

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ أي: لا يغيب عن علمه

سبحانه وبصره وزن ذرة في أي مكان كانت، في السماوات أو في الأرض.

(١) تفسير الخازن: ٣/٢٦٥.

(٢) انظر: روح المعاني: ٤/١٤٤.

﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ ولا يغيب عن علمه سبحانه وبصره ما هو أصغر من الذرة أو أكبر منها.

﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ وهي أيضاً مكتوبة في لوح القدر الذي كتب فيه سبحانه كل المقدرات التي سبق بها علمه، وتعلقت بها إرادته، فكيف تغيب عنه سبحانه؟! فهو كقوله ﷻ: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْفُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

فسبحان من أحاط علمه بأوراق الأشجار، وقطرات الأمطار، وحبّات الرمال، وكل ما أظلم عليه الليل وأشرق عليه النهار!

ولا يخفى ما في الآية الكريمة من صلة كبيرة بموضوع القضاء والقدر، فأعمالنا كلّها من خير وشر سبق بها علمه قبل أن تكون، وعندما تكون، فهو سبحانه يعلمنا ويرانا ونحن نعملها، ولا نعملها إلا بمشيئته، فلا يحدث في الكون شيء لا يريدُه سبحانه، وإرادته سبحانه نافذة في كل المكونات، وإحاطة علمه سبحانه لأعمالنا وإرادته لها لا ينفي اختيارنا وكسبنا لها.

ولا يخفى أيضاً ما للآية من أثر عميق على نفسية الإنسان المؤمن وهو يستشعر رقابة الله تعالى عليه في كل أحواله وأعماله، ورحم الله ابن كثير عندما ختم تفسيره لهذه الآية بالحديث الشريف:

قال ﷺ لما سأله جبريل عن الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» [رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩)]<sup>(١)</sup>.

#### • السعداء أولياء الله تعالى:

وعلمه الأزلي سبحانه لا يتغيّر ولا يتبدّل، وما تعلقت به إرادته سبحانه على وفق علمه لا يتغير ولا يتبدل، وقد علم سبحانه أنّ الناس بما جعل لهم من إرادة واختيار وكسب سيكونون فريقين: سعداء وأشقياء.

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ١٩٩/٢.

والسعداء هم أهل الإيمان والتقوى، هم أولياء الله الذين لهم قَدَمُ الصّدق عند ربهم، وهم الذين يفرحون بفضله ورحمته، ويتمسكون بشريعته، ويتعظون بمواعظه، وهم الذين قال فيهم:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٢٦)

فرحهم بالله تعالى ورحمته وفضله غلب على قلوبهم، فلا يلتفتون إلى ما يجمعه غيرهم من حطام الدنيا ويتنافسون عليه، فلا يخافون أن يفوتهم شيء من الدنيا، ولا يحزنون عليه إذا فاتهم.

أو إنهم لا يخافون من حصول ضارّها، ولا يحزنون من فوات نافعها.

أو إنهم لا يخافون ولا يحزنون يوم القيامة، لأنهم يكونون في حمايته وكنفه، فهم الذين قال الله فيهم: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَنَلَقَهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

أو إنهم عند الموت لا يحزنون على مفارقة الدنيا، ولا يخافون مما يستقبلون من أمور الآخرة بسبب ما تحمل لهم ملائكة الرحمة من البشارة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

وقد يكون المعنى المراد شاملاً لجميع هذه المعاني ولمعانٍ آخر يعلمها سبحانه، وما ذكره الشوكاني رحمته في قوله: «والمراد بنفي الخوف عنهم أنهم لا يخافون أبداً كما يخاف غيرهم، لأنهم قد قاموا بما أوجب الله عليهم، وانتهوا عن المعاصي التي نهاهم عنها، فهم على ثقة من أنفسهم وحسن ظنّ بربهم»<sup>(١)</sup> فهو غير صحيح، ويجانب الصواب، لأنّ الخوف من الله تعالى يغلب على قلوب الأولياء والصالحين، وكلّما ازداد العبد قرباً منه تعالى زاد خوفه

(١) فتح القدير: ٤٥٧/٣.

وخشيته منه سبحانه، مع قوة رجائه برحمته سبحانه وفضله، وقد وصفهم سبحانه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ [المعارج].

وقال أيضاً فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون].

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فكيف خفيت عليه؟!.

#### • صفاتهم:

ثم وصفهم سبحانه بقوله:

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

وأصل معنى (الولي) من الولاء، وهو القرب والنصرة، فولى الله هو الذي يتقرب إلى الله تعالى بطاعته مع اجتناب معاصيه ومحارمه، ومن كان كذلك فإن الله تعالى يقربه ويعينه ويوفقه وينصره.

كما جاء في الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحْبَبَهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا» الحديث [رواه البخاري (٦٥٠٢)].

فالولي يحبُّ الله تعالى، ويحبه الله سبحانه، ويحفظ له حواسه وجوارحه، فلا يستعملها الولي إلا في ما يُرضي الله سبحانه، أو المراد أنه سبحانه يوفقه في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء، وييسر عليه استعمالها في طاعته، ويحميها عن مواقف المعاصي والآثام.

والحديث يدلُّ على وجوب احترام الأولياء، والتأدب معهم، والحذر من إيذائهم. والتقوى هي علامتهم التي بها يُعرفون، فكل من كان تقيًّا كان لله وليًّا،

فهم الذين يتولّونه سبحانه بالطاعة، ويتولاهم بالكرامة، وأعظم كرامة يكرمهم الله تعالى بها أن يوقفهم لطاعته والاستقامة على شريعته، ولهذا قالوا: الاستقامة عين الكرامة.

ولا يلتفت الأولياء إلى خوارق العادات التي يجريها الله تعالى على أيدي بعضهم، ولا يريدون صدورها على أيديهم إلا إذا تضمّنت مصلحةً للمسلمين خاصةً أو عامةً، ويخافون أن تكون استدراجاً من الله تعالى أو تشغلهم عنه سبحانه.

وخوارق العادات ليست دليل الولاية، فالله سبحانه يخلقها على أيدي الصالحين وغير الصالحين، وقد جاء في الأحاديث الصحيحة: أن الله سبحانه يخلق على يد الدجال عندما يظهر قبيل قيام الساعة كثيراً من خوارق العادات استدراجاً له، وابتلاءً للناس به.

#### • الرؤيا الصالحة:

ثم بيّن سبحانه بعض ما أولاهم من الخير في الدنيا والآخرة، فقال:

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٦٤).

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ والبشرى في الدنيا هي الرؤيا الصالحة، يراها المؤمن أو تُرى له.

كما جاء في الحديث الشريف: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله سبحانه: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له» [أخرجه أحمد (٦/ ٤٤٥ و ٤٥٢) والترمذي (٣١٠٥) وابن ماجه (٣٨٩٨)].

والرؤيا الصالحة: هي الصادقة التي تكشف عن بعض الوقائع المستقبلية، والتي فيها خير ومسرّة لمن رآها أو رؤيت له، وقد عدّها النبي صلى الله عليه وسلم جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة لصدقها وتحققها.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة» [رواه البخاري (٧٠١٧) ومسلم (٢٢٦٣) واللفظ له].

ولا يكون جزء النبوة نبوة، فالمراد أنها من صفات وشمائل النبوة، ووجه تخصيص هذه الأجزاء العددية أنه عليه الصلاة والسلام مكث يوحى إليه في المنام ستة أشهر، ثم نزل عليه الوحي، واستمر ثلاثاً وعشرين سنة، فهي إذن بالنسبة له عليه الصلاة والسلام جزء من ستة وأربعين.

وجاء أيضاً: أن المراد من البشرى في الحياة الدنيا: الثناء الحسن.

فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «أرأيت الرجل يعمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن» [رواه مسلم (٢٦٤٢)].

فثناء الناس عليه من غير تعرض منه لثنائهم دليل على رضا الله عنه.

وأما البشرى في الآخرة فهي الجنة كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [الحديد: ١٢].

﴿لَا يُدْبِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا تغيير لأقواله سبحانه، ومنها ما وعد به أوليائه في كتابه وبواسطة رسله.

فهي قدم الصدق التي أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يبشر بها المؤمنين، كما مر معنا في أول السورة، وهي السعادة التي قدرها لهم سبحانه في سابق علمه وكتبها في اللوح المحفوظ، وبها يتحقق لهم الفوز العظيم:

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

#### • الأشقياء:

وأما الأشقياء فهم الذين جاء النبي صلى الله عليه وسلم لينذرهم بغضب الله وعذابه، وليقيم حجته سبحانه عليهم، وهم الذين عانى رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من عنادهم وإعراضهم:



﴿وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٦٥).

فهو سبحانه السميع لأقوالهم، العليم بأحوالهم، والمالك لجميع المخلوقات.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَسْتَعِينُونَ إِلَّا الظَّنُّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ (٦٦).

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ ولا يصلح المخلوق المملوك أن يكون ندًا لله تعالى وشريكاً.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ على الحقيقة، وإن كانوا يسمونهم شركاء.

﴿إِنْ يَسْتَعِينُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: ما يتبعون إلا الظن والوهم الذي لا حقيقة له.  
﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي: ما هم إلا يكذبون.

ومن الأدلة على وحدانيته سبحانه وكمال قدرته وعظيم فضله ورحمته أنه:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ  
يَسْمَعُونَ﴾ (٦٧).

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه من عناء العمل والحركة.  
﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾: مضيئاً.

فالليل والنهار من أعظم الأدلة على وجود الخالق ووحدانيته وكمال قدرته، فتدبير نظام الليل والنهار بهذا الشكل الدقيق المحكم الثابت المستمر يدل على وحدانيته سبحانه وعظمته، كما يدل على حكمته ورحمته، فهو من نعمه الكثيرة التي أفاضها على مخلوقاته عموماً، وعلى الإنسان خصوصاً، الذي

يحتاج إلى سكون الليل لراحته، كما يحتاج إلى ضوء النهار لسعيه واكتسابه، ولهذا جاء التذكير بالليل والنهار في آيات كثيرة وبأساليب متنوعة.

وجاء هنا بأسلوب الخبر الصادق ليتناسب مع ما تقدمه من حكاية أوهام المشركين وأكاذيبهم وظنونهم الخائبة، ومن شأن العاقل أن يُصغي للخبر الصادق، ويفتح له سمعه ليعرف الحقائق التي يحملها، ألا ترى أن الله ختم الآية بقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماع اعتبار وتذكر.

#### • الكذبة الكبرى:

وثمة نوع آخر من الأشقياء، وهم الذين وصفوا الله سبحانه بصفات لا تليق بكماله سبحانه ووحدانيته، فنسبوا إليه سبحانه الجزئية والولد، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهو الفرد الصمد، والواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، والذي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْتُمْ لَوٰكِنَ عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ﴾ تقدست ذاته، وتسامت صفاته.  
﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن كل شيء.

فاتخاذ الولد من صفات المخلوقين، وهو دليل حاجتهم وفنائهم، أما القديم أزلاً، والباقي أبداً، والقيوم على كل شيء، فهو الغني، ولا غنى على الحقيقة إلا غناه، لأن الكل محتاج إليه سبحانه قائم به.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فالكل ملك له سبحانه، فكيف يتخذ منهم ولداً؟!.

إنها دعوى باطلة كاذبة لا يؤيدها عقل ولا نقل:

﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا﴾ أي: ما عندكم من حجة ولا برهان.

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ كيف تتجرؤون على الله تعالى، وتصفونه سبحانه بصفات لا يؤيدها عقل ولا نقل ولا علم؟! .  
إنها الكذبة الكبرى التي لا فلاح ولا نجاح لكل من يقول بها:

﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ (٦٩) .

وكيف يفلحون وهم يكذبون على الله تعالى؟! .

﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (٧٠) .

﴿مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ وتمتعهم ببعض حظوظ الدنيا كما هو مشاهدٌ عند بعضهم، قليل وقصير، ومليء بالمنغصات والمكدرات .  
﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ ثم مصيرهم إلى الله تعالى الذي حكم عليهم بالعذاب الشديد:

﴿ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ .

#### • الإنذار الأخير:

ثم أوردت الآيات نماذج للأشقياء والسعداء، وكان اختيارها لهم دقيقاً متلائماً تماماً مع موضوع السورة كما سيظهر لنا .

وبدأت بقوم نوح كنموذج للأشقياء، فذكرت الحلقة الأخيرة لقصة نبي الله نوح عليه السلام معهم، ومن المعلوم أنَّ نوحاً عليه السلام مكث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، مما يدلُّ على أنَّ أعمار قومه كانت طويلة، وأنَّهم عمُّروا في الحياة الدنيا زمناً كبيراً، ثم بعد هذا العمر المديد جاءهم العذاب، فأغرقوا بالماء بسبب إصرارهم على الكفر، وتكذيبهم لنبيهم نوح عليه السلام، فما قيمة حياتهم المديدة وقد انتهت بالعذاب الذي لن ينقطع عنهم أبداً؟! .

فبعد إغراقهم أتاهم عذابُ البرزخ في النار، ثم يوم القيامة يخلدون في

جهنم، قال تعالى: ﴿مِمَّا حَطَبْتَنَّهُمْ أَغْرَقُوا فَأَدْحَلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا﴾ [نوح: ٢٥]، والفاء في ﴿فَأَدْحَلُوا﴾ تدل على التعقيب، أي: جاءهم عذاب البرزخ في النار بعد هلاكهم بالغرق.

فالدينا إذن متاع قليل مهما طالت وامتدت:

﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي إِيَّائِي فَفَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ ﴿٧١﴾ .

﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ على المصرين على الكفر والشرك.

﴿نَبَأٌ نُوحٍ﴾ خبر نوح مع قومه الذين هم أمثال قومك في العناد والكفر.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُورُ إِن كَانَ كَبُرَ﴾ أي: عَظَمَ وَشَقَّ .

﴿عَلَيْكُمْ مَقَامِي﴾ أي: قيامي بتذكيركم ووعظكم. وهذا يدل على أن قوله

هذا كان المواجهة الأخيرة مع قومه والإنذار الأخير لهم.

﴿وَتَذِكْرِي﴾ إياكم.

﴿إِيَّائِي﴾ الدالة على وحدانيته.

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ لا على غيره، فافعلوا ما بدا لكم.

﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ﴾ أي: أجمعوا كل ما تقدرون عليه للتخلص مني.

﴿وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ مع شركائكم.

﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي: مستوراً.

فما كان ﴿لِي﴾ يبالي بمكرهم وكيدهم سواء كان مستوراً أو ظاهراً.

﴿ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ﴾ أي: نفذوا وحققوا ما عزمتم عليه.

﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾ أي: لا تمهلوني، وهذا يدل على أنه ﴿لِي﴾ بلغ الغاية في

التوكل على الله تعالى كما بلغ الغاية أيضاً في تحديهم.

## • الجناة على أنفسهم:

ولم ينسَ ﷺ في كلماته الأخيرة لقومه أن ينزّه دعوته عن الأغراض الدنيوية ومتاعها الرخيص، فقال:

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٧٢).

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أصررتم على إعراضكم وعنادكم.  
 ﴿فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ﴾ يستوجب إعراضكم.  
 ﴿إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: ما أجري إلا على الله، فدعوة الأنبياء أسمى من الدنيا كلها لأنها من الله وإلى الله.  
 ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ المستسلمين الخاضعين لأمره سبحانه وحكمه.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَجَبْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْتِفَ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَذَرِّينَ﴾ (٧٣).

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فأصروا على تكذيبه، مع أنه ﷺ ما ترك سبيلاً لإقناعهم إلا سلكه، كما جاء في قوله تعالى عنه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ (٥) ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ (٦) ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (٧) ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ (٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح].  
 وبقي ألف سنة إلا خمسين عاماً يسلك معهم كل هذه الأساليب، والنتيجة:

﴿فَجَبْنَهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ من المؤمنين.

﴿فِي الْفَلَكِ﴾ في السفينة.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلْتِفَ﴾ عن الهالكين.

﴿وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ﴾ نظر التدبر والاعتبار.

﴿كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الْمُذْرِبِينَ﴾ الذين أنذرهم وحذرهم، وعمرهم عمراً كافياً ليتذكروا ويتعظوا، ولكنهم أصروا واستكبروا استكباراً، فهم الجنة على أنفسهم بسوء كسبهم واختيارهم.

والإنسان هو الإنسان، لا يتغير، ولا يتبدل، مهما تعاقبت الأجيال، وتجددت الأيام، ولا يزال عناد قوم نوح وإعراضهم عن الحق المؤيد بالبينات، باقياً عند كثير من الناس، يتوارثونه جيلاً عن جيل حتى عصرنا الحاضر، ولقد عانى الأنبياء بعد نوح ﷺ من عناد أقوامهم وإعراضهم كما عانى نوح ﷺ.

### • الطبع على القلوب:

قررت هذه الحقيقة الآية الكريمة التي سلكت الأنبياء الذين أرسلهم الله من بعد نوح حتى عهد موسى وهارون في خبر واحد:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ (٧٤).

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ﴾ كل رسول إلى قومه.

﴿فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الدالة على صدقهم.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: بسبب تعودهم تكذيب الحق

وتمرثهم عليه قبل بعثة الرسل، استمروا على حالهم هذه بعد بعثة الرسل، كأن لم يُبعث إليهم أحد<sup>(١)</sup>.

أو: إنهم لم ينتفعوا بالبينات، فكذبوا رسلهم بعد مجيء البيئات كما كذبوهم من قبل<sup>(٢)</sup>.

لكن قوله سبحانه بعد ذلك:

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ يتفق مع المعنى الأول أكثر من المعنى

(١) انظر: تفسير البيضاوي وتفسير النسفي: ٢٧٥/٣.

(٢) تفسير الخازن: ٢٧٥/٣.

الثاني، فللعادات والتقاليد التي اعتاد عليها الإنسان تأثير كبير عليه، لقد ألف القوم الكفر والضلال، وطال عليهم الأمد فيه، فأصبحت قلوبهم قاسية، لا تنكروا منكرًا، ولا تعرف معروفًا، ولا تتأثر إلا بأهوائها وشهواتها، فهي القلوب التي طبع الله عليها بسبب إسراف أصحابها في المعاصي والآثام.

انظر إلى قوله تعالى يبين سبب قسوة قلوب أهل الكتاب: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ﴾ في المعاصي والآثام، ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَتْ مِنْهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ [الحديد: ١٦].

ولهذا كان اليهود من أهل الكتاب يقولون للنبي ﷺ: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ أي: مغلقة ومغلّفة ومطبوع عليها، فردّ عليهم سبحانه بقوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨].

فتغليف القلوب والطبع عليها من الله تعالى وبمشيئته، إلا أنه بسبب اختيارهم للمعاصي وكسبهم لها: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

#### • فرعون وملؤه:

وهم الأنموذج الثاني للأشقياء، ولما وصلت الآيات إلى قصة موسى وفرعون وقفت عندها، ففصلت بعض وقائعها، وأضافت عليها حلقة جديدة، انفردت بها السورة، فلم تُذكر في غيرها، ولعل سرّ التفصيل في قصة موسى وفرعون أن اتصالها بموضوع السورة أكثر وأظهر ممّا سبقها، وخاصة الحلقة الأخيرة الجديدة فيها.

عاش فراعنة مصر حياة ترف وسرف وبذخ ما عُرف لها مثيل في الحضارات القديمة، وإنّ آثارهم الباقية حتى الآن تدلّ على ذلك، فلا تزال هذه الآثار شواهد صدق على مدى الترف الذي كانوا عليه، لقد كان متاعهم في الحياة الدنيا كبيراً بالنسبة لمتاع غيرهم فيها، وأما بالنسبة للأخرة ونعيمها فهو قليل وحقير، وخاصة بعد أن نزل بهم العذاب والهلاك.

ويبدو أنّ فرعون موسى بلغ الغاية القصوى في الترف والسرف، والقوة

والسلطان، والبطش والطغيان، فأرسل الله تعالى إليه رسولين كريمين ليبلِّغاه وقومه رسالة الله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾ .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾ الذين يملؤون العين بمظاهر الغنى والقوة المحيطة بهم .

﴿بِآيَاتِنَا﴾ بالمعجزات التسع التي أيد الله تعالى بها موسى وهارون ﷺ، وكلّ معجزة كافية لإظهار صدقهما في دعوتهما .  
﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي: تكبروا وأعجبوا بأنفسهم وبقوتهم .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾ .

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا﴾ عن المعجزات:

﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ .

فردّ موسى عليهم مستنكراً وموبّخاً:

﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ .

فلا فلاح لمن يمارس السحر .

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِرْبَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا

بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ .

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِنَا﴾ أي: لتصرفنا .

﴿عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا﴾؟ إنّ التقليد الأعمى للآباء والأجداد أو لغيرهم من

أكبر المعوّقات التي تقف في وجه الإصلاح والمصلحين في كل زمان ومكان .



وأول ما يسارع المبطلون إلى الاحتجاج بها، ثم يكيلون التهم لدعاة الإصلاح بأنهم لا يقصدون الإصلاح، إنما يقصدون أن يحلوا محلهم في سلطانهم ومُلْكهم:

﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾ .

ثم يعلنون بكل وقاحة وتبجح:

﴿وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بمصدقين.

ثم تحدثت الآيات بعد هذه المواجهة عن مواجهة ثانية بين موسى ﷺ من جهة، وبين السحرة الذين جمعهم فرعون واستعان بهم من جهة ثانية:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ (٧٩).

بفنون السحر.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ﴾ (٨٠).

واجه موسى السحرة بكل هذه الثقة والتحدي.

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (٨١).

﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾ ما ألقوا من العصي والحبال.

﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَابِطُهُ﴾، فلا يبقى له أثرًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ فالمفسدون لا يكون منهم إصلاح أبدًا،

ولا بقاء لفسادهم، لا بد أن يمحقه الله تعالى ويزيله.

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ (٨٢).

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ بأوامره سبحانه وأحكامه، أو بكلماته التكوينية،

أو بما سبق من قضاائه وقدره.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ لأن إرادته سبحانه هي النافذة، وقدرته هي الغالبة. ولم تتحدث الآيات عن نتائج المواجهة، إذ عُرفت النتيجة من خلال إظهار قوة الحق وسلطانه الغالب القاهر، وضعف الباطل وفساده.

#### • المحنة:

وانتقلت الآيات تتحدث عن محنة المؤمنين الذين استجابوا لدعوة موسى، فوصفتهم بأنهم كانوا من شباب بني إسرائيل، وأنهم آمنوا رغم خوفهم من بطش فرعون:

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾﴾

﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ أي: على خوف من فرعون، وخوف من أشرف وأغنياء بني إسرائيل، فإنهم كانوا يمنعون الشباب عن الإيمان خوفاً على أموالهم ومصالحهم من انتقام فرعون، وهو أمر واقع ومشاهد في كل عصر ومصر، فإن كثيراً من أصحاب الوجاهة والمراتب يعرضون عن الحق ويدافعونه حماية لمصالحهم ومراتبهم.

﴿أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي: يصرفهم ويصدّهم عن الإيمان، فالخوف لم يكن على أنفسهم، إنما كان خوفهم على دينهم وإيمانهم، فالبلاء كان كبيراً، والمحنة شديدة، والسبب ما كان عليه فرعون:

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ﴾ متكبر ومتجبر.

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ في الظلم والفساد.

ولهذا لا ينبغي للمؤمن أن يتمنى البلاء، ويعرض نفسه له، بل عليه أن يسأل الله تعالى العافية والسلامة لدينه ونفسه، فإنه لا يدري كيف يكون حاله عند نزول البلاء، فلعله لا يثبت فيفتن عن دينه، أما إذا نزل به البلاء فعليه الثبات مستعيناً بالله سبحانه ومتوكلاً عليه، وهذا ما نصح به موسى ﷺ المؤمنين:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُم بِإِلَهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنُم بِإِلَهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا﴾ فثقوا به سبحانه واعتمدوا عليه .  
﴿إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ حقاً لله تعالى .

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾﴾ .

﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره، ثم توجهوا بالدعاء إلى الله تعالى قائلين :  
﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي : لا تسلطهم علينا فيفتنونا عن ديننا،  
أو لا تجعلنا موضع فتنة لهم، فيتسلطوا علينا، ويزدادوا طغياناً وكفراً ويقولوا :  
لو كنتم على حق ما سلطنا عليكم .

﴿وَجِنَّا بَرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ .

### • الكيس والعجز:

والتوكل على الله تعالى لا ينافي الأخذ بالأسباب، والدعاء سبب للمقصود، فمن أخذ بالأسباب، واعتقد أن الله هو الخالق، ولا تأثير للأسباب في خلق المسببات، كان متوكلاً. ومن ترك الأخذ بالأسباب التي ينبغي له أن يأتي بها مع التمكن من فعلها كان عاجزاً .

قال رسول الله ﷺ: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز» [رواه مسلم (٢٦٦٤)].

وقال أيضاً: «إن الله تعالى يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل» [رواه أبو داود (٣٦٢٧)].

والكيس: النباهة والتفطن والحزم بإتيان الأسباب المشروعة الموضوعه للمسببات، وترك ذلك ليس من التوكل في شيء، ولا ممَّا يقتضيه الإيمان

بالقدر، فما تراه في الناس من ذلك بِحُجَّةِ الاعتماد على القدر إنما هو من الجهل بالشرع والقدر<sup>(١)</sup>.

فالقدر لا يدلُّ على جري الأمور على محض المصادفة والاتفاق، وإنَّما يدلُّ على إجرائها على نظام خاص ووضعها على قدر معين بحيث تؤخذ المسببات من أسبابها<sup>(٢)</sup>.

ولهذا أوحى الله إلى موسى أن يأمر قومه أن يأخذوا بأسباب السلامة والوقاية من ظلم فرعون وبطشه، مع الإكثار من عبادته والتوكل عليه سبحانه:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٨٧﴾ .

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بَيْوتًا﴾ أي: اتخذوا في مصر المنازل والمسكن، ولعلَّ ذلك لإيهام فرعون وجنوده أن بني إسرائيل غير راغبين في الخروج من مصر مع موسى، فقد كان من جملة الأمور التي طالب بها موسى، أن يرسل فرعون بني إسرائيل مع موسى ليخرجهم من مصر، ويخلصهم من ظلم فرعون واستعباده لهم، قال تعالى: ﴿فَأَنبَأَهُ فَقَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَدَّهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِنَّا أَتَبَعَ أَهْلَكَ﴾ [طه: ٤٧].

وكان فرعون معارضاً لهذا ليبقى بنو إسرائيل مسخرين في خدمته وخدمة قومه. واتخاذ المسكن يدلُّ على الرغبة في التوطن والاستقرار، فيتوهم فرعون أن بني إسرائيل غير راغبين بالخروج من مصر مع موسى، فيخفف من مراقبتهم وحراستهم.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي: صلُّوا في بيوتكم، وكان من دينهم أنهم

(١) البراهين الساطعة.

(٢) المصدر السابق نفسه.

لا يصلون إلا في البيع والكنائس ما داموا على أمن، فإذا خافوا فقد أذن لهم أن يصلوا في بيوتهم<sup>(١)</sup>.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ في بيوتكم.

﴿وَيَتَرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

#### • الدعوة المستجابة:

ولما أتى موسى ﷺ بكل المعجزات التي أيده الله بها، ورأى استكبار فرعون وملئه وإصرارهم على الكفر، وعدوانهم على المؤمنين، وبطشهم بهم، وبغيهم عليهم؛ توجه إلى الله تعالى يدعو مع أخيه هارون على فرعون وملئه، فلا سبيل للمظلوم المقهور إلا أن يتوجه إلى الله تعالى يستنصره على ظالمه، والله سبحانه الحكيم العدل لا يخيب مظلوماً لجأ إليه:

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوْا حَتَّى يَرُوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً﴾ من كل شيء يتزين به في

الدنيا.

﴿وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ابتلاءً واختباراً لهم.

﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّوْا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ أي: فكان عاقبة ما أعطيتهم الضلال والإضلال.

فالله سبحانه ما أعطاهم ليضلوا، وإنما أعطاهم ليبتليهم.

وقد يقول قائل: لماذا أعطاهم وهو سبحانه يعلم أنهم سيضلون؟!.

والجواب:

أولاً: أنه سبحانه ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ﴿أَلَا لَهُ

الْخَلْقُ﴾ سبحانه، ﴿وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٥] في خلقه له أيضاً.

(١) تفسير القرطبي: ٣٧١/٨.

وثانياً: لا يتم الابتلاء في الحياة الدنيا إلا بإمداد الناس بأسباب الابتلاء والعطاء، وتفاوت الناس فيه من أسباب الابتلاء.

وثالثاً: قضت حكمته سبحانه وإرادته ألا يحاسبَ الناس بمقتضى علمه سبحانه بما سيعملون، وإنما يسألهم عن أعمالهم التي عملوها باختيارهم وكسبهم.

#### • الرضا بالكفر كفر:

﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾ أي: أهلكها وامحها.

﴿وَأَشَدُّ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي: اطبع على قلوبهم، واجعلها قاسية، فلا يؤمنوا إلا إيمان اليأس والبأس الذي لا ينفعهم حين ينزل بهم العذاب الأليم.

ولا تظن أن موسى وهارون رضيًا بكفر فرعون وملئه بهذا الدعاء، فالرضا بالكفر كفر، إنما سألا الله ذلك لينتقم منهم أشد الانتقام.

ومن هذا القبيل ما جاء في الحديث الصحيح في فتح مكة: أن عبد الله بن أبي سرح الذي أهدر النبي ﷺ دمه، أتى به عثمان بن عفان رضي الله عنه (وكان أخاه من الرضاعة) إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله بايعه، فكفَّ رضي الله عنه عن بيعته، ونظر إليه ثلاث مرات، كل ذلك يأبى أن يبايعه، فبايعه بعد الثلاث، ثم أقبل رسول الله ﷺ على أصحابه فقال: «أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رأيته كففْتُ يدي عن بيعته فيقتله؟» قالوا: وما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك، ألا أومأتَ إلينا بعينك. فقال عليه الصلاة والسلام: «إنه لا ينبغي لنبى أن يكون له خائنة أعين» [رواه أبو داود (٢٦٨٣) والنسائي (١٠٥/٧ - ١٠٦) (١)].

فتوقفه عليه الصلاة والسلام عن بيعته لا يعد رضاً بكفره، إنما لرغبته في الانتقام منه.

(١) روح المعاني: ١٧٤/٤.

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٨٩).

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمَا﴾ ، والخطاب لموسى وهارون، إذ شارك هارون في الدعوة بالتأمين على دعاء موسى ﷺ .

﴿فَاسْتَقِيمَا﴾ أي: اثبتا على أمر الله، ولا تستعجلا، فإن الإجابة كائنة في الوقت الذي يشاء الله تعالى، لا في الوقت الذي تشاءان، فمشيئته سبحانه هي الغالبة والنافذة.

﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا تتبعان طريق الجهلة في استعجال الإجابة أو عدم الثقة بوعده سبحانه.

وفي الحديث: «يُستجاب لأحدكم ما لم يعجل»، يقول: قد دعوت فلم يستجب لي» [رواه البخاري (٦٣٤٠) ومسلم (٢٧٣٥)].

#### • طريق بين الأمواج:

ولما حان الوقت الذي سبق به علمه سبحانه وتعلقت به إرادته لإجابة الدعوة، أمر الله تعالى موسى أن يخرج بني إسرائيل ليلاً، وعندما علم فرعونُ بخروجهم خرج مع جنوده في أثرهم، ولما وصل موسى وقومه إلى شاطئ البحر شقَّ الله تعالى لهم بقدرته طريقاً في البحر يساً:

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ، بَغْيًا وَعَدُوًّا حَاقًّا إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٩٠).

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ﴾ أي: جعلهم سبحانه يجتازون البحر، ويقطعون به بالطريق الذي شقَّه لهم بين الأمواج الهائجة الثائرة، وقد أمسكتها قدرة الله تعالى على أطراف الطريق كالجبال العالية، ﴿فَلَمَّا تَرَأَ الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمَدْرُكُونَ﴾ (٩١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء]. أي: كالجبل العظيم.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ ظلماً واعتداءً، وأعماهم الغضب والحقْدُ عن رؤية الحقيقة ومعرفة المعجزة الخارقة في الطريق الذي شقته القدرة الإلهية بين الأمواج العاتية، فدخلوا فيه .

وما إن وصل بنو إسرائيل إلى اليباسة حتى أمر الله تعالى الأمواج الهائجة المزبدة أن تطبق على فرعون وجنوده وأسلحته ومراكبه وزينته .

### • أدركه الغرق:

وتمزقت جيوش الطاغية، وضاعت بين الأمواج، عندئذ عرف المتجبر المتكبر نفسه، وأدرك ضعفه وعجزه، ولما أدركه الغرق ويئس من النجاة، وأيقن بالهلاك:

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ يا لروعة التعبير ودقة التصوير! ﴿أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ﴾ الطالب صار مطلوباً، تغير الموقف في لحظات، فقد كان فرعون طالباً لبني إسرائيل، جاداً في أثرهم، وهاهو بين الأمواج أصبح مطلوباً من قبل الهلاك والغرق، ولا نجاة له منه، فقد أدركه وأحاط به من كل جانب .

﴿قَالَ ءَأَمِنْتُ أَنَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمِنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ .

إنه إيمان البأس واليأس، إيمان القهر والإلجاء الذي لا يقبله الله تعالى، ولا ينفع صاحبه، الإيمان المجرد عن الكسب والاختيار، ولهذا قيل له تقريراً وتوبيخاً:

﴿ءَالْقَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ .

﴿ءَالْقَنَ﴾ تؤمن حين يئست من الحياة وأيقنت بالممات .

﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ بطغيانك وظلمك، وادعائك صفة الربوبية والألوهية، عندما كنت تقول: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]، ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ عَدِيٍّ﴾ [القصص: ٣٨] .



﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفْلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ .

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِيَدِنَا﴾ فقط، وهو تهكم مرّ بمن كان يدعي لنفسه صفة الربوبية والألوهية، فنلقي بدنك على ساحل البحر جثة هامدة لا روح فيها، أو على نجوة مرتفعة من الأرض .

﴿لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾ أي: لتكون لمن يأتي بعدك عبرة وموعظة، تبين لهم أن الإنسان مهما تجبر وطغى فإن الله تعالى ينتقم منه .  
والعجيب أن كثيراً من الناس لا يتعظون، ولا تزال الإنسانية تعاني من ظلم وطمغان الطغاة، كما جاء في خاتمة الآية:

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفْلُونَ﴾ بسبب انهماكهم بالدنيا وشهواتها .

#### • لا نجاة لفرعون من العذاب:

وقد تعلق بعضهم بهذه الآية، فقالوا بإيمان فرعون ونجاته، وأنه سبحانه لم يزد على أن عاتبه وبكّته بقوله: ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] .

وقد ردّ عليهم الشيخ محمد الحامد رحمته الله، وجاء في ردّه: «قالوا ذلك غافلين عن قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسًا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾ [غافر: ٨٥]، فإيمانه إيمان يأس غير مقبول .

ثم ماذا يصنعون بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْرٌ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسَّسَ الْوُرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبِعُوا فِي هٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيٰمَةِ يَسَّسَ الْوُرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ [هود].

أفيقدمهم إلى النار ويوردهم إياها ثم يعود أدراجه إلى الجنة، ما هذه المهزلة التي يتنزّه عنها القرآن؟! .

وماذا يصنعون بقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرَى وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥] أليست الأولى هي الدنيا، والآخرة هي يوم القيامة وما بعده؟! .

على أن هناك آيات أخرى قاطعة لشبهتهم، وليس بعدها مجال لقائل، ولا اجتهاد لمجتهد، إذ الاجتهاد في موارد النصوص ممنوع، وليس لأحد مع الله كلام فيما قضاه: ﴿وَأَسْتَكْبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ (٢٦) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَتَّعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٣﴾ [القصص].

فهل بقي شك في كفر فرعون وجنوده؟! (١) .

وقال الألوسي رحمته الله: «ولهذه الآية وأشباهاها وقع الإجماع على كفر المخذول، وعدم قبول إيمانه، ويشهد لذلك أيضاً ما رواه ابن عدي والطبراني: من أنه رحمته الله قال: «خلق الله يحيى بن زكريا في بطن أمه مؤمناً، وخلق فرعون في بطن أمه كافراً» فهو من أهل النار المخلدن فيها بلا ريب» (٢) .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما قال فرعون: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال لي جبريل: لو رأيتني وقد أخذت من حال البحر (طينه الأسود) فلدست في فيه مخافة أن تناله الرحمة» [رواه أحمد (٣٠٩/١) والترمذي (٣١٠٧) وحسنه].

وهو من قبيل الرغبة بالانتقام منه، لا من قبيل الرضا بكفره، وقد مر معنا منذ قليل ما يماثله.

#### • ماذا يبقى من الإنسان إذا تجرد عن اختياره؟!:

وهكذا استجاب الله تعالى لدعوة موسى وهارون، وأهلك فرعون وجنوده

(١) انظر: العلامة المجاهد الشيخ محمد الحامد، للمؤلف، وهو من إصدارات دار القلم بدمشق.

(٢) روح المعاني: ٤/ ١٨٤ .

ونجّى بني إسرائيل من طغيانه وظلمه، وأنعم عليهم بنعم كثيرة، فكيف قابلوا نعم الله عليهم؟.

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ (١٦٣).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأً صِدْقٍ﴾ أي: منزلاً صالحاً مرضياً.

﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ الخيرات النافعات.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ أي: جاءهم ما كانوا به عالمين، فقد كانوا قبل

مبعث النبي ﷺ مقرين به، مجمعين على نبوته، غير مختلفين فيه، لما يجدونه مكتوباً عندهم من صفاته عليه الصلاة والسلام، فلما بُعِثَ اختلفوا فيه، فأمن به عددٌ قليل منهم كعبد الله بن سلام، وكفر أكثرهم به بغياً وحسداً<sup>(١)</sup>.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فيميز بين المحق والمبطل.

فكما جحد فرعون وملؤه المعجزات التسع الحسية التي أيد الله بها موسى وهارون، ولم يؤمن إلا عندما يؤس من الحياة، كذلك جحد أكثر أهل الكتاب آيات التوراة والإنجيل التي تحدّثت عن خاتم الأنبياء عليه الصلاة والسلام، وجحد المشركون في مكة أيضاً آيات القرآن الكريم وما فيها من بلاغة وإعجاز، فلماذا الجحود؟! ولماذا الإنكار؟!

تلك هي مشكلة الإنسان مع الحق، وليس المشكلة في غموض الحق أو خفائه، الحق واضح ظاهر، لا لبس فيه ولا غموض، ولكن المشكلة قائمة في نفس الإنسان، ونابعة من داخله، فهو مصدرها، وعليه تقع تبعاتها وتناججها.

لماذا لا يُقبل أكثر الناس على الحق بإرادتهم واختيارهم؟! لماذا يعرضون عنه وهم مختارون، ويقبلون عليه وهم مقهورون مجبورون كما فعل فرعون؟! إذن فليجرّد الإنسان من إرادته واختياره وكسبه، وليُقهر على الحق ويُجبر عليه،

(١) انظر: تفسير الخازن: ٢٨٦/٣.

فلتذبح إرادة الإنسان وليُصَحَّ باختياره من أجل الحق، وليصبح الإنسان بلا إرادة ولا اختيار، عندها يفقد العقل قيمته، لأنه آلة التمييز والاختيار عند الإنسان، فماذا يبقى بعد ذلك من الإنسان؟! .

يصبح الإنسان بعد ذلك كمًّا مهملاً، لا تكريم له ولا تشریف، ولا تدبّر له ولا نظر، وبالتالي لا تكليف ولا نبوات ولا رسالات، ويصبح الإنسان بهذا التصور زمرة من زمر الحيوانات التي تعيش على هذه الأرض، بل يصبح إيجاد الخلق وإبداع المكونات لعباً وعبثاً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿المؤمنون﴾ .

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص: ٢٧] .

تباركت ربي مكوّن الأكوان، وخالق الإنسان، ما أعظم حكمتك! وما أجل نعمتك! خلقت الإنسان، وجعلت له إرادة واختياراً، كرمته فكلفته، وسخرت له ما في السموات والأرض ليسعد بعبادتك، وينعم بطاعتك .

#### • التفاتة رائعة:

كانت الآيات تتحدّث عن بني إسرائيل، فالتفتت فجأةً تخاطب النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، ومهدت بهذه الالتفاتة الرائعة لمتابعة الخطاب للنبي ﷺ الذي كان يتألم ألماً شديداً بسبب إعراضهم عن الحق وجحودهم لآياته:

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (٩٤) .

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكِّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، ففي الخطاب تثبيت للنبي ﷺ، وتوبيخ لأهل الكتاب لتركهم الإيمان برسالته عليه الصلاة والسلام، رغم ما عندهم من الدلائل القاطعة على صدقه وصحة نبوته .

وفيه أيضاً دفعٌ لأي شك يمكن أن يطرأ على قلب أحد من المؤمنين .

نقل ابن كثير عن قتادة قوله: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لا أشكُّ ولا أسأل» ثم قال ابن كثير بعد ذلك: «وهذا فيه تثبيت للأمة وإعلامٌ لهم أنَّ صفة نبيهم ﷺ موجودة في الكتب المتقدمة التي بأيدي أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، ثم مع هذا العلم الذي يعرفونه من كتبهم كما يعرفون أبناءهم، يلبسون ذلك ويحرفونه ويبدلونه، ولا يؤمنون به مع قيام الحجة عليهم»<sup>(١)</sup>.

﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: أقسم لقد جاءك الحق اليقين من ربك بأنك رسول الله حقاً، وأنَّ أهل الكتاب يعلمون صحة ذلك.

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمَرِّينَ﴾ الشاكين المترددين.

والشكُّ والتردد أخفُّ من التكذيب، ولهذا قال بعده انتقلاً من الأخفِّ إلى الأشدِّ:

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٥).

لابدَّ أن يظهر في كلامه سبحانه عزُّ الربوبية وكبريائها واستعلاؤها، وهذا أيضاً من فوائد توجيه الخطاب للنبي ﷺ، ففيه يظهر أنَّ هذا الكلام كلام الله تعالى، وأنه لا دخل للنبي ﷺ فيه إلا اتباع آياته وتبليغها للناس، فلا يعقل أبداً أن يخاطب النبي ﷺ نفسه بمثل هذا الخطاب.

#### • كلمة ربك:

وأخيراً وصلت الآيات الكريمة إلى تقرير الحقيقة الكبرى التي مهَّدت لها بما سبق من الخطاب الموجَّه للنبي ﷺ، وهي:

(١) مختصر تفسير ابن كثير: ٢٠٧/٢.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا  
الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾ .

ولعلماء التفسير أقوال كثيرة في تفسير قوله تعالى: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: فقالوا: هي حكمه وقضاؤه سبحانه، أو كلمته التي كتبها في اللوح المحفوظ، والتي تعلق بها علمه سبحانه وإرادته في الأزل.

وقال شيخ المفسرين الإمام الطبري رحمته الله: «يقول تعالى ذكره: الذين وجبت عليهم يا محمد كلمة ربك، وهي لعنته إياهم بقوله: ﴿الَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]؛ ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ﴾ لا يصدقون بحجج الله، ولا يقرون بوحدانية ربهم، ولا بأنك الله رسول، ولو جاءتهم كل آية وموعظة فعاينوها. ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ حتى يعاينوا العذاب الأليم، كما لم يؤمن فرعون وملؤه، إذ حَقَّتْ عليهم كلمة ربك حتى عاينوا العذاب الأليم»<sup>(١)</sup>.

ثم قال رحمته الله: وبنحو الذي قلنا قال أهل التأويل. ثم نقل بسنده عن مجاهد وقتادة قولهما: حَقَّ عليهم سخط الله بما عصوه<sup>(٢)</sup>.

#### • قوم يونس:

ثم قال سبحانه على وجه التوبيخ واللوم لمن كان مثل فرعون وملئه:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ  
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعَّمْنَا بِإِلَيْنِ ﴿٩٨﴾﴾ .

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا﴾ أي: فهلاً كانت قرية من القرى التي أهلكها الله تعالى آمنت قبل معاينة العذاب، ولم تؤخر إيمانها إلى حين معاينة العذاب كما أصر فرعون إيمانه، فنفعها ذلك الإيمان وقبَّله سبحانه.

(١) جامع تأويل آي القرآن: ١٧٠/١١.

(٢) المصدر السابق نفسه.

﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾ أي: لكن قوم يونس - وهو من أنبياء الله أرسله سبحانه إلى أهل نينوى من أعمال الموصل في شمال العراق - .

﴿لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: عندما آمنوا بعد نزول العذاب بهم، قَبِلَ اللهُ إيمانهم، ونفعهم به، فكشف عنهم عذاب الهوان والذلة في الحياة الدنيا .

وكلمة ﴿كَشَفْنَا﴾ تدلُّ على أنَّ العذاب نزل بهم حقيقة، وهو رأي جمهور المفسرين .

﴿وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى انتهاء حياتهم وانقضاء آجالهم .

قال ابن كثير رحمته الله: «وما كان إيمانهم إلا خوفاً من وصول العذاب الذي أنذرهم به رسولهم بعدما عاينوا أسبابه، وخرج رسولهم من بين أظهرهم، فعندما جأروا إلى الله واستغاثوا به وتضرَّعوا له واستكانوا وأحضروا أطفالهم ودوابَّهم ومواشيهم، وسألوا الله تعالى أن يرفع عنهم العذاب الذي أنذرهم به نبيهم، فعندما رحمهم الله وكشف عنهم العذاب» .

ولا بدَّ لنا أن نتساءل: كيف قبل سبحانه إيمان اليأس من قوم يونس، ولم يقبله من غيرهم؟! .

والجواب: أنه سبحانه يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، فأرادته سبحانه مطلقة، فلو عذَّبهم سبحانه لعذَّبهم بعدله، وعندما عفا عنهم عفا عنهم بفضله، والله يعطي فضله من يشاء، وهو ذو الفضل العظيم .

ولعلَّ سبب هذه الخصوصية التي خصَّ الله بها قوم يونس عليه السلام، أنه سبحانه علم صدقهم في إيمانهم، وإخلاصهم في توبتهم، والدليل أنهم لما رفع عنهم العذاب لم يرجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، بل ثبتوا على الإيمان، واستقاموا على التوبة حتى انتهت آجالهم. أمَّا غيرهم من أهل إيمان اليأس فما كانوا صادقين في إيمانهم، ولا مخلصين في توبتهم، ولو أنه سبحانه قبل إيمانهم ورفع عنهم العذاب، لعادوا إلى ما كانوا عليه من طغيان وكفر .

وقد مرَّ معنا في هذه السورة بعض الأمثلة العملية لحقيقة كثير من الناس، وكيف أنهم يقبلون على الله تعالى في حال الخطر، ثم إذا نجَّاهم منه أعرضوا عنه سبحانه، وانغمسوا في حمأة الكفر والفجور، فليرجع القارئ إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا﴾ [يونس: ٢١]. وإلى قوله أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ﴾ الآية [يونس: ٢٢]، ليعلم مدى الانسجام والاتفاق بين آيات السورة كلها وبين موضوعها الأساس.

لقد قدَّر الله سبحانه الخلود في النار لكلِّ من يموت مصراً على كفره وشركه، لأنهم مهما امتدَّت أعمارهم سيظلون متمسكين بالكفر، حتى إنهم بعد معاينة عذاب جهنم، لو ردُّوا إلى الحياة الدنيا لعادوا إلى ما كانوا عليه من كفر وفساد وعناد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقُفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكُذِّبُ يَا أَيُّهَا رَبَّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٧] بَلْ بَدَأْتُمْ مَا كَانُوا يَحْفَظُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [الأنعام].

فسلِّم لحكمته سبحانه، وأذعن لأمره، وارض بقضائه وقدره، تسلِّم بفضله، وتفزُّ برحمته سبحانه.

#### • لا إكراه في الدين:

ثم بين سبحانه كمال قدرته ومشيبته فقال:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [٩٩].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً﴾ وهذا تحقيقٌ لدوران إيمان

جميع المكلفين وجوداً وعدمًا على قطب مشيبته سبحانه<sup>(١)</sup>.

لكنه سبحانه شاء أن تكون الدنيا دار تكليف وابتلاء وامتحان، فشاء

(١) روح المعاني: ١٩٣/٤.



سبحانه أن يؤمن به من علم منه اختيار الإيمان به، وشاء الكفر ممن علم أنه يختار الكفر ولا يؤمن به<sup>(١)</sup>.

وكان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن به جميع الناس، ويتابعوه على إيمانهم<sup>(٢)</sup>.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن رسول الله ﷺ كان يحرص أن يؤمن به جميع الناس، ويتابعوه على الهدى، فأخبره الله ﷻ أنه لا يؤمن به إلا من سبقت له من الله السعادة في الذكر الأول - وهي قدم الصدق التي ذكرت في أول السورة - ولم يضل إلا من سبق له من الله الشقاء في الذكر الأول، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، لأنه كان حريصاً على إيمانهم<sup>(٣)</sup> كلهم.

ولهذا ختم الآية بقوله:

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا تملك أن تكرههم على الإيمان، فالإيمان لا يكون بالإكراه، إذ هو تصديق وإقرار، ولا بد له من إرادة واختيار، كما قال سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي: بمشيئته أو بقضائه، أو بتوفيقه وتسهيله، أو بعلمه<sup>(٤)</sup>، فلا يحدث شيء في ملكه من دون علمه سبحانه وإرادته.

﴿وَيَجْعَلُ الرَّحْمَنُ﴾ العذاب أو الغضب.

﴿عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ لا ينتفعون بعقولهم، ولا يستعملونها بالنظر في

الحجج والبراهين.

(١) تفسير البيضاوي: ٢٩١/٣.

(٢) تفسير الخازن: ٢٩١/٣.

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) تفسير البيضاوي: ٢٩٢/٣.

## • ميادين البحث والنظر:

وميادين البحث والنظر والتعقل واسعة وكبيرة، وقد أعطاهم سبحانه وسائل البحث والنظر وأمرهم به:

﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿قُلْ أَنْظُرُوا﴾ نظر التدبُّر والتعقل.

﴿مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هكذا على الإطلاق، فكل ما في السموات والأرض دلائل وبراهين على وجود الله تعالى ووحدانيته، ولا يخفى ما في الآية الكريمة من التحدي مع الثقة، فلن يجد أهل البحث والنظر في السموات والأرض إلا النواميس المحكمة المتناسقة الدالة على أنها تدبير إله واحد أحكمها وأبدعها، كما أن الآية تدلُّ على أن الإسلام فتح للناس ميادين البحث والنظر على أوسع مداها، فلا حَجْر في الإسلام على فكر الإنسان، فالكون بكل ما فيه ميدان بحث ونظر.

﴿وَمَا تُعْجِبُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: علم سبحانه أنهم لا يؤمنون، وما أمرهم بالنظر إلا ليقيم الحجة عليهم، ويبين لهم نتيجة اختيارهم وكسبهم.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ والذين أنزل الله سبحانه بهم بأسه وعذابه بسبب كفرهم وعنادهم.

﴿قُلْ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾.

وإذا جاء الأجل المقدر والوقت المنتظر:

﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣)

بما سبق من وعده سبحانه بنجاتهم وفوزهم .  
وهكذا لم تترك الآيات الكريمة سبيلاً من سبل إقناع الناس وتقريب حقيقة الإيمان من عقولهم وقلوبهم إلا سلكته، مما يدل على أهلية الإنسان للاختيار والكسب، وأنه مزود بالإرادة والتمييز .

#### • إعلان:

وبعد كل ما تقدم أمر النبي ﷺ أن يعلن في وجوههم ثباته على الحق، واعتزازه به، وعدم تأثره بإعراضهم وعنادهم:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٤)

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في أي وقت مهما كانت الظروف .

إن كثرة ركاب الباطل وانتشاره قد يضعف من عزيمة بعض الدعاة، وينال من حماسهم في حمل الدعوة، وصمودهم في وجه تيارات الباطل، فتتزعزع ثقتهم، وتضعف مقاومتهم، ويجرفهم التيار . فلا بد إذن من هذا الإعلان، ففيه قوة معنوية تمدُّ الداعية بالثقة والعزيمة، فلا يلين ولا يضعف، ولا يتوانى ولا يتخاذل:

﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا﴾ الذي بيده حياتكم وموتكم، فهو وحده المستحق للعبادة .

﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلا مدهانة في أمر العقيدة والإيمان ولا مسايرة، فهي تكليف مفروض، وإن كانت في الأصل بالاختيار والكسب .

ثم بينت الآية مضمون الأمر الإلهي:

﴿وَأَنْ أَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ .

﴿وَأَنْ أَقْرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أي: استقم على دين الله ولا تمل عنه .

﴿حَنِيفًا﴾: تاركاً كل ما يخالفه .

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فإنَّ أيَّ ميل عن الحق يؤدي إلى الوقوع في

الشرك والكفر، كما مرَّ معنا في قوله: ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] .

#### • النفع والضرر من القدر:

والسبب الرئيس لانحراف أكثر الناس عن عبادة الله وحده اعتقادهم أنَّ

غير الله تعالى قد يجلب لهم النفع، أو يدفع عنهم الضرر، ولهذا قال سبحانه:

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ .

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ لأن كل شيء بمشيئته سبحانه، وقد

مرَّ معنا قوله ﷻ أيضاً: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩] .

فكل ما يصل إلى المخلوق من خير أو شر فبقضائه سبحانه وبقدره .

وقد جاء في الحديث الشريف: قوله عليه الصلاة والسلام: «واعلم أنَّ

الأمَّة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه الله لك،

ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه الله عليك،

رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ» [رواه الترمذي (٢٥١٦) وقال: حسن صحيح] .

ومن أدعية النبي ﷺ: «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت،

ولا ينفعُ ذا الجَدِّ منك الجَدُّ» [رواه مسلم (٥٩٣)] .

والجَدُّ: هو الحظ، والمجدود هو المحظوظ، فالحظ من جملة المقدرات

الإلهية كما أنَّ الحرمان قدرٌ، وقد ييسر الله أسباب المحبوبات لبعض عباده

لينالوا ما قسم لهم منها، وقد تحول الأقدار بين العبد وبين ما يريد<sup>(١)</sup> .

(١) ردود على أباطيل .

ولا يعني هذا الانصراف عن تحصيل الأسباب، فالله سبحانه قدّر الأسباب والمسببات، وقد مرّ معنا أن العجز ترك الأخذ بالأسباب، وأن الأخذ بالأسباب لا ينافي الإيمان بالقدر.

#### • من آثار الإيمان بالقدر:

وقد دفع الإيمان بالقدر سلف هذه الأمة الصالح إلى سيادة الأمم في كل ميادين الحياة، فكانوا بحق السبّاقين إلى كل خير ورشاد، كيف لا وهم يسمعون قوله سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُدُوءًا حَذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

وقوله: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقوله: ﴿فَأَمْسُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ؕ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقد سألوا رسول الله ﷺ حين ذكر لهم أن القلم قد فرغ من كتابة ما هو كائن، فقالوا: أفلا نتوكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «لا، فكلّ ميسر» وفي رواية: «كلّ لا ينال إلا بالعمل» [رواه البخاري (٦٥٩٦) ومسلم (٢٦٤٩)].

وفي رواية أخرجهما البزار: فقال القوم بعضهم لبعض: فالجذ إذا<sup>(١)</sup>.

﴿فَإِن فَعَلْتَ﴾ أي: دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضر.

﴿فَإِنَّكَ إِذَا مَنِ الظَّالِمِينَ﴾ لنفسك لأنك وضعت طاعتك وعبادتك في غير موضعها، وحاشا النبي ﷺ أن يفعل ذلك، فالخطاب له عليه الصلاة والسلام تثنيتاً، ولغيره تحذيراً.

#### • يا كاشف الضر:

وما عليك إذا أصابك شيء من الضر إلا أن تتوجه إلى الله تعالى ليكشفه عنك:

﴿وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ ؕ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ؕ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِّنْ عِبَادِهِ ؕ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

﴿وَإِن يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ ؕ إِلَّا هُوَ﴾ فلا يزيله عنك غير الله تعالى.

وقدّم مع الدعاء عملك وجهدك في تحصيل أسباب كشف الضرّ، مع الاعتقاد أنها أسباب فقط، وأن الكاشف الحقيقي للضر هو الله سبحانه وحده، فالأسباب لا تأثير لها بنفسها إلا إذا وافقت قدر الله تعالى، قال ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى» [رواه مسلم (٢٢٠٤)].

﴿وَإِن يُرَدَّ كِحَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ أي: لا مانع ولا دافع لفضله، لأن إرادته سبحانه هي الغالبة النافذة.

﴿يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادٍ﴾ أي: يصيب بكلّ من الخير والضر من يشاء من عباده.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ يغفر بالبلاء ويرحم بالعطاء، وهذا خاصّ بأهل الإيمان، قال ﷺ: «عجباً لأمر المؤمن! إن أمره كله له خيرٌ، وليس ذلك لأحدٍ إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاً شكرٌ فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاً صبرٌ فكان خيراً له» [رواه مسلم (٢٩٩)].

#### • الخلاصة:

وجاءت الآية قبل الأخيرة تلخّص كلّ ما سبق تقريره في السورة:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ببعثة الرسل وإنزال الكتب، فلا عذر لكم.

﴿فَمَنْ اهْتَدَىٰ﴾ بالتصديق والقبول والإذعان.

﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ لأن نفعه وثوابه يعود عليها.

﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ واختار الكفر والفجور.

﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لأن وبال ضلاله وكفره على نفسه.

﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: ما أنا مسؤول عنكم، إنما أنا بشير ونذير.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ (١٠٩).

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ بالامتثال والتبليغ .

﴿وَأَصْبِرْ﴾ على تبليغهم ، وتحمل ما تلقاه منهم .

﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ فينصرك عليهم ، ويعزّ دينه ، ويعلي كلمته .

﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ .

فما على الدعوة إلى الله تعالى إلا الاتباع والامتثال والاستمرار في الدعوة إلى الله تعالى ، مهما طال الزمن ، واشتدت المحن ، واضعين نصب أعينهم هذا التوجيه الحكيم للنبي الكريم عليه أفضل الصلاة وأتمّ التسليم .

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٥) ﴿وَجَنَّا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس] .

﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] .

﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨] .

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه والتابعين، والحمد لله ربّ العالمين .







# فهرس الموضوعات

## تفسير سورة الاعراف

### اسباب هلاك الامم وسقوط الحضارات في سورة الاعراف

- المقدمة ..... ٥
- تمهيد: موضوع السورة ..... ٧
- الفصل الأول: التكليف الجماعي والمسؤولية الفردية يوم القيامة ..... ٩
  - الله أعلم بمراده وأسرار كتابه ..... ٩
  - تسكين وتثبيت ..... ١١
  - التكليف الجماعي ..... ١٢
  - الإهلاك الجماعي ..... ١٤
  - اعتراف متأخر ..... ١٥
  - المسؤولية الشخصية ..... ١٦
  - الإنسان والأرض ..... ١٨
  - مفاتيح الرزق ..... ١٩
  - التصوير والتكريم ..... ٢٠
- الفصل الثاني: قصة الوجود البشري الأول وصراعه المستمر مع الشيطان .. ٢٣
  - الإنسان والشيطان ..... ٢٣
  - قاطع الطريق ..... ٢٥
  - التجربة والدروس ..... ٢٨
  - ظهور السوءة ..... ٢٩
  - نقاط الضعف البشري ..... ٣٠
  - المعصية وشؤمها ..... ٣٢

- ٣٣ ..... - التوبة والمغفرة
- ٣٤ ..... - الهبوط إلى الأرض والصراع
- ٣٥ ..... - الاستقرار في الأرض
- الفصل الثالث: النداءات الإلهية الأربعة لبني آدم وما فيها من تقرير وتحذير ٣٧
- ٣٩ ..... - يا بني آدم
- ٣٩ ..... - اللباس والزينة
- ٤٠ ..... - جمال الظاهر والباطن
- ٤١ ..... - الكاسيات العاريات
- ٤٣ ..... - من صور الجاهلية قديماً وحديثاً
- ٤٤ ..... - الوسطية والاعتدال
- ٤٦ ..... - تحريم الإسراف
- ٤٨ ..... - الأصل في الأشياء الإباحة
- ٤٩ ..... - المحرمات
- ٥٠ ..... - سنن إلهية ونواميس علوية
- ٥٢ ..... - المسؤولية والجزاء
- ٥٤ ..... - الحكم والتنفيذ
- ٥٥ ..... - سقوط الأفتنة
- ٥٧ ..... - حسرة ويأس
- ٥٩ ..... - تقرير وترغيب
- ٦١ ..... - يوم الأذان
- ٦٢ ..... - أصحاب الأعراف
- ٦٤ ..... - نظرة في وجوه أهل النار
- ٦٦ ..... - نداء التذلل والاستجداء
- ٦٧ ..... - الكتاب المفصل والشريعة الكاملة
- الفصل الرابع: الخلق والأمر لله وحده واختلاف الاستعداد والقابلية عند الناس . ٧٠
- ٧٠ ..... - التدرج في الخلق

- ٧٢ ..... - سبيل الهدى
- ٧٣ ..... - إبداع ونظام
- ٧٤ ..... - التشريع لله وحده
- ٧٥ ..... - الدعاء معُ العبادة
- ٧٦ ..... - الفساد والتلوث
- ٧٧ ..... - سبيل النجاة
- ٧٨ ..... - الرياح المبشّرات
- ٨٠ ..... - القابلية والاستعداد

### • الفصل الخامس: صَفَحَاتٌ مِنَ التَّارِيخِ ..... ٨٢

- ٨٤ ..... - القرآن الكريم والتاريخ
- ٨٦ ..... - قوم نوح
- ٨٧ ..... - استكبار وعناد
- ٨٩ ..... - عاد قوم هود
- ٩٠ ..... - قوة الأبدان والعضلات
- ٩٣ ..... - ثمود قوم صالح
- ٩٥ ..... - ضعف وقوة
- ٩٦ ..... - وقفة على الأطلال
- ٩٨ ..... - قوم لوط
- ٩٩ ..... - الإسراف والشذوذ
- ١٠٠ ..... - مطر من حجارة
- ١٠٢ ..... - قوم شعيب
- ١٠٣ ..... - التلاعب بالمقاييس
- ١٠٥ ..... - الدعوة والحرية
- ١٠٧ ..... - مصرع المستبدّين
- ١١٠ ..... - أزمات ومنعطفات
- ١١١ ..... - مؤشرات الهلاك والسقوط
- ١١٢ ..... - ترغيب وتحذير

- ١١٥ ..... تثبيت ومواثيق
- الفصل السادس: مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنُ وَبَنُو إِسْرَائِيلَ ..... ١١٧
- ١١٨ ..... بنو إسرائيل في مصر
- ١١٩ ..... مهمة موسى ﷺ
- ١٢٠ ..... المعجزتان
- ١٢٢ ..... المباراة
- ١٢٤ ..... هزيمة الباطل
- ١٢٦ ..... الشهداء البررة
- ١٢٧ ..... بطانة السوء
- ١٢٨ ..... المحنة
- ١٣١ ..... الآيات المفصّلات
- ١٣٣ ..... هلاك الطاغية وجنوده
- الفصل السابع: بَنُو إِسْرَائِيلَ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ ..... ١٣٦
- ١٣٩ ..... جهل ونكران
- ١٤١ ..... صعقة موسى
- ١٤٤ ..... الشريعة والحضارة
- ١٤٦ ..... المعرضون عن الحق
- ١٤٨ ..... العجل الذهبي
- ١٥٠ ..... خيبة أمل
- ١٥٣ ..... ميقات التوبة
- ١٥٥ ..... بناء الحضارة الإنسانية
- ١٥٦ ..... النبي ﷺ في التوراة والإنجيل
- ١٥٨ ..... من خصائص الشريعة الإسلامية
- ١٦٠ ..... الماء والغمام والمن والسلوى
- ١٦٢ ..... ظلمٌ وفسقٌ وفساد
- ١٦٣ ..... بلد الممسوخين

- ١٦٦ ..... - الذَّلَّةُ والشَّتَاتُ
- ١٦٨ ..... - غرور واستكبار
- ١٦٩ ..... - ميثاق تحت الجبل
- ١٧٠ ..... - الميثاق الأول والفطرة
- ١٧٣ ..... - المنسلخون من الآيات
- ١٧٥ ..... - اللاهثون وراء الشهوات
- ١٧٨ ..... • الفصل الثامن: العَوْدَةُ إلى مَسْرَحِ الأَحْدَاثِ فِي مَكَّةِ المُكْرَمَةِ
- ١٧٩ ..... - أمة الحق والعدل
- ١٨١ ..... - الأسلوب الأمثل في التربية والدعوة
- ١٨٣ ..... - متى الساعة؟
- ١٨٥ ..... - النبي ﷺ وعلم الغيب
- ١٨٧ ..... - الانحراف عن الفطرة
- ١٩٠ ..... - حملة على الأصنام
- ١٩٢ ..... - مجمع مكارم الأخلاق
- ١٩٣ ..... - حِصْنٌ ووقايةٌ
- ١٩٥ ..... - القرآن كتاب البصائر
- ١٩٦ ..... - سجود التلاوة

### تفسير سورة الأنفال

#### أسباب النَّصْرِ فِي سُورَةِ الأَنْفَالِ

- ١٩٩ ..... • المقدمة
- ٢٠١ ..... • الفصل الأول: الأسبابُ المُبَاشِرَةُ لِلنَّصْرِ
- ٢٠٢ ..... - البداية من النهاية
- ٢٠٤ ..... - إصلاح ذات اليمين
- ٢٠٦ ..... - بين الخوف والرجاء
- ٢٠٨ ..... - المؤمنون حقاً

- ٢٠٩ ..... الإخراج من المدينة -
- ٢١٠ ..... المجادلة في الحق -
- ٢١٣ ..... العير أو النفير -
- ٢١٤ ..... الدعاء عند اللقاء -
- ٢١٦ ..... البشارة بالنصر -
- ٢١٧ ..... النوم في الميدان -
- ٢١٩ ..... مهمة الملائكة في بدر -
- ٢٢٢ ..... الثبات عند الضربة الأولى -
- ٢٢٥ ..... المعركة -
- ٢٢٦ ..... تأديب المنتصرين -
- ٢٢٩ ..... الفصل الثاني: الأسباب غير المباشرة للنَّصر
- ٢٣٠ ..... طاعة الله ورسوله ﷺ -
- ٢٣٣ ..... الحياة والجهاد -
- ٢٣٥ ..... التحذير من الفتن -
- ٢٣٧ ..... مأوى المجاهدين -
- ٢٣٨ ..... التحذير من الخيانة -
- ٢٤٠ ..... المؤامرة -
- ٢٤٢ ..... عناد واستكبار -
- ٢٤٣ ..... الأمانان -
- ٢٤٤ ..... ولاة المسجد الحرام -
- ٢٤٦ ..... التمييز بين الخبيث والطيب -
- ٢٤٨ ..... الإسلام يُجِبُّ ما قبله -
- ٢٤٩ ..... الاستمرار في الجهاد -
- ٢٥٠ ..... الغنيمة والفياء -
- ٢٥٢ ..... يوم الفرقان -
- ٢٥٦ ..... الفصل الثالث: التَّحذِيرُ مِنْ أَسْبَابِ الْهَزِيمَةِ
- ٢٥٧ ..... التنازع والاختلاف -

- ٢٥٩ ..... التحذير من التكبر والطغيان
- ٢٦٠ ..... التحذير من وساوس الشيطان ومكره
- ٢٦١ ..... التحذير من المنافقين وإشاعاتهم الكاذبة
- ٢٦٣ ..... في غمرات الموت
- ٢٦٤ ..... من تاريخ الطغاة والمكذبين
- ٢٦٥ ..... أسباب زوال النعم
- ٢٦٧ ..... التحذير من الغدر ونقض العهد
- ٢٦٨ ..... الخدعة في الحرب لا في العهد
- ٢٧١ ..... إعداد قوة الرمي والهجوم
- ٢٧٣ ..... القوة الاقتصادية
- ٢٧٤ ..... الإسلام والسلام
- ٢٧٥ ..... الوحدة بعد الفرقة
- ٢٧٧ ..... القوة بعد الضعف
- ٢٨٠ ..... التحذير من الانشغال بالأسرى
- ٢٨٣ ..... فداء ووفاء
- ٢٨٥ ..... التحذير من موالاتة الكافرين
- ٢٨٧ ..... فتنة وفساد
- ٢٨٨ ..... فضيلة السابقين

### تفسير سورة التوبة

#### البلاغ الأخير في سورة التوبة

- ٢٩١ ..... المقدمة
- ٢٩٣ ..... تمهيد: موضوع السورة
- ٢٩٥ ..... الفصل الأول: براءة و جهاد
- ٢٩٦ ..... البراءة
- ٢٩٨ ..... السياحة
- ٢٩٩ ..... الشهور الأربعة

- ٣٠٠ ..... الأذان يوم الحج الأكبر -
- ٣٠٢ ..... آية السيف -
- ٣٠٣ ..... تبليغ الدعوة -
- ٣٠٦ ..... مصالح ومبادئ -
- ٣٠٨ ..... الباب المفتوح -
- ٣٠٩ ..... أئمة الكفر والضلال -
- ٣١١ ..... الحضر على الجهاد -
- ٣١٣ ..... الابتلاء بالجهاد والبراءة -
- ٣١٤ ..... عمارة المسجد الحرام والأقصى -
- ٣١٦ ..... الجهاد والعبادة في المسجد الحرام -
- ٣١٩ ..... ولاء وحب -
- ٣٢٢ ..... يوم حنين -
- ٣٢٤ ..... الإعجاب بالكثرة -
- ٣٢٦ ..... تعظيم بيت الله الحرام -
- ٣٢٩ ..... الفصل الثاني: أهل الكتاب عقائدهم وفضائح أخبارهم ورهبانهم •
- ٣٣٠ ..... تمهيد -
- ٣٣٠ ..... مشروعية الجزية وحقيقتها -
- ٣٣٢ ..... شرك أهل الكتاب -
- ٣٣٣ ..... عبادة أهل الكتاب للأحبار والرهبان -
- ٣٣٥ ..... معارضة الأحبار والرهبان لدعوة الإسلام -
- ٣٣٦ ..... من فضائح الأحبار والرهبان -
- ٣٣٩ ..... العابثون بالأشهر الحرم -
- ٣٤١ ..... غزوة تبوك -
- ٣٤٣ ..... النفير العام -
- ٣٤٥ ..... في الغار -
- ٣٤٧ ..... تلبية الدعوة -



- الفصل الثالث: المنافقون وكيفية تطهير المجتمع من مكرهم وكيدهم ..... ٣٥٠
- توبيخ المتثاقلين ..... ٣٥٣
- شهادة ربانية ..... ٣٥٤
- المسارعون إلى الفتن ..... ٣٥٦
- أعذار واهية ..... ٣٥٨
- حسد وشماتة ..... ٣٥٩
- نفقة مردودة ..... ٣٦١
- المعدَّبون في الدنيا وللآخرة ..... ٣٦٣
- الانتماء والغرباء ..... ٣٦٤
- أهم أسباب النفاق ..... ٣٦٦
- مصارف الزكاة ..... ٣٦٧
- أذن الخير ..... ٣٦٩
- مطايا المنافقين ..... ٣٧٢
- الفاضحة ..... ٣٧٣
- اختلال الموازين وانعكاس القيم ..... ٣٧٥
- المنافقون والمستغربون ..... ٣٧٧
- مقارنة ..... ٣٧٨
- المنافقون كذَّابون ..... ٣٨١
- المنافقون انتهازيون وصوليون ..... ٣٨٢
- اللَّمَّازون ..... ٣٨٣
- الضاحكون قليلاً والباكون كثيراً ..... ٣٨٥
- إسقاط وحرمان ..... ٣٨٦
- البحوث والمنقَّرة ..... ٣٩٠
- الأعذار المشروعة للتخلُّف عن الجهاد ..... ٣٩١
- دموع خالدة ..... ٣٩٢
- الفصل الرابع: مع المؤمنين بعد تبوك تحذيرات وإرشادات ..... ٣٩٥
- تحذير المؤمنين من خداع المنافقين ..... ٣٩٧

- ٣٩٩ ..... - جهل وجفاء
- ٤٠٠ ..... - شهادة وبشارة
- ٤٠١ ..... - فضيلة السابقين
- ٤٠٣ ..... - شرط الإحسان
- ٤٠٤ ..... - فن النفاق
- ٤٠٦ ..... - التوبة عن النفاق
- ٤٠٨ ..... - الزكاة طهارة ونماء
- ٤١٠ ..... - الحث على التوبة والصدقة
- ٤١١ ..... - الحرص على السمعة الحسنة
- ٤١٢ ..... - المتخلفون الثلاثة من المؤمنين
- ٤١٦ ..... - مسجد الضرار
- ٤١٨ ..... - المسجد المؤسس على التقوى
- ٤١٩ ..... - الأساس المحكم
- ٤٢١ ..... - تجارة رابحة
- ٤٢٢ ..... - ربح البيع
- ٤٢٣ ..... - صفات المؤمنين
- ٤٢٥ ..... - تحريم الاستغفار للمشركين
- ٤٢٧ ..... - ساعة العسرة
- ٤٢٩ ..... - التوبة
- ٤٣١ ..... - كونوا مع الصادقين
- ٤٣٣ ..... - يا جيران رسول الله ﷺ
- ٤٣٥ ..... - مراعاة المصالح العامة كلها
- ٤٣٧ ..... - خطة مدروسة
- ٤٣٩ ..... - الكلمة الأخيرة
- ٤٤١ ..... - الختم والطابع

## تفسير سورة يونس

## الإنسان بين التَّقدير والتَّكليف في سُورة يُونس

- ٤٤٥ ..... • المقدِّمة
- ٤٤٨ ..... • تمهيد: موضوع السورة
- ٤٤٨ ..... أولاً: التَّقدير
- ٤٤٨ ..... ثانياً: قَدَم صفاته سبحانه
- ٤٤٩ ..... ثالثاً: التَّكليف
- ٤٥٠ ..... رابعاً: إرادة المكلَّف واختياره
- ٤٥٠ ..... خامساً: أفعال المكلَّف واتصالها بالقضاء والقدر
- ٤٥٢ ..... سادساً: التوفيق بين النصوص
- ٤٥٤ ..... • الفصل الأول: ضرورة الوحيِّ وصلته بالتَّقدير
- ٤٥٥ ..... - هذه الحروف المقطَّعة
- ٤٥٦ ..... - الكتاب الحكيم
- ٤٥٧ ..... - التعجُّب من نزول الوحي
- ٤٥٨ ..... - قَدَم الصدق
- ٤٥٩ ..... - الأيام الستة
- ٤٦٠ ..... - ثم استوى على العرش
- ٤٦١ ..... - التَّقدير والتَّقدير
- ٤٦٢ ..... - أهمية الإيمان بالقضاء والقدر
- ٤٦٤ ..... - الشمس المضيئة والقمر المنير
- ٤٦٦ ..... - العلم والتقوى
- ٤٦٧ ..... - المطمئنون بالدنيا
- ٤٦٨ ..... - الواصلون إلى الجنة
- ٤٦٩ ..... - المستعجلون للعذاب
- ٤٧٠ ..... - من حقائق النفس البشرية
- ٤٧١ ..... - جزاء المجرمين

- ٤٧٣ ..... الفصل الثاني: مَوَاقِف
- ٤٧٤ ..... - القرآن والنبي ﷺ
- ٤٧٥ ..... - حقيقة القرآن الكريم
- ٤٧٦ ..... - الصادق الأمين
- ٤٧٧ ..... - توبيخ واستنكار
- ٤٧٨ ..... - اقتراح المعجزات
- ٤٧٩ ..... - من الآداب القرآنية
- ٤٨٠ ..... - الله أسرع مكرراً
- ٤٨١ ..... - بين الأمواج العاتية
- ٤٨٢ ..... - البغي في الأرض
- ٤٨٣ ..... - حقيقة الحياة الدنيا
- ٤٨٥ ..... - الدعوة إلى دار السلام
- ٤٨٦ ..... - الهداية الخاصة
- ٤٨٧ ..... - الحسنى والزيادة
- ٤٨٨ ..... - رؤية الله تعالى يوم القيامة
- ٤٨٩ ..... - ترغيب وترهيب
- ٤٩٠ ..... - الطاعة والعبادة
- ٤٩١ ..... - أمل خائب
- ٤٩٣ ..... • الفصل الثالث: حُجَجٌ وَمُؤَيِّدَاتٌ لِعَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَرِسَالَةِ النَّبِيِّ ﷺ
- ٤٩٤ ..... - الحجج الثلاث
- ٤٩٤ ..... - الحججة الأولى: التدبير والتقدير
- ٤٩٥ ..... - في أجسامنا
- ٤٩٦ ..... - من يدبّر الأمر
- ٤٩٧ ..... - أفلا تتقون
- ٤٩٨ ..... - الحججة الثانية: بدء الخلق وإعادته
- ٤٩٩ ..... - الحججة الثالثة: الهداية
- ٥٠١ ..... - العقائد لا تُبنى على الظن

- ٥٠٢ ..... - إعجاز القرآن الكريم
- ٥٠٣ ..... - في ميدان التحدي
- ٥٠٤ ..... - مقدار التحدي
- ٥٠٥ ..... - المغيِّبات في القرآن الكريم
- ٥٠٦ ..... - التبرؤ من المفسدين
- ٥٠٧ ..... - من أسباب الهداية
- ٥٠٩ ..... - المعرضون عن الهداية
- ٥١٠ ..... - الخسارة الكبرى
- ٥١٠ ..... - الانتقام العاجل والآجل
- ٥١١ ..... - الآجال المقدَّرة
- ٥١٢ ..... - إيمان البأس واليأس
- ٥١٣ ..... - حيرة وقلق

● الفصل الرابع: أحوال السُّعَدَاءِ والأَشْقِيَاءِ

- ٥١٦ ..... - أسباب السعادة
- ٥٢٠ ..... - الفرح بفضل الله ورحمته
- ٥٢١ ..... - حاجة الناس إلى الشريعة الإسلامية
- ٥٢٢ ..... - كمال علم الله تعالى
- ٥٢٤ ..... - السعداء أولياء الله تعالى
- ٥٢٦ ..... - صفاتهم
- ٥٢٧ ..... - الرؤيا الصالحة
- ٥٢٨ ..... - الأشقياء
- ٥٣٠ ..... - الكذبة الكبرى
- ٥٣١ ..... - الإنذار الأخير
- ٥٣٣ ..... - الجناة على أنفسهم
- ٥٣٤ ..... - الطبع على القلوب
- ٥٣٥ ..... - فرعون وملؤه
- ٥٣٨ ..... - المحنة

- ٥٣٩ ..... - الكيس والعجز
- ٥٤١ ..... - الدعوة المستجابة
- ٥٤٢ ..... - الرضا بالكفر كفر
- ٥٤٣ ..... - طريق بين الأمواج
- ٥٤٤ ..... - أدركه الغرق
- ٥٤٥ ..... - لا نجاة لفرعون من العذاب
- ٥٤٦ ..... - ماذا يبقى من الإنسان إذا تجرّد عن اختياره؟!
- ٥٤٨ ..... - التفاتة رائعة
- ٥٤٩ ..... - كلمة ربك
- ٥٥٠ ..... - قوم يونس
- ٥٥٢ ..... - لا إكراه في الدين
- ٥٥٤ ..... - ميادين البحث والنظر
- ٥٥٥ ..... - إعلان
- ٥٥٦ ..... - النفع والضرر من القدر
- ٥٥٧ ..... - من آثار الإيمان بالقدر
- ٥٥٧ ..... - يا كاشف الضر
- ٥٥٨ ..... - الخلاصة
- ٥٦١ ..... • فهرس الموضوعات





